جاك كوفان



الألوهية والزراعة

ثورة الرموز في العصر النيوليتي

ترجمة
موسى ديب الخوري

مراجعة وتقديم
د. سلطان محيسن

الإشراف الفني: زهير الحمو

الألوهية والزراعة

العنوان الأصلي للكتاب

Naissance des Divinités Naissance de l'agriculture

La Révolution des symboles au Néolithique

JACQUES CAUVIN

CNRS EDITIONS
Nouvelle édition, 1997

جاك كوڤان

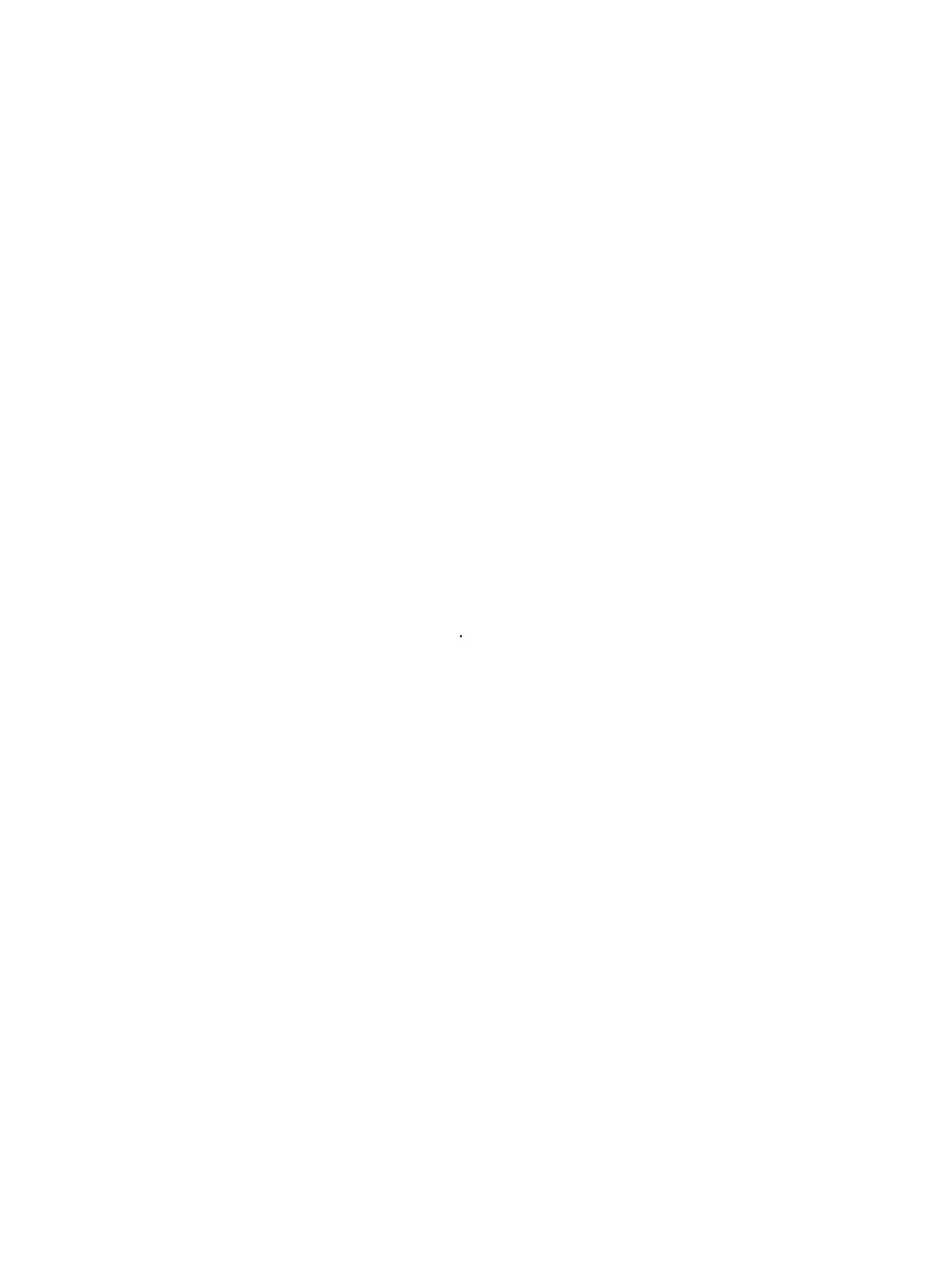
الألوهية والزراعة

ثورة الرموز في العصر النيوليتي

ترجمة
موسى ديب الخوري

مراجعة وتقديم
د. سلطان محيسن

منشورات وزارة الثقافة ـــ



الفهرس

مقدمة

من غير الممكن الإحاطة بمضمون كتاب جاك كوفان، «الألوهية والزراعة»، ولكن سنكتفي من خلال هذه المقدمة القصيرة بالإشارة إلى المفاصل الرئيسية التي تضمنها هذا المؤلف المتميز، الذي طرح قضية بالغة الأهمية والتعقيد، درج المختصون على تسميتها «*الثورة الزراعية*»، وأسماها المؤلف «*النولتة*». فمن المعروف أن الإنسان عاش، وعلى امتداد العصر الحجري القديم، متنقلا خلف مصادر الطبيعة الحرة، من ماء ونبات وحيوان. وفي العصر الحجري الحديث، عرف هذا الإنسان الاستقرار وبناء القرى ومارس الزراعة والتدجين، أي أحكم سيطرته على بيئته، وبدأ بإنتاج مقومات حياته بنفسه، بعد أن كان تحت رحمة الطبيعة وتقلباتها. لقد رافق هذا التطور الاقتصادي والمادي الكبير تحول جذري طال عالم المجتمع والفكر والدين والمعتقدات. كما أجمع الباحثون بأن هذه «الثورة» قد حصلت في المنطقة الواقعة بين حوض الفرات شمالا مرورا بحوضة دمشق وحتى وادي الأردن جنوبا، ومنذ حوالي الألف العاشر ق. م. أي قبل أي مكان آخر في العالم.

إلا أن الإتفاق لا زال بعيدا حول الأسباب والدوافع التي قادت إلى هذا التحول، فهناك من تحدث عن دوافع مناخية وبيئية وجغرافية، بينما يرجعه آخرون إلى أسباب سكانية ديمغرافية أو تكتونية، في حين يرى فريق ثالث دوافع فكرية واجتماعية. ولا يزال النقاش محتدما، دون الوصول إلى جواب حاسم حول الموضوع.

جاك كوفان واحد من كبار الباحثين، والمنظرين، في هذا المجال. انطلق من نتائج تنقيباته بخاصة في موقع المريبط في حوض الفرات السوري الأوسط، وطرح، بصفته عالم آثار وفيلسوفا فرضيته النفسانية ـــ الثقافية حول ظاهرة «النولتة» أي «الثورة الزراعية» متناولا زمان ومكان وآلية حدوثها وتتابع عناصرها ليخلص إلى الخوض عميقا في أسبابها ودوافعها، استنادا إلى كم ضخم من المكتشفات الأثرية التي أتت من المشرق القديم، ومن سورية بخاصة، كالأواني الفخارية والأدوات والأسلحة الحجرية والفنون، ومعطيات البيئة

بما فيها الدلائل النباتية والحيوانية التي تنتسب إلى العصر المشار إليه. لقد تبنى السيد كوڤـلن في فرضيته الأسباب والعوامل الإجتماعية، الفكرية، والنفسية، واعتبرها مقدمة قـادت إلى التحولات الإقتصادية التي شكلت عملية «النولتة». لا يستطيع أحد أن يجزم في الصحـة الكلية، أو الجزئية، لفرضية كوڤان، ولكن مؤلفه هذا، وإن بدا فيه الجانب الفلسفي ربمـا طاغياً على الجانب التاريخي، يشكل إضافة حقيقية وأساسية للموضوع، ناهيك عن أنـه سلّط فيه الأضواء، وأفضل من أي وقت مضى، على الدور المركزي للمكتشفات السورية في نشوء وتطور الحضارة الزراعية، الأساس الذي استندت عليه حضارتنا الحديثة بتفرعاتها كلها.

نضع هذا الكتاب بين أيدي الباحثين، قراء العربية، متوجهين باسمـهم جميعـاً بالشكر والعرفان للسيدة الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة، التي أمكن بفضلها إصـدار هذا الكتاب، بالشكل المناسب والسرعة المطلوبة، بعد أن أحسن ترجمته، على الرغم مـن صعوبته الخاصة، الأستاذ موسى الخوري.

الدكتور سلطان محيسن

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

بعد أن كرست أكثر من ثلاثين سنة من حياتي لما قبل التاريخ السوري، يسعدني ويشرفني أن أشهد تقديم هذا الكتاب التأليفي حول نيوليتي الشرق الأدنى للجمهور العربي.

إن معظم المعطيات المستخدمة فيه، وبخاصة الفكرة الأساسية بأن التحولات *العقلية* داخل المجتمعات البشرية هي التي كانت مفتاح كافة التغيرات الأخرى الإجتماعية والإقتصادية، والتي تُعدّ حضارتنا العالمية الحالية هي نتيجتها الأخيرة (والمتجاوزة لحدودها ربما)، ترتكز في الواقع على اكتشافاتي وعلى اكتشافات زملائي في سورية ذاتها. وكان تنقيب المريبط، بين عامي 1970 و 1974، هو الذي أجبرني على هذه المراجعة الحاسمة للأفكار التي كانت معتمدة حتى ذلك الحين، طالما أن هذه الأخيرة كانت تجعل كل شيء ينتج عن الحاجات البيولوجية للإنسان وعن نموه الديمغرافي... ولم يبد لي أن استخدامي الواسع أيضاً للمعطيات التي جمعها زملائي من كافة الجنسيات من مجمل الشرق الأدنى، حيث تكثف البحث الدولي بشكل كبير منذ الحرب العالمية الأخيرة، يتعارض مع هذه الطريقة الجديدة في الرؤية.

كنت موجوداً في سورية منذ سبع سنوات عندما بدأت في التنقيب على الفرات. ففي عام 1963 قدمني موريس دونان Maurice Dunand، وهو منقب بيبلوس (جبيل) في لبنان، حيث كنت قد جمعت مادة أطروحتي للدكتوراة، إلى الأستاذ عبد الحق الذي كان في ذلك الوقت المدير العام لآثار سورية. وقد حصلت في حينه مع زوجتي ماري ـ كلير كوفان Marie-Claire Cauvin على إذن تنقيب موقع نطوفي في حوران قرب بصرى. ومذاك أصبحت بعثاتي سنوية إلى سورية، لأنني كنت قد فهمت أنه لدى هذا البلد الكثير ليعلمنا إياه حول العصور السابقة للتاريخ التي كانت غير معروفة إلا قليلاً جداً حتى ذلك الوقت.

وكما في كامل الشرق الأدنى والأوسط، كان انتباه علماء الآثار موجهاً في الواقع بشكل خاص على أوائل مدن العصر البرونزي، بعد 3000 سنة قبل الميلاد. وكانت ماري ورأس شمراً قد شكلتا لفترة طويلة، مع الحضارات المدهشة الأكثر تأخراً من العصر الروماني ومن بداية الإسلام، الجزء الأساسي من الشهرة الدولية لسورية في المجال الآثاري. ونحن نعرف اليوم إلى أي حد لعب أيضاً الفرات الأوسط السوري وغوطة دمشق، بمقدار ما كانه وادي الأردن، دوراً أساسياً منذ الألف التاسع قبل الميلاد في اختراع الزراعة واختراع التدجين وفي الإنقلابات العميقة الثقافية والدينية التي رافقتهما وسبقتهما أحياناً.

فخلال ثلاثين سنة بالتالي، بين عامي 1963 و 1993، كانت سورية قد أصبحت مألوفة لدي بشكل واسع. فأهمية أبحاثي وجمال المناظر الطبيعية ما كانا يكفيان بلا شك لتفسير هذا الإخلاص لو لم تكن إدارة هذا البلد وشعبه قد خلقوا بالنسبة لي جواً حميماً للعمل لا مثيل لوديته. وكنت في الواقع طيلة هذه المدة قد أفدت من الفهم والدعم الدائم للدكتور عدنان البني

مدير دائرة التنقيب في المديرية العامة للآثار والمتاحف. فبدونه ومن غير ثقته الدائمة ما كان يمكن تحقيق أي شيء. كذلك فقد ساعدني المديرون المحليون للآثار في محافظات بصرى وحلب وتدمر، وهم بدورهم المأسوف عليه سليمان مقداد، ومحمود حريتاني، وشوقي شعث، ووحيد خياطة، وخالد الأسعد. ولست أنسى الذي كان طيلة هذه المدة، في المديرية العامة للآثار والمتاحف، صديقي وناصحي الدائم، المرحوم نسيب صليبي، الذي ترك ذكاؤه وكرمه في كل مكان ذكرى ساطعة. فإليهم جميعاً، الأحياء منهم أو الأموات، أتوجه بالعرفان.

ومنذ عام 1993، أصبح البروفسور الدكتور سلطان محيسن مديراً عاماً للآثار والمتاحف، فكرّس كامل طاقته وجدارته العلمية لتجديد علم الآثار السوري. وله أدين بالإمتنان لاهتمامه بما قبل التاريخ ولمبادرته بهذه الترجمة لكتابي إلى العربية: وقد قام بها، تحت إشرافه، موسى ديب الخوري الذي أهنئه وأشكره الشكر العميق لهذا العمل الشاق، لأن ترجمة فرنسيتي صعبة، كما يقال، إلى لغة أخرى...

وكنت أنا نفسي، المسؤول عن بعثة دائمة لما قبل التاريخ في الكوم أوجدَتها وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية، قد قمت باستكشاف حوض الكوم شمال تدمر، وبتنقيب تل الكوم 2 النيوليتي الموجود في الموقع. وقد عهدت سريعاً بإدارة هذا التنقيب إلى دانيال ستوردور وهي التي تؤمن أيضاً منذ عام 1995 إدارة مجمل البعثة الدائمة، مع الدعم المستمر من المديرية العامة للآثار والمتاحف في دمشق. إن اكتشافاتها الحديثة الرائعة على الفرات، في التنقيب الفرنسي السوري لجرف الأحمر، تثبت، وحتى تتجاوز بدرجة كبيرة بأهميتها، اكتشافات المريبط التي كانت معاصرة لها.

وكما سنرى في هذا الكتاب، فإن أهم الوثائق التي استطعت الحصول عليها ترجع إلى تنقيب المريبط، تلاه حملة سريعة ووحيدة إلى تل الشيخ حسن. وكانت الوثائق قد جُمعت، مثل تنقيب الدكتورة ستوردور في جرف الأحمر، بمناسبة الحملات الدولية لإنقاذ المواقع التي ستغمرها السدود الجديدة على الفرات. وكافة هذه المواقع موجودة اليوم تحت الماء. ولست أعرف إن كان علي أن أعجب أكثر بالجهد الهائل للحكومة السورية من أجل إنقاذ كل ما يمكن إنقاذه، أو التأسف على متطلبات المدنية المعاصرة التي أغرقت بشكل لا يمكن تعويضه كل ما كان قد بقي منها. وفي كل حال، فإنني سأحفظ طويلاً ذكرى هؤلاء الفلاحين السوريين، فلاحي الفرات بخاصة، الذين على الرغم من قلقهم بالنسبة لمستقبلهم، أحسنوا استقبال علماء الآثار الأجانب بكياسة الضيافة التي تميزهم وقدموا مساعدة ذكية وحماسية غالباً. إن هذه «الإكتشافات» الإنسانية في الوسط العربي تحتل أيضاً مكانة كبيرة في تراثي الشخصي خلال سنوات البحث هذه.

جاك كوفان

معهد ما قبل التاريخ الشرقي

جاليس، 25 آب 1999

تنويه

تصدر هذه الطبعة الحالية بعد ثلاث سنوات فقط من الطبعة الأولى. إن نسيج الكتاب ونتائجه العامة لم تتغير خلالها أبداً. ومع ذلك، قياساً إلى حيث «تجري الأشياء مسرعة» في *ما قبل التاريخ الشرقي* وحيث يستمر تراكم التنقيبات والاكتشافات بسرعة كبيرة، فقد أصبح الاستيفاء ضرورياً.

إن الأحداث المميزة المتعلقة بالعصر النيوليتي في الشرق الأدنى كثيرة في الواقع منذ عام 1994، فمن جهة عودة تنقيبات الإنقاذ في مواقع النيوليتي ما قبل الفخار للفرات الأوسط بسبب تشييد سد جديد، حيث تشارك وتتعاون فرق إسبانية وفرنسية وفرنسية ـ سورية؛ ومن جهة أخرى الاكتشاف الهام جداً من أجل فهم الانتشار النيوليتي لمرحلة إعمار لجزيرة قبرص سابقة بعدة قرون لحضارة خيروكيتيا، والتي كانت مشهورة حتى هذا الوقت كأقدم حضارة في الجزيرة؛ وأخيراً، التقدم المدهش للأبحاث في الأناضول بدفع من فرق تركية وألمانية. وقد قادتنا هذه الوثائق الجديدة إلى تعديل عميق لبعض الفصول، وبخاصة الفصول 4 و 9 وعلى الأخص 15، في حين أن الباقي ليس سوى تصحيحات لتفصيل مخصص للإجابة على بعض الاعتراضات التي وجهت إلينا.

وأشكر توماس مورييه Thomas Mourier، ناشر دار نشر CNRS لتفهمه ولصبره تجاه كافة هذه التصحيحات، وجاكلين ترينكا Jacqueline Trincat التي أمنت الإخراج الأول الضروري في معهد ما قبل التاريخ المشرقي.

وأشكر أيضاً زملائي جان غيلين Jean Guilaine وميغيل موليست Miguel Molist وإريك كوكُنيو Eric Coqueugniot ودانييل ستوردور Danielle Stordeur وهارولد هوتمان Harold Hauptmann وبول سانلافيل Paul Sanlaville لأنهم كانوا يطلعونني بانتظام على تقدم أبحاثهم وعلى نتائجهم التي لم تنشر بعد.

جاك كوڤان

جاليس Jalès، كانون ثاني 1996

توطئة

يُعدّ المنعطف الذي سمي بالثورة النيوليتية أحد أكثر المنعطفات حسماً من بين منعطفات التاريخ البشري الكبرى: فهو بداية أولى معالجات نوعنا لوسطه الطبيعي، والتي تشكل مباشرة أصل قدرته الحالية. وبالتالي فإن تحليل هذا التحول، في شروطه وأسبابه، مسيرة ضرورية لمن يهتم بمستقبل الحضارة. والحال أن هذا الحدث تم في البداية في الشرق الأدنى قبل أن يشع مباشرة على مناطق أخرى من العالم أو قبل أن يؤدي إلى تقليد ومحاكاة أكثر تأخراً في أماكن أخرى.

فهذا الكتاب هو بالدرجة الأولى تأليف للأبحاث الحديثة حول العصر النيوليتي في الشرق الأدنى. وأعني بـ«الشرق الأدنى»، وهو منطقة يمكن أن تتغير حدودها بحسب المؤلفين، الأراضي المشار إليها بواسطة اليونسكو، أي المشرق (سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) وشبه الجزيرة الأناضولية (تركيا الحالية).

أما الزمن المقطوع فيمتد من نحو 12000 إلى 6300 قبل الميلاد، حيث تم في هذا الجزء من العالم وعلى مراحل وأبكر من أية بقعة أخرى في العالم، المرور من المجتمعات ما قبل التاريخية من الصيادين ـ القاطفين إلى أوائل الفلاحين وإلى أوائل المدجنين، مع التغيرات التقنية والإيديولوجية التي رافقته وسبقته أحياناً.

وبالنسبة للقراء الذين سبق وألفوا بعض الشيء هذا الموضوع، فإن هذه التواريخ ستشكل مفاجأة لهم، إذ ستبدو لهم أقدم من تلك التي قرؤوها في مواضع أخرى، بما فيها كتابي الذي ظهر عام 1978 حول *القرى الأولى في سوريا وفلسطين* *Les Premiers Villages de Syrie-Palestine*. وذلك أن التسلسل الزمني ما قبل التاريخي يرتكز على تأريخات بواسطة الكربون المشع نعرف اليوم أنه يجب «معايرتها»، أي تصحيحها تبعاً لتاريخ الاشعاع الكوني وتغيراته (انظر اللوحة ص 20–21).

غير أن طرق المعايرة لم تكن قد وُسعت لتشمل فترات قديمة قدم العصر النيوليتي في الشرق الأدنى إلا حديثاً: فهذا التأليف هو الأول إذن الذي يأخذها بعين الاعتبار. وأشكر جاك إيفان Jacques Evin، مدير مختبر الكربون المشع في جامعة ليون الأولى، لقيامه بكافة التصحيحات الضرورية في نصي.

وكما هو الأمر بالنسبة لكل تاريخ. فإن تاريخ النيوليتي هو بدايةً سرد إنما أردت أن أؤسس على هذا السرد تأملاً نظرياً، طالما كان للأحداث الموصوفة تأثيرات على تتمة التطور الانساني ومعناه، وصولاً إلى وضعنا الحضاري الحالي. وكان غويري دولاكوت Goëry Delacôte، الذي كان في حينه مديراً للتأهيل العلمي والتقني في المركز الوطني للبحث العلمي CNRS، هو الذي شجعني في عام 1989 على المباشرة بهذا العمل التوضيحي. وأنا ممتن لثقته ولاهتمامه: فهذا العمل ما كان ليرِ النور لولاه.

وقد ساعدني بشكل مستمر كل من ماري ـ كلير كوفان Marie-Claire Cauvin ودانييل ستوردور Danielle Stordeur من خلال مراجعاتهما وتصحيحاتهما ونصائحهما. وأدين إلى صديقي ريمون فوجيل Raymond Vogel ولثقافته الابستمولوجية والفلسفية الموسعة كوني استطعت تحديد الخلفيات النظرية التي منها انطلقت تحليلاتي كعالم آثار. وأدين لباترسيا أندرسون Patricia Anderson وأوليفييه أورنش Olivier Aurenche ونور بلقان ـ أتلي Nur Balkan-Atli وكلود بواسون Claude Boisson ودانييل هلمر Daniel Helmer ويعقوب رودنبرغ Jacobus Roodenberg وبول سانلافيل Paul Sanlaville وجورج ويلكوكس George Willcox الذين استشرتهم حول هذا الجزء أو ذاك من المؤلف، بأنني ارتكبت عدداً أقل من الأخطاء. وأعبر عن امتناني لهم جميعاً سادة وسيدات.

وكانت قد أُوكلت لكلودين ماريشال Claudine Maréchal المهمة الأكثر جهداً والتي لا يمكن تعويضها، ألا وهي إدخال النص على حاسوب ومن ثم الإشارة لي إلى الأخطاء الشكلية والأساسية التي يمكن أن تكون قد أفلتت أيضاً فيه. إن استحقاقاتها في وضع اللمسات الأخيرة على العمل كما ومعرفتها بما قبل التاريخ المشرقي تجليا في العمل بشكل رائع. وأدين لكريستين شاتينييه Christine Chataigner برسم الخرائط بواسطة الحاسب، ولجيرار درابراهميان Gérard Deraprahamian ببقية التصوير الرسومي، أكان أصلياً أم مأخوذاً من مواضع أخرى. فلهما أعترف بالفضل.

وأشكر أخيراً زملائي أوفر بار يوسف Ofer Bar Yosef وهارولد هوتمان Harold Hauptmann وألان لو برون Alain Le Brun وجان بِرّو Jean Perrot وغاري رولفسون Gary Rolleffson وموريس فان لون Maurits van Loon وفرانسوا فالا François Valla لسماحهم لي كرماً بإعادة نشر وثائقهم التصويرية.

جاك كوفان

جاليس، تموز 1993

مقدمة

الإنسان، «ملك الخلق» الذي يعالجه وفق مصلحته، والرأس المتقدم للتطور البيولوجي، الذي أصبح «سيد ومالك» الأنساق التي سبقته في الخلق، والذي ضاعف الأنواع الحية التي دجنها مبيداً الأنواع التي ظلت برية، والمستمد طاقته من المادة العطالية نفسها، والذي قلب المناظر وحول الكوكب، إن هذه اللوحة هي حقاً صورتنا في نهاية القرن العشرين هذه، حيث بدأ تعدي مصالحه يقلقنا.

لكن انبثاق النوع البشري يرجع إلى ثلاثة ملايين سنة. ويمكننا بالتأكيد أن نجد مصدر تفوقه في العصور البعيدة حيث كانت تتحضر الكفاءات الخاصة التي جعلته، مع اكتسابه وضعية القامة المنتصبة التي حررت اليد ويسرت نمو الدماغ، قادراً على صنع أولى الأدوات، والتي بفضلها كانت مهارة نوعنا ستعوض شيئاً فشيئاً عن المعوقات الفيزيائية للـ «قرد العاري». يبقى أن زمناً طويلاً من الكمون، هو الباليوليتي (العصر الحجري القديم) بكامله ومئات آلافه من السنين، يفصل ظهور الإنسان عن أخذه للوسط الطبيعي على عاتقه، وهو زمن يبدو لنا اليوم عادياً. وهذه المسؤولية هي ثمرة صيرورة المرحلة الأخيرة، التي انعقدت في الشرق الأدنى منذ اثني عشر ألف سنة تقريباً، عندما حصل ما ندعوه منذ غوردون شايلد Gordon Childe بـ «الثورة النيوليتية».

وفي الواقع، كان ثمة في الباليوليتي، مهما كانت المدة الكبيرة التي تفصل الأدوات الخشنة من الحصى في «ثقافة الحصى *pebble culture*» الأفريقية، التي ترجع إلى نحو مليوني سنة، عن الصناعة الأكثر تجهيزاً من الحجر أو العظم والانتاجات الفنية للمجدلاني Magdalénien، قبلنا بثمانية عشر ألف سنة، سمة مشتركة باقية بين هذين الحدين: فالمجموعات البشرية تصيد وتلتقط وتقطف، أي تأخذ بقدر حاجاتها، مثل أي نوع قناص، الأساس الغذائي من أجل استمرارها. وتوازن «الزمر الصغيرة» العائلية بحركتها النفاذ الوقتي لهذه المصادر البرية في موضع ما، بحيث أن هذه الأخيرة، الوفيرة بشكل خاص والموزعة بشكل جيد على السنة كلها، باتت تسمح بتأسيسات ثابتة حيث تتناوب بحسب الفصول استراتيجيات تحصيل مختلفة.

لكن لا يمكن أبداً في هذا النمط الحصول إلا على ما تقدمه الطبيعة. والوفرة أو القحط هما ظاهرتان آنيتان يقع مصدرهما بمنأى عنا ونخضع لاحتمالاته. وعلى الرغم من تقدم بناه العقلية وتقنيته، وعلى الرغم أيضاً من الملاحظة التي كان قد قام بها لصيرورات التناسل الطبيعية، فإن إنسان الباليوليتي لم يشرع بنفسه أبداً بمكاثرة الحيوانات والنباتات التي كان يستهلكها.

ومع ذلك، كان تفوقه الحميم على مملكة الحيوان جلياً منذ زمن طويل. ومذاك فإننا نشعر في ذلك قدرة الفكر البشري على التجرد من لعبة الأجيال الطبيعية، وعلى التأمل في شرطه والشهادة بواسطة ممارسات غريبة بأنه ليس حيواناً كالحيوانات الأخرى، أكان الأمر يتعلق منذ ذلك الوقت باعتقاد ببقائه بعد اختفائه المادي أو ببساطة بتغذية ذكرى المختفي لبعض الوقت. وأكثر من ذلك فإن إنسان الباليوليتي الأعلى أثبت بواسطة فنه أن الطبيعة نفسها أصبحت بالنسبة له مشهداً، وأن البيزونات (الثيران الأمريكية) أو الجياد أو الماموت ليسوا مجرد طرائد محتملة، بل و«أشكالاً» أيضاً، والتي رسمتها يده على جدران المغائر، وأخيراً أن لهذا التصوير معنى. فثمة إدراك للعالم يشف خلف هذه الصفوف من الصور التي ليست عشوائية أبداً، وعملية معرفة تنظّم الاندماج الطبيعي للأشكال الحية، وباختصار كان الإنسان منذ ذلك الحين، ومنذ زمن طويل دون شك إنما لم يكن قد ترك لنا آثاراً مرئية على ذلك، كائناً يعطي المعنى.

ولكن إذا نزلنا من هذا التفوق العقلي إلى الحياة اليومية، فقد كان الصياد مجبراً من أجل استمراره على الذهاب بحثاً عن الحيوان والنبات حيث يوجدان، وعلى تتبع قطعان البيزونات إذا ما صادفها، كما كان يفعل ذلك حتى وقت قريب الهنود الأمريكيون في انتجاعاتهم الطبيعية؛ إلا إذا مضى يرقب قرب صخرة سولتري Solutré قطعان الجياد البرية المارة عبر ممر إجباري لكي يأخذ منها غنيمته، أو إلا إذا انتظر كصياد في ملجئه في فيزير Vézère أن يعود السلمون مثل كل سنة صاعداً في النهر في تاريخ ثابت. وباختصار، كان باستخدامه ظاهرات طبيعية لصالحه صارت خبرته فيها كبيرة لا يستطيع تغييرها ولا حتى التدخل في مجراها. وكان تفوقه في قلب الطبيعة شهادة امتياز؛ وظل غير ذي سلطة عليها.

وبالمقابل فقد لاحظنا منذ وقت طويل الثورة المدهشة التي مثلها من وجهة النظر هذه الاختراع النيوليتي للزراعة والتدجين. وضمن هذه الوقائع أولاً والتي أصبح تحليلها

عادياً: مصادر أصبحت مذاك منتَجة، أي في قسم كبير منها مستخرجة من مصادفات وجودها التلقائي في الطبيعة (وذلك جزئياً لأنه لم يتم أبداً ضبط المناخ ولا الكوارث الطبيعية...)؛ ومخزون غذائي مؤلف من أنواع نباتية وحيوانية داجنة، وبالتالي قابلة للمد وقابلة للتجدد بمبادرة إنسانية بسيطة تبعاً للحاجات والإمكانيات التقنية للمجتمعات التي يزداد عددها باستمرار؛ واستغلال مستحدث للوقت والذي يمثله الإنتخاب التفضيلي بين الأنواع النباتية المستثمَرة هكذا من تلك التي يمكن تخزينها، كالزروع، منظماً هكذا التموين من فصل لفصل آخر؛ والإمكانية التي تعطيها بعض الأنواع الحيوانية بطبيعتها والمترحلة طواعية بتيسير ضبط متنام للمساحة التي ستستخدمها البداوة الرعوية. وذلك عندما يسمح التدجين بضبط وتوجيه حركاتها. ويمكن أن نفصل أكثر الإمكلنيات الجديدة التي كان يفتحها إنتاج المؤن؛ ويتعلق الأمر باختصار بصعود كبير وسريع في مقدرة البشرية بمواجهة الضغوط البيئية والتي ستتجاوزها مذاك فصاعداً عبر مراحل. وشيئاً فشيئاً ستواجه الطبيعة البرية نسبة من الأرض، تكون صغيرة في البداية إنما لا تنفك تتوسع، المشغولة والمدنة والمعاد تشكيلها من خلال النشاط والاستثمار الإنسانيين: فقد انطلقت صيرورة بحث تقول للجغرافيين الحاليين في مآلها إنه لم يعد ثمة في بلادنا شيء يشبه ما كان يشكل فيها في الماضي الطبيعة البرية؛ ولا شك أن الدمار الجاري لغابة الأمازون هو الكارثة القلقة الأخيرة في هذا الإطار.

وفي الواقع فإن زمنا قليلا جدا يفصل على مستوى التاريخ الزمني لنوعنا القرى الزراعية الأولى عن أولى الحضارات المدنية ثم الصناعية. فإذا قبلنا بأن التحول الحاسم في مسكننا الأرضي كان قد تم في النيوليتي وأننا الورثة والنتاج المباشر لهذا التحول، فإلى ذلك العصر إنما يجب أن نرجع تاريخنا.

ومن الشائع لا شك مقابلة الحضارات التاريخية، التي عرفت الكتابة، مع الشعوب التي بلا تاريخ التي سبقت الكتابة أو التي لا تزال تجهلها. ولهذا فإن التاريخ يبدأ في سومر كما يعتقد الجميع. ومع ذلك فإن الأمر يتعلق هنا برأي مسبق خاص بعلماء النقوش وبالمؤرخين المتمرسين بتفسير النصوص، الذين يسقطون التقسيمات الخاصة بمناهج جامعاتنا على دراسة الماضي. كذا، وقبل وبعد الكتابة، فإن مناهجنا في البحث هي المختلفة. أما علم آثار ما قبل التاريخ فإنه يلتفت، دون مساعدة النصوص المكتوبة، إلى علوم أخرى بين العلوم الطبيعية أو الفيزيائية الكيميائية لتساعده في التأريخ وتحليل

التغيرات. لكن هذه التغيرات كبيرة وسريعة في النيوليتي. وأحد مقاصد هذا الكتاب بخاصة هو برهان أنه في الثورة النيوليتية إنما تتجذر بحق الحالة الحاضرة للنوع البشري، ليس فقط في مجال استثمار الوسط كما سبق أن أشرنا، بل في ثقافته نفسها وفي بناه العقلية.

ولهذا فإن سؤال الماضي ليس حيادياً أكان يتعلق بما قبل التاريخ أو بالعصور الأخرى. إن كل حضارة تبحث في المرحلة الحرجة بخاصة عن مصادرها في عمق الماضي، وذلك لكي تفهم ذاتها. وقد لعبت العصور القديمة الكلاسيكية هذا الدور كأساس مبرِّر وكأصل جذاب لفترة طويلة بالنسبة للغرب: ونحن نعرف إلى أي حد كان خيال الثوريين الفرنسيين في عام 1789 يستمد منها نماذجه بشكل واسع، تماماً كما هو حال الثقافة الإنسانية التي روت طويلاً تعليمنا. فهل ثمة ميسِّر للمخاوف ولإعادة البحث الأعمق في نهاية ألفيتنا هذه شيء آخر سوى ظاهرة الموضة في موجة ما قبل التاريخ الحالية؟ وهل يجب العودة إلى أبعد لكي نفهم أين نحن، أي إلى حيث حصل التحول الذي هو أصل قدرتنا هذه؟ إن ذلك ليجعل من عالم ما قبل التاريخ مثل أداة لسوابق المريض بالمعنى شبه التحليلي النفسي للمصطلح.

إن هذا التماثل بين علم الآثار والتحليل النفسي ليس جديداً. ففرويد نفسه لجأ إليه لكي يشرح ما هو التحليل النفسي. وكان يقول إن العصاب يُعالَج بواسطة علم آثار للفرد يعيد إلى وعيه ذكريات الطفولة المنسية، إلى حيث تُثبِّتت المواقف العقلية والعاطفية والتي أصبحت بعد ذلك تكرارية ومشوَّشة، وذلك تحديداً لأن مصدرها أصبح لاوعياً. وكان يضيف أن الفرق مع ذلك بين التحليل النفسي وعلم الآثار هو أن أغاممنون وكليتمنستر لم يعودا موجودين هنا ليستفيدا من الذكريات والسوابق المَرَضية! ويمكننا الإجابة أن البشرية، بما هي موضوع جمعي حقيقي لهذا النزول إلى الأصول، موجودة دائماً هناك، وأنه بقدر ما يوضع على التوازي ما يتعلق بالفرد وما يتعلق بالنوع، كما تم ذلك غالبا أيضا في مجالات أخرى، فيجب الحفاظ على طرفي المماثلة حتى النهاية... وهكذا يمكن أن توجد بالتالي في البحث الآثاري وظيفة التحليل النفسي الجمعي، على الرغم من أن المعرفة التي نستخرجها منه تسمح فعليا بإيضاح الزمن الحاضر.

ولا يكفي في الواقع أن نحدد زمان ومكان بذور وصيرورة الثورة النيوليتية، ولا تعداد الآثار البيئية لهذه الستراتيجيات الجديدة: فهذا العمل قد تقدم بالفعل كثيرا. ولم

يكن التحول المرتبط بها يتعلق سوى بإنتاج البقاء وبالتحولات اللاحقة للمشهد الطبيعي. وقد اهتمت به كافة قطاعات الحياة البشرية، من أكثرها مادية إلى أكثرها رمزية. وكان معنياً بهذا التحول أيضاً المسكن والتقنيات والإزدياد السكاني، والبنى الإجتماعية وإعمار المساحات، وإنتاجات الفن والدين. إن هذه المعايير الكثيرة لما كان تحولاً شاملاً مختلطة فيه اختلاطاً وثيقاً، إلى حد أنه من الصعب جداً تنظيم أهمياتها المتبادلة، وتمييز النتائج والأسباب فيها وجعل تسلسلها وترابطها مفهوماً. وتزداد الصعوبة بسبب أن «نولتة» المناطق المختلفة من العالم تمت عبر لعبة معقدة، من جهة بتغيرات حاسمة متموضعة في بؤر أصل معينة، ومن جهة أخرى انتشار مكاسبها بعيداً عن هذه البؤر. فنولتة أوروبا مثلاً حُددت ودُرست أولاً على يد باحثين غربيين في بداية هذا القرن. وقد ظهرت فيها بشكل متزامن كافة السمات الآتية من الخارج، أكانت اقتصادية مثل الزراعة والتدجين أو تقنية مثل صقل الحجر والخزف، هذا مع ازدواجها مع استمراريات ثقافية محلية ومع إبداعات أسلوبية مستقلة مشكلة كلاً يصعب فهمه. والنولتة الأوروبية، وهي مثال نموذجي مهما قيل عنها، تقدم كافة العناصر للتساؤل حول آليات الإنتشار، لكنها تقدم لنا أقل بكثير مما يكفي من أجل فهم الثورة النيوليتية نفسها، تماماً كما أن تحول اليابان إلى التصنيع لا يقول لنا الكثير عن الثورة الصناعية الأوروبية، أصل هذا التحول الصناعي.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة الظاهرة في الشرق الأدنى، وفي المشرق بخاصة، لأنه في هذا الجزء من العالم إنما انطلقت أولاً دون أي صلة أو تأثير خارجي يبعثها أو يطلقها. وتبدو كافة بؤر النولتة التي وجدت في العالم أكثر تأخراً بحسب معارفنا الحالية. وبشكل خاص إذا كان غوردون شايلد قد استطاع منذ عام 1925 أن يحدد في الشرق الأدنى «فجر الحضارة الأوروبية» فذلك أنه في هذه المنطقة فعلاً إنما نستطيع قراءة أصولنا وفي الوقت نفسه أصول نموذج للحضارة لم ينفك مذاك ينتشر ليصبح كوكبياً، وذلك من وجهة النظر المزدوجة لمكتسباته الذهنية والتقنية ولتأثيراته «العصابية» في النهاية: فالضيق الذي يصيب العالم الثالث المقتلع تدريجياً من جذوره من ماضيه الخاص يقدم لنا في أيامنا هذه تصويراً هائلاً على ذلك. ولهذا يمكننا الحديث عن عصاب يخص البشرية الحديثة كلها عندما لا نقوم في المظهر سوى بتذكر طفولة حضارتنا.

منذ التنقيبات الأولى في السويات النيوليتية في أريحا وعلى الرغم من مرور خمسين سنة من الأبحاث في الشرق الأدنى، لا يزال يلزم الكثير لتكون الأمور واضحة. ففي البداية،

وكما في كل بحث عندما يبقى التوثيق فقيراً، ظلت التفسيرات افتراضية بشكل واسع، إذ كان الباحثون يردمون فجوات معارفهم الواقعية factuelle بجهاز نظري كان يعكس في غالب الأحيان الإيديولوجية السائدة وثقافة العصر. وهكذا كان شايلد يستطيع أن يؤكد دونما خطأ الأصل المشرقي للنولتة الأوروبية، لأنه في هذه المنطقة كانت توجد الأنسال البرية لأنواعنا المدجَّنة الرئيسية. لكنه بالنسبة لتفسير التدجين نفسه فإنه لم يقم سوى باتباع النموذج الشائع لـ «مادية تاريخية» مبسَّطة، والتي يمثل وفقها *مسبقاً* ظهور اقتصاد انتاجٍ التغيرَ الأساسي الوحيد الذي هو أصل كافة التغيرات الأخرى والذي لا يمكن أن ينتج هو نفسه إلا عن تحديدية وقدرية طبيعية.

غير أنه كان ثمة منذ ذلك الوقت معطيات كثيرة بما يكفي حول النيوليتي الأوروبي في حين أن المشرق لم يكن معروفاً إلا من خلال بعض التنقيبات النادرة في مصر وفي بلاد الرافدين، وذلك في مواقع تالية للألف السادس قبل الميلاد، الأمر الذي لم يكن يؤهلها في أي حال من الأحوال لتقديم معلومات حول الأصل الحقيقي للصيرورة وهو السابق بأكثر من ثلاثة آلاف سنة.

لقد تغير الوضع. فمنذ عام 1950 لم ينفك الباحثون يتجمعون في الشرق الأدنى والأوسط وقد أطلقتهم اكتشافات أريحا كما وحدوس غوردون شايلد. وقد جمعت بعثات البلاد كلها أعمالها فيه، إذ تمثل هذه المنطقة بالنسبة للنولتة حقل دراسة مميز وجذاب عالمياً، كما هي تماماً أفريقيا الشرقية بالنسبة لبدايات الأنسنة. وهكذا أصبحت المعطيات الآثارية كثيفة بعد أن كانت نادرة ومتناثرة، وبخاصة في بلاد المشرق التي هي موضوع هذا العمل.

وماذا بالنسبة لمقارباتنا النظرية؟ إن النموذج «المادي» نفسه المتضمن والأكثر جبرية يبقى المسيطر عليها دائما. وتتجلى قوته بما هو يحكم المسائل المطروحة أكثر حتى من الإجابات. إن ما نبحث عنه قبل كل شيء هو السبب الطبيعي الذي أمكن له أن يحرض الإنسان على اللجوء إلى الزراعة والتدجين من أجل أن يستمر. وكانت البعثات الأمريكية التي نظمها روبرت بريدوود منذ عام 1960 تجمع لهذه الغاية وللمرة الأولى في الشرق الأدنى علماء طبيعة كثيرون مع علماء الآثار. وبما أن الزروع البرية توجد في أيامنا هذه موزعة تلقائياً في شريط شبه صحراوي يحف بـ «الهلال الخصيب» من البحر الميت

وحتى الهضبة الإيرانية (شكل 1)، فقد اختار بريدوود أن يبحث عن آثار أولى الخبرات الزراعية في الجزء المتوسط من هذه «المنطقة النووية»، أي في جبال زاغروس العراقية. وهو لم يجدها فيها أبداً، أو على الأقل لم يجد شيئاً بقِدَم أريحا أو بقدم بعض القرى الزراعية الأخرى من المشرق التي اكتشفت خلال مرحلة لاحقة. وقد نقضت حدسه بعض المعايير الهامة. وشعر من جهة أخرى، أمام التأخر الواضح للتدجين بالنسبة لظهور وسط ملائم مناخياً ونباتياً منذ نحو خمسة عشر ألف سنة، بوجود نوع من الاستقلالية في المعاملات الثقافية وتطورها الخاص، لكنه لم ير كل ما كان ينطوي عليه هذا الحدس الهام.

وبدءاً من عام 1970، قدّم علم الآثار الجديد *New Archaeology* الأنغلوساكسوني تجديداً نظرياً كثيفاً. فقد أدخل على علم آثار كان حتى ذلك الوقت وصفياً ببساطة كبيرة إهتمامات الإنثروبولوجيا الأمريكية حول مستقبل المجتمعات البشرية وتطور بناها. ومع ذلك لم يظهر فيه ما هو جديد بالنسبة لمسألتنا. وعندما يؤكد أحد علمائه النظريين الأساسيين بأن الثقافة ليست عند الإنسان سوى «مجموع وسائله غير الجسدية من أجل التأقلم مع بيئته»[1]، فذلك لأن هذه البيئة الطبيعية تمتلك مبادرة هذا الحوار؛ وهذا يعني أن التحولات الإجتماعية والثقافية يجب أن تنطلق على مستوى ما هو فينا الأكثر انغماساً في الطبيعة وحساسية لتحولاتها، أي ابتداء من كائننا البيولوجي وحاجاته الغذائية. إن هذه «البيئوية»، التي تؤكد اتجاه البحث الذي فتحه شايلد، لا تزال حتى الآن مصدر معظم المسائل المطروحة.

لكن هذا التصور المؤسس على مفترضات «مادية» غير مثبتة تتعلق بالثقافة البشرية ليس سوى مصادرة، أي من المنظور العلمي الحق فرضية يجب تفحصها على أبعد تقدير. إننا نعرف أن التقدم الأساسي في كل علم يتم بواسطة التراكم الخطي للمعطيات الجديدة بدرجة أقل من إعادة النظر بشكل دوري في بداياته الأقل نقداً[2]. فإذا لم نعرّف المعرفة كنمو بلا نهاية لمعلوماتنا الواقعية فمن الضروري أن نطلب من علم الآثار ما قبل التاريخي أن يؤكد لنا ما «نعرف» منذ منتصف القرن التاسع عشر، هذا على الأقل إذا كنا نمزج بين العلم والإيديولوجيا... ونضيف أن قيمة هذه المعرفة المجمعة تبقى ضعيفة بالنسبة لفلسفة التاريخ، لأنه ليس بمدّ أفكارنا الثابتة واستحواذاتنا الإقتصادية بشكل مباشر باتجاه الماضي إنما نفهم أكثر ما الذي ولّدها.

وهكذا فقد تعالت بعض الأصوات لتشير إلى أن النموذج المسيطر لم يكن يفسر كل شيء. وكان جان برّو Jean Perrot قد نقب منذ عام 1955 في وادي الأردن قرية لصيادين - قاطفين (ملاحة) سابقة بألفي سنة لأية زراعة ولأي تدجين، وكانت اكتشافات أخرى من النوع نفسه سوف تتلاحق. وهكذا تم مذاك إبعاد ظاهرة اجتماعية هامة، هي التجمع البشري في قرى، عن إطارها النظري التقليدي كنتيجة لاقتصاد الإنتاج. وقد بينا منذ ذلك الوقت أن انقلابات إيديولوجية، وهي نوع من «ثورة الرموز»، كانت قد سبقت أيضاً بدايات الإقتصاد الزراعي. وهكذا، وضمن التفاعل التسلسلي، حيث يخضع كل قطاع من الحياة البشرية في مرحلة معينة للتحول، لم تعد الثورة النيوليتية تظهر إذن، وقد دُرست حيث وُلدت، أنها تتبع النظام المنتظر في تتابع التغيرات: فالتحولات الثقافية بشكل خاص تنفر من أن تحفظ من غير تمييز سويتها كـ «بنية فوقية» مشتقة من التغيرات الإقتصادية، حيث أن التفنيد الستراتيغرافي (الطبقاتي) يفرض وجوده أحياناً على الترتيب المنتظر للأسباب والنتائج. ويبين ذلك ضرورة إعادة القراءة بشكل عام للمعطيات المتوفرة بالأحرى من التصحيح الرديء يوماً بيوم للنظرية الموجودة.

وسنجتهد في الصفحات التالية في رسم الخطوط الأولى عبر هذه القراءة الجديدة لرأي مختلف جداً، دون أن نخفي مع ذلك أنه سيبقى متروكاً في المستقبل لتشذيب أكثر لأن الوقائع التي يمكن أن تغذيه لم تُلحظ دائماً بانتباه كاف. فمن الحق أننا لا «نرى» في غالب الأحيان إلا ما نفكر في البحث عنه وعندها لا يكون ثمة كابح أبداً من هذا المنطلق حتى لا يَطرح صدق أي افتراض مسبق مُوارى في لاوعي الباحث أية إشكالية. فإذا توصلنا ونحن في الطريق إلى شرح بعض هذه المؤكدات المسبقة فإن عملنا يكون قد بلغ غايته.

الهوامش

1. Binford et Binford, 1968.

2. حتى عندما تكون إعادات الطرح هذه نتيجة لتراكم معطيـات لم تعـد النظريـات الموجودة كافية لتفسيرها. انظر Gardin, 1993, p. 155.

الجدول الزمني

التواريخ المعايَرة والتواريخ بالكربون المشع 14

نعلم أنه اقتُرحت منذ عام 1950 تقريباً تأريخات مطلقة، وهي ترتكز على مبدأ التحلل المستمر للكربون المشع (C14) المتضمن في كل مادة عضوية. فشيئاً فشيئاً، وبدءاً من موت المتعضية، يتحول هذا الفحم المشع إلى فحم غير مشع (C12). وقد اعتُبر لفترة طويلة أن كمية الفحم المشع المحتوى في الغلاف الجوي والذي تمتصه الكائنات الحية كانت ثابتة، وبالتالي أن الإشعاع المتبقي في العينات المقاسة في المختبر يمكن أن يعطي قياس العمر المطلق مع هامش من ريبة بسيطة.

وقد كشفت مناهج للتأريخ مثل التأريخ بواسطة مقاطع الأشجار بعد ذلك أن دفق الأشعة الكونية، وهو أصل تشكل الكربون المشع، كان يختلف عبر آلاف السنين. واقتضى ذلك بالتالي عملية معايرة للتواريخ بالكربون المشع C14 تأخذ بعين الإعتبار هذه التغيرات. وقد أعطت هذه المعايرة تواريخ صحيحة بالنسبة لـ «ما قبل الميلاد»، وهو ما لم يكن يحصل بالنسبة للتواريخ " B.P. " (ما قبل الوقت الحاضر *before present*) و " b. c. " (قبل المسيح *before Christum*) التي كانت تعطى حتى ذلك الوقت. ومنذ فترة حديثة جداً أيضاً أدى عدم إمكانية المعايرة بواسطة التأريخ بمقاطع الأشجار وحده لتواريخ قديمة قدم تواريخ النيوليتي في الشرق الأدنى القديم إلى الإحتفاظ بالنسبة لهذا العصر بالتسلسل الزمني للكربون 14 المسمى «التقليدي» أي غير المعايَر. وهذا هو حال كافة التأليفات التي ظهرت حتى هذا اليوم حول ما قبل التاريخ المشرقي.

وقد أصبحت المعايرة منذ فترة قريبة ممكنة بفضل إسهام مناهج أخرى وذلك حتى 20000 سنة تقريباً قبلنا. والكتاب الذي بين أيدينا هو الأول الذي يعطي إذن بالنسبة للشرق الأدنى تأريخات صحيحة بالنسبة للفترة المعتبرة.

الإطار الزمني التاريخي الذي وضعه بيت الشرق

لقد توصل عمل جماعي بدأ منذ عام 1975 في بيت الشرق في ليـون، بـهدف تقديـم رؤية تأليفية ومحينة لتطور الشرق الأدنى بمجمله منـذ الجماعـات الأخـيرة مـن الصيـادين القاطفين في الباليوليتي الأعلى وحتى بدء الحضارة الدينيـة، إلى تقسـيم للزمـن إلى عصـور. وقد تم تحديد هذه العصــور ذات الفـترات غـير المتسـاوية علـى قـاعدة معايـير علـم الآثـار والتأريخ بالمواد المشعة. ويغطي كل من العصور الأولى هكذا مرحلة من النولتة.

التواريخ المعايرة قبل الميلاد	التواريخ بالـ C14 قبل الآن	العصور MO	الأناضول الغربية	الأناضول الوسطى	المنطقة الساحلية فينيقيا وقبرص
6000	7000 7600	6	البيبار	هاشيلار	الثقافات ذات الفخار المصقول العمق A - B رأس شمرا V B - A سيلوس حديد، لديم ثقافة حيروكيتيا
7000	8000	5		شاتال هويوك	الـ PPNB الحديث شيلوروكامبوس اللوة رأس شمرا VC التل دو الدرا Scles
	8600	4			
8000		3		ثقافة اسيكلي	
9000	9600	2			الخيامي في لبنان رمال بيروت
10000	10300				
11000		1			نطوفي لبنان رمال بيروت صيبده
12000	12000	0			الكباري الموسمي ابري برجي

بداية الاقتصاد الزراعي

المنطقة الصحراوية في المشرق الجنوبي الأردن – النقب – سيناء	النواة المشرقية: الأردن منطقة دمشق	النواة المشرقية: الفرات الأوسط	طوروس الشرقية	البادية السورية	سنجار	زاغروس
اليرموكي شار ها جولان عين غزال	بدو ؟	صبي أبيض أبو هريرة C2	؟	النيوليتي ذو الفخار البدو الكوم ٢ PNA	ثقافة حسونة	الثقافة ذات الفخار في زاغروس
الـ PPNB الأخير في الصحراء السوداء عين غزال PPNC	عسقلون تل الرماد III	الدلمشلية		الـ PPNB الأخير الحضري: الكوم ٢ البدوي: الدير ١	كول تبه بدو سوتو أم الدباغية	جرمو
الـ PPNB الحديث عين غزال	الـ PPNB الحديث أبو غوش تل الرماد III بسمون	الـ PPNB الحديث تل أسود؟ أبو هريرة B2 حالوله		الـ PPNB الحديث بقرص	الـ PPNB الحديث في سنجار مغزلية	جرمو ما قبل الفخار على كوش غانج ديره
	الـ PPNB الأوسط في فلسطين أريحا PPNB المنهاتا	الـ PPNB الأوسط أبو هريرة حالوله المريبط IV B	الـ PPNB في طوروس كفر حويوك جعالي تشوري تشايونو		السريكي سريك	؟
	السلطاني أريحا PPNB نتيف هجدود	الـ PPNB القديم مريبط IV A حمده				
		المريبطي الحديث المريبط III B شيخ حسن جرف الأحمر	تشايونو القاعدة			
الحيامي أبو ماضي I (السويات ٥ – ١٢)	أريحا ما قبل النيوليتي	المريبطي القديم المريبط III A	؟			
النطوفي الحديث في النقب روش زين روش هوريشا	الحيامي الخيام صلبيه IX حاتوله	الحيامي المريبط II المريبط I B			القرميزي قرميز ديره	
	النطوفي الأخير تور أبو سيف	النطوفي الأخير المريبط I A أبو هريرة IC	هالام شيمي تبسي			
	النطوفي الحديث ملاحة العليا	النطوفي الحديث أبو هريرة I A - B	؟			زاوي شيمي شانيدار
؟	النطوفي القديم ملاحة الواد حيونيم	النطوفي القديم؟		النطوفي القديم الكوم	؟	
	الكباري الهندسي حرنه	الكباري الهندسي		الكباري الهندسي		الزارزي

تيار الانتشار ⟵

الجزء الأول

أصول الزراعة

الفصل الأول

الوسط الطبيعي والثقافات البشرية عشية النيوليتي

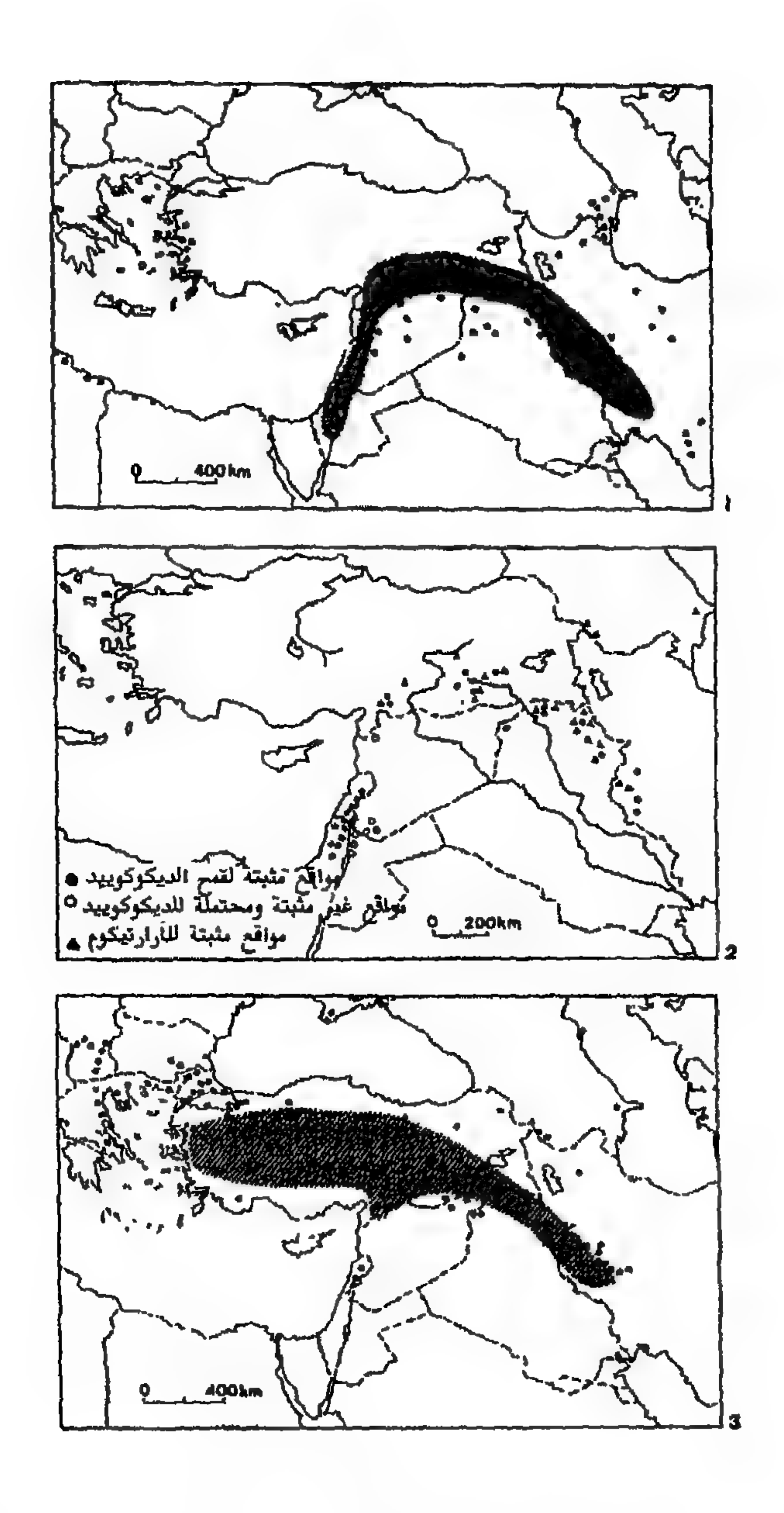
عندما نحاول تفسير إبكار الثورة النيوليتية في الشرق الأدنى بالنسبة لمناطق العالم الأخرى، فإنه يتم الإستناد إلى شروط طبيعية مساعدة بشكل متميز في غالب الأحيان. وما يسمى في هذا الإسناد بـ «الهلال الخصيب» يمسح في قوس من دائرة بدءاً من البحر الميت وحتى الهضبة الإيرانية، بين الجبال العالية في لبنان والأمانوس وطوروس الشرقية وزاغروس من جهة، والصحراء الداخلية من جهة أخرى، منطقة متوسطة من السهول الرسوبية والتلال الملائمة جداً لحياة البشر، وهي مغطاة بسهوب كثيفة مشجرة غالباً وترتادها حيوانات برية غزيرة ومتنوعة. ونجد فيها معظم الأنواع النباتية أو الحيوانية التي دجنها أناس النيوليتي: ليس فقط الزروع والشعير والشيلم البرية ونوعان من القمح، القمح النشوي وبر القفقاس البريان (الشكل 1)، بل وأيضاً البقول مثل الجلبان أوالعدس أوالفول أوالبيقة (الباقية) أو الحمص، ومن الأنواع الحيوانية الماعز والأروية* و الأرخص** والخنزير وهي حيوانات لا تزال أساس غذائنا اللحمي بعد أن تغيرت بالتدجين.

ومع ذلك، إذا كان هذا التركيز من الأنواع المفيدة مميزاً بذاته، لكن الشرق الأدنى لا يتفرد وحده بالكثير منها: فالبرّ القفقاسي تجاوز المضائق لنجده في مقدونيا،

---

* الأروية: نوع من الماعز، م.

** الأرخص: ثور بري منقرض، م.



الشكل 1. خارطة التوزع الحالي للزروع البرية عن D. Zohary. 1 : الشعير *Hordeum spontaneum*. 2 : القمح النشوي *Triticum dicoccoides*. 3 : برّ القفقاس *Triticum boeoticum*. وتشير الأجزاء المظللة إلى المناطق التي توجد فيها الأنواع بكميات كبيرة.

وثمة في أفريقيا نوع من الأروية كان يمكن أن يصبح مدجناً مثل أروية الشرق؛ وكان الأرخص والخنزير شبه منتشرين قبيل النيوليتي حول حوض المتوسط كله، في حين كان العدس البري ينبت في أوروبا المعتدلة. ومع ذلك لا يبدو أن هذه الأنواع قد دُجّنت في هذه المناطق. أما في الشرق الأدنى نفسه فقد استُثمرت لفترة طويلة عن طريق الستراتيجيات التقليدية للصيد ـ القطاف قبل أن يبدأ الإنسان بإنتاجها.

التطور المناخي قبيل النيوليتي

والحق أن الوسط البيولوجي ليس وحده موضوع الخلاف. فهو نفسه ثمرة تطور مناخي[1]. فهكذا إنما لم تستطع الزروع، الهامة بشكل خاص، أن تحتل مساحتها البيئية الحالية إلا بدءاً من نهاية البليستوسين، منذ نحو خمسة عشر ألف سنة، كنتيجة من بين نتائج أخرى لحدث أكثر شمولاً: الإرتفاع العالمي في درجة حرارة المناخ في نهاية العصور الجليدية. والحال أنه إذا كان هذا التطور المناخي على مستوى كوكب الأرض لكن الشرق الأدنى عاش خلاله حالة خاصة منه. فمن جهة، مع أخذ خط العرض وبعد الجليديات بعين الإعتبار، فإنه لم يشهد أبداً قساوة البرد الذي واجهته إلى الشمال أكثر أوروبا الباليوليتية. ومن جهة أخرى، كان التطور فيه باتجاه المناخ الحالي أكثر تدرجاً، وبكلمة أخرى أقل صدماً وأذى بالنسبة للإنسان منه في نقاط أخرى على الكوكب.

ففي أوروبا، كان التسخين الحراري قد بدأ في الواقع منذ نحو عشرين ألف سنة، لكنه كان قد تباطأ مع بقاء الشروط المناخية الباردة التي تميز المرحلة الجليدية التي تسمى «الفيرم الرابع Würm IV» أو «الجليدية المتأخرة Tardiglaciaire». ويُفترض أن تأثير ذوبان الجليديات القطبية، التي كانت تحتجز حتى ذلك الوقت كميات هائلة من المياه على شكل جليد، لم يكن فقط رفع مستوى المياه في البحار وإغراق مساحات كبيرة من الأراضي المسكونة، بل وأيضاً تبريد المحيط نفسه وأصقاعه النهرية وذلك بمضاعفة الجبال الجليدية العائمة فيه. وعندها إنما عرفت فرنسا مشهد التوندرا التي ترتادها قطعان الرنة، وهو المشهد الخاص بالعصر الجليدي المتأخر، وطورت الحضارة المجدلانية تأقلماً مميزاً مع هذا المشهد الجديد يشبه إلى حد كبير تأقلم الإسكيمو الحاليين. وهكذا أصبح حيوان الرنة، وهو

الحيوان الأكثر اصطياداً والذي أصبح شبه مألوف، يلاحَق فيه خلال هجراته الموسمية. وكان هذا التأقلم كاملاً جداً في مظهره طالما أنه لم يستمر معْ تغيرات المناخ الجديدة. فبعد أن عاد ارتفاع الحرارة إلى مجراه فضّل المجدلانيون ملاحقة الرنة إلى الملجأ النهائي لقطعانها باتجاه السهول الشمالية بدلاً من البقاء في مكانهم. وهكذا شهد العصر الحجري الوسيط (الميزوليتي Mésolithique). في أوروبا معتدلة المناخ مذاك ومشجرة جداً وتقطعها البحيرات والسبخات. استمرار جماعات ضمن ثقافات منعزلة ومتناقصة العدد بشكل قسري بسبب هذه الهجرة المجدلانية.

ولم يحصل شيء من ذلك في الشرق الأدنى. فبين 20000 و 16000 قبل الميلاد أثر المناخ البارد والجاف للعصر الجليدي المتأخر فيه على الرغم من أنه كان أقل حدة منه في أوروبا وتبعه ارتفاع مستمر في درجات الحرارة بلا صدمات. وبالمقابل كان ثمة تطورات أخرى خاصة بأفريقيا الشمالية وبآسيا الأمامية: فهي لم تكن تتعلق بدرجات الحرارة الشاملة بل بالأحرى بظاهرات إعصارية وبنظام الرياح وهما أمران يحددان بدورهما الهطول المطري. والأمطار فائقة الأهمية عند خط العرض هذا. وهكذا فإن «أزمات مناخية»[2] محلية كانت تستطيع منذ ذلك الوقت أن تُفرِّد في هاتين القارتين مختلف المناطق من منظور الرطوبة. وهكذا فقد ظل الشرق الأدنى. من زاغروس حتى شبه الجزيرة العربية. شبه صحراوي حتى نحو عام 9000 قبل الآن. ليس فقط لأن الخليج العربي وهو خزان طبيعي للرطوبة ظل فيه جافاً لمدة طويلة. بل لأنه افتقد أيضاً الريح الموسمية الصيفية التي تحمل أمطار المحيط الهندي[3]. وعلى العكس فإلى الغرب أكثر. أفلت الشرق الأدنى، الأكثر مطراً بفضل رياح المتوسط. من هذا الجفاف. وقد مرّ بفترة حتى أكثر رطوبة من الفترة الحالية بين 16000 و 13000 سنة قبل الميلاد. وذلك عندما شهدت المناطق الجافة جداً حالياً. مثل سيناء والنقب والبادية السورية. ازدهار الإعمارات التي لا تحصى للصيادين اللاقطين من «الكباري الهندسي». وعندما يكشف علماء المناخ بعد ذلك. خلال العصر النطوفي نحو 12500 عام قبل الميلاد. جفافاً في المناخ فإنه إلى حد قريب الجفاف الحالي الباقي في المنطقة.

وهكذا. عندما شرع أناس الشرق الأدنى منذ نحو 12000 سنة نولتتهم. فقد كانوا يعرفون منذ عدة آلاف من السنين شروطا طبيعية معتدلة بشكل استثنائي: فقد كانوا بمأمن من التغيرات الشديدة جدا في درجات الحرارة. ومن التعديات البحرية المدمرة التي رافقت

في مناطق أخرى ارتفاع مستوى البحر، وذلك لأن السلسلة الجبلية الساحلية في المشرق حمت البلد من الداخل، ومن الجفاف المستمر في الشرق الأدنى. ومغ ذلك فإن هذه العناية من الوسط لا تفسر بشيء التحول الجوهري الذي سوف نصفه. فقد كان لييسر اقتصاد صيد والتقاط مستمر بقدر تيسيره لستراتيجيات الإنتاج التي سوف تلي. فالتاريخ المناخي يأخذ بعين الإعتبار، مثل قائمة الأنواع المدجنة، أنماطاً معينة للنولتة في هذا الجزء من العالم بالأحرى من اعتباره لانطلاقتها نفسها. وهكذا فإننا نفهم بشكل أفضل بعض التأخر في زاغروس أو في جنوب بلاد الرافدين بالنسبة لمناطق واجهة البحر المتوسط: وذلك لأن الهلال الخصيب الحالي تأخر لفترة طويلة في مد تقدمه الشرقي إلى هذه المناطق. إن الأرض الجافة جداً تشكل عائقاً لكن شروطاً مساعدة تلعب في الأكثر دوراً تمهيدياً. فلننظر الآن ما الذي صنعه البشر بها ملخصين هنا أيضاً الآلاف الأخيرة من البليستوسين.

التطور الثقافي قبل 12500 سنة قبل الميلاد

لا تبدأ أهمية الشرق الأدنى في ما قبل التاريخ في النيوليتي. فهو مرتبط مع أفريقيا عبر «المضيق العربي»، وكانت البشرية الأولى (الهومو إركتوس *Homo erectus*) قد مرت عبره منذ أكثر من مليون سنة باتجاه آسيا وأوروبا انطلاقاً من مهدها الأفريقي. وعبر الشرق الأدنى أيضاً كان قد أمكن لشبهنا الهومو سابيان سابيان *Homo sapiens sapiens* أن يمر، وكان مظهره عصرياً منذ ذلك الوقت. وقد جاء هو أيضاً من أفريقيا، وهو مؤرخ بشكل جيد في فلسطين (في مغارة قفزه) بنحو تسعين ألف سنة. وفي مجال تطور التقنيات، فإنما ينسب له أنه اخترع في الشرق الأدنى التقصيب النصلي للصوان وهو مؤرخ منذ 80000 سنة قبل الآن في واحة الكوم السورية، أي في بداية الباليوليتي الأوسط. وسيزود هذا التقصيب بخامات متطاولة، أي بنصال حجرية أكثر انتظاماً من شظايا بسيطة وذلك من أجل تشكيل أدوات معينة.

ويبدي الباليوليتي الأعلى، وهو «أورينياسي Aurignacien المشرق» بين 45000 و 20000 سنة قبل الآن، صلات وثيقة مع الأورينياسي الأوروبي والذي كان يمكن أن تكون له صلات معه. وبدأت الأدوات والأسلحة من الحجر والعظم بالتنوع والتخصص. ومن

الواضح مع ذلك أن «الأدوات الحجرية الدقيقة»، هذا التقدم التقني العالمي الذي يخفف من وزن أسلحة وأدوات الصوان. والتي قلصت إلى عناصر دقيقة جداً تُزين بها بشكل مركب أجسام الأدوات التي من مواد أخرى (خشب أو عظم)، قد ظهرت في الشرق الأدنى منذ الأورينياسي أي أبكر بكثير من أي موقع آخر. ولكن في الفترة التالية، وعندما ازدهرت في الغرب الحضارة السولوترية solutréenne وإنجازاتها اللامعة في مجال التقنية الحجرية والإبداع الفني منذ ذلك الحين. كان العصر الكباري Kébarien بعيداً عن تحقيق مثل هذا التفتح. لقد استمر كباري الشرق الأدنى. والذي نصادفه غالباً حتى الآن في المغائر والملاجئ الطبيعية من الواجهة المتوسطية للمشرق وللأناضول الجنوبية أكثر منه في المناطق الداخلية، التي أصبحت ربما أقل مضيافية بسبب العصر المناخي البارد والجاف نسبياً[4]، وقد حافظ هذا الكباري وطوّر موروث الحجارة الدقيقة الذي ورثه: فأدواته كلها تقريباً مشكلة من نصال رقيقة بدأت تأخذ أشكالاً هندسية (مثلثات مختلفة الأضلاع)، وذلك في الخط المستقيم لتطور مستمر وصل بعد ذلك. نحو عام 15000 قبل الميلاد، إلى «الكباري الهندسي». لكن المجموعات البشرية تظهر محدودة فيه. وإبداعها المادي محدوداً، بصناعة نادرة من العظام ودون عمل فني. ولم يكن الشرق الأدنى في حينه يدل في شيء على مستوى تطوري متقدم، على الأقل باتباع المعايير التي تجعلنا نقدر عموماً الثقافات البشرية من خلال إنجازاتها التقنية.

وقد عمل الكباري الهندسي الذي تلاه بين 15500 و12500 سنة قبل الميلاد، كما يشير إلى ذلك اسمه، على إعطاء أدواته الحجرية الدقيقة أشكالاً هندسية بشكل مفرط، والتي باتت تُصنع منذ ذلك الحين فصاعداً بمعظمها على شكل مستطيلات أو أشباه منحرفة. وقد فتح التحسن المناخي بشكل واسع كما رأينا مجمل الشرق الأدنى على الثقافة، التي نجدها من الفرات حتى سيناء، ومن البحر المتوسط حتى واحات الصحراء. وقد أصبحت إقاماته أكثر ندرة في المغائر وكثيرة جداً في الهواء الطلق، حيث تفترض وجود مجموعات أكثر عدداً من قبل وأقل حركة: وهكذا كانت «معسكرات قاعدة» تصل في بعض الأماكن إلى 2000 متر مربع مع تخصصات في المساحات المسكونة تفترض استقرارية نسبية. ونعرف حتى أمثلة كثيرة على بناء مساكن دائرية في الحفر. وبخاصة في خزّانه في الأردن وفي سيناء. ولم يكن قد عُثر على هذه «البيوت الدائرية» حتى الآن سوى مرة واحدة في الكباري بمعنى الكلمة في عين غيف Ein Guev في فلسطين، وفي مغارة جعيتا في لبنان. ولم

تكن كثيرة بعد بدرجة كافية لتشكل قرى، لكنها تصور ما ستكونه القرى النطوفية التي ستلي. كذلك فإن أدوات طحن (أجران)، التي اعتُبرت لفترة طويلة على أنها جديدة في النطوفي، ظهرت للمرة الأولى في الكباري الهندسي.

يشهد ذلك كله على نضج ثقافي تدريجي، حيث يرافق تحسين الأداة التحسين الطبيعي لإطار الحياة. إن ما «يميز» عصراً ما يكون ماثلاً دائماً تقريباً في العصر الذي يسبقه. والتفتح الثقافي لآخر الصيادين القاطفين الذي سيدخل النطوفي هو نتاج هذه الإستمرارية.

الهوامش

1. انظر الموضـوع الـذي ظـهر حديثـاً لــ Rossignol-Strick، 1995، والمؤلـف الجماعي الذي نشره Bar Yosef و Kra 1994. وأخيراً التأليف المناخي لــ Sanlaville، 1996.

2. Rognon. 1982.

3. Rognon. المصدر السابق.

4. مع ذلك يفترض وجود مناجم مثل عين غيف في وادي الأردن، أو نـهر الحمـر على الفرات الأوسط، أن الفراغ الظـاهري للمنطقـة الداخليـة يمكـن أن يرجـع إلى فجـوة في معارفنا.

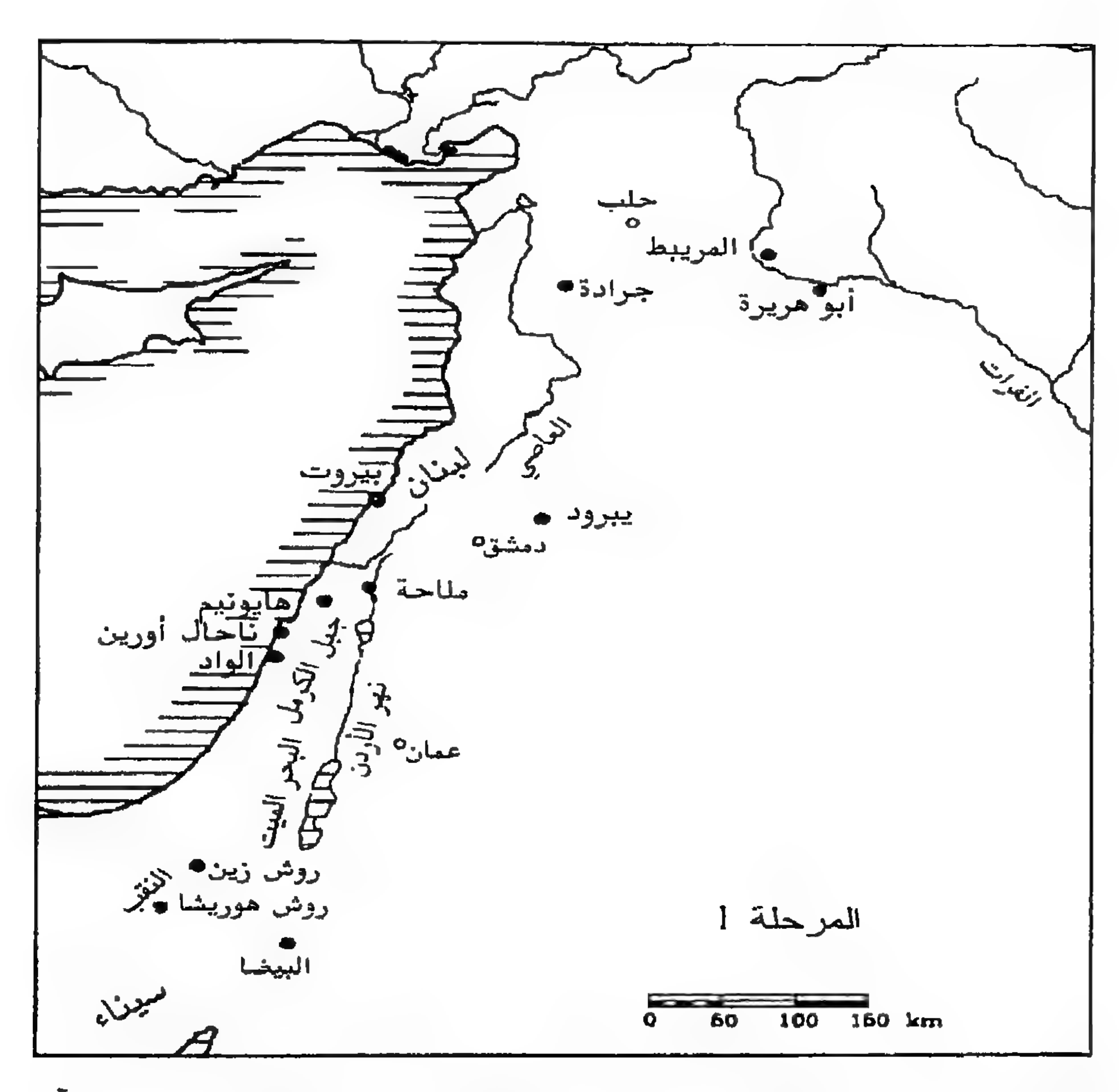
5. كذلك ندوية 2 في الواحة السورية الكوم (M.-C. Cauvin و Coqueugniot، 1989).

الفصل الثاني

القرى الأولى ما قبل الزراعية: النطوفي

لقد امتدت الحضارة النطوفية على المشرق كله تقريباً، من الفرات إلى سيناء، بين 12500 و 10000 سنة قبل الميلاد (شكل 2). وقد اعتبر النطوفي منذ فترة طويلة على أنه الفترة الإتصالية التي تحضرت فيها النولتة. وهي الفترة التي تفهم عادة على أنها الصيرورة التي مرت خلالها المجتمعات البشرية من القنص والإلتقاط إلى إنتاج المعيشة والمؤن. بل كان يُنسب لها خلال الثلاثينات لجوء مباشر ومبكر للزراعة. وقد بين تنقيب ملاحة منذ عام 1955، وهي قرية من وادي الأردن، أن الأمر كان لا يزال متعلقاً بصيادين قاطفين، لكنه أدخل بالمقابل فكرة جديدة لتحضّر واستقرار ما قبل زراعي في الشرق الأدنى: وقد أثبتت ذلك خلال فترة لاحقة اكتشافات أخرى في المشرق الجنوبي وعلى الفرات. وكان غياب المعطيات النباتية القديمة حتى هذه السنوات الأخيرة حول النظام الغذائي للنطوفيين يوازَن بتركيزهم الظاهر في المنطقة شبه الجافة ذات الزروع البرية. وكان ذلك يدعو مع وجود أهراءات في ملاحة إلى اعتبارهم ليس فقط كأوائل القرويين الحضر في المشرق، بل و«كقاطفي الزروع»، أي كأخصائيين حقيقيين كانوا قد حضّروا عبر ذلك، بتشكيلهم لهذه النباتات كمصدر رئيسي، لاستخدامها القريب في الزراعة.

لقد تكثفت الأبحاث منذ ذلك الوقت. وقد ضاعفت فرق من كافة البلدان تنقيباتها وقابلت بين نتائجها. كما مُحصت وهذبت تحليلات المتاع، وتبدأ تحليلات البقايا النباتية القديمة بالظهور. وهكذا تنتج لوحة للنطوفي أكثر تعارضاً مما كانت منذ عشرة أعوام فقط[1].



الشكل 2. *خارطة المواقع النطوفية المذكورة. 12500 – 10000 قبل الميلاد. 12000 – 10300 قبل الآن.*

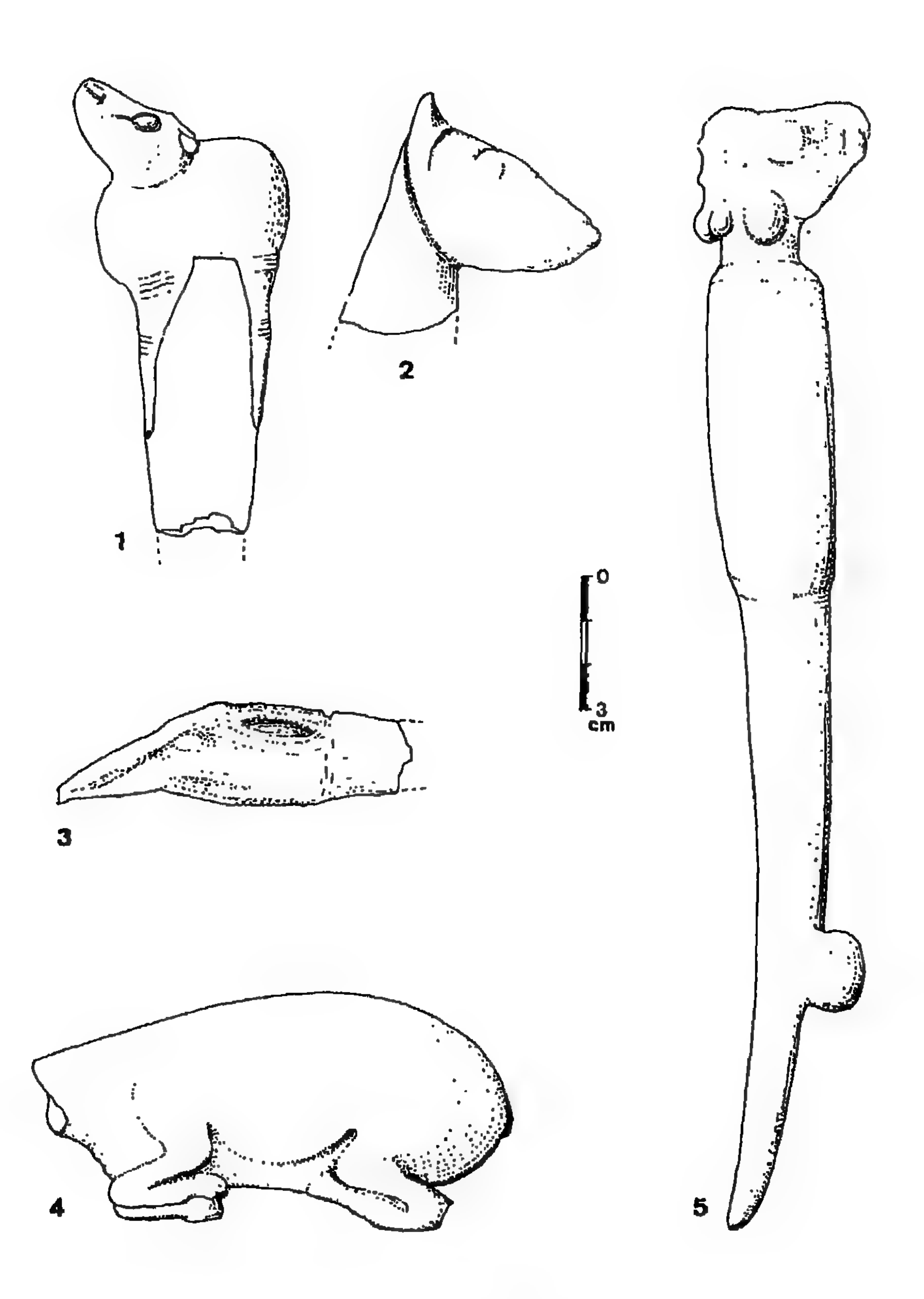
أولاً على المستوى الثقافي: لقد بدت الثقافة النطوفية. التي وُصفت في البداية على منطقة محدودة من المشرق الجنوبي فقط (جبل الكرمل وغور الأردن) أي ضمن الأراضي الفلسطينية الآن. أنها تقدم مجموعة محددة من الصفات المرتبطة بشكل منتظم[2]. فالمساكن التي كشف عنها مبنية في الهواء الطلق ومجمعة. الأمر الذي يعرِّف «القرى»: والبيوت فيها نصف محفورة في خنادق دائرية ذات جدار مدعم بحجارة غشيمة، ونجد فيها موقداً أو موقدين وآثار دعائم في خطوط متمركزة تثبت (في ملاحة) إعداد صقالات حقيقية وضخمة لحمل السقف (اللوحة 1). وبالنسبة للأدوات الحجرية نجد أن الحجريات الدقيقة الهندسية. المتعارضة جداً مع أشكال أشباه المنحرفات أو المثلثات في الكباري الهندسي. قد اتخذت مذاك فصاعداً شكل قطاعات من دائرة إنما ظلت تسلح الأدوات المركبة للصيد البري

أو البحري. وكان ثمة متاع وافر وثقيل (أجران عميقة ومدقات وأحياناً مساحق) مخصصة للطحن والسحق. ويوجد بشكل خاص صناعة مميزة من العظام (خطافات وأسنة صيد مشوكة أو غير مشوكة وأجسام أدوات مركبة وأدوات قاطعة ثاقبة مختلفة...) لا يمكن مقارنتها بسبب إعدادها الرفيع إلا بصناعة المجدلاني الأوروبي. وثمة مدافن بسيطة أو جماعية. أولية أو ثانوية. مدفونة تحت البيوت أو مجمعة خارجها في مقبرة حقيقية. ويرافق الكلب أحياناً. وكان الحيوان المدجن الوحيد. سيده في القبور. في ملاحة وهيونيم. لنستشف للمرة الأولى حالات دفن مترافقة بتقدمة الأضاحي[3]. ومن جهة أخرى كشفت مدافن عن حلي غزيرة من القواقع (بخاصة من النابيات*) والعظام. وظهرت أيضاً في نهاية النطوفي حلي من الحجارة المصقولة حيث كانت تقنية الصقل بواسطة السحج والحت. والتي اعتُبرت لفترة طويلة أنها مميزة للعصر النيوليتي. قد ظهرت منذ فترة مبكرة[4]. وأخيراً كان قد وجد في ذلك الوقت فن متاعي. أكان تخطيطياً أم طبيعياً. من العظام أو الحجر. وكان بخاصة فناً حيواني الأشكال (الشكل 3)، وهو يمثل حيوانات عاشبة. أيليات أو غزلان. وفي حالات نادرة جداً أشكالاً بشرية. وكانت في ذلك الوقت عامة وغير جنسانية. وعلى الرغم من أن المنازل التي كانت مجمعة هكذا لم تكن كثيرة جداً (خمسة أو ستة على الأكثر بحسب فرانسوا فالا François Valla). فإن متانة بنائها تدعم. مع الأثاث الثقيل وغزارة المدافن. افتراض وجود ضيعٍ ذات إعمار دائم. وبعبارة أخرى متحضرة. على الرغم من غياب أي إنتاج معيشة.

وخلال الألفين وخمسمائة سنة التي استمر خلالها النطوفي. كان لدينا من جهة أخرى ثورة جلية أشير إليها منذ فترة مبكرة جداً[5] لهذه الثقافة باتجاه التبسيط. بل والإلغاء التدريجي لأكثر عناصرها تكلفاً: ويتعلق ذلك بنمط تشذيب الحجريات الدقيقة كما وبإفقار صناعة العظام التيْ فقدت أكثر أدواتها تعقيداً. مع اختفاء شبه كامل لفن المتاع. وقد أثبت هذا التطور من خلال الأعمال الحديثة المتعلقة بالمنطقة المتوسطية من المشرق الجنوبي[6]. وأكثر من ذلك فقد بين توسيع الأبحاث إلى النقب والأردن والمشرق الشمالي أنها كان يمكن أن تكتسي فيها معنى مماثلاً[7] وتوحي بتوسع ثقافة فريدة في كامل المشرق. والحق يقال. فإن المراحل الحديثة والأخيرة من النطوفي معروفة جيداً الآن في هذه المناطق بفضل تنقيب مواقع

---

* النابية هي رخوية بحرية تعيش في الرمال وصدفتها مقوسة كالناب،



الشكل 3. مواد من الفن النطوفي القديم في الشرق الجنوبي تمثل مجترات صغيرة: مقبض سكين من جبل الكرمل (1، 3، 5)؛ تمثال صغير من العظم من ناحال أورين (2)؛ تمثال صغير مــن الحجـر من الصحراء الفلسطينية (4). عن D. Garrod و M. Stekelis وR. Neuville.

النقب (روش زين وروش هوريشا) والفرات السوري الأوسط (أبو هريرة والمريبط). أما مرحلته القديمة المتوقع وجودها في لبنان وسوريا بفضل الإلتقاطات السطحية[8] فهي غير معروفة جيدا فيها.

وعندما نبتعد عن المنطقة المتوسطية المروية بشكل جيد نسبيا، وحيث كان النطوفي قد وصف في الأصل، لنصل إلى السهوب الداخلية، فمن الطبيعي أن تتغير أنماط الحياة مع تغير المشهد. إن الإعمار الحضري في القرى المثبت جيدا بالنسبة للمناطق الرطبة في فلسطين أقل تأكيدا بالنسبة لمناطق النقب أو الجنوب الأردني (البيضا)، حيث تأسست هذه الإعمارات في وسط أكثر جفافا وحيث تنعدم فيها المدافن؛ فربما كان هذا الإعمار موسميا؟ وبالمقابل فهو محتمل جدا على الفرات الأوسط حيث يمكن تفسير المدافن في أبو هريرة والمريبط بالمساحات القليلة جدا التي نقبت.

وبشكل خاص، فإن اعتماد «القرى الأولى» كسمة أساسية للنطوفي يتبرر بتأكيد الظاهرة وجدتها النسبية، لكن ذلك لا يعني لهذا أن جميع النطوفيين كانوا قرويين. فمذاك كان ثمة في المنطقة الساحلية محطات صغيرة كثيرة سطحية تشير إلى توقفات وقتية لمجموعات محدودة: وكان يمكن أن تكون هذه المجموعات آتية من القرى نفسها، إذ بما أن المسكن كان ثابتا هناك فكان على البحث عن الغذاء أن يظل مترحلا نسبيا مع عدم وجود الزراعة. ولكن من المحتمل أن بداوة أكثر أساسية ظلت هي القاعدة في المناطق السهوبية الأكثر جفافا والأقل غنى بالنباتات القابلة للإستهلاك. ومن جهة أخرى فإننا نجد أن القطع المرتبطة بالأحرى بنشاطات الصيد[9] هي الأكثر هنا، وأن «النصال المجلوة» التي تستعمل لقطع النباتات هي الأكثر ندرة. يبقى إذن نموذج القرية النطوفية محفوظا للمناطق الغنية، وهي المناطق الساحلية وضفاف الأنهار أو البحيرات، حيث كانت الإعانة الدائمة من المصادر المائية (أسماك، قواقع، طرائد مائية، إلخ.)، والممثلة دائما بشكل جيد جدا في بقايا الحيوانات، تسهل إضافة إلى ذلك إعمارا مستقرا[10].

وكان الإقتصاد النطوفي قد عرف بمجمله على أنه التقاط وقنص «واسع الطيف»، أي أنه كان انتقائيا جدا ومستثمرا لمجموعة متنوعة من المصادر الغذائية البرية. وتبدو حالات التحضر والإستقرار مشروطة من جهة أخرى بهذا التنوع، مع مصادر موزعة بشكل كاف على مدار السنة لكي تجعل الرحلات التفتيشية عن الغذاء إلى مناطق بعيدة جدا غير ذات فائدة. ويبدو أن هذا النموذج الذي كان في البداية نظريا يتثبت مع تقدم التنقيبات.

وثمة مع ذلك نقطة هامة جداً تتغير تصوراتنا عندها: إنها نقطة «الأفضليات الثقافية» التي اعتُقد أنه تم تمييزها على هامش هذه الإصطفائية، في المجال الحيواني بالنسبة لصيد الغزال وفي مجال النباتات المقطوفة بالنسبة للزروع. فإذا كنا نجد في الواقع الغزلان دائماً في البقايا الحيوانية فذلك أن الغزال كان دائم التواجد في المشرق. ومع ذلك كان يكفي أن يكون أقل غزارة في أحد المواقع من طرائد أخرى حتى تسيطر هذه الأخيرة فعلاً في بقايا المطبخ (مثلاً ماعز البيضا والطيور في هيونيم). فليس ثمة إذن «مصفاة ثقافية» (دونالد هنري Donald Henry) لصالح الغزال، تماماً كما لم تكن هناك محاولات لتدجين هذا الحيوان. وهي محاولات كان قد اعتُقِد بإمكانية استنتاجها من هذه الأفضلية دون أي برهان آخر.

وحالة الزروع أكثر إفحاماً أيضاً. ففي أبو هريرة، بين 11000 و 10000 سنة قبل الميلاد. كان النطوفيون يقطفون بشكل مكثف الزروع البرية. ومع ذلك، وفي نهاية إعمار هذا الموقع[11] كما في النطوفي الأخير في المريبط[12]، أصبحت هذه النباتات نادرة وأصبحت نباتات أخرى (الجنجر. أصابع العروس) هي التي تستهلك بكمية كبيرة من أجل الغذاء. ذلك أن مرحلة جفاف مناخي لوحظت في المشرق كله غيرت لفترة البيئة بعد عام 9800 قبل الميلاد. فنوع الغذاء ينوس إذن ويتغير مع ما تقدمه لنا الطبيعة. فلا نكون «قاطفين للزروع» إلا بقدر ما تتوفر هذه الأخيرة قرب القرية. وليس ثمة هنا أيضاً أية ظاهرة تخصص متعمدة. وكنتيجة طبيعية بيّن التحليل المجهري لآثار الإستخدام على النصال أو على النصيلات المجلية إنها استُخدمت بحسب الأماكن في حصاد الزروع البرية أو في كافة أنواع القطاف الأخرى (القصب. الأسل. إلخ.) التي ليس هناك أي مقصد غذئي منها[13]. ويمكن لوظيفتها المحددة أن تتنوع في الحقيقة بحسب المواقع بقدر عددها النسبي في الأدوات. ولا يمكننا استنتاج شيء من ذلك دون تحليل معمق لكل حالة بذاتها.

لم يعد قطاف الزروع يظهر إذن كسمة عامة. ولا حتى متكرراً بشكل خاص، في اقتصاد النطوفي. زد على ذلك أن حدود هذه الثقافة تجاوزت بشكل واسع المساحة الطبيعية لانتشار هذه النباتات. طالما أننا نجد الآن النطوفي في واحات الصحراء الجافة جداً كما في المنطقة الشمالية المتوسطية الرطبة جداً بحيث أنها تنمو فيها عفوياً.

وبعبارة أخرى. إذا اعتبرنا كـ«ثقافة» ليس مجموع السلوك التأقلمي لمجموعة بشرية بمواجهة بيئتها الخاصة. بل السلوك فقط الذي يكشف عن معرفة قابلة للنقل

اجتماعياً ومستقلة نسبياً عن الإحتمالات البيئية («الوسط الداخلي» لأندريه لوروا ـ غوران André Leroi-Gourhan)، فيبدو أن قطاف الزروع لا يشكل جزءاً من «الثقافة» النطوفية. فأنماط الحياة فيها متنوعة كما والأنواع المستهلكة أيضاً. ونجد بينها الأنواع التي دجّنت فيما بعد إنما ليس أكثر، وأحياناً أقل بكثير، من الأنواع التي لم تدجَّن أبداً. فلا يمكننا أن ننسب للنطوفيين الوعي المسبق للخيارات المستقبلية، وذلك بقدر ما لا يجب أن يشوشنا الوجود الفعال لكافة الأدوات «الزراعية النموذجية» التي سيستخدمها لاحقاً فلاحو النيوليتي: المناجل ومتاع الطحن والسحق وحتى، في المريبط النطوفية، البليطات الحادة المعقوفة herminette من الصوان المنحوت والمطابقة تقريباً لما ستكونه، بعد ألفين إلى ثلاثة آلاف سنة. مجرفات موقع حسونة العراقي ومجارف حضارة الرافدين «العبيدية»[14]. إنما كانت في المريبط أدوات النجارة[15] التي لم يكن قد فكر فيها أحد لشغل الأرض، تماماً مثل المساحق النطوفية. بحسب آثار استخدامها، التي سحقت المغرة* والنباتات على حد سواء. ولن تصبح هذه الأدوات زراعية إلا عبر تأقلم أو تخصص لوظائفها الأساسية. وحتى الإختراع الأكثر تأخراً بكثير للمحراث وللجر الحيواني لم يكن على النيوليتيين أن يخترعوا أية أداة جديدة ليحققوا استراتيجياتهم الإنتاجية: فكل شيء كان موجوداً في العصر النطوفي. وأحياناً حتى قبل ذلك. أي عند الصيادين القاطفين المتطورين. ولا يمكننا مع ذلك أن نكشف لديهم دون تعميم خطر أي تصور مسبق لإطار تقني ـ اقتصادي مستقبلي.

هذا هو التصحيح الهام الذي تفرضه الأبحاث الحديثة على فهمنا للفترة قبيل النيوليتية المباشرة في الشرق الأدنى. إن النطوفية تشتمل، على مستوى البيئة كما وعلى مستوى التقنيات، على معظم العناصر التي ستصبح بوضعها في المنظور البنائي للسلوكات الزراعية الآتية عناصر أساسية حتى تبدو مميزة للعصور الجديدة؛ لكنها لا تزال متناثرة ومتباعدة ولا تقول لنا شيئاً عن أصل هذه السلوكات نفسها.

إن الأصالة النطوفية هي أمر آخر. فليس ثمة في تقنياتها ما هو ثوري بالضرورة، لكننا نشير بحق إلى الأهمية التاريخية للظاهرة القروية. إنها مرحلة هامة في نزعة مستمرة للبشر للتجمع دائماً في أعداد أكبر. وهي تفترض في كل حال تعديلاً تدريجياً للبنى الإجتماعية من أجل تأمين هذا التعايش المشترك بشكل أفضل.

---

* المغرة نوع من التراب الصلصالي الذي كان يُستعمل في التخضيب، م.

وبالإضافة إلى ذلك تتجذر هذه المجموعات المتنامية من خلال تحضرها في وسط مستقر، حيث يدعم مجتمع الموتى بشكل مجازي، الذي تشهد عليه أولى المقابر المختلطة مع المساكن، مجتمع الأحياء[16] ويستطيع أن يحلل بطريقة ما مكوثها الثابت. والحال أن الزراعة هي حقاً اختراع قرويين متحضرين. والنطوفيون هم الذين طوروا في الشرق الأدنى الأطار الإجتماعي الذي دشن فيه خلفاؤهم. البيولوجيون والثقافيون معاً. الستراتيجيات الجديدة التي سنعمل هنا على تفسير بزوغها. لقد استندت ببساطة نماذج تفسيرية تم تجاوزها حالياً، بتقليص هذه الإشكالية إلى مستوى الحاجات البيولوجية، إلى وجود عدد أكبر من الأفواه التي يجب تغذيتها. وسنرى أن الأمر ليس بهذه البساطة.

وفي كل حال نذكر أنه كان يوجد قبل خمسة وعشرين ألف سنة أو ثلاثين ألف سنة، أي قبل النطوفي بكثير، مجموعات من الإقامات المستقرة منذ ذلك الحين في «الغرافيتي Gravettien» وفي «البافلوفي Pavlovien» في أوروبا الوسطى المعاصرين للأورينياسي Aurignacien المشرقي. وكانت هذه المساكن مبنية بشكل متميز وترافقها أحيانا مدافن جماعية أو فردية، والتي لم تكن قد حصلت فيها مع ذلك أية صيرورة نولتة. إن الميل الإنساني إلى التجمع عام جدا ويخص نوعنا. والشرق الأدنى ليس أبدا السباق في هذا التطور الكوكبي. وبالنظر إلى أوروبا الوسطى فإن الأمر ليس على الأكثر سوى استدراك...

يبقى إذن تفسير الديناميكية الخاصة التي صنعت القرى في الشرق الأدنى. وديناميكية هذه القرى فقط، الإطار المميز للثورة النيوليتية. فالمهمة الأولى التي تفرض نفسها هي التحليل الدقيق لمختلف التغيرات التي تشكل هذه الثورة وترتيبها في الزمن.

الهوامش

1. انظر Bar Yosef et Valla، طبعة 1991.

2. بالنسبة لجبل الكرمل انظر Garrod، 1973؛ وبالنسبة لملاحة انظر Perrot، 1966، و Valla، 1984 و Stordeur، 1988 و Perrot وآخرون 1988.

3. Valla وآخرون، 1990؛ Belfer- Cohen، 1990.

4. Maréchal، 1991.

5. Garrod، المرجع السابق؛ Perrot، المرجع السابق.

6. Stordeur، المرجع السابق، ص.111. وانظر أيضاً الندوة حول النطوفي: Bar Yosef et Valla، المرجع السابق.

7. Valla، 1988؛ Byrd، 1989؛ Cauvin M.-C., 1991a. إن الثقافة المسماة «الحريفية» والمحدودة بالنقب وسيناء تبدو مرحلة محلية من النطوفي المتأقلم بشكل خاص مع بيئة جافة وتسلسل زمني، من 10500 إلى 10000 سنة قبل الميلاد، يقود بسرعة إلى النطوفي الأخير (المريبط Ia) والخيامي القديم ((المريبط Ib) في المشرق. انظر Goring- Morris، 1991.

8. انظر Cauvin M.-C.، المصدر السابق.

9. انظر مواضيع Büller et Anderson-Gerfaud *in:* Cauvin M.-C. (éd.), 1983.

10. Bouchud، 1987؛ Pichon، 1991.

11. Moore et Hillman، 1992.

12. Van Zeist et Bakker-Heeres، 1984.

13. Anderson-Gerfaud، 1983؛ Anderson (éd.)، 1991؛ Anderson et Valla، سيظهر قريباً.

14. Cauvin M.-C.، b1979.

15. Coqueugniot، 1983.

16. Perrot وآخرون، 1988؛ Barthélémy de Saizieu، 1989.

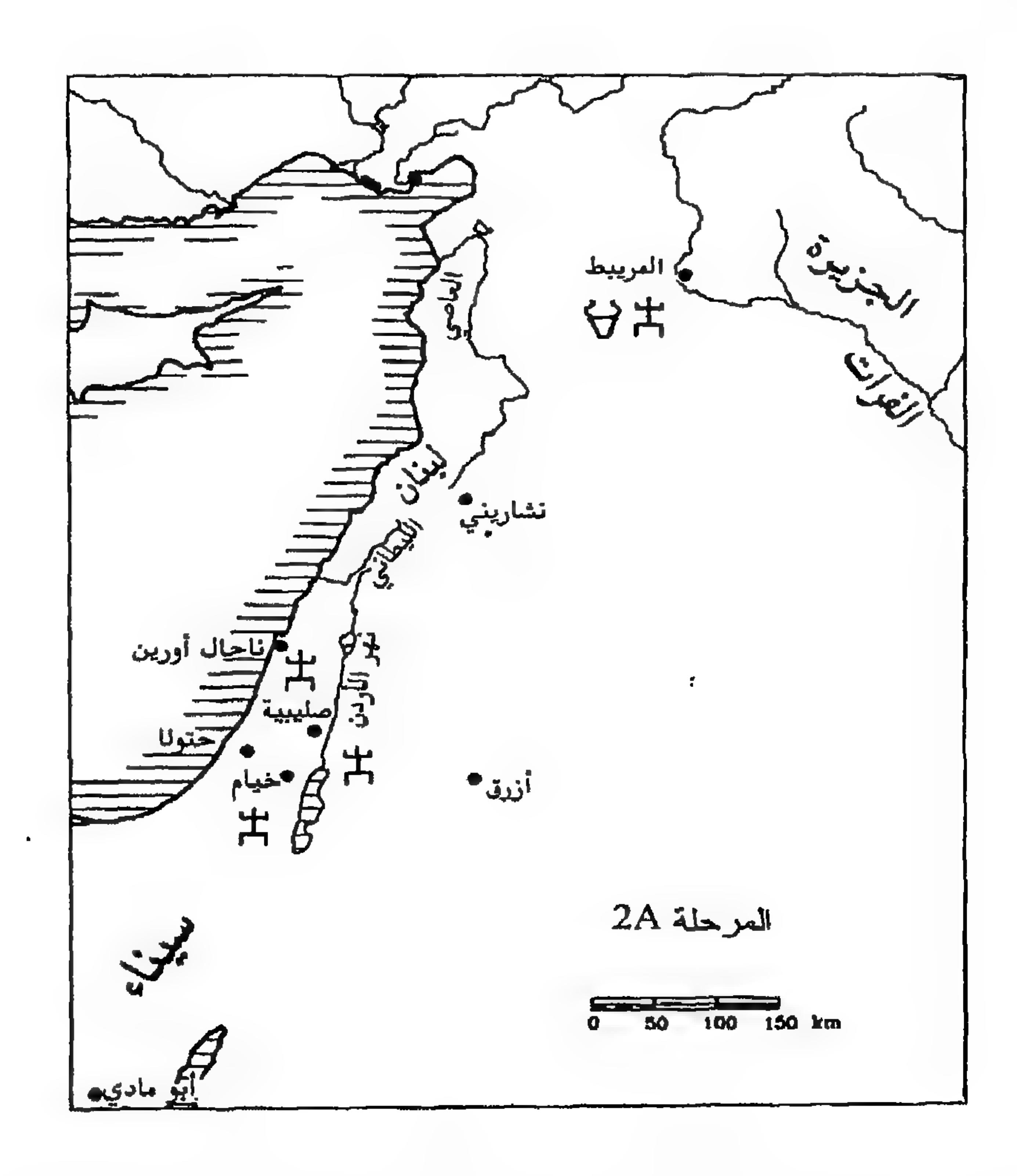
الفصل الثالث

ثورة الرموز
وأصول الديانة النيوليتية

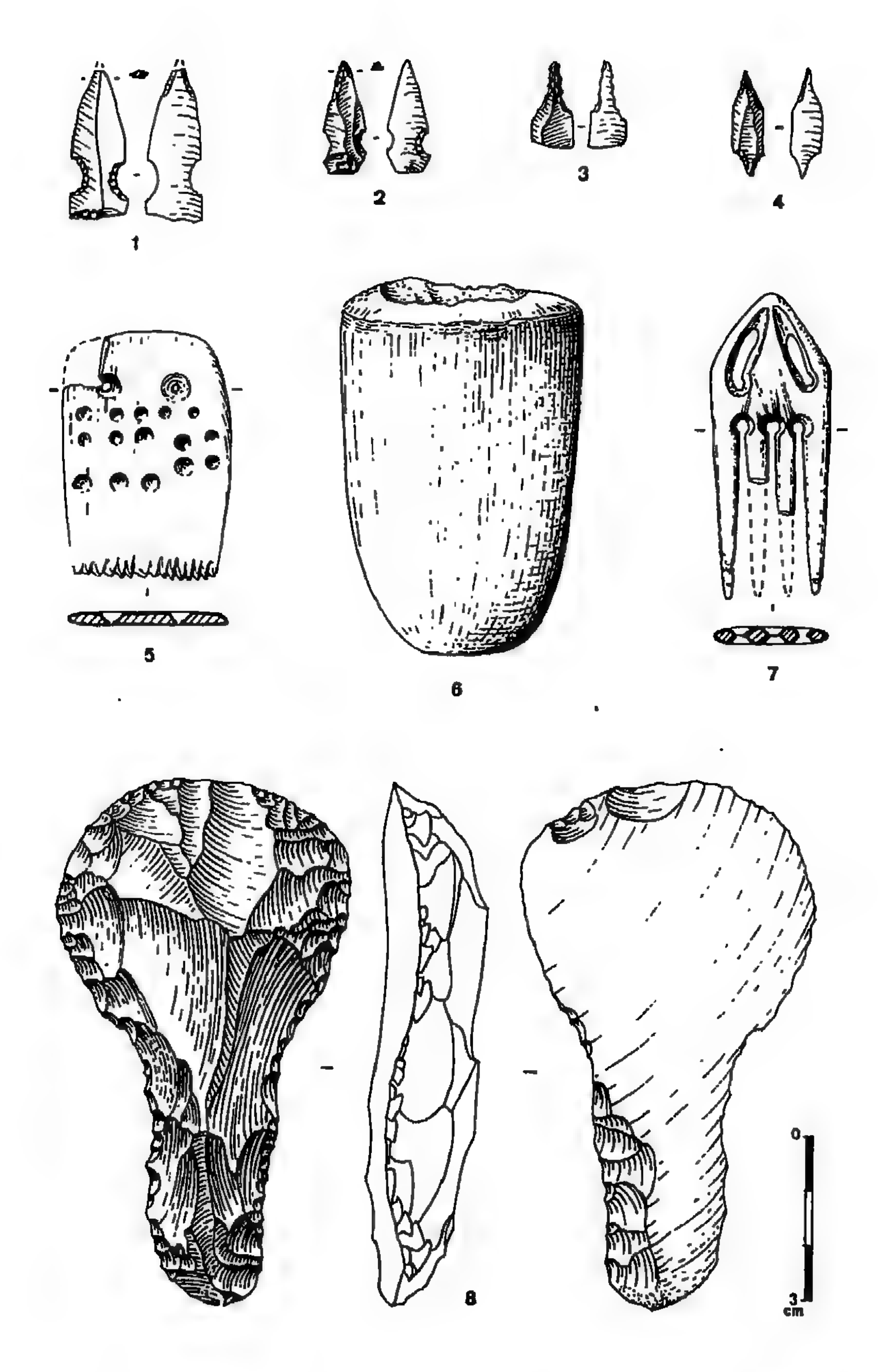
إن الفترة المعروفة تحت اسم «الخيامي»، والتي تندرج بين 10000 و 9500 سنة قبل الميلاد، تظهر للوهلة الأولى وكأنها تميز انتقالاً بسيطاً بين النطوفي والأفق التسلسلي الزمني التالي المشار إليه في المشرق بالأحرف PPNA (النيوليتي ما قبل الفخار *Pre- A* «*Pottery Neolithic A*»). لكنه يبقى دون شك أكثر قرباً، من منظور ثقافته المادية، مما يسبق منه مما يلي: فهو بداية الظهور الوحيد لأولى رؤوس السهام، من نمط ذي فرضات جانبية يسمى «نبال الخيام» بحسب الموقع الفلسطيني الذي يحمل الاسم نفسه، والذي ولد التسمية العامة «الخيامي» للإشارة إلى كافة المواقع التي تحتوي على هذه الرؤوس. وهذه المواقع كثيرة بين الساحل الفلسطيني والبحر الميت ووادي الأردن، بل وأيضاً على الفرات (المريبط) وفي بعض الواحات الأردنية (الأزرق) وفي جبال لبنان الشرقية (نشاريني) وفي الجنوب حتى سيناء (أبو ماضي) (الشكل 4). وهنا أيضاً حددت التنقيبات الحديثة التواريخ والموضع الستراتيغرافي (الطبقاتي) للخيامي: والأساسية منها هي طبقات المريبط (B I و II)[1] وصليبية IX على الأردن[2] وحتوله Hatoula في تلال الصحراء الفلطسينية[3].

ولما لم يكن رأس السهم يَستبدل إلا شيئاً فشيئاً القَطع ليسلح القذائف، فقد بدأت نبال الخيام (الشكل 5: 1 – 2) بالتالي تتواجد في كل مكان مع الحجيرات النطوفية الدقيقة التي كان يتناقص عددها قبل أن تحل محلها بشكل كامل (مريبط II). ويتعلق الأمر

هنا بتقدم تقني بسيط في مجال محدد تماماً هو مجال الصيد. أما بقية الأدوات فتتبع بشكل أساسي الموروث السابق مع تنويعات محلية مثل وجود البليطات الحادة المعقوفة في المريبط والتي تشكل استمراراً للبليطات السابقة لها في النطوفي الأخير. أو أيضاً في الموقع نفسه وجود صناعة عظمية متقنة بشكل خاص: أدوات سنية (الشكل 5: 5، 7)، إبر ذات عين، فناجين (الشكل 5: 6، 7).



الشكل 4. *خارطة المواقع الخيامية مع التصويرات المؤنثة والثيرانية، 1000 - 9500 قبل الميلاد، 10300 - 10000 قبل الآن.*



الشكل 5. *الصناعة الخيامية في الريبط (سوريا).*

مواد صوانية: رؤوس سهام من نمط الخيام (1 – 2)؛ مثاقب دقيقة (3 – 4)؛ بليطات (8).

مواد عظمية: صفيحة مسننة (5)؛ فنجان (6)؛ مشط ذو جديلة (7).

وقد ولد تقدم تقني آخر في مجال آخر هو مجال العمارة. فالقرى لا تبدو أبداً مختلفة ولا أكثر أهمية منها في النطوفي. باستثناء أن عنصرها الأساسي، البيت المستدير (الدائري أو البيضوي) أصبح يمكن مذاك أن يخرج من حفرته البدئية ليُبنى مباشرة على السطح (مريبط II، أبو مادي). ويتطلب ذلك استخدام «التراب للبناء»، أكان من أجل تشكيل الجدار نفسه (الآجر أو التراب المدكوك) أو كملاط بسيط من أجل إمساك الحجارة[4]. كذلك يبدو الصيد البري والصيد البحري والقطاف متنوعين كما في السابق.

فهذه الفترة لا تستحق بالتالي أبداً أن نجعل منها المرحلة الأولى من النولتة لو لم يحصل خلالها نمط آخر من التحول. وهو حاسم بالنسبة لنا. وهو الذي دعوناه «ثورة الرموز»[5]. ووجهة النظر الرمزية هذه نادراً ما يتم تناولها في علم الآثار ما قبل التاريخي. ونحن نعرف جهود أندريه لوروا ـ غوران من أجل إعادة تشكيل بنى التخيل عند الصيادين القاطفين في العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا الغربية انطلاقاً من فنهم[6]. وقد أوحينا نحن في عام 1978 أن تغيراً في النفسانية الجمعية في مجال النولتة كان قد أمكن أن يسبق وينتج كافة التغيرات الأخرى[7]. كذلك حاول حديثاً باحثون إنكليز. بدفع من يان هودر[8] Ian Hodder، ضمن مسعى «علم آثار رمزي»، أن يبحثوا إلى ما وراء القصد التجريبي والتأقلمي للمواضيع الآثارية عن البنى الكامنة التي تشكل في كل ثقافة وحدتها الديناميكية وتتدخل فعلياً في تفعيلها. وسيكون علينا أن نطرح أكثر من مرة في هذه الصفحات أسئلة من هذا النوع.

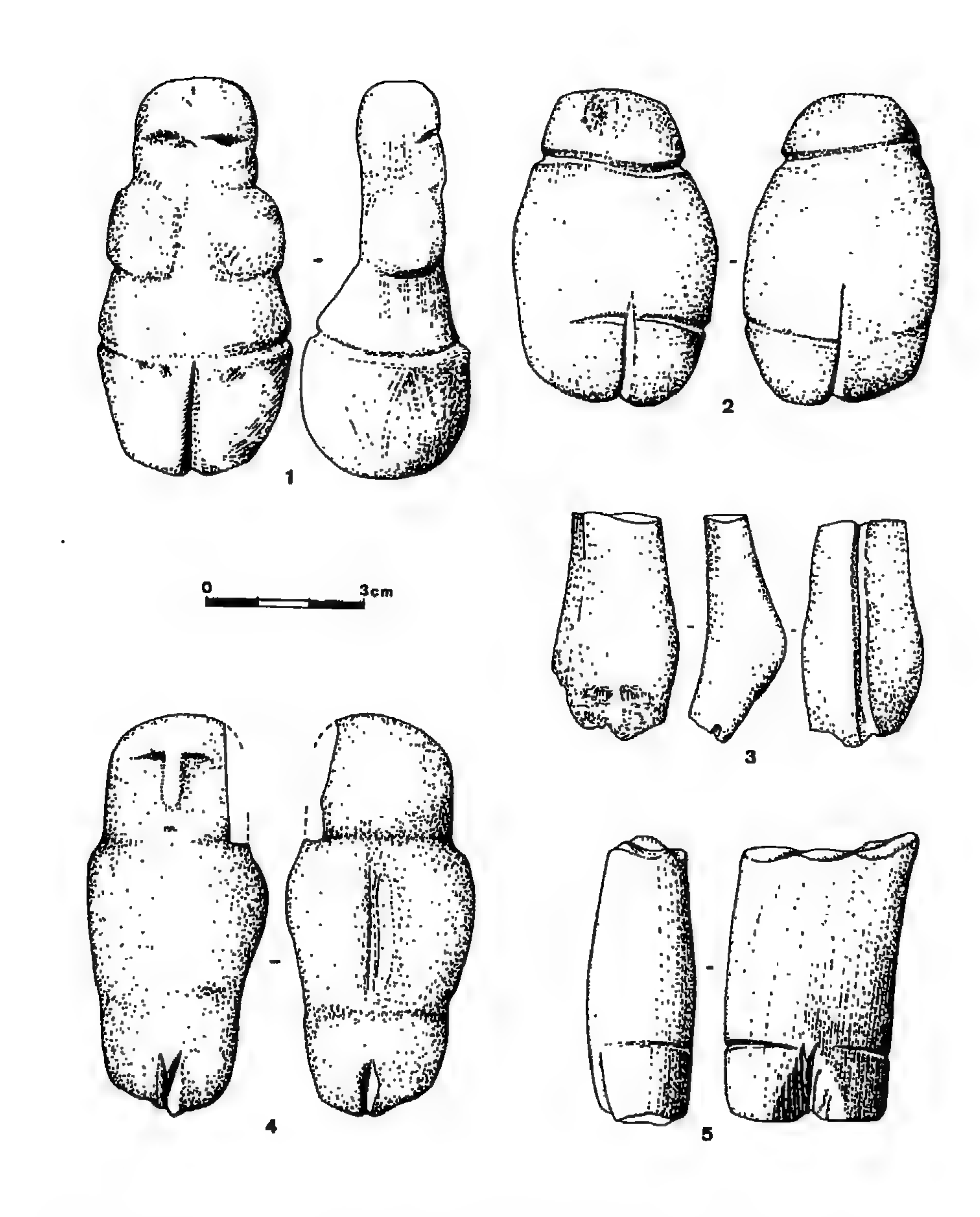
والحال أن الفن يقدم بين كافة الوثائق التي نملكها تلك التي تملك الفائدة العملية الأقل ولكن التي يمكنها بالمقابل، بفضل التصوير الذي تطوره، أن تضعنا بأحسن ما يمكن في أثر «المنظومات الرمزية» (كلود ليفي شتراوس Claude Lévi-Strauss) الكامنة فيها. ومن هذا المنظور فإن الفترة الممتدة بين 10000 و 9000 سنة قبل الميلاد، أي التي تشتمل على الخيامي وعلى أربعة أو خمسة قرون تالية تأتي تماماً قبل بزوغ القرى الزراعية، تشهد على تغيرات هامة. ونحن محظوظون في الواقع بأن ثمة فن تصويري، يسبق ويتخلل هذا التغير، يسمح لنا بتقدير حقيقة هذا الواقع.

المرأة والثور

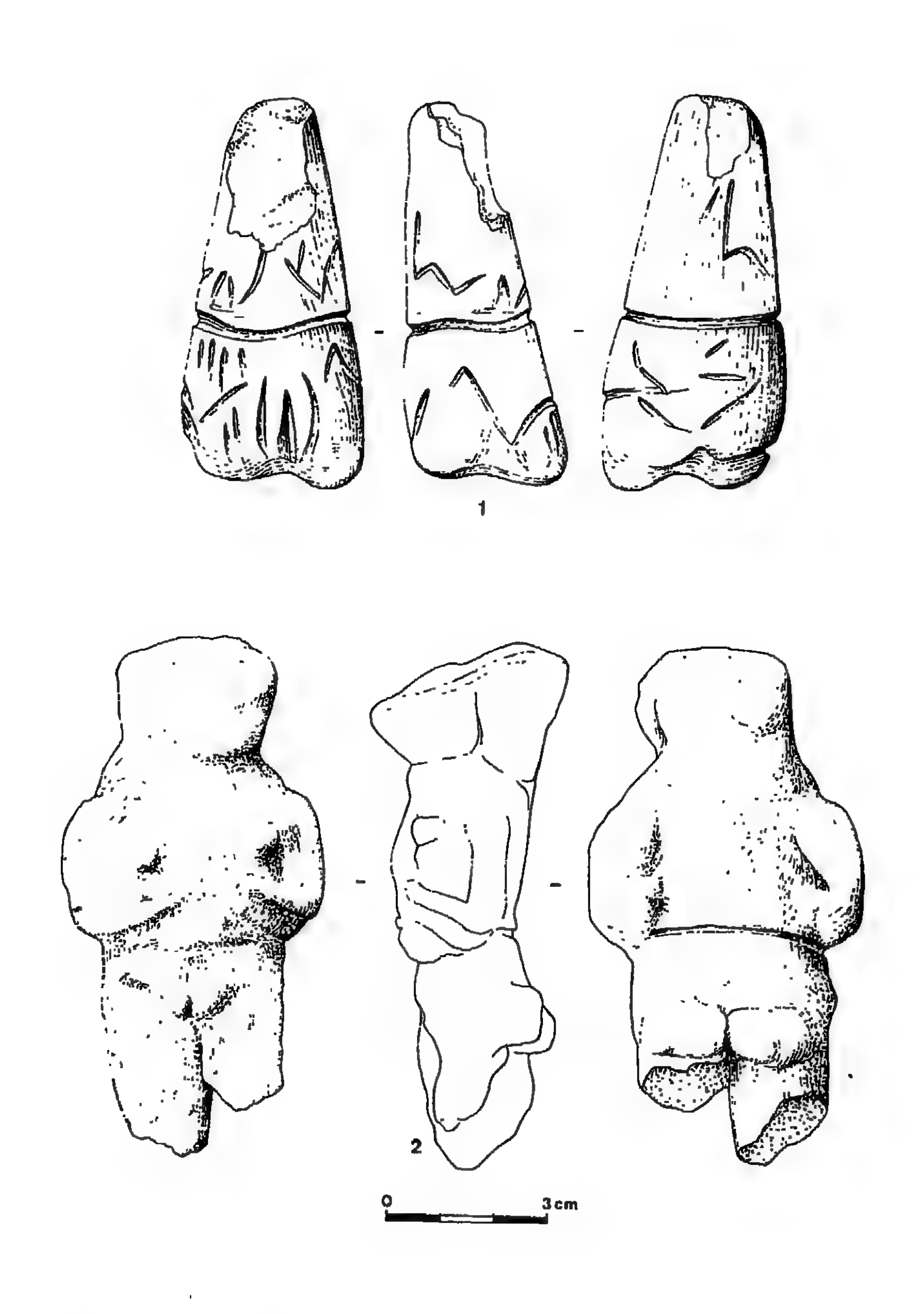
كان الفن النطوفي كما سبق ورأينا حيواني الأشكال بشكل رئيسي (الشكل 3)، تماماً مثل الفن الفرانكو ـ كانتابري في الغرب والذي كان معاصراً جزئياً له. وكانت الغزلان والأيليات (الأيل الأسمر؟) هي الأنواع الرئيسية الممثلة فيه، على شكل مواد متاع[9] يمكن التعرف على موضوعها تقريباً بحسب ما كان هذا الفن نفسه طبيعياً أو تخطيطياً، إذ أن الأسلوبين تواجدا معاً. ونعرف أيضاً تمثيلاً لطير (في وادي حمة) وآخر لكلب (في نحل أورين). وعلينا أن نتمسك بهذه المعطيات الفظة لأن الفن المتاعي غالباً ما يكون تائهاً؛ فتمثيلاته الحيوانية والرؤوس أو الأجسام البشرية اللاجنسية النادرة جداً التي نجدها أحياناً[10] تكتشف في كل مرة معزولة، ومحرومة من لعبة العلاقات المكانية أو التجاورات أو الإبعادات المتبادلة، هذه اللعبة التي كانت قد سمحت للوروا غوران أن يستقرئ من رسمات المغائر الباليوليتية (العصر الحجري القديم) ترتيباً كاشفاً للأنواع وبعض البنى الفكرية المعبر عنها بواسطة هذا الفن.

والحال أن التغير الرئيسي في الخيامي يبدو أنه يتعلق حقاً بالفن: إذ نجد تماثيل بشرية صغيرة من الجص، وُجدت في وادي الأردن (صليبية IX وجلجال) وقد أصبحت مذاك تمثيلات أنثوية كانت لا تزال تخطيطية (الشكل 6)؛ وثمة وثائق مماثلة مصدرها جبل الكرمل (نحل أورين) وضفاف البحر الميت (الخيام) وأخرى مكسورة من خيامي المريبط (المرحلة II). ولا نعرف بالمقابل أي تمثيل حيواني بالنسبة لهذه الفترة في المشرق.

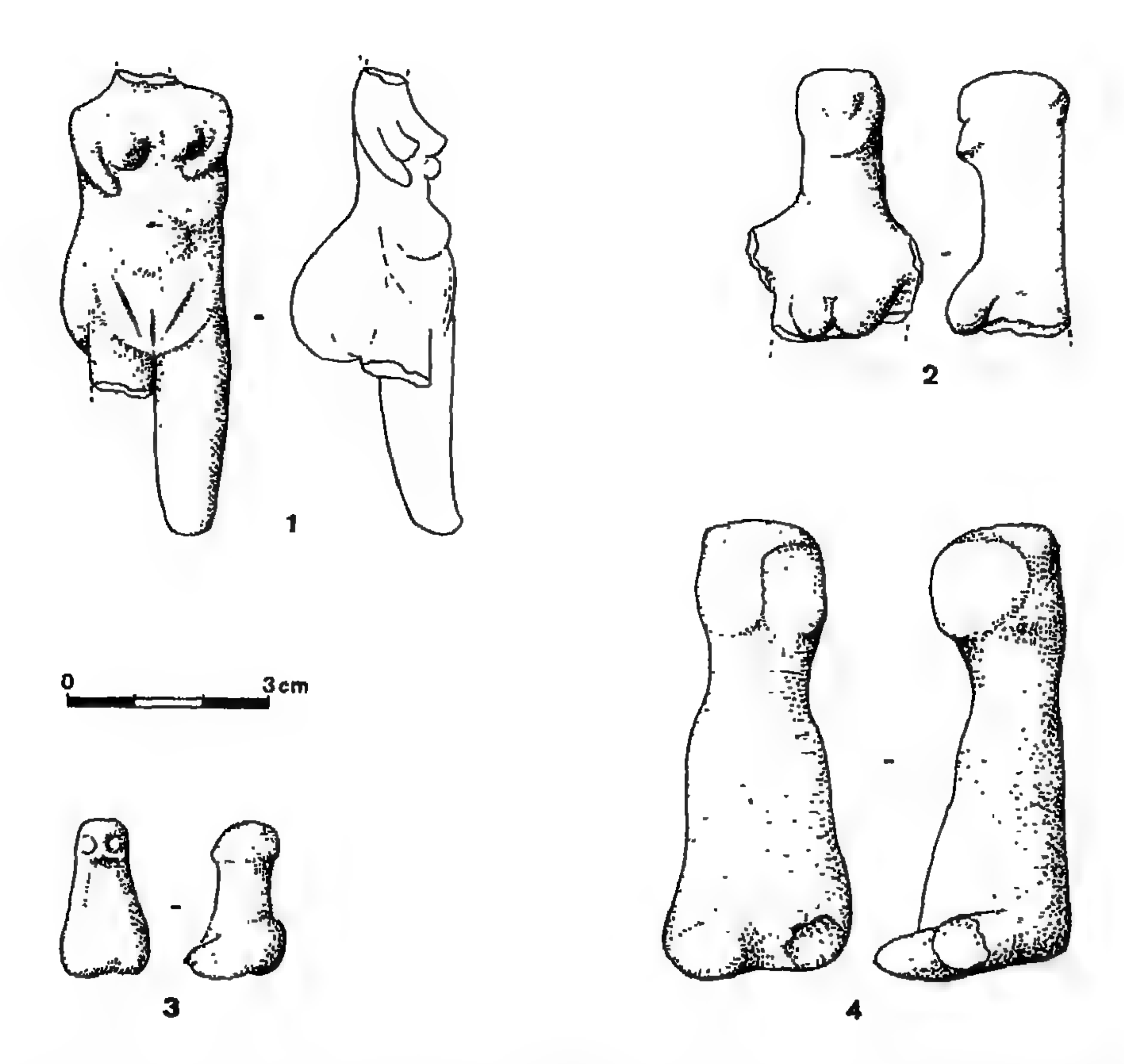
وبعد فترة قصيرة، بين 9500 و9000 قبل الميلاد، بل وأيضاً مباشرة قبيل ظهور اقتصاد زراعي على الفرات، كشف موقع المريبط (السوية A III) وثائق أكثر توضيحاً أيضاً: ثمانية تماثيل صغيرة (شكل 7 و 8) من الحجر أو من الطين المشوي، هي عبارة عن تمثيلات أنثوية. ويحدد معظمها بوضوح الجنس أكانت طبيعية أم تخطيطية. وثمة إثنان من بينها، بشريان إنما أكثر تبسيطاً، لا يمثلان أي صفة جنسية حاسمة: وهما يشيران دون شك إلى الواقع نفسه إنما بشكل أكثر تلميحية. وليس ثمة تماثيل ذكرية وواحد منها حيواني الشكل؛ وهو يمثل كاسراً ليلياً. فأنسنة الفن المدهشة هي إذن السمة الأولى الملاحظة وما تشير إليه هو شخصية أنثوية في كل مرة تسمح فيها واقعية كافية بتفسير جنس التمثال.



الشكل 6. تماثيل حجرية صغيرة من الخيامي في الألف العاشر قبل الميلاد. 1: صليبية IX (عن بار يوسف O. Bar Yosef). 2: ناحال أورين (عن ستكليس M.Stekelis ويزرائيلي T. Yizraeli). 3: الخيام (عن إشغاراي J. G. Echegaray). 4. جليغال (عن نوي T. Noy). 5: مريبط (عن كوفان J. Cauvin).



الشكل 7. تماثيل مؤنثة من الحجر من الريبيطي القديم (سوريا، نهاية الألف العاشر قبل الميلاد).



الشكل 8. *تماثيل مؤنثة من الطين المشوي من المريبطي القديم (سوريا. نهاية الألف العاشر قبل الميلاد).*

ومع ذلك ليست كافة الحيوانات غائبة عن هذه المجموعة الرمزية، على الأقل في المشرق الشمالي، لكن موضوعها يبدو مختلفاً تماماً عن موضوع الفن النطوفي. فإضافة إلى تمثال الكاسر الذي سبق ذكره بالنسبة لمريبط، والذي يمكن أن يميز أول ظهور في الشرق الأدنى للموضوع الذي انتشر كثيراً بعد ذلك في الرمزية الشرقية[11]، فإن المملكة الحيوانية ممثلةٌ بالثور إنما ليس بعد وفق النمط «الفني». ومنذ بداية الخيامي، نحو عام 10000 قبل الميلاد، تم في الواقع كشف جماجم كاملة للأرخص دفنت مع قرونها في البيوت، وذلك في قلب «مقاعد» من الصلصال المنقول، ومقترنة فقط مع ألواح الكتف للبقريات أو الخيليات. وبعد ذلك، وخلال تاريخ المريبط كله، نجد دائماً قرون ثيران مدفونة في الجدران[12]. وعلى الرغم من أن الأمر لا يتعلق هنا بتمثيلات مصورة مثل تلك التي ستكثر لاحقاً، فإن هذه المخازن المتعمدة تشهد بالتأكيد على بعد رمزي: كان القرويون الخياميون في المريبط، مثل

النطوفيين. يطاردون كثيراً في حينها بعض العاشبات في السهوب (الغزلان والخيليات) طلباً لحاجاتهم الغذائية. إنما كانوا يطاردون قليلاً جداً حتى ذلك الوقت، لا شك بسبب عدم وجود الجسارة أو تقنيات الأسر المناسبة، الثيران البرية الموجودة مع ذلك في المعرض الغابي على ضفاف الفرات. فجماجم الثيران هذه لا تعكس إذن أية عادة عملية.

ومذاك. فإن ما نراه يبزغ للمرة الأولى في المشرق حول عام 9500 قبل الميلاد، في إطار اقتصاد الصيد ـ الإلتقاط الذي لم يكن قد تغير بعد إنما تماما عشية انقلابه الكامل، هما صورتين رمزيتين مسيطرتين. المرأة والثور. وهما سيحفظان البطولة طيلة العصر النيوليتي وعصر البرونز الشرقيين. بما في ذلك ديانة المتوسط الشرقي ما قبل الهليني. وهنا أيضا يتعلق الأمر بخاصة بمواد متاع ستقدم لنا صعوبات التفسير نفسها التي وجدناها في النطوفي. هذا إذا لم يكن من المشروع الآن أن نجعلها تستفيد مما نعرفه عن سلالتها القريبة في المساحة الثقافية نفسها.

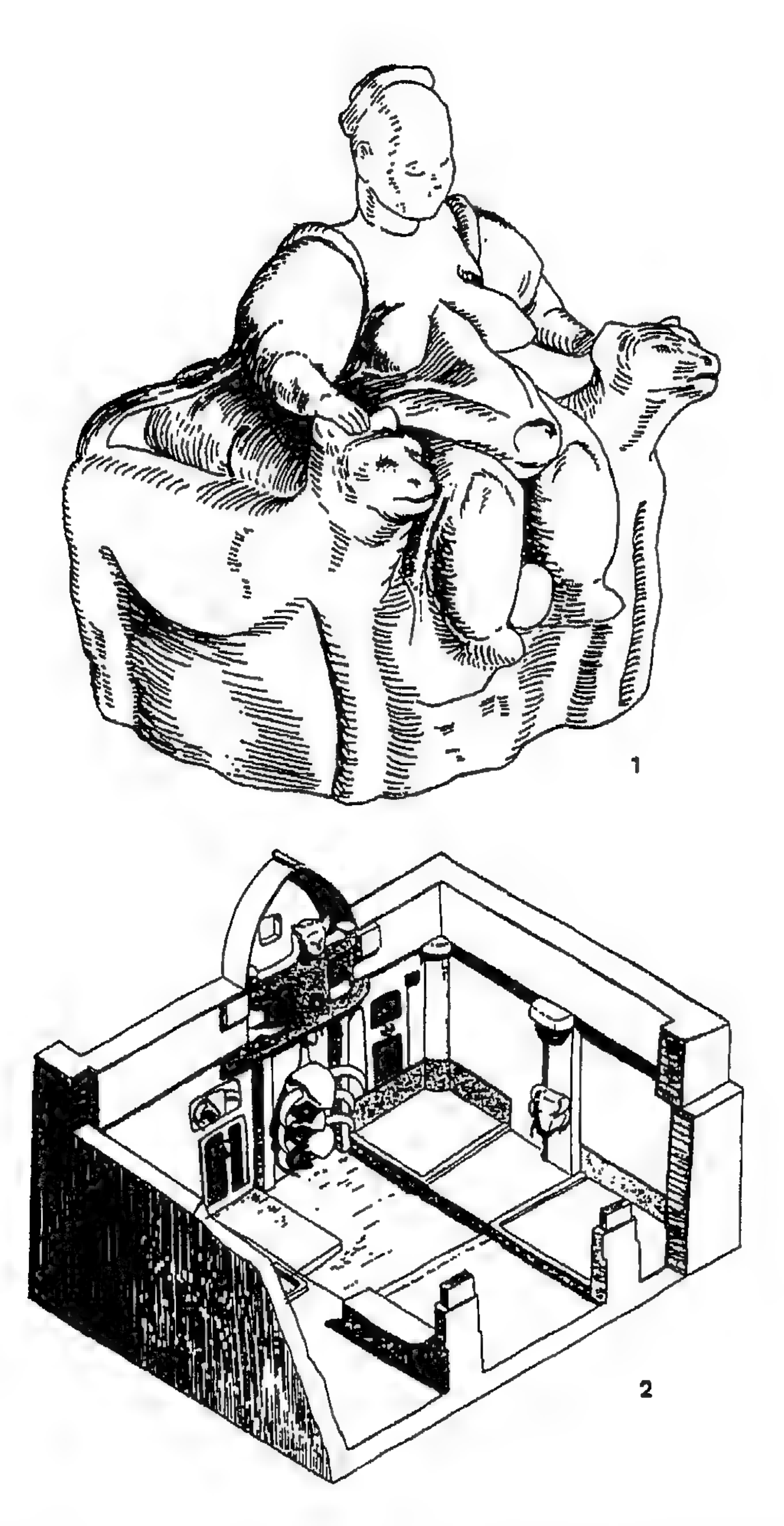
ديانة جديدة

ستتضاعف في الواقع التمثيلات الأنثوية بسرعة كبيرة في كامل نيوليتي الشرق الأدنى. وسيكون إطارها الإقتصادي هو الزراعة مذاك فصاعدا. وفي الوقت نفسه، وعلى مستوى تحقيقها البسيط وبيئتها المادية فإننا غالبا سوف ندرك مغزى ما بشكل أفضل. وهكذا فسنصف لاحقا انتشار النيوليتي باتجاه الأناضول بدءا من أصله في المشرق الشمالي. ولنقل منذ الآن إن المرأة والثور سيكونان سائدين بعدد تمثيلاتهما في الألف السابع في حضارة شاتال هويوك[13] الناتجة مباشرة عن هذا التيار. لكنهما سيظهران في قلب مجموعات معمارية حفظت بشكل استثنائي. حيث تضاف إلى التماثيل الصغيرة لوحات جدارية ملونة ونقوش بارزة. ويمكننا مذاك تعميق التحليل بأن نأخذ بعين الإعتبار العلاقات الموضحة التي توحي بها الدراسة الموضوعية والمكانية لهذه المجموعات المركبة[14]. وسندرك بذلك أن هذه «المرأة» هي حقا إلهة: فهي تسود في نقوش بارزة تخطيطية وضخمة في شاتال هيوك على الجدار الشمالي أو الغربي للمعابد البيتية. بحيث تباعد بين ذراعيها ورجليها لتنجب ثيرانا (وأكباشا بشكل استثنائي) حيث تبدو الجمجميات* المنحوتة المتراكمة تحتها وكأنها خارجة منها (شكل 9: 2). وتضيف عليها اللوحات والنقوش البارزة الجدارية رفقة ذات مغزى: ويتعلق الأمر بفكوك لحيوانات لاحمة (ابن عرس، ثعلب) أوقرون الخنازير أو مناقير

* الجمجمية هي حلية معمارية على شكل جمجمة ثور غالبا كانت تنحت في أبنية عصر النهضة وفي العصور القديمة، م.

النسور، وهي كلها حيوانات ضارية أو خطرة، مخفية في «صدور» من الصلصال تبرز من الجدران في تجميع عجيب من الرموز المغذية والقاتلة، أو أيضاً من الجوارح (النسور) التي تنقضّ في اللوحات الجدارية الملونة وقد نشرت جناحيها على أناس صغار ملتوين على أنفسهم وبلا رؤوس. وقد أشار جيمس ميلارت James Mellaart منقب شاتال هويوك محقاً إلى البيئة الجنائزية لهذا التصوير، حيث تسود ربة الحياة على الموت أيضاً. وهكذا ففي فن المتاع لا تكون التماثيل الأنثوية الصغيرة الكثيرة جداً بالنسبة لأبسطها في شاتال هويوك وفي هاشيلار Hacilar، وهو موقع أناضولي آخر من الألف السابع، سوى ذرية لتماثيل المريبط الصغيرة. مع المبالغة نفسها في الوركين الأمر الذي يشير إلى الخصوبة. ولكن ثمة أيضاً في الأناضول إنجازات أكثر تعقيداً تكشف عن «تجميعات أفكار» يحرمنا منها غالباً الفن المتاعي. وهكذا نجد في تمثال صغير مشهور من شاتال هويوك (الشكل 9: 1) الإلهة البدينة تنجب وهي جالسة على نمرين يشكلان عرشاً لها؛ وفي هاشيلار نجد الشخصية نفسها تجلس على نمر أيضاً وتحمل بذراعها طفلاً حيناً وأصهباً فتياً حيناً أخر. وهكذا تتلاقى إذن. في تجميعات سريالية تتأتى بالتأكيد من عالم الخيال، أفكار الخصوبة والأمومة والملك والسيادة على الأسود. وهذه هي بحق كافة سمات الإلهة الأم التي ستسود مجمع الأرباب الشرقي حتى ظهور الإله الواحد الذكر في الديانة اليهودية.

كذلك فإن صورة الثور هي موضوع شبه استحواذي في شاتال هويوك. فضمن الخط المستقيم الناتج عن الجمجميات الأولى، التي لا تزال «طبيعية»، والتي وجدت في المريبط[15]، فقد أصبحت هذه الأخيرة تحفاً فنية بما أصبحت رؤوسها تشكل منذ ذلك الحين فصاعداً من الصلصال وتُثبَت على الجدران؛ إنما كانت تزين دائماً بقرون طبيعية. وكانت القرون تبرز أيضاً في المعابد من مختلف الأعمدة والمقاعد. في حين كان على الحيطان الجدارية نفسها يحتل تصوير ضخم للثور بغزارة كامل أحد الجدران وقد شُكِّل بشكل بارز وحُزَّ ولوِّن. ويحاط الحيوان في الكثير من هذه اللوحات الجدارية (الشكل 10) بأشخاص متحركين ومسلحين بأقواس وحراب؛ ويشير هؤلاء الممثلين بدرجة مصغرة جداً بالنسبة له إلى ضخامته من خلال التعارض في الحجم. ويتعلق الأمر بأحد المشاهد الأولى المعروفة حول مصارعة الثيران. التي نجد هنا أيضاً استمراريتها. في المتوسط الشرقي في الإحتفالات المينوية. وبشكل خاص. وكما هو الحال بالنسبة للإلهة، فإن المعطيات هنا المتأتية من التحليل المكاني. الموضع والإرتباطات بين الصور والتعارضات الحجمية المدرّجة لقيمها الخاصة بها. هي التي تضعنا على طريق فكرة رمزية مبنية تُحدَّد فيها وتتوضح السيطرة الكمية البسيطة لهذه التمثيلات التي يجب الإكتفاء بها في مواقع أخرى.



الشكل 9. *الإلهة الأم في شاتال هويوك (تركيا. الألف السابع قبل الميلاد): تمثال صغير لإلهة مع نمرين. إعادة تشكيل. 16,5 سم بلا الرأس (1)؛ إعادة تشكيل للمعبد البيتي مع الألوهة بشكلها النقشي البارز وهي تلد الثيران (2). عن J. Mellaart.*



الشكل 10. *لوحة جدارية ملونة من شاتال هويوك: ثور ورجال مسلحون (تركيا. الألف السابع قبل الميلاد). عن J. Mellaart.*

وفي الواقع تفترض الرسمات والنقوش البارزة لكي تكون معروفة لدينا أن تكون الجدران نفسها لا تزال قائمة عندما يتدخل عالم الآثار. ففي المريبط، حيث لم تُحفظ سوى أساسات الجدارن، تم الكشف عن مخطط للوحات جدارية ملونة ذات تزيينات هندسية لن نستطيع أن نعرف أبداً أي شيء آخر عنها. ومن جهة أخرى، وبعد ظهور الفخار، فإن ثقافة من الشرق الأدنى هي ثقافة حلف ستغطي مع نهاية الألف السابع سطوح آنيتها التي وصلتنا بتزيينات طبيعية. وستكون الشخوص الأنثوية وجمجميات الثيران موضوعاً مسيطراً ومتكرراً عليها، وسنجد بشكل خاص في موقع العربجية في العراق، كما في شاتال هويوك، مشاهد مركبة نتعرف فيها في آن واحد على موضوع الإلهة[16] وعلى مشهد الصيد معبراً عنهما بشكل جيد كما في الأناضول.

وعلى امتداد النيوليتي كله وفي كامل الشرق الأدنى والأوسط نصادف بالتالي، عبر أنماط تعبير مختلفة وعبر الأساليب الفنية المتعارضة أحياناً والتي تساهم في تمايز الثقافات، «إيديولوجية» وحيدة سنرى أمثلة أخرى عليها. وهي منظمة حول رمزين ـ مفتاحين: أحدهما مؤنث وله مذاك شكل بشري. فربما كان مشتقاً من التماثيل الأنثوية الأولى المعروفة في العصر الحجري القديم الأعلى في أوروبا والتي انتشرت حتى سيبريا؟ لكن هذه الأخيرة

كانت قليلة جدا حينها بالنظر إلى السيطرة الشديدة للتمثيلات الحيوانية. وما هو جديد في هذه المرحلة هو عددها كما وأيضا الإشارة إلى أن الأمر لم يعد يتعلق بـ «رمز للخصب» بل بشخصية أسطورية حقيقية يتم تصورها مثل كائن أعلى وأم كونية، وبعبارة أخرى إلهة تتوج منظومة دينية يمكننا أن نصفها بـ «التوحيد الأنثوي» بمعنى أن كل ما تبقى يظل تابعا لها. أما الآخر الذي كان يجسده الثور فكان مذكرا إنما لا يزال التعبير عنه حيواني الشكل أساسا[17]. وهو يبدو في شاتال هويوك ملحقا بالإلهة من خلال علاقة نسب، إنما له فيها مع ذلك الصورة الثانية العليا، والتي تم إثباتها بشدة من خلال كثافة إنتاجه ومن خلال مميزات حجمه وهندسته في آن واحد. ومن الممكن، كما يوحي بذلك ميلارت، بأن منظومة رمزية كانت قد وجدت في النيوليتي مع أسطورة الإبن الزوج الماثلة لما ستكشفه لاحقا نصوص الرقم الرافدية من العصر البرونزي، إنما ليس ثمة بعد على هذا المستوى ما يشير إليه عمدا في الفن الديني: فالثور يمكن أن يولد من الإلهة، لكن ليس ثمة بعد في ذلك أي تزاوج وأي «زوج إلهي» بالمعنى الحرفي[18].

إن ما بينته لنا الأبحاث الحديثة في الشرق الأدنى وما يهمنا هنا هو إذن أن هذه المنظومة من شخصيتين قد بدأت تأخذ مكانها نحو عام 9500 قبل الميلاد بين آخر الصيادين اللاقطين من خيامي المشرق. إنه لا شك العصر الذي أمكن أن تنتج فيه بشكل هامشي جدا وغير ملحوظ بالنسبة لنا أولى محاولات زراعة الزروع البرية (راجع ص 62). وسنرى أنه لزم وقت طويل لكي تصل هذه المحاولات إلى زراعة بالمعنى الحالي للمصطلح. وبالطريقة نفسها ليس من المؤكد أن التصحيح الذي وصفناه هنا للمادة الرمزية كان قد بلغ دفعة واحدة الشكل «اللاهوتي» الصريح الذي يسمح تصوير شاتال هويوك بتأكيده: ولا زلنا لا نستطيع أن نثبت أي شيء آخر سوى إعلاء «رموز مسيطرة» جديدة. يبقى أن هذا التغير، الذي نتفق على الإشارة إلى أهميته التاريخية لأنه يحمل بشكل كامن كافة البنى اللاحقة للفكر الأسطوري في الشرق والمتوسط، يدخل هذه المرحلة البدئية كتحول عقلي صرف: فليس واردا أبدا جعله ينشأ، "وفق مخطط كلاسيكي جدا، من أي تحول من البنية التحتية المادية. فتقنيات العيش ليست زراعية في أي شيء، ويمكن أن نصف الثور بأنه حيادي اقتصاديا، طالما أن هذا النوع، الماثل بشكل متفرق في الحيوانات المصيدة، لم يكن قد فضل بعد على الطرائد الأخرى كما سيكون عليه الأمر في المريبط بعد عام 9000 قبل الميلاد، وقبل أن يدجن أيضا بعد ذلك.

ومن جهة أخرى فإن بزوغ هذه المنظومة الرمزية ليس متطابقا في المشرق الجنوبي والمشرق الشمالي. ومنطقة الفرات وحدها تبدو أنها تقدم التأليفين منذ العصر الخيامي. ولم يقدم وادي الأردن حتى الآن سوى تماثيل أنثوية صغيرة. ولن نشهد ظهور تمثيلات الثيران فيه إلا بعد فترة لاحقة بقليل. في الوقت نفسه الذي ستتحقق فيه «أنسنة» تدريجية وجزئية جدا للشخصية الذكرية. لكننا لم نصل بعد إلى هذه النقطة.

الهوامش

1. Cauvin J.، 1977.
2. Bar Yosef، 1990.
3. Lechevallier وآخرون، 1990. ويمكن أن يكون موقع أبو ماضي في سيناء، بحسب التأريخات، نسخة عن الخيامي أكثر تأخرا بعدة قرون.
4. Aurenche، 1981.
5. Cauvin J.، 1987.
6. Leroi-Gourhan، 1965.
7. Cauvin J.، 1978، ص.134.
8. Hodder (éd.)، 1982.
9. Cauvin J.، 1972 a.
10. طرح علينا النطوفي خمسة تماثيل بشرية صغيرة: تمثال صغير تخطيطي من عين صخري يمثل مشهد تزاوج، ورأس تخطيطي صغير من الواد، وجذع صغير بلا رأس ولا أعضاء من عين ملاحة. ومن جهة أخرى اعتبرت مادتان محزوزتان من عين ملاحة على أنهما رأسان بشريان، وذلك بطريقة قابلة للنقاش (انظر Cauvin J.، 1972 a، ص. 24 وشكل 5، كما وجردنا للفن النطوفي الذي وجد في هذا التاريخ، المرجع السابق، ص. 125 – 126). ولم تتم إضافة شيء مذاك على هذه المجموعة، باستثناء مادة من العظم المستطيل من نحال أورين حيث كان يتقابل وجه حيواني غير محدد (ربما كان من الكلبيات؟) مع «رأس بشري» لم يعد مقنعا أبدا (انظر Noy, 1991, fig. 5: 1).
11. انظر أيضا معرض الحيوانات المريبطي المذهل في جرف الأحمر (ص. 70).
12. Cauvin J.، 1977.
13. Mellart، 1967.
14. Mellaart، المصدر السابق و Cauvin J.، 1987.
15. نجد هذه الجمجميات (للثيران) الطبيعية في حوض دجلة الأعلى في جينيغ (Campbell et Baird, 1990) وفي الألف السابع في الجزيرة السورية في تل أسود (Mallowan, 1946)

16. Hijara، 1978.

17. منذ النيوليتي ما قبل الفخار ب «PPNB الأوسط»، بدءا من 8200 قبل الميلاد، تضاعف هذا التجسيد الحيواني ببعض حالات التمثيلات الذكرية الإنسانية الشكل. ويمكن أن نجد على بعض تماثيل شاتال هويوك نفسها صورة إنسان ملتح وهو يمتطي ثورا تحديدا؛ انظر لاحقا ص.166 والشكل 42.

18. تحد «الثنائية العليا» الوحيدة الملاحظة في شاتال هويوك بمضاعفة للإلهة نفسها: فهي تظهر على بعض النقوش البارزة تحت شكل «توأم» حيث واحدة فقط من هاتين الشخصيتين الأنثويتين المتلاصقتين هي التي تلد.

الفصل الرابع

الفلاحون الأوائل:

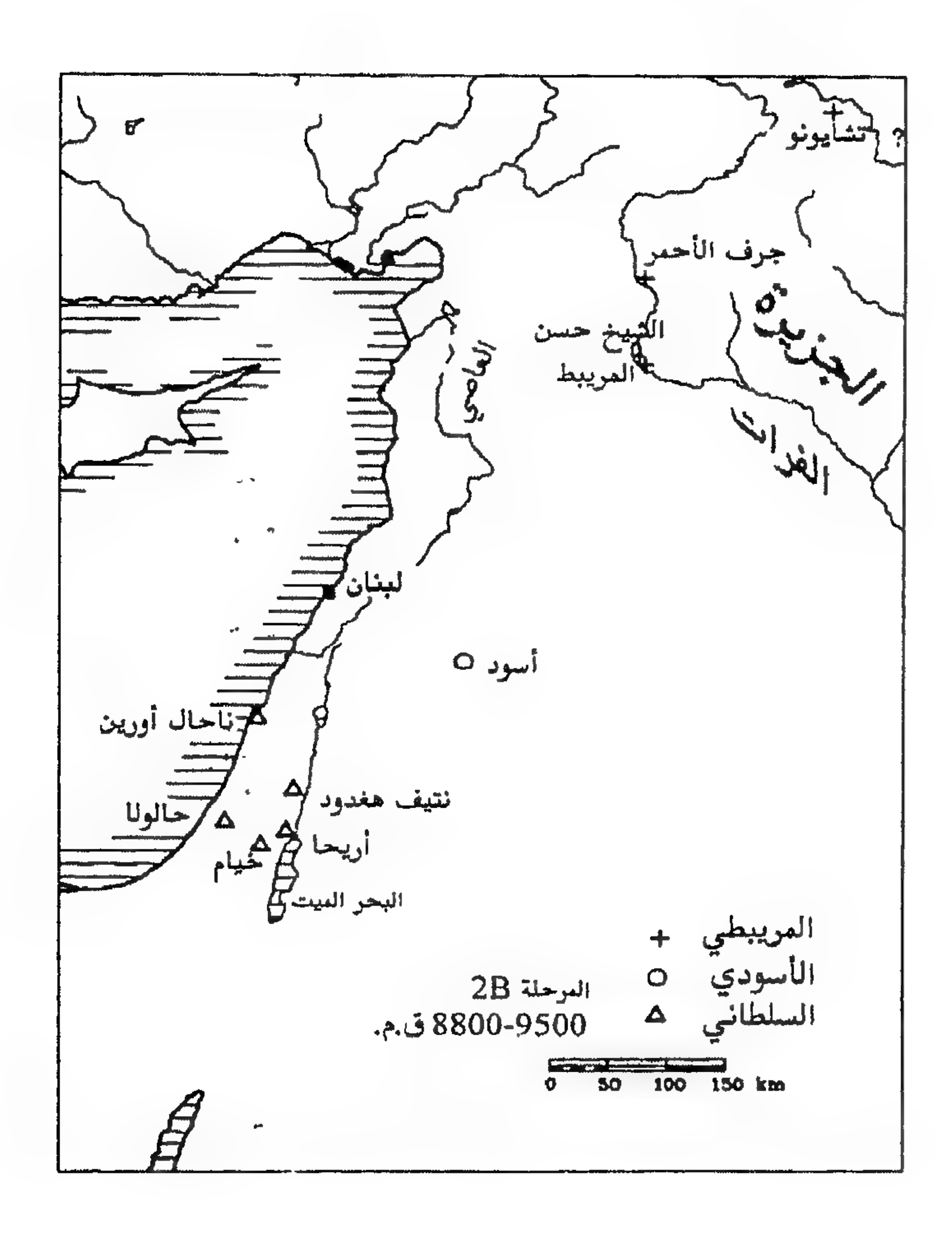
الإطار الإجتماعي الثقافي

لقد رأينا أن الشرق الأدنى كان منذ العصر الحجري القديم مسرح تطور ثقافي مستمر وتدريجي إنما غير سابق حتى الآن بشكل متميز في تقدمه الإقتصادي والتقني، وبخاصة بالنسبة لأوروبا. ولم نلحظ من جهة أخرى أي تأثير خارجي حاسم أمكن أن يؤثر على هذا التطور.

والحال أن الورثة المباشرين للخياميين هم الذين شهدوا، نحو عام 9000 قبل الميلاد، تأسيس أول اقتصاد زراعي في الشرق الأدنى، وأيضاً انطلاقاً من تطور تم محلياً. وسيكون علينا أن نحدد جغرافياً وثقافياً هذا الحدث، وأن نحدد المناهج التي نكتشفه بها، وأن نبين التسلسل الذي يبدو لنا أنه يربطه بـ «ثورة الرموز»، وذلك من حيث أن الأمر يتعلق بالنسبة لنا بالمرحلة الثانية وليس بالمرحلة الأولى من النولتة.

وستولد السلالة الثقافية النطوفية الخيامية ثلاث ثقافات متمايزة: السلطانية والأسودية والمريبطية، والتي أثبتت بالتتالي في المشرق الجنوبي (فلسطين، الأردن) وفي المشرق الأوسط (المنطقة الدمشقية) وفي الفرات الأوسط (شكل 11). وكان قد خلط بينها لفترة طويلة تحت الإسم الإنكليزي *Pre-Pottery Neolithic A* (PPNA النيوليتي ما قبل الفخار A)، وفقاً للمصطلح الذي اخترعته كاثلين كينيون Kathleen Kenyon بالنسبة لأريحا، وذلك قبل أن يصبح الـ PPNA إشارة إلى أكثر من أفق زمني بسيط بلا معنى ثقافي

محدد. وعلى الرغم من أن لهذه الثقافات الثلاث الأصل الخيامي نفسه في الواقع، فإن التنويعات المحلية تزداد والسمات الخاصة لكل منها ستبدأ مذاك فصاعداً بالتغلب على سماتها المشتركة. إنما في قلب هذه الثقافات الثلاث نكتشف بشكل متزامن أولى آثار الزراعة، ليس في كامل المشرق، بل في شريط غريني يمتد من وادي الأردن إلى وادي الفرات، مروراً بواحة دمشق، وهو الذي دعاه عالم الآثار أوفر بار يوسف «الممر المشرقي».

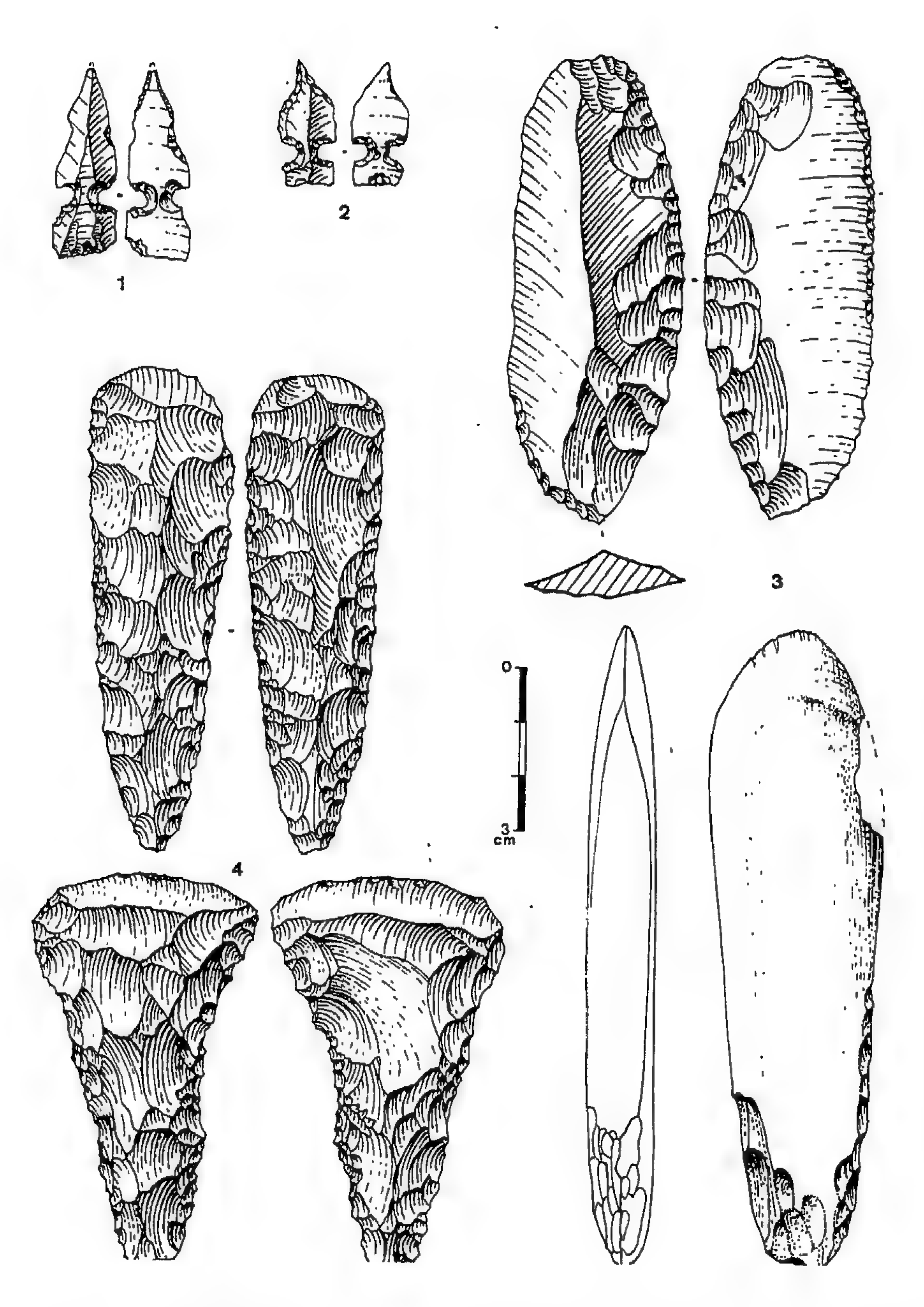


الشكل 11. *خارطة القرى المذكورة للأفق PPNA. 9500 – 8300 قبل الميلاد، 10000 – 9600 قبل الآن.*

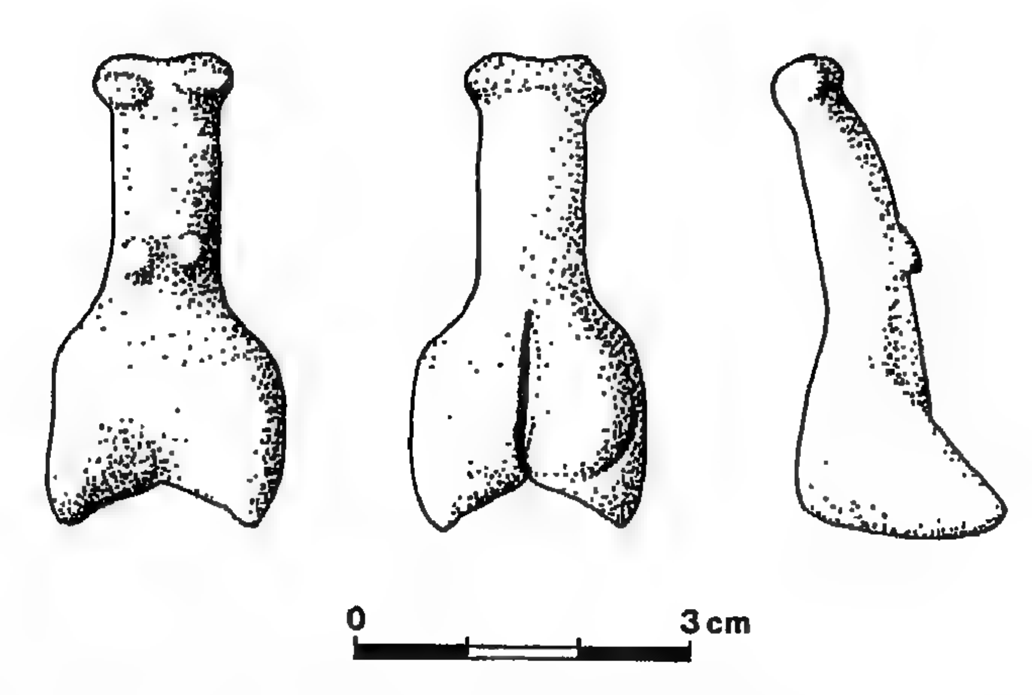
السلطاني

اكتُشف السلطاني للمرة الأولى، تحت اسم الـ PPNA (النيوليتي ما قبل الفخار A)، خلال الخمسينيات على يد كاثلين كنيون[1]. وذلك عندما نقبت سويات القاعدة في أريحا (تل السلطان) في وادي الأردن. وهو يعلو سوية من النطوفي القديم. لكن فجوة ستراتيغرافية هامة تفصله زمنياً: فلا يبدو أنه يوجد في أريحا نطوفي حديث ولا خيامي. ويمتد مجمل السلطاني بين 9500 و 8300 سنة قبل الميلاد. وتبقى مرحلته الأقدم المسماة «قبيل النيوليتية» غير معروفة جيداً لأنها نُقبت على مساحة محدودة جداً (خمسة أمتار مربعة). وبالمقابل تم العثور على المرحلة التالية في الكثير من حفائر التنقيب الكبيرة في نقاط مختلفة من الموقع. وهي تشتمل على قرية نيوليتية تمتد على أكثر من هكتارين. ويستمر فيها الموروث النطوفي للبيت الدائري شبه المدفون. لكن الجدار أصبح يُبنى منذ ذلك الحين فصاعداً بواسطة آجر ترابي مشوي بمقطع مسطح ـ محدب بحيث يتم ربط الآجر بواسطة ملاط. والأرضية مبلطة والولوج إلى الداخل يتم عبر مطلع أو درج. وبشكل خاص ثمة مجموعة ضخمة من الأبنية الجماعية من الحجارة الخشنة التي أخرجت للمرة الأولى العمارة من الدائرة الخاصة والعائلية فقط (بيت السكن) حيث كانت تنحصر حتى ذلك الحين: ذلك أننا نجد برجاً بقطر عشرة أمتار عند القاعدة وقد حُفظ بارتفاع نحو 8,50 متراً وهو مزود بدرج داخلي. كما وجدار سور بعرض ثلاثة أمتار. وقد فُسِّرا في البداية على أنهما منظومة دفاعية. وقد تم البرهان منذ ذلك الحين أن البرج كان صرحاً والجدار ربما كان حماية ضد الفيضانات[2]. لكنهما كلاهما بناءان للاستخدام الجماعي مع كامل التنظيم الإجتماعي للعمل المفترض من أجل بنائهما.

ويقدم موقع نتيف هغدود[3] Netiv Hagdud الأقل امتداداً البيوت نفسها ذات الأرضية المبلطة أيضاً، لكن أسس الجدران من الحجارة فيها. وثمة وثائق مقارنة تتأتى من جيلغال Gilgal I [4] ومن جشر Gesher وهما في غور الأردن. أو من السوية العليا في حتولا في تلال الصحراء الفلسطينية[5]. وفي سويات الـ ANPP في ناحال أورين[6]، على الساحل الفلسطيني. يجب أن يرجع جزء كبير من الأربعة عشر بيتاً التي نقبت إلى السلطاني.



الشكل 12. *الصناعة السلطانية (الشرق الجنوبي، الألف التاسع قبل الميلاد). الصوان: رؤوس من الخيام (1 – 2) عن O. Bar Yosef وآخرين؛ «سكين بيت عامر» (3) عن J. Growfoot-Payne؛ مقدات ذات وجهين (4 – 5). العظام: «مقدة» مصقولة (6) عن Stordeur.*



الشكل 13. *تمثال أنثوي تخطيطي من الطين المشوي من سلطاني نتيف حقدود (فلسطين)، الألف التاسع قبل الميلاد. عن O. Bar Yosef.*

وإضافة إلى أدوات طحن هامة، تبين المواقع السلطانية وجود صناعة أصيلة من الصوان المنحوت (الشكل 12: 1 – 5): إنها دائما نبال من الخيم، كثيرة بدرجة كافية، كانت تسلح السهام (شكل 12: 1 – 2)؛ المكاشط والأزاميل ليس فيها ما هو مميز، إنما ظهرت أداة أثقل مشكلة من «مقدات» ذات وجهين، وهي أنواع من البليطات أو المقصات ذات القاطع المسنون بواسطة تشذيب جانبي. وتنضم إليها أولى البلطات المصقولة من مواد أخرى من مقاطعها. ويميز أيضا السلطاني نمط جديد من النصل ـ المنجل الصواني من النمط المسمى «بيت تعمير» (الشكل 12: 3)، في حين أن القليل من حجر الأوبيسيديان المجلوب من كبادوقيا موجود في معظم المواقع على شكل نصيلات. وتشتمل صناعة العظام، الغنية والمتنوعة، على أدوات جديدة ونموذجية لهذه الثقافة أيضا، وبخاصة أدوات من أجل شغل الجلود (الشكل 12: 6) وهي قريبة جدا بأشكالها من «مقدات» الصوان. وأخيرا فقد ظهرت عندها ثلاث تقنيات متمايزة لصناعة السلال (مجدولة، وحلزونية، وذات طبقات متراكبة) يمكن التعرف عليها من خلال طبعاتها. وفي هذه المجموعة يبدو أن وجود السلالة المجدولة يؤسس تقليدا خاصا بالمشرق الجنوبي لن نجده فيما بعد في الشمال[7].

أما الطقوس الجنائزية فليست معروفة جيدا إلا في أريحا، مع المدافن الثانوية في الحفر وعادة دفن مجموعات من الجماجم جانبا، وهو ما يمثل مقدما ما سيكون في الألف الثامن «عبادة الجماجم» في النيوليتي ما قبل الفخار ب BNPP. وأخيرا فقد كشف موقع

نتيف هغدود عن تماثيل أنثوية صغيرة منمنمة جداً (الشكل 13) حيث نجد أن الحقوين والصدر والعينين هي التفاصيل الوحيدة المفصلة عمداً في حجم هو فضلاً عن ذلك مجرد جداً.

ويكشف مجموع هذه المعطيات، على المستوى الإجتماعي ـ الثقافي، عن بعض السمات البارزة التي سيكون علينا أن نقابلها مع التحول المتزامن لاستراتيجيات المعيشة. وفي الواقع فإننا لا نستنتج فقط إتقاناً للتقنيات وتنويعاً ظاهراً لنشاطات التحول، أو على الأقل للأدوات النموذجية والمتخصصة التي تنسجم معه: فذلك يتأتى دائماً عن تطور تدريجي. والأمر الهام هو الإنبثاق المفاجئ لتجمعات بشرية، مثل أريحا، لا تقاس مع الضيع والأكفار المتواضعة في النطوفي والخيامي. فثمة مزيد من الناس الذين يتساكنون فيها وهم منظمون جيداً بما يكفي مذاك ليبنوا معاً عمارة كبيرة فيها وذات مقصد جماعي. وثمة سمة ثالثة تتعلق بالإعمار الشامل للأرض. وهو ليس خاصاً بالتأكيد بالمشرق الجنوبي، لكننا هنا إنما نستطيع بشكل أفضل، بفضل قدم وكثافة الأبحاث، أن نقدر كثافة الإعمار السكاني وتطوره: فمن جهة كانت المناطق الأكثر جفافاً (النقب، الضفة) مشغولة قليلاً جداً في تلك المرحلة، ومن جهة أخرى، فحتى في المناطق الأكثر رطوبة، من الأردن إلى البحر، فإن عدد المواقع الآثارية أقل بكثير في بداية الألف التاسع هذه مما كان عليه قبل ذلك ومما سيكون عليه بعد ذلك[8]. وكما في الحالة الطبيعية فإننا سوف نكتشف مواقع أخرى ولن نعرف أبداً كافة المواقع. لكننا نكشف خلال اللقاءات العلمية عن التباين نفسه بين الإكتشافات المعلنة المتعلقة بهذه الفترة والإكتشافات التي تحيط بها. والحال أنه يوجد بالتأكيد رابط بين هذين الواقعين، أي الإنشاءات التي أصبحت أكبر إنما أقل عدداً. ويمكننا تفسير ذلك[9] كتقدم كبير للتحضر في الوقت نفسه مع تجمع متزامن للجماعات باتجاه منطقة بيئية محددة، والتجمع داخل هذه المنطقة في تجمعات أكثر منطقية، في حين تختفي تقريباً الآثار المتناثرة للجماعات الصغيرة المتحركة بدرجة معينة والتي كانت لا تزال غالبة جداً في النطوفي.

إن هذه الظاهرات جديدة وذات معنى: فهي تكشف عن أنماط غير مستجدة لإعمار الإنسان للمكان وفي الوقت نفسه لتجانسه الإجتماعي في الموضع نفسه، إنما لا تشير بشيء إلى ازدياد سكاني شامل على مستوى الشرق الأدنى. إن النسب التقليدي لاختراع الزراعة إلى مجموعة بشرية متنامية ولاستنفاذ متلاحق للمصادر البرية لا يصمد إذن أمام قراءة بسيطة للخارطة الشاملة للإنشاءات السكنية.

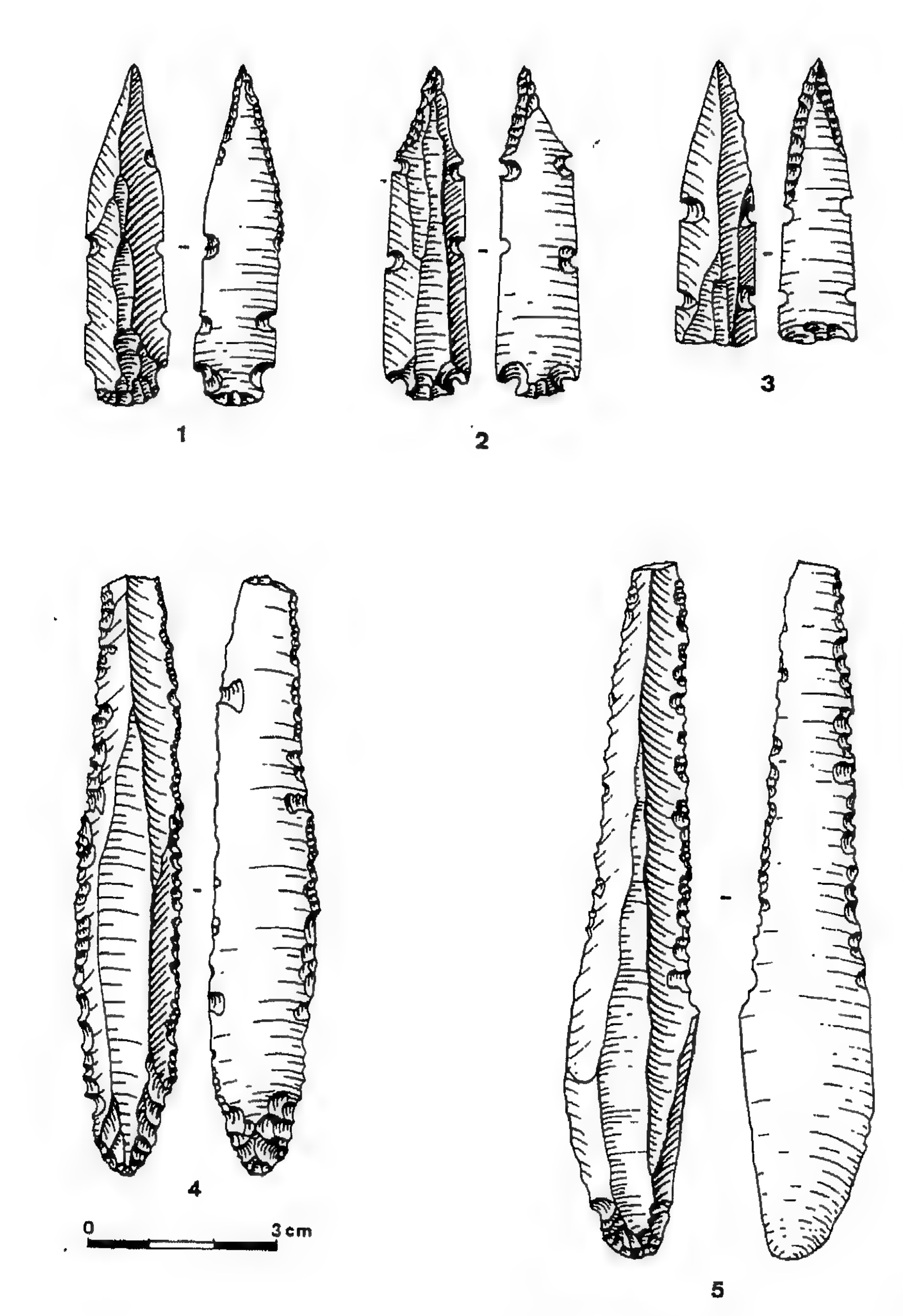
الأسودي

في واحة دمشق، وعلى السفح الشرقي لجبال لبنان الشرقية، توجد قرية تل أسود ما قبل التاريخية، والتي تحراها هنري دي كونتنسون[10]. وكانت قد أسست قبل عام 9000 قبل الميلاد بقليل بواسطة مزارعين من عصر النيوليتي مـا قبـل الفخـار أ ANPP. والتـل لا يغطي أقل من سبعة هكتارات لكن مساحة الإنشاء البدئي الموصوف هنا أقل بكثـير بالتـأكيد ولم يمكن تحديده. وتشتمل الثقافة الأسودية، المحددة في الوقـت الحـاضر مـن خـلال هـذه القرية فقط، على مساكن ذات حفر دائرية ذات أبعاد صغيرة (بقطر 2 إلى 3 أمتار) وتجانبها تجويفات أسطوانية أصغر من المحتمل أنها كانت تستخدم كصوامع. وعلـى الرغـم مـن أن الآجر المشوي كان مستخدماً فيها، وبخاصة من أجل الأرضيات والمصاطب، فإن البقايا المنثورة على الأكواخ المحترقة توحي أيضاً بوجود مواد أخف (القصب المطلي بالصلصال) من أجل الجدران والسقوف.

وتشتمل الصناعة الحجرية، الأصيلة[11]، على نبال سهام («نبال أسـود») المشـتقة من «نبال الخيام» من خلال تجهيز تثبيتـها بواسـطة حـزات جانبيـة، إنما أكـبر وأفضـل إعداداً (الشكل 14: 1 – 3). أما الأدوات ذات الجانب المجلو («المناجل»)، وهي مختلفة عن أدوات السلطاني، فهي نصـال كبـيرة ذات أسـنان دقيقـة: إنـها فئـة الأدوات الأفضـل تمثيلاً التي أثبتها علماء النبات حيـث أن بعضـها يتعلـق مباشـرة بالزراعـة[12]. أمـا الأدوات الأخرى من الحجر أو العظام فهي قليلة العدد وليست نموذجية كثيراً. وثمة تماثيل صغـيرة من الطين المقسى بالنار، على شكل بيادق مخروطية، ربما تكون بشرية الشكل، على الأقـل في فكر مستخدميها، لكنها تخطيطية جداً بحيث لا نستطيع تأكيد ذلك. وهي تتواجـد مـع تماثيل حيوانية صغيرة.

المريبطي

الثقافة المريبطية المعاصرة للثقـافتين السـابقتين خاصـة بالمشرق الشـمالي (الشـكل 11). وكانت قد عُرفت أولاً من خلال موقعين على الفرات الأوسط السوري، المريبط (المرحلة III)، وقد نقبها موريس فان لون[13] Maurits Van Loon ثم نقبتها بنفسي[14]، والشيخ حسن[15].

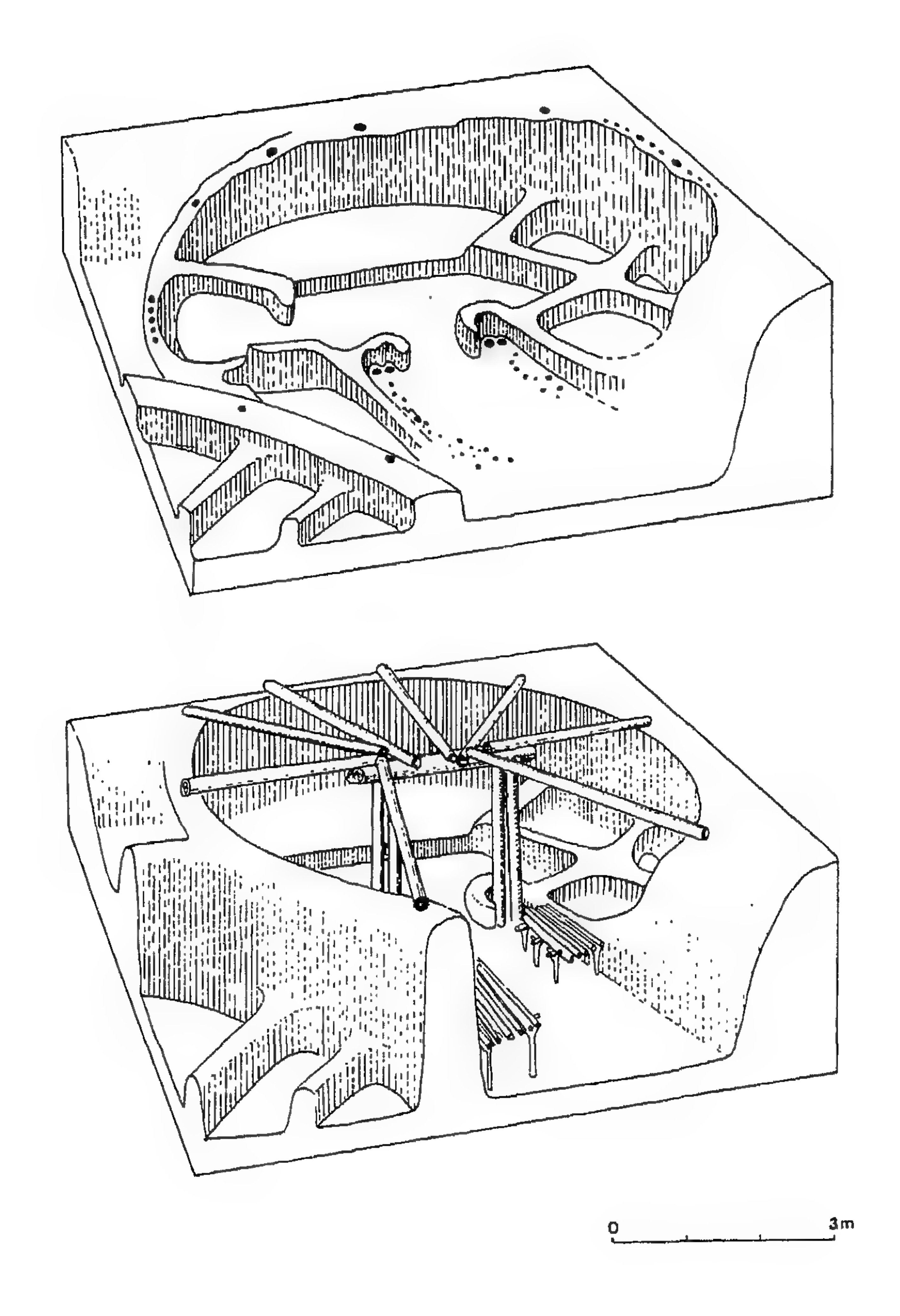


الشكل 14. *صناعة صوانية من الأسودي (منطقة دمشق، سوريا، الألف التاسع قبل الميلاد): رؤوس سهام ذات فرضات متعددة تسمى «رؤوس أسود» (1 – 3)؛ نصال منجل (4 – 5). عن M.-C. Cauvin.*

وثمة موقع جديد يُنقب حالياً في أعلى الفرات، في جرف الأحمر[16] وتوجد آثار، على السطح هذه المرة، في منطقة حلب (تل قرامل) وعلى الأرجح حتى جنوب شرق الأناضول، عند قاعدة التل ما قبل التاريخي في تشايونو Cayonü على أحد فروع دجلة. ومن المحتمل أن مساحة امتداده كانت تغطي مجمل الجزيرة السورية التركية، بين الفرات وجبال طوروس الشرقية، لكن لم يتم القيام حتى الآن بأي بحث منهجي في هذه المنطقة.

وقد دامت المرحلة III من المريبط بين نحو 9500 و 8700 سنة قبل الميلاد، لكن ليس من الثابت فيها وجود اقتصاد زراعي كما سنرى إلا في الجزء الثاني (III B)، أي بعد 9000 قبل الميلاد. وتطوِّر العمارة هنا أيضاً موروث البيوت المستديرة الموروثة عن الخيامي، لكنها يمكن أن تكون، في المرحلة III A، أكثر اتساعاً (بقطر ستة أمتار)، ونصف مدفونة أو مبنية على السطح مع جدران من تراب مدكوك. وبخلاف البيوت السلطانية أو الأسودية حيث المساحة السكنية ليست مقسمة، فقد باتت هذه المساحة في المريبطي متمايزة مذاك بسوية عالية[17] (الشكل 15): ففي أفضل المساكن انحفاظاً ثمة مساحة عالية للنوم تحتل كامل عمق المكان بمواجهة المدخل، في حين أن جدراناً صغيرة خفيضة ومستقيمة في الجزء الأمامي، إلى يمين ويسار ممر مركزي، تقسم المساحة إلى خلايا. وتشتمل إحدى هذه الخلايا على موقد. بينما استخدمت خلايا أخرى صغيرة جداً بالنسبة للسكن من أجل تخزين المؤن. وقد تم العثور على بنى للصف بالخشب متكلسة في الممر، وهي مرتبطة بتركيز مميز من الأدوات الصوانية والعظمية، وهي غالباً في حالة جديدة، أي غير مستعلمة ظاهراً بعد، وبآنية من الخشب. ويغطي سقف مسطح من الطين المدكوك مجمل البناء: وهو يرتكز على عوارض خشبية متلاقية ومتصلة. محمولة هي نفسها بواسطة روافد تتجه باتجاه المحيط ابتداء من ساكف* داخلي يقع في نهاية الممر وكان يمكن لهذه البيوت، التي كانت مذاك متكلفة بذاتها، أن تكون ضيقة ومتلاصقة جزئياً. وتوجد خارجها أيضاً بيوت دائرية أصغر نجد في أحدها آثار لوحة جدارية ملونة ذات تزيين هندسي من الشارات السوداء وربما الحمراء على خلفية بيضاء[18]. وهو أول تفتح في الشرق الأدنى لفن متكامل مع العمارة. وثمة بين البيوت مساحات فارغة مشتركة تجمع الكثير من «الحفر ـ المواقد» الكبيرة. وهذه الحفر، وهي ذات نمط نصادفه بكثرة في كامل النيوليتي في الشرق الأدنى[19]، تكون أسطوانية أو على شكل حوض ومملوءة بالحصى الملساء حتى فتحتها: وكان عملها على مبدأ الأفران البولينيزية حيث كانت الحصى تختزن حرارة النار الموقدة على سطحها قبل أن يتم

* الساكف عضادة عرضانية أعلى الباب المواجه للمدخل أو العتبة، م.



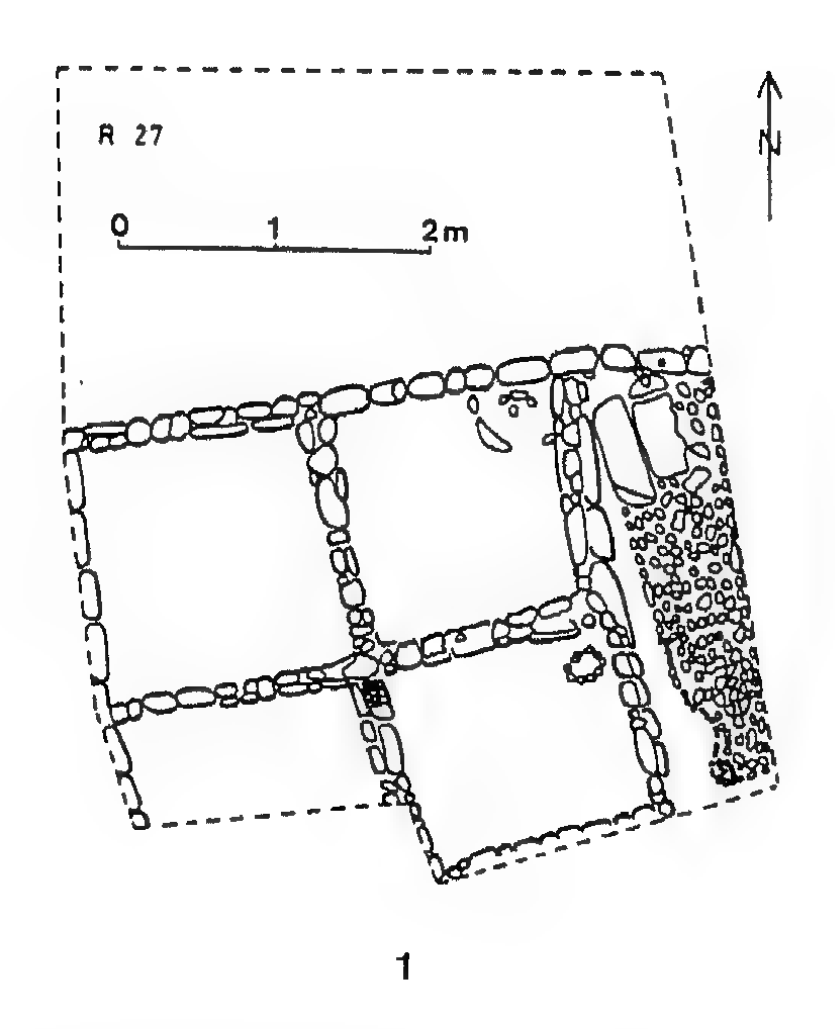
الشكل 15. نظرة متقايسة وإعادة تشكيل للبيت XVLII من المريبط III (المرحلة A III. المريبطي. سوريا).

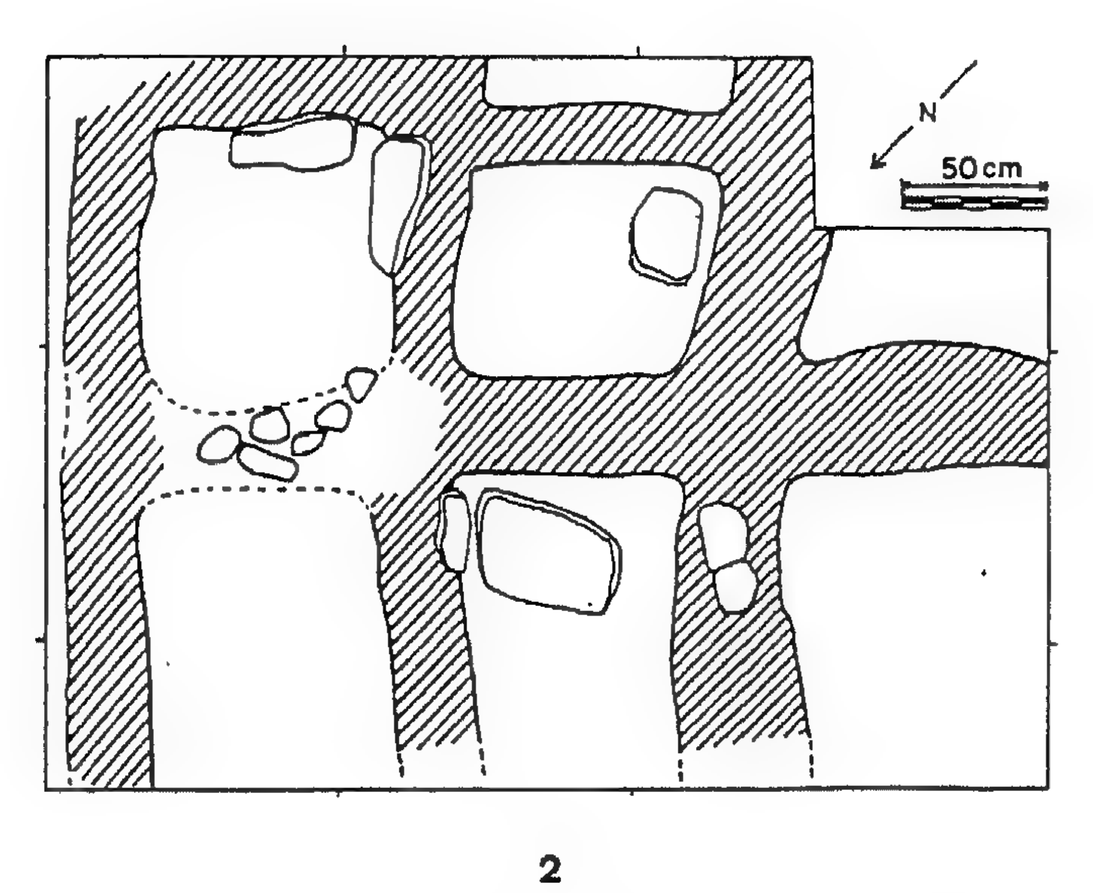
إشعالها لفترة أطول. والحفر المواقد في المريبط محاطة غالباً ببقايا الحيوانات المتفحمة تقريباً: ومن المحتمل جداً أنها كانت تستخدم لتحضير جماعي للحوم.

وقد مهدت نهاية المريبطي (المرحلة III B) في مجال العمارة، أكان في المريبط نفسها أم في الشيخ حسن، تغيراً هاماً سنرى لاحقاً مغزاه الرمزي: فهنا إنما ظهرت أولى الإنشاءات المستطيلة الشكل المعروفة في الشرق الأدنى وفي العالم. وكانت هذه الإنشاءات، المبنية من حجارة من الحوار اللدن والمنحوتة على شكل متطاول والمربوطة بواسطة ملاط، مقسمة إلى خلايا مربعة صغيرة لم تعد تتجاوز في غالب الأحيان أكثر من متر واحد لطول ضلعها[20] (الشكل 16). ومن هذه المساحة الضيقة نتجت في المريبط وظيفتها المحتملة كمخازن. كما أن بيوتاً دائرية، أصغر مجدداً (بقطر 3 إلى 4 أمتار) وغير مقسمة، تواجدت معها في الموقع نفسه: وكانت الوظيفة الوحيدة لهذه الأخيرة أن تأوي الناس طالما أن تخزين المؤن كان يتم مذاك خارجها. أما بالنسبة لقرية جرف الأحمر، المؤرخة من الألف العاشر ومن بداية الألف التاسع فيمكن أن توافق في آن معاً المريبطي القديم والحديث في المريبط. ونلاحظ في البداية، إضافة إلى بيت نصف دائري بمخطط قريب جداً من البيت XLVII من المريبط شكلاً آخر انتقالياً بين البنية الدائرية والبنية ذات الجدران المستقيمة: بيوت مستطيلة ذات زوايا دائرية وذات جدران مبنية من حجارة الحوار المنحوتة بشكل متطاول.

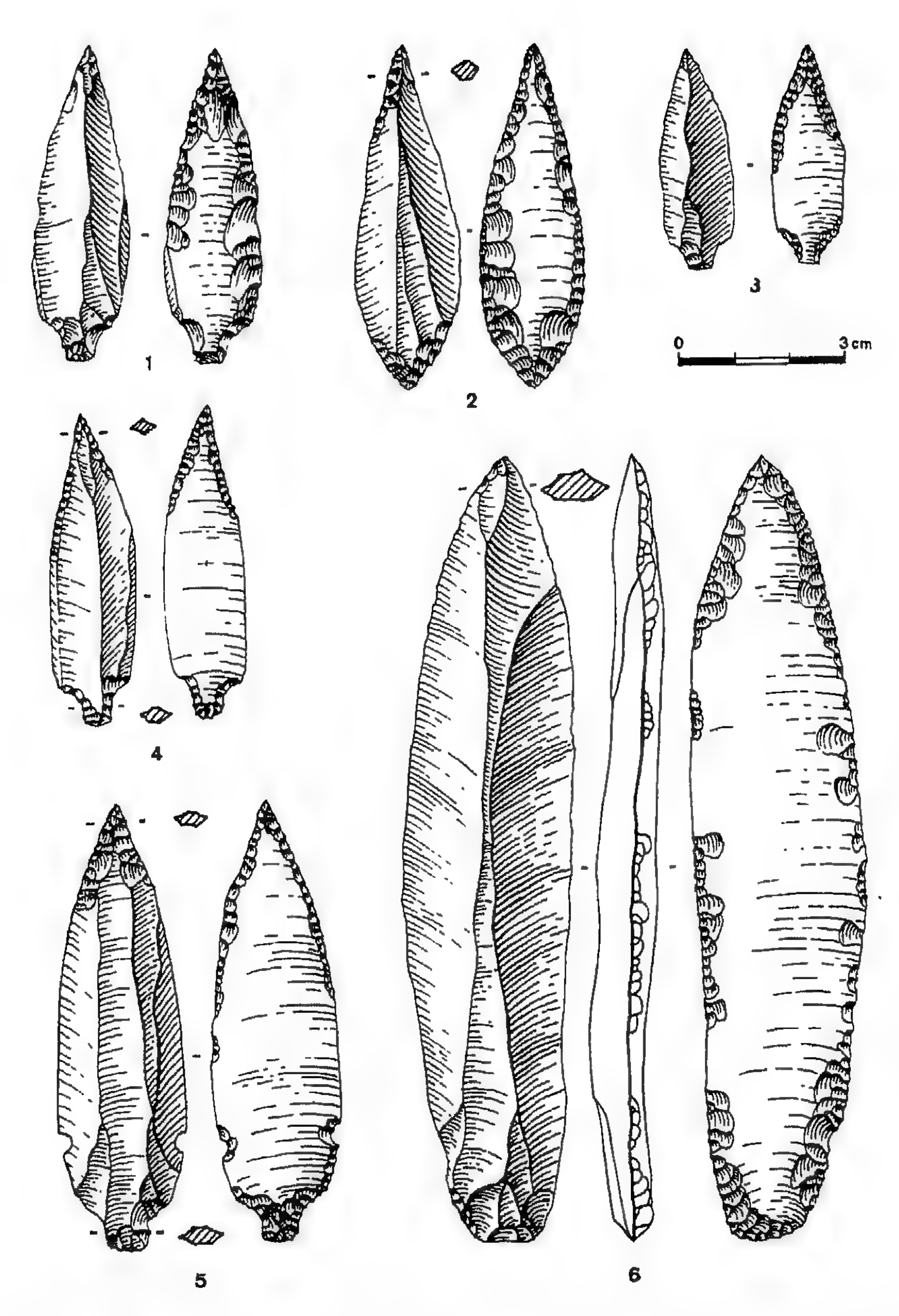
إن معرفتنا سيئة بامتداد قرية المريبط بالنسبة للمرحلة III A، لكننا نعلم أنها غطت بدءاً من 9000 عام قبل الميلاد، كما في أريحا، أكثر من هكتارين. أما المساحة الظاهرية لجرف الأحمر فتبدو قريبة من هكتار واحد.

وتشكل صناعة المريبطي[21] طيلة كامل المرحلة III مجموعة واحدة ذات عناصر نموذجية تماماً لا تنفك تتطور باتجاه كمال تقني وفني أكبر. وثمة بينها تسليح جيد (الشكل 17) يشتمل على بعض الخناجر من الصوان أو الأوبسيديان كما وعلى نبال سهام أكثر عدداً منها في الماضي. وتتناقص بالتدريج بينها الأنماط ذات الحزات الجانبية بشكل مبكر أكثر منه في المشرق الجنوبي في منطقة دمشق، وذلك لصالح نبال ورقية الشكل أو ذات ساق معلاقية بحيث أن بعضها يمثل بتشكيله الدقيق عبر تشذيبات رقيقة ومسطحة بوادر الشكة الجميلة في الألف الثامن. أما الأدوات المنجلية فكان يزداد عددها هي أيضاً، وكانت ذات نصال طويلة بقاعدة ضيقة من أجل وضع المقبض. هذا في حين أن أدوات هامة من الخشب،

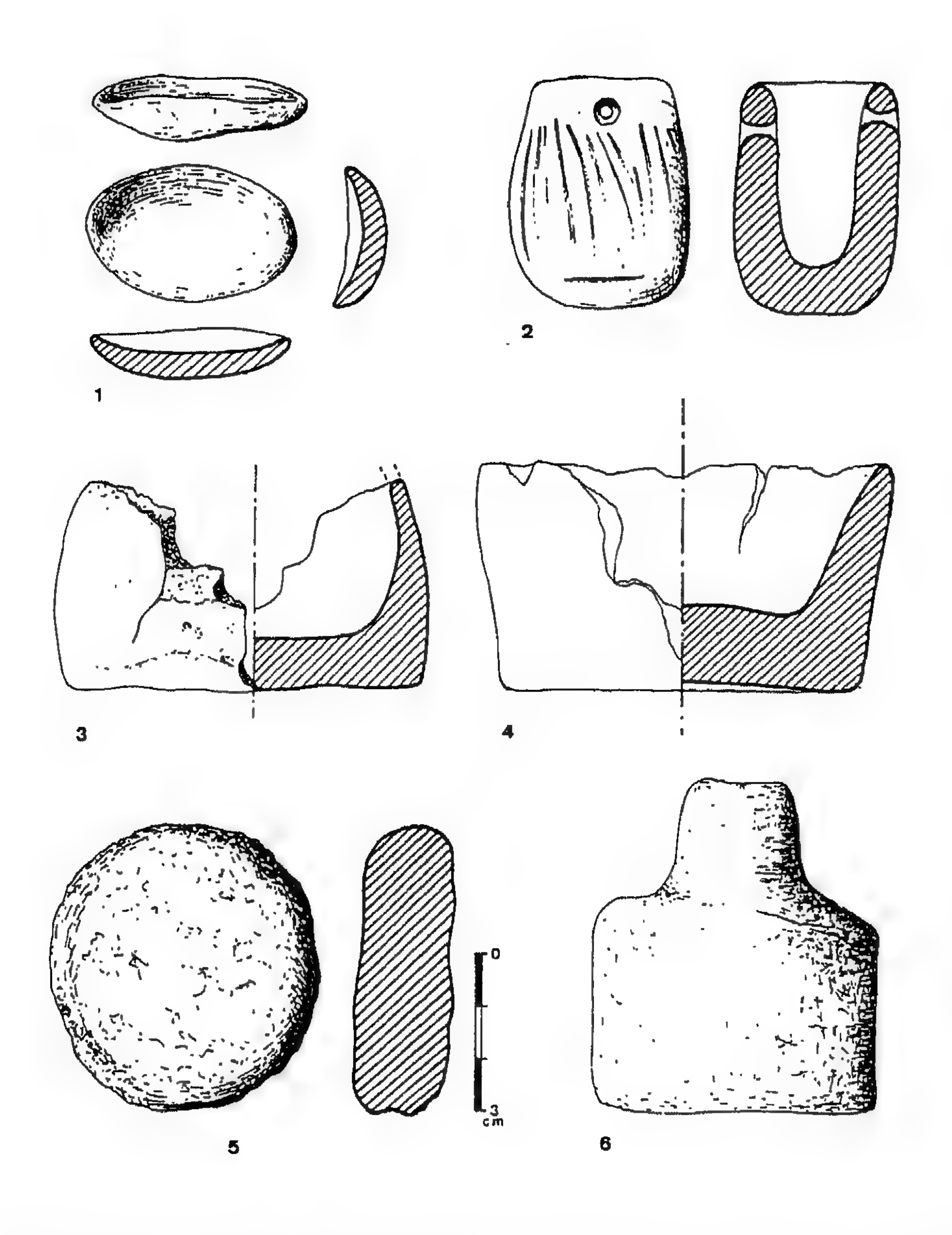




الشكل 16. أولى البنى المستطيلة علـى الفرات الأوسـط في الألـف التاسـع قبل الميلاد (أهراءات؟). 1: المريبطي الأخير في المريبط. عن M. Van Loon. 2: المريبطي الأخير في شيخ حسان.



الشكل 17. *التسليح بالصوان في المريبط من المريبطي: رؤوس سهام (1 – 5)، «خنجر» (6). عن M. C. Cauvin.*



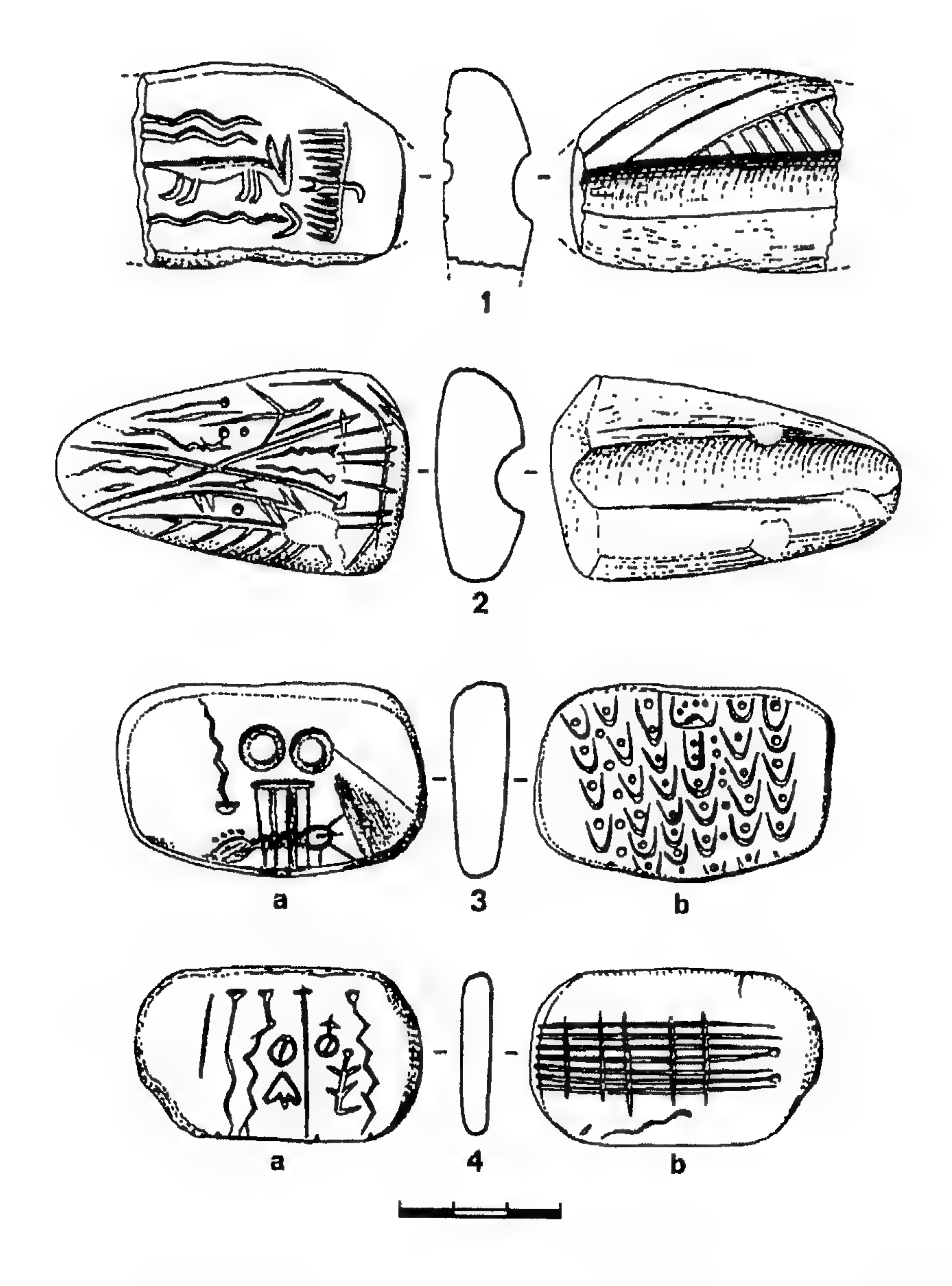
الشكل 18. مواد من الطين المشوي بدرجة طفيفة في الريبطي: قصاع صغيرة (1 – 4)؛ قرص (5)؛ جسم أسطواني ذو مقبض (مجرشة؟) (6).

إضافة إلى بعض البليطات الحادة المعقوفة من التقليد المحلي. أدرجت مذاك مكاشط عديدة. وهكذا فقد اكتسب هنا المكشط الصواني. وهو أداة حقيقية للقيام بكل شيء منذ العصر الحجري القديم، وظيفة أكثر تخصصية كشفت عنها دراسة آثار استخدامه. فكان يُقَبَّض غالباً مثل بليطة فيعمل عندها في الدق الذي انطلق مع حرفة النجارة[22]. وتضاف إليها أيضاً أولى الفؤوس المصقولة من الصخور الخضراء في المرحلة III B. أما صناعة العظام فقد ظلت من جهتها غنية ومتنوعة. وأخيراً فإن متاع الطحن (المسحق، المدقة) أصبح غزيراً فيها بعد أن كان محصوراً حتى ذلك الوقت بالمريبط.

ويشهد مجال ثالث أيضا على التقدم التقني في المريبطي. فقد رأينا منذ بداياته (المرحلة III A) أن الطين المشوي استخدم من أجل صنع تماثيل أنثوية صغيرة (الشكل 8). وكذلك فقد استخدم من أجل صنع آنية صغيرة جدا في حين أننا لا نزال سابقين بألف وخمسمائة سنة لتعميم الفخار في الشرق الأدنى (الشكل 18: 1 – 4)[23]. ونحن لا نتكلم أيضا عن الفخار بالنسبة لهذه الآنية الصغيرة: فالفخار الحقيقي سيتطلب في الواقع إضافة مزيل معدني أو نباتي للدسم إلى الصلصال من أجل تجنب انكساره في النار. وهذه المسألة لم تكن مطروحة أبدا بالنسبة لهذه الأشياء الصغيرة جدا التي ليس فيها بالتالي مزيل شحمي. يبقى أن الإنسان كان قد لاحظ عمل النار في تقسية الأشياء المصنوعة وقام به بشكل مقصود في المريبط منذ 9500 سنة قبل الميلاد.

ولم نجد في المريبط سوى مدفنين في المساحة المنقبة بالنسبة لكامل المرحلة III. وكلا المدفنان يمثلان حالة دفن ثانوي بحيث يبدوان في الواقع أنهما لا يعنيان سوى حالة فرد واحد: فثمة جمجمة امرأة ومجموعة من العظام الطويلة مدفونة بشكل دقيق جدا تحت موقد صغير على شكل حوض داخل أحد البيوت. في حين أن بقية الهيكل العظمي مطمورة خارج السكن نفسه. والقصد الرمزي بالنسبة للدفن البيتي مؤكد تماما. وفي الشيخ حسن ثمة مدافن أولية ومجموعات من الجماجم المطمورة كما في أريحا.

وقد سبق وأشرنا، في المجال الثقافي دائما، إلى وجود حقيقي لثنائية المرأة ـ الثور «الإلهية»، والتي أدخلت إلى المريبط منذ الخيامي. ومع ذلك لا تحرف القرى كلها بالطريقة نفسها هذه المنظومة الرمزية المشتركة. ففي جرف الأحمر تبقى التمثيلات البشرية نادرة في حين تتطور في الفن، أكثر من المريبط، رمزية حيوانية نوعية، في نقش بارز أو منحوتة على الحجر، مرتبطة بإشارات أكثر تجريدا. والثور ماثل بينها (الشكل 19: b3)، بل وأيضا كاسر كبير، ومن ذوات الأربع (الشكل 19: 1 a، 2 a) والكثير من الأفاعي.

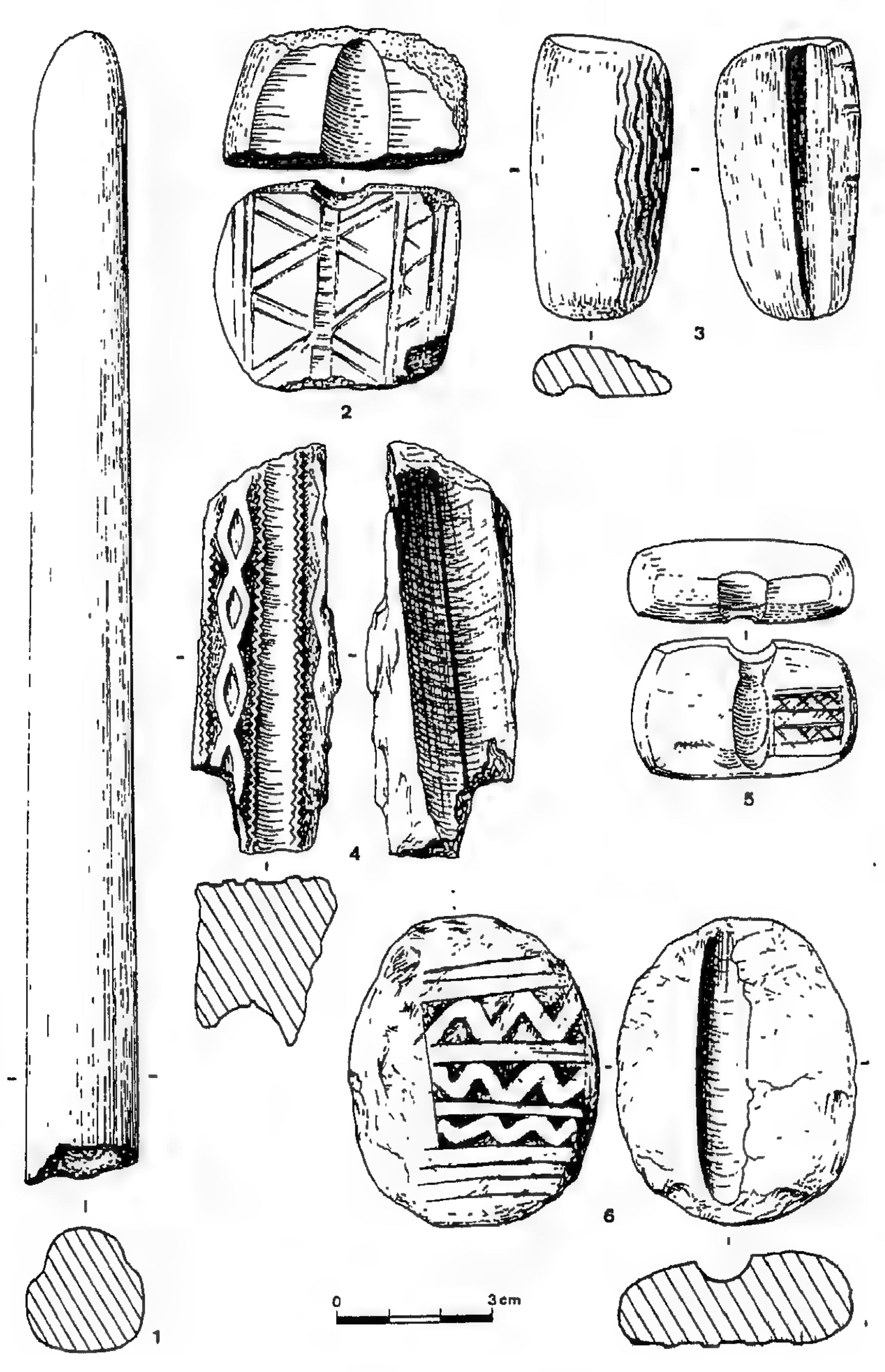


الشكل 19. تصويرات منقوشة مريبطية من جرف الأحمر: 1 – 2. حجران بهما حزوز [1: كاسر. ذو أربع بقرن. خطوط أفعوانية الشكل؛ 2: كاسر (؟). ذو أربع. ثعابين. إلخ.]. 3 – 4، صفائح ثنائية الوجه [3 a: بومة. حشرة كبيرة (نملة؟). خطوط أفعوانية الشكل؛ 3 b. حقل من الأشكال القرنية حول شكل قرني كبير مركزي؛ 4 a. خطوط مستقيمة أو أفعوانية وإشارات مختلفة؛ 4 b، موضوع بشكل شبكي مع ثعبان]. عن Stordeur.

ويبدو أن ثمة أهمية معطاة أيضا لأحد الجوارح الليلية وقد أشير إليه مرة واحدة في المريبط. وهو موجود هنا على شكل تمثال صغير أو على شكل تخطيطي جدا على الصفيحة (الشكل 19 : 3 a). ويجعلنا هذا الشكل نفكر، دون الإبتعاد إلى حد التفكير ببومة أثينا الصمعاء، بما هو أقرب في الزمان والمكان أي بالتماثيل الأنثوية الصغيرة في تل براك، في الجزيرة في عصر أوروك، والتي يبدو أن شكلها وعينيها يتلاعبان دوما على الغموض بين البومة والإلهة، بحيث ظهرت الأولى مذاك كبديلة حيوانية للثانية[24]. ويجب أن تقدم لنا الوثائق الإستثنائية من جرف الأحمر، والتي لا تزال قيد الدراسة، توضيحات هامة أكان حول الديانة المريبطية أو على تقدم التعبير النقوشي في ما قبل التاريخ، طالما أننا في منتصف الطريق زمنيا بين أولى الإشارات المرتبطة بالفن الحيواني الفرانكو - كانتابري وأولى كتابات العصر المديني.

لا يمكننا اختتام هذه القائمة من الوثائق الرمزية من المريبطي دون ذكر وجود متاع يشهد، دون أن يكون مجردا بالضرورة من الفائدة العملية، على تثمين خاص يبرز بالتأكيد دوره الأداتي، وذلك بالإستثمار الجمالي الذي كان موضوعه. ومذاك لا يمكن ألا نكون حساسين للتعارض الشديد الموجود بين المريبطي والسلطاني في فلسطين من منظور إتقان تسليحاتهما الخاصة، في حين لم يكن يستهلك فيهما على حد سواء سوى حيوانات مصيدة: فالسلاح كان يتمتع فيهما باعتبار غير متساو بالتأكيد. وسنعود إلى هذه النقطة عندما نعرض للتسليحات المميزة في الثقافة BNPP المشتقة من المريبط. وسنعرض بخاصة هنا الحجارة ذات الحزات والعصي المصقولة.

كان الحجر ذو الحزات أو الفرضات، وهو قطعة صغيرة قابلة للحمل ومنتشرة كثيرا في النيوليتي من الشرق الأوسط إلى شمال أفريقيا وإلى ما بعد ذلك، قد فسر من قبل سوليكي[25] R.Solecki على أسس أجناسية - آثارية ethno-archéologiques كأداة من أجل تجليس حد رؤوس السهام بالحرارة. وقد ظهرت هذه الحجارة في الشرق الأدنى منذ النطوفي، الأمر الذي يبدو طبيعيا إذا كان صحيحا أن الصيادين النطوفيين كانوا قد عرفوا القوس[26]. وعلى خلاف الحجارة النطوفية ذات الحزات، فإن حجارة المريبط ذات الحزات (الشكل 20: 2 - 3، 6) مزينة كلها منذ الخيامي بعناية بمواضيع خطية هي عموما عبارة عن شارات[27]. ونلحظ ثمة فيها من جهة أخرى تشابهات بالنظر إلى وظيفتها المفترضة: حزات ذات مقاطع وأعماق مختلفة تكون أحيانا ضيقة جدا بالنسبة للإستخدام المفترض،



الشكل 20. *أشياء رمزية من الحجر من موروث الفرات الأوسط: قضيب مصقول (1. مريبط III)؛ حجارة ذات حزات بتزيين هندسي (2 – 3. 6. مريبط III. 4. شيخ حسان. 5. BNPP كفر هويوك).*

قطع من الحوار اللين جدا حيث أبرزت الشارات بواسطة تقنية التحجير (شكل 20، 6)، الهشة جدا دون شك؛ وبخاصة قطعة من الصخر السليكاتي مصقولة ومزينة، ومكسورة بوضوح (مقسومة؟) ثم مجلية مجددا عند الشق، وهذا يعني أنها لا تزال «ثمينة» في هذه الحالة النهائية حيث لم تعد قابلة للإستخدام إذ أصبح الحز قصيرا جدا (الشكل 20، 2). وسنرى أن هذه القطع ستصبح فيما بعد مؤشرات على الإنتشار النيوليتي في الأناضول (الشكل 20، 5). ونعتقد منذ الآن أننا نستطيع أن ننسب لها قيمة رمزية (أنثوية؟) على الأقل بما هي أدوات.

أما العصي من الحجر المصقول، المشتركة في كامل المريبطي، فتمثل تفاوتا جليا بين الوقت الطويل المطلوب من أجل تشكيلها و«فائدتها» القابلة للنقاش. إن مقطعها الذي يكون خاصا في غالب الأحيان (الشكل 20: 1) يغري بالمقابل على التعرف فيها بشكل شبه مؤكد على رموز قضيبية. وكما هو الحال في معظم المواقع النيوليتية في الشرق الأدنى، ثمة في المريبط. إضافة إلى هذه الحجارة ذات الحزات وهذه القضبان المصقولة، عدد من الحجارة المنحوتة والمزينة بأشكال مختلفة (مواضيع «شمسية»، وقلائد متدلية منحوتة، إلخ.) تكشف بشكل واضح. مثل الحلي وبعض التزيينات على الصفيحات. عن عالم «الإشارات» تماما مثل إشارات مغاثر بريغور Périgord الهندسية. وبسبب عدم القيام بدراسة منهجية على نطاق واسع لا يمكننا بعد وضع عرض متجانس حولها. ويفترض مجال البحث هذا مقاربات أخرى بالتأكيد غير المقاربة التكنولوجية الوحيدة.

خاتمة

تلكم هي الثقافات الثلاث في المشرق. السلطاني والأسودي والمريبطي، والتي ظهرت معها أولى الإشارات لإقتصاد زراعي سنحلل طبيعته لاحقا. وقد قدمنا هنا ما هو أساسي في الوثائق المعمارية والتقنية والطقسية التي تسمح بتعريفها. وتظل هذه المعطيات متباينة بعض الشيء. فلأسباب تمويلية بسيطة لا تتم التنقيبات في غالب الأحيان إلا في قطاع محدود جدا من المواقع. إن الصدفة في العثور على اللقى. وحالة حفظ البقايا. وأحيانا مناهج التنقيب المتبعة تسمح غالبا بتوثيق هذا القطاع أو ذاك من الحياة البشرية بشكل

أفضل. لكنها تترك قطاعات أخرى في الظل. وكان يلزمنا الحظ لنقع على برج أريحا. كما كان يلزمنا الحظ لنكتشف في المريبط حالة بيت محترق حفظ في حالة بقايا متكلسة عناصر من الصقالة ومن الآنية الخشبية. إن وجود بعض السمات في أحد المواقع لا يعني إذن بالضرورة غيابها عن المواقع الأخرى.

إن قائمة المعطيات المتوفرة تسمح على الأقل بتأكيد أن المجموعات الزراعية الأولى في الشرق الأدنى انبثقت في إطار في أوج تفتحه الثقافي والإجتماعي. وستبين لنا حالة المريبط. الأفضل من سلطاني أريحا الذي لا نعرف الكثير عن مرحلته الأولى. أن الإقتصاد الزراعي لم يتأسس في البداية تماما إنما في سياق الإنتشار الثقافي الخاص بالمريبطي. كما لو كان يظهره بشكل من الأشكال. وثمة سمة مشتركة ثانية بين الثقافتين هي أن المرحلة الثانية من السلطاني ومن المريبطي تشهدان على انفجار سكاني على المستوى المحلي. ويبرهن على ذلك التوسع المفاجئ في مساحة الضيعتين. فنقبل بالتالي وجود رابطة بين الإقتصاد الجديد ونمو القرى وعدد السكان الأكبر الذي يفترضه هذا التوسع. لكن هذه الظاهرة السكانية تبقى محلية كما رأينا: فهي لا تشير في شيء إلى نمو سكاني على مستوى الشرق الأدنى بمجمله. ولا حتى في أي من مناطقه الخاصة. وسيكون علينا أن نتساءل حول الطبيعة الدقيقة لهذه الصلة.

الهوامش

1. Kenyon، 1957، 1981.
2. Bar Yosef، 1986.
3. Bar Yosef، 1990.
4. Noy وآخرون، 1980.
5. Lechevallier et Ronen، 1994.
6. Noy وآخرون، 1973.
7. Stordeur، 1989 a.
8. Aurenche وآخرون، 1981؛ Hours وآخرون، سيظهر قريبا.
9. Cauvin J.، 1978.
10. Contenson وآخرون، 1979 و Contenson (éd.)، 1995.
11. Cauvin M.-C.، 1992.
12. Van Zeist et Bakker-Heeres، 1992. وبالنسبة للآثار الدقيقة انظر Anderson *in* Contenson (éd.)، 1995.
13. Van Loon، 1968.
14. Cauvin J.، 1977، 1978.
15. Cauvin J.، 1980.
16. Mc Clelian وآخرون، سيظهر قريبا؛ Stordeur et Jammous، 1995؛ Stordeur وآخرون، 1996؛ Stordeur، سيظهر قريبا.
17. Cauvin J.، المصدر السابق، ص.38؛ Aurenche، 1980.
18. تبدو آثار الرسمات، التي حللها ريو J.- P. Rioux (مختبر البحث في متاحف فرنسا، اللوفر) بواسطة حيود الأشعة السينية (أشعة X)، أنها ببساطة تطبيقات للفحم من الخشب المسحوق، ومن المغرة الحمراء ومن الحوار، دون أي أثر لملاط.
19. Molist، 1989.

20. Van Loon، المصدر السابق. وكان هذا النمط من البنية قد وجد في الشيخ حسن (Cauvin J.، 1980) وفي جرف الأحمر (Mc Clelian وآخرون، المصدر السابق).

21. Cauvin M.-C. et Stordeur، 1978.

22. Coqueugniot، 1983.

23. Cauvin J.، 1974.

24. الطير الذي «يرى في الليل» هي سمة يشير إليها التأكيد الذي نجده في تمثيل عينيه. حيث كان يمكن للبومة أن تكون منذ النيوليتي رمزا للقوى النفسية والتنبؤ. ونشير، ضمن الصلة مع هذا الغموض في *العين الإلهية* (Crawford، 1957) في تل براك، إلى التأكيد المتزايد في التصوير النيوليتي على عيون الآلهة المؤنثة نفسها (انظر ص. 201).

25. Solecki et Solecki، 1970.

26. Valla، 1987.

27. الأمر مماثل بالنسبة للتي في الشيخ حسن (الشكل 20: 4) وفي جرف الأحمر. ويحمل في هذا الموقع الأخير حجران محززان التزيينات الحيوانية التخطيطية أيضا التي سبق ذكرها (الشكل 19: 1 – 2).

الفصل الخامس

الفلاحون الأوائل:

ستراتيجيات البقاء

إن الإقتصاد الزراعي، الذي ظهر في الثقافات الثلاث التي وصفناها وهي السلطاني والأسودي والمريبطي، لا يميز بالضرورة مجمل المواقع التي تنتمي لها؛ فحالة قرية حتولا، على التلال الفلسطينية، مثال على اقتصاد الصيد ـ القطاف الممتد في قلب السلطاني[1]: فلم يكن يكفي أن يكون الشخص من السلطاني ليعيش الزراعة. إن وثائقنا حول أولى المجموعات الفلاحية من بداية الألف التاسع لا تتعلق حتى الآن إلا بمنطقة جغرافية دقيقة ومحدودة: الأراضي الخصبة من «الممر» الغريني والتي تمتد بين الجبل والسهوب من وادي الأردن إلى وادي الفرات الأوسط مروراً بضفاف البحيرات الدمشقية. ومن المحتمل أن الجزء الشمالي من هذا الممر كان في الواقع أكثر عرضاً بامتداده على جزء من الأناضول الجنوبي الشرقي والذي لا يزال غير معروف بشكل جيد.

وقد بينت المعطيات الآثارية النباتية التي جمعت بالنسبة للفترة السابقة (النطوفي ـ الخيامي) أن الزروع البرية كانت موجودة حقاً بين النباتات المحلية، أكان على الفرات أو في الروابي التي تحيط بالأردن. بالمقابل، كان يمكن لهذه الزروع البرية ألا توجد في غور الأردن نفسه كما وفي واحة دمشق حيث يوجد موقع تل أسود، والذي هو على التخوم الخارجية لمنطقة انتشارها الحالية: فهي معروفة في جبال لبنان الشرقية المجاورة ولا يبدو أنها تقدمت أقل من خمسين كيلومتراً إلى غرب تل أسود. وهكذا تكون مواقع الأسودي والسلطاني الزراعية قريبة جداً بالتالي من الموطن الأصلي للقمح النشوي وللشعير (الشكل1)، إنما ليس تماماً في داخله[2].

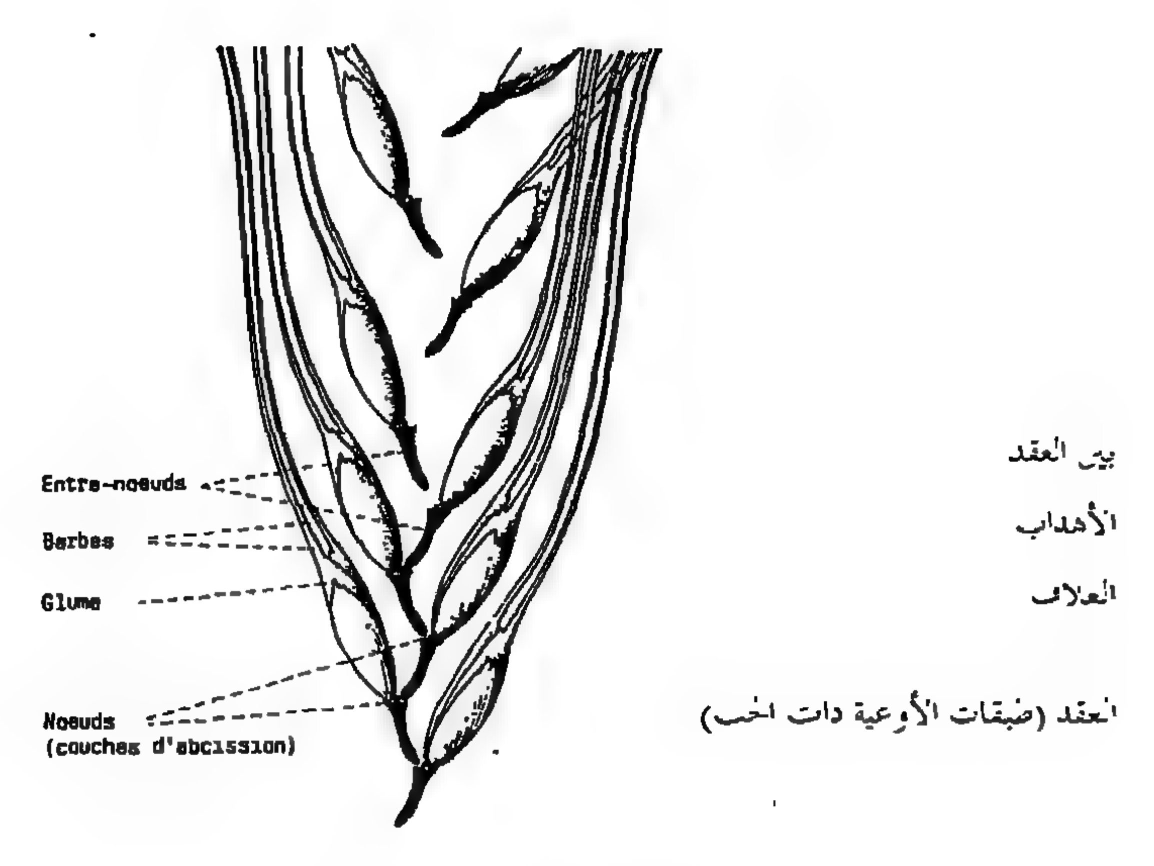
الأنواع البرية والأنواع المدجنة

كيف تفرض البداهة الزراعية نفسها في نظر علماء ما قبل التاريخ؟ إن الوجود الوحيد كما رأيناه لأدوات مثل المناجل والمساحق أو الأجران لا يكفي لذلك. وبالمقابل فإن برهاناً لا يُضحد يكمن في وجود «الأنواع المدجَّنة» بين بقايا النبات المتفحم الذي تحصل عليه التنقيبات الحديثة. فعندما تمت زراعة أنواع كانت حتى ذلك الوقت طبيعية وتلقائية. من الزروع أو القرنيات*. فقد تبع ذلك في الواقع بسرعة متفاوتة تحولات شكلانية تشهد على انبثاق أنواع جديدة حرضها الإنسان. وسنرى أن معاملات كثيرة أمكن لها أن تتدخل لكي تسرع أو تؤخر هذه التغيرات، علماً أنه أمكن أن توجد مرحلة انتقالية تسمى «الزراعة ما قبل التدجينية» (غوردون هيلمان Gordon Hillman) حيث يتدخل سلوك بشري زراعي إنما دون نتيجة ملحوظة على مستوى شكل النباتات. وفي هذه الحالة يكون من الصعب التعرف على الزراعة، في حين أن وجودها جوهري مع ذلك بالنسبة لعالم ما قبل التاريخ المهتم بالتقاط التغير عند أصوله إذا كان يريد معرفة ما الذي حرضه.

إن كل نبتة برية تمثل مورثياً صفات ذات طبيعة تيسر انتشار البذور الناضجة وإعادة بذرها بشكل تلقائي من جديد. وهكذا، بالنسبة للزروع، وهي نباتات ذات سنابل، فإن محور السنبلة أو «زندها» الذي يحفظ مجمل السنيبلات معاً يرخص ويضعف عندما تصبح السنبلة ناضجة وينقسم تلقائياً بحسب تمفصلات طبيعية تسمى «العقد» أو «طبقات الجذ» (الشكل 20). بالمقابل فإن القمح والشعير «المدجنين» يستحقان اسمهما من حيث أن هذه العقد أصبحت مع التدجين أكثر صلابة وقساوة حتى عندما تكون السنبلة جافة، مثل المفصل البشري وقد أصابه الإعتلال المفصلي. وهكذا ينتظر الحقل حتى يأتي الفلاح ويحصده، وسيكون من الضروري عندها القيام بضرب شديد من أجل فصل السنيبلات عن القش. ومن المؤكد أن السويقة ما بين الحبتين، التي تكسرت بقسوة هنا، ليس لها أبداً على نقطة قطعها المظهر نفسه الذي لزند بري انكسر من تلقاء نفسه بتراجع بسيط لطبقات القطع. إن هذا الإختلاف هو الذي يلحظه عالم النبات عندما تمر بقايا النباتات المتفحمة تحت المجهر.

---

* القرنيات أو القطانيات هي فصيلة من النباتات من ذوات الفلقتين تشمل الفول والعدس والحمص واللوبياء إلخ.، م.



الشكل 21. *مخطط سنبلة قمح برية.*

إن هذه السمة، قساوة الزند، تنبثق تلقائياً تماماً هنا وهناك من خلال التحولات داخل المجموعة البرية لكن النباتات المتحولة القليلة لا تستمر أبداً فيها، وذلك بسبب هذه الإعاقة التي تمثلها تحديداً هذه السمة الجديدة بالنسبة لتكاثرها التلقائي. بالمقابل، عندما يقطف الإنسان زروعاً برية من أجل أن يتغذى بها، فإنه سيميل بشكل آلي، إذا كان ينتظر نضجها من أجل ذلك، إلى اقتطاع هذه المتغيرات للسبب البسيط بأن الحبوب لا تزال في السنبلة في حين أن الأخرى كانت قد سقطت على الأرض. فثمة إذن من جانبه انتخاب لاواعي لسمتها «التدجينية»[3]. فإذا بذر الآن ما كان قد قطفه، فإن هذه السمة هي التي ستسيطر مذاك في حقله وسنحصل على مدى قصير على البذار التالية للحصاد، أي على «نوع مدجن» تكون فيه كافة الزنود قاسية.

إن هذا المخطط النظري لتدجين الزروع يبدو أنه يفترض أن تكون هذه الصيرورة سريعة. وقد اعتُقد لفترة طويلة أن بعض أجيال النباتات، أي على الأكثر بضعة عشرات من السنين، كانت كافية لكي تتم القفزة من نوع إلى آخر ما أن يكون الإنسان قد باشر بزرعها. ولهذا كان علماء النبات قد اعتبروا لفترة طويلة تحول الزند كمعيار ضروري وكاف في آن معاً من أجل اكتشاف وتأريخ بدايات زراعة الزروع. أما التغيرات الأخرى، مثل ميل الزروع كما والقرنيات المزروعة لزيادة أحجام حبوبها، فهي أبطأ وأكثر تدريجية: فهذه المعايير نادراً ما تكون حاسمة في الفترة البدئية التي تشغلنا هنا.

وقد أجبرتنا الوثائق المكتشَفة في السنوات الأخيرة في نتيف هقدوق على إعادة النظر قليلاً بهذا المخطط، وهو الذي لا ينفصل عن نمط خاص من القطاف سنرى أنه ليس هو النمط الوحيد المكن. وسنبدأ هنا بإعلان نتائج تل أسود وهي من منظور تقليدي التي طرحت المشاكل الأقل على الباحثين.

الزراعة الأولى في غوطة دمشق

تنتج واحة دمشق الحالية، أو غوطتها، عن الإستخدام والإستنزاف التدريجي لنهر الجبل، نهر بردى، الذي فرّعه الإنسان إلى شبكة خصبة ومعقدة من الأقنية التي تسقي الزراعات، وذلك في السهوب التي تحف من الشرق بجبال لبنان الشرقية. فتحت هذا الشكل الحالي تُعد الواحة حديثة ولا تعود أبداً إلى ما قبل العصر الميلادي. أما في حقب البليستوسين فكان النهر لا يزال يصب في بحيرة كبيرة تقع إلى الشرق قليلاً من الواحة الحالية ومستوى هذه البحيرة لم ينفك ينخفض حتى وصل في النهاية في الهولوسين إلى البحيرتين الحاليتين الصغيرتين. ونحو عام 9000 قبل الميلاد كانت إحدى هاتين البحيرتين، وهي بحيرة العتيبة، مطوقة بسبخات قدمت القصب الذي استُخدم في النيوليتي في عمارة قرية أسود التي توضعت على شطآنها. ومع أن معدل الأمطار (حالياً 200 ملم في السنة) ضعيف جداً أساساً بالنسبة للزراعات الجافة ولم يسمح حتى، كما رأينا، بالنمو التلقائي للزروع البرية، فإن الأراضي الرسوبية، التي تشكلت بواسطة الطين الصلصالي* البحيري الذي كان يتركه تراجع البحيرة ومن الصلصال الغريني الذي كان يحمله نهر بردى، والذي كان يترطب إضافة إلى ذلك بسبب قرب المستنقعات، كانت مع ذلك ملائمة جداً للزراعات. وكان الأسوديون هم أول قاطنيها: وقد جاؤوا إليها من مناطق أخرى، ربما من جبال لبنان الشرقية المحاذية، وكانوا مزودين مذاك بالبذار لأنه لا يشك بممارستهم للزراعة منذ بداية استقرارهم[4]. وبالتالي، فهم لم يبدأوا أولى محاولاتهم الزراعية في الواحة نفسها (أي الغوطة).

---

* الطين الصلصالي (ترجمة لـ marne) هو تربة صفراء اللون تكثر فيها نسبة العناصر الصلصالية وتنجم عن الترسبات في البحيرات والأنهار، م.

فمنذ البداية إذن كان القمح النشوي (*Triticum dicoccum*) موجوداً فعلاً في تل أسود بين النباتات الأخرى، بينما لم يكن ثمة في الموقع قمح بري. وكان الشعير موجوداً أيضاً. لكن أول حالة «زند صلب» من نمط مدجَّن (*Hordeum distichum*) لم يظهر قبل المرحلة المسماة «I B»، أي نحو عام 8300 قبل الميلاد. وفي الأسودي تحديداً (المرحلة «I A») كان الشعير لا يزال يملك شكلاً برياً (*Hordeum spontaneum*). ويقبل علماء النبات مع ذلك أنه كان قد أمكن لهذا الشعير أن يكون قد زُرع بهذا الشكل[5]، الأمر الذي يفترض تأخراً طويلاً في الترجمة الشكلانية لزراعته. ووفقهم كان من المحتمل جداً أيضاً زراعة قرنيات، الفوم** والعدس، على الرغم من عدم وجود آثار تدجينية حاسمة، لأننا لا نجد أصولهما البرية في الواحة. وكان ثمة أخيراً بعض الثمار البرية التي تقطف، مثل الفستق وزهر الكَبَر*** والتين، لإكمال النظام الغذائي، في حين كانت مصادر اللحوم تأتي فقط من الصيد طالما أنه لم يكن ثمة تدجين حيواني في أي مكان خلال هذه الفترة.

نشير إذن إلى أن وجود القمح المدجن في تل أسود، وهو أمر لا نزاع فيه بحسب المعايير الشكلانية، هو الذي سمح لعلماء النباتات القديمة بافتراض ممارسة زراعة معممة لسلسلة كاملة من النباتات الأخرى والتي لم يكن لدينا يقين واضح بالنسبة لها إنما التي لم تكن تظهر في مكانها الطبيعي في هذا المدى الجغرافي الحيوي الخاص[6].

غور الأردن

في الوقت الذي كان يتم فيه تنقيب أريحا لم تكن قد استخدمت بعد المناهج الحديثة في التعويم من أجل الحصول بشكل منهجي على البقايا النباتية الكبيرة. إن ذلك يحرمنا من توثيق لا يعوض حول اقتصاد هذه القرية. ومع ذلك كان المنقبون قد التقطوا مذاك وبشكل عجائبي، وذلك صدفة أثناء نخل متفرق، أربع حبوب من الزروع وهي الأربع كلها من الحبوب ذات الشكلانية المدجَّنة: القمح النشوي (*Triticum dicoccum*) والشعير ذو

** الفوم أو الجلبان pois هو بقل حولي تُطبخ قرونه وبزوره، م.

*** زهر الكبر câpre هو زهرة نبات من فصيلة الكبريات وهي من ذوات الفلقتين، تنمو في المناطق الحارة وتُستعمل في الأطعمة، م.

الصفين (*Horeum distichum*)[7]. وقد بدا ذلك كافياً من أجل إثبات واقع الزراعة. كما وُجدت أيضاً بقايا نادرة لعدس مدجن (*Lens culinaris*) وحمّص: وكان هذا النوع الأخير مزروعاً أيضاً دون شك لأن هذه النبتة ما كانت لتنمو تلقائياً حول أريحا[8]. ومن الممكن أن نحدد إذا كانت هذه الزراعة قد ميزت كامل الفترة السلطانية وفي أية فترة أمكن أن تظهر فيها.

إن توثيقنا الرئيسي حول غور الأدرن يتأتى من موقع آخر أُسس هو أيضاً نحو 9000 قبل الميلاد: إنه موقع نتيف هغدود. وهو أقل فخامة من أريحا إنما نُقب حديثاً. ومعطياته غامضة مع الأسف. إن بقايا الشعير كثيرة فيه لكن 10 ٪ فقط من الزنود هي من النمط القاسي بينها، أي «المدجنة«[9]، في حين أن البقية ظلت من النوع البري. وثمة ثلاثة تفسيرات محتملة أمام مثل هذه النتيجة. ويعتمد التفسير الأول الذي قدمه عالم النبات موردخاي كيسليف Mordechai Kislev على النظر إلى هذه النسبة المئوية الضعيفة على أنها غير ذات قيمة. ويشتمل التفسير الثاني على القول إن هؤلاء القرويين كانوا يمارسون قليلاً من الزراعة لكنهم كانوا يتابعون في الوقت نفسه قطاف الجزء الأساسي مما كان يلزمهم من الشعير من بيئتهم الطبيعية. وفي هذه الحالة فإننا سندهش لمعرفتهم بمبدأ الإنتاج القصدي لهذا النوع وتفضيلهم الذهاب بعيداً عبر التلال البعيدة من أجل إكمال مؤونتهم منه بدلاً من ممارسة هذه المعرفة والحصول وهم في مكانهم على كفايتهم. والتفسير الثالث، وهو تفسير دانيال زوهاري Daniel Zohary، هو رؤية صيرورة تدجين في بداياتها، مع تغيرات شكلانية جارية إنما غير معممة بعد: ويكون عندها مجمل الشعير مزروعاً أكان «مدجناً» أم لا. وهنا تأتي سرعة التغيرات التي هي موضع الخلاف، لأن السلطاني في نتيف هغدود دام عدة قرون. وفي كل حال فإن المناجل والمساحق وبنى التخزين المبنية بالصلصال، وهي كثيرة في الموقع، سيكون لها فعلاً في هذا التفسير مغزى زراعي. لكن ليس ثمة بعد اتفاق بين علماء النبات حول زروع نتيف هغدود.

الفرات الأوسط: تطور الإقتصاد في المريبط

ثمة حالة أخرى للزراعة المبكرة، ظلت موضوع جدال لفترة طويلة، هي حالة المريبط (المرحلة III B). وهنا لم يظهر أي تأكيد في شكلانية الحبوب لصالح التدجين. بالمقابل، فقد أسهمت في تأكيد الزراعة فيها جملة من القرائن من المستوى الثقافي

والإقتصادي والبيئي وحتى النباتي المباشر بفضل دراسة حبوب الطلع القديمة palynologie والإختبار: ومن هذا التناقض نفسه ولد ارتجاج منهجي مثمر وبعض الأفكار أيضاً حول ما كان يمكن أن يكونه هؤلاء المزارعون الأوائل الذين نميل في أحيان كثيرة إلى تخيلهم وفق نموذج مزارعينا.

لنذكّر أولاً بأن المريبط تتميز عن تل أسود أو عن نتيف هغدود بأننا أمام إعمار مستمر منذ نهاية النطوفي. فالمريبطي هو الثمرة الثقافية لتحول تم في موقعه نفسه لصيادين ـ قاطفين نطوفيين ثم خياميين (الفصل الرابع)، في حين أن الأسوديين والسلطانيين. وهم من نسل ثقافي خيامي أيضاً. كانوا قادمين جدداً إلى أسود ونتيف هغدود. ففي المريبط وحدها إذن يمكننا أن نرصد حتى الوقت الراهن. ودون الخروج من القرية نفسها ولا من المشهد المحيط نفسه. ليس فقط تطوراً ثقافياً بلا انقطاع. بل وأيضاً التطور الذي لا يقل تدرجية لستراتيجيات المعيشة من الإلتقاط إلى الزراعة.

كان النطوفيون والخياميون من بعدهم قد اعتمدوا طويلاً على صيد قطاف متنوع جداً بعد أن استقروا على ضفاف الفرات نفسها، وهم على تماس في آن واحد مع الغابة ـ المر من الحور والأثل* التي كانت تحف بها والفيافي من الجراج التي يتناثر فيها البلوط وأشجار الفستق والتي كانت تمتد حولها. وكان كل شيء حسناً لتناوله، من غزلان وخيليات السهوب، بل وأيضاً بعض الثيران والأيائل والخنازير في الغابة النهرية والكثير من الطيور المائية المهاجرة التي كان يُنتظَر مرورها، هذا مع مكمل هام جداً مما يزود النهر به. وكان هؤلاء القرويون الأوائل يمارسون في الواقع الصيد المائي: فكانت الأسماك والأصداف تمثل مصدراً لا ينفذ ومستثمراً بشكل واسع. أما بالنسبة للبروتينات النباتية فكانت تُزود بشكل خاص كما رأينا من خلال قطاف كثيف للجنجر وأصابع العروس** مع القليل جداً من بُر القفقاس والشعير البري اللذين كانا يقطفان بشكل متمم لهذا النظام الغذائي.

إن هذه المجموعة من الستراتيجيات الغذائية هي التي نراها تتغير بشكل جذري خلال مرحلة المريبط III: والزراعة الجديدة لن تكون سوى حالة خاصة من تغير عام جداً؛ فمن المناسب إذن ألا نفصلها عن وسطها من أجل أن نفهمها.

* الأثل أو الطرفاء شجرة نحيلة الأغصان، واللفظة اللاتينية tamaris مأخوذة عن العربية «تمر» الذي يشبه به المنّ، وهو ما تفرزه طرفة المن في سيناء، م.

** أصابع العروس نبات من جنس الكثيراء من فصيلة القرنيات الفراشية، م.

وقد جاءت الإشارة الأولى لصالحها من دراسة حبوب الطلع القديمة[10] palynologie . وهو المفترض أن يمثل حالة البيئة النباتية عبر الزمن. لقد كان غبار الطلع «من النمط الزروعي» ماثلاً إنما نادراً جداً في النطوفي وفي الخيامي، الأمر الذي بدا أنه يثبته الحصاد الضعيف جداً لهذه النباتات التي كشفت عنها في الوقت نفسه دراسة الحبوب: فقد كان يقطف القليل منها لأنه كان يوجد القليل منها. وقد حصل ازدياد مفاجئ لغبار الطلع هذا نحو 9000 قبل الميلاد خلال المرحلة III. والحال أن غبار طلع الزروع ثقيل؛ فمهما كانت قوة الريح فإنه لا يقع أبداً بعيداً عن نبتته الأصلية. فإذا كانت نسبته قد ازدادت فجأة في الموقع فذلك أن هذه النباتات نفسها قد انتقلت في الجوار، ومثل هذا الإنتقال الموضع بهذا الشكل لا يمكن إلا أن يكون تنقلا صنعيا[11]. وقد بدا أن ذلك يوحي بتشخيص مرحلة «ما قبل زراعية». وقد اعتبرت في حينه مثل تدخل بشري «ميسر لتطور الأنواع البرية[12]».

لكن الدراسة اللاحقة للحبوب المتفحمة[13] لم تبد مؤيدة لهذا التشخيص. فكما غبار الطلع ازدادت أيضا بشدة كبيرة حبوب الزروع، الشعير وبخاصة بر القفقاس *Triticum boeoticum*. خلال المريبطي. وهذا التوازي يصدم بحد ذاته، لكن شكلانيتها لا تشير بشيء إلى تدجينها[14]. وإضافة إلى ذلك لم يكشف علماء النبات عن زيادة واضحة في الفترة نفسها عن بقايا الأعشاب الضارة التي ييسر وجودها العمل في الأرض والتي تعتبر الملازمة بشكل طبيعي للنباتات المزروعة. وأخيرا فإن غبار الطلع «من نمط الزروع» لم يعد يعتبر وحده كإثبات كاف تماما. فهو في الواقع غير نموذجي تماما ولا يستبعد إمكان الخلط بينه وبين غبار طلع نجيليات* أخرى غير غذائية[15]. فكان يمكن إذن لمجرد قطاف مكثف لبر القفقاس والشعير البريين من مكان بعيد جدا عن القرية طالما أنهما لم يكونوا متوفرين بكثرة بشكل طبيعي حولها، أن يفسر على هذا المستوى من الأبحاث ازدياد استهلاكهما دون أن نستطيع تأكيد زراعتهما.

وكان هذا الغموض في المعطيات النباتية القديمة يجعل من المفضل العودة إلى طرائق بحث مختلفة لمحاولة الرؤية بشكل أوضح. فإذا كنا نستطيع بشكل خاص رد زراعة الزروع بسبب عدم وجود سمات تدجينية في شكلانيتها، فهل كنا نستطيع إخضاع هذا المعيار للبحث بحيث نحكم على أهميته الحقيقية؟

---

* النجيليات هي نباتات من وحيدات الفلقة تشمل النباتات الحبية والعلفية، م.

كانت استراتيجية البحث الأولى هي دراسة الآثار الدقيقة، بالتكبير البصري الشديد، للإستخدام على الأدوات الصوانية: وكانت الطريقة قد طُبقت هنا على يد باتريسيا أندرسون Patricia Anderson على النصال المجلية («المناجل») في المريبط من أجل التحقق من الأصل الدقيق لمجلاها. وكانت الطريقة الثانية مماثلة تجريبية لزرع زروع برية تمت منذ عام 1985 في جاليس Jalès، في جنوب فرنسا، وذلك ببذار مأخوذ من الشرق الأدنى. وقد أعطت كلتا الطريقتين نتائج هامة[16].

كانت النصال المجلية في النطوفي والخيامي (المرحلتان I و II) نادرة في المريبط، وقد بينت دراسة آثارها الدقيقة أنها كانت قد استُخدمت بشكل خاص من أجل قطع الأسل* والقصب وأن استخدامها كان حرفياً بالأحرى وليس غذائياً[17]. أما أدوات المريبطي فهي بالمقابل حقاً أدوات حصاد بمعظمها: لكنها استُخدمت في قطع زروع ليس جافة إنما لا تزال خضراء قبل نضجها مباشرة[18]. ومن جهة أخرى فقد بينت اختبارات للإنتاش والإنتاج تمت في المختبر أن الحبوب التي تقطف خضراء هكذا، ثم تجفف في المسكن، كانت تحتفظ بقدرتها الإنتاجية ويمكن أن تُستخدم بالتالي كبذور.

إن قطف الزروع البرية قبل نضجها بقليل، مع معرفة هشاشة سنابلها الناضجة، هو سلوك ليس فيه ما يفاجئ على المستوى البسيط للمردودية الغذائية. فبما أن الحبوب التي تسقط كانت حبوباً ضائعة فلماذا كان على القاطف أن ينتظر حتى سقوطها ليلتقطها؟ لكن شيئاً ما يجب أن يتغير أيضاً في المخطط النظري للتدجين المطروح أعلاه، والذي طالما أثر على فكر علماء النباتات القديمة. فالإنتخاب اللاواعي من قبل الإنسان للمتحولات ذات الزند القاسي، وهو الأمر الأكيد بالنسبة لقطاف ناضج، يكون أقل بكثير بالنسبة لقطاف «أخضر» عندما لا تكون الحبوب قد بدأت بعد بالإنتشار. وهو ليس بالتأكيد بلا قيمة. إذ تتميز الزروع البرية، بخلاف المدجنة، بسويات مختلفة للنضج بين سنبلة وأخرى في الحقل نفسه. والإنسان الذي يقطفها سيتناول منها بالتالي دائماً مجموعة مختلفة بعض الشيء عن «جماعة» مكتملة بالمعنى المورثي للكلمة: فبين السنابل الأكثر تقدماً في نضجها، ومن بين هذه فقط، ستستمر بعض المتغيرات منها ذات الزنود الأقسى بأن تكون مفضلة في القطاف بالنسبة للسنابل الأخرى الأكثر هشاشة، لكن هذا الإنتخاب الذي يُعتبر

* الأسل نبات عشبي تستعمل غصيناته لصناعة السلال، م.

ملطّفاً يمارس ضغطاً أقل بكثير لصالح تدجين النوع. وبعبارة أخرى، فإنه يمكن لفترة طويلة أن نبذر ونحصد ونعيد بذار الشعير والقمح. أي العمل كمزارع حقيقي، قبل أن يظهر عليهما أثر واضح على مستوى الشكلانية النباتية. وهكذا تصبح الزراعة «ما قبل التدجينية» احتمالاً مشروعاً ومثبتاً نظرياً.

ومع ذلك لا يجب أن نتصور هذه النشاطات الزراعية الأولى على أنها مشابهة دفعة واحدة لنشاطات زراعة أكثر تطوراً. فالصورة المألوفة للفلاح المنكب على محراثه أو على مجرفته والملقي ببذاره في الأرض المقلوبة لا يبدو أنها تتوافق مع الأزمنة الأولى من الزراعة. فالزروع البرية، كما وربما أولى الأنواع المدجنة، تنمو بشكل جيد وغالباً بشكل أفضل بعد بذار بسيط على سطح الأرض التي تُنظّف إذا لزم الأمر بالحرق أو بنزع النباتات الطبيعية الأكثر إعاقة. وأخيراً فإن الفكرة الأخيرة التي يجب استبعادها هي عمليات البذار السنوية التي هي بالنسبة لنا شرط تجدد حقل ما إذ تبدو غير ضرورية في الزراعة ما قبل التدجينية، ويرجع ذلك هنا أيضاً لتنوع أوقات النضج بين السنابل و«الخسارة» التي لا يمكن تلافيها من الحبوب من بين أكثرها نضجاً، حتى عندما تكون معظم الحبوب المحصودة خضراء. وإعادة البذار التلقائية هذه بواسطة هذه الحبوب الساقطة كاف جداً لكي يعود حقل الزروع فينمو في السنة التالية كثيفاً كما كان في السابق. فالبذار المتعمد ليس ضرورياً إذن إلا عندما يراد تغيير موقع الحقل وذلك في إطار الممارسات البدائية لإراحة الأرض: ويعني ذلك أنه كان متقطعاً جداً. لكن النمو التلقائي لا يمارس هو أيضاً أي ضغط لصالح انتخاب متحولات تدجينية الأمر الذي يؤخر التدجين كثيراً. تلكم هي الإستنتاجات الهامة التي قادت إليها تجارب باتريشيا أندرسون وجورج ويلكوكس في جاليس.

ينتج من ذلك على مستوى المناهج أن الدراسة الشكلانية للبقايا النباتية الجهارية التي وجدت أثناء التنقيب لا يمكن أن تثبت وحدها زراعة الزروع كما وبالمقدار نفسه زراعة الأنواع المدجنة شكلانياً التي انبثقت منها؛ وهي لا يمكن أن تستبعدها إذا لم يكن هذا هو الحال حتى الآن. فإذا لم يكن هناك حتى الآن إثبات مباشر على بدايات الزراعة فيمكن أن يوجد ثمة فيها بالمقابل «تأكيدات ظرفية»[19] لصالحها ناجمة عن معطيات متلاقية من الوسط، بيئياً كان أم تقنياً وثقافياً، وهو إطار وحده البحث المتعدد العلوم والمناهج يستطيع إثباته في الوقت الراهن.

وقد رأينا هكذا بالنسبة لتل أسـود. وهـو موقـع ليس موضـع نـزاع أبـداً بوجـود الزراعة فيه. أن التدجين الظاهري لنوع واحد. هو القمح النشوي. والغياب المرجح بالنسبة لثلاث أرومات أخرى برية ومحلية. هو الذي لعب هذا الدور بالسماح باعتبـار هـذه الأنـواع الأخيرة على أنها مزروعة دون إثبات شكلاني واضـح. أمـا في المريبـط فـإن هـذه التـأكيدات ذات صبغة اقتصادية قبل كل شيء. فقد تم الإنتهاء في الواقع في المريبطي مـن هـذا الإلتقـاط السلس والإنتقائي في آن واحد. حيث كـانت الأنـواع المستهلكة تعكس إلى حـد مـا لائحـة الحياة الحيوانية والنباتية المحيطة بالقرية. وكانت هذه الإنتقائية ضرورية من أجـل تـأمين تموين منتظم لصيادين قـاطفين حضـر لم يكونـوا ينتجونـه. وبالمقـابل كـاد الصيـد المـائي في المريبطي يختفي تقريباً بعد أن كـان أساسياً في حـين كـان الصيـد يـهمل الطرائد الصغـيرة ليتخصص أكـثر فـأكثر بالحيوانـات الضخمـة الأكـثر مردوديـة. فكـانت تتـم ملاحقـة أحـد الخيليات (حمار بري أو فرأ التُّبَت*) وبخاصة الأرخص (*Bos primigenius*)، وهو حيوان كان يكاد لا يصاد في المراحل السابقة. وفي النباتات المستهلكة كان الجنجر وأصابع العـروس يتراجعان بالمثل بالنظر إلى الصعود المدهش للـزروع. فثمـة إذن في البدايـة. كمـا سبق وبينـا ذلك[20]، ظاهرة اختيار. مع بعدها عن إثبات أي نضوب للأنواع البرية المستهلكة (هـل كـان السمك قد قل في الفرات؟)، جعلت الإنسان يتخلى عـن بعـض منـها لكـي يفضـل غيرهـا. مستثمراً عند الإقتضاء في امتلاكها ومعالجتها مزيداً من التقنية المعدة لهذا الهدف.

إن تطويـر التسـليح، أكـان بـالكم وبـالنوع أم باختيـار مقـاييس أكـبر مـن رؤوس السهام، يمكن أن يُفسَّر كما سنرى بأسباب أخرى غير تحسين الصيد؛ ولكن كان يجب أن تضاف إليه، إضافة إلى زيادة في الإبتكار، تقنيات اقتراب من الأرخص أكثر تنظيماً وفعاليـة تسمح بأن تجعل منه شيئاً آخر من مجرد طريدة اتفاقية. وبالمثل، فإن صعـود مـواد الطحـن والنصل المناجل، وقد أصبحت هذه الأخيرة في آن واحد أكثر عدداً وأكثف اسـتخداماً وأكـثر التفاتاً في هذا الوقت كما تشير إلى ذلك آثار الاستخدام الدقيقة عليها باتجاه حصاد الـزروع. يوحي بتخصص مماثل مثبت بواسطة تطور الأهراءات وأيضاً في الحيوانات الصغيرة بصعـود شديد للقوارض الصغيرة المؤاكلـة للإنسـان والـتي تسـاكنه عـن طيـب خـاطر[21]. ولكـن لمـاذا نتحدث عن زراعة وليس فقط عن قطاف بسيط متخصـص في الـزروع، كمـا كـان الصيـد في الآونة نفسها متخصصا بالعاشبات الكبيرة؟

* أحد حيوانات الفصيلة الخيلية، وهو لم يعد موجودا في المنطقة، م.

هنا إنما يتدخل تأكيد ثالث بشكل داعم، وهو هـذه المرة إثبات بيئـي. فـالصيد الجديد للأرخص لا يعني أن قطعانه كانت تتردد بأعداد كبيرة أكثر من السابق على الغابـة النهرية، وبالمثل فإن نهايـة الصيـد المـائي مـا كـان ليعبر عـن نضوب مفـاجئ في الجنس السمكي. إن ذلك كله يعود للخيار الإنساني، في وسط وحشي نقدر إنه كان بلا تغـير ممـيز. وبالمقابل يبدو أن الزروع البرية لم تكثر تلقائيـا أبـدا حـول المريبـط: فقـد كـان غبـار الطلـع والحبوب متطابقين ليؤكدا لنا ذلك في المراحل السابقة. وحتى إن كـان التحسـن المنـاخي في المرحلة III قد زاد قليلا من وجودها التلقائي، فإننا لم نستطع أن نعطيها مكانة مسـيطرة في التموين إلا بشرط التدخل في تكاثرهـا نفسـه. ولهـذا فمـن المرجـح جـدا أن اقتصادا لإنتـاج حقيقي كان يتحضر.

وهكذا فإن التلاقي بين عدد كبير من المؤشرات التي قدمتها مناهج آثارية متتامة، وهي مؤشرات ما كان لأحدها قيمة البرهان وحده، هو الذي سمح باقتراح وجود زراعة هامة في المريبط III. وبما أن الأمر كان يتعلق في هذه الحالة بزراعـة غـير مدجنـة، فإننـا لم نكـن نستطيع أن نعتمد على تحكيم الشكلانية النباتية وحده والذي لم يصبح مميزا إلا مـن أجـل مرحلة تالية. وأخيرا، فقد دعمت هذه المسيرة المنهجية بشكل غير متوقـع علـى الإطـلاق في عام 1990، وذلك عندما أخضعت كمية من الحبوب من المريبط III في معهد البوليتكنيـك في لندن إلى منهج جديد جدا في التحديد يعتمد على القياس الطيفي بالأشعة تحت الحمراء مما يسمح بتمييز الأنواع وغالبا الأنواع الفرعية من الزروع بفضل اختلافات مرتبطة على الأرجـح بدرجاتها الخاصة مـن الدسـم، علمـا أن هـذه الكميـة نفسـها كـانت قـد حـددت سـابقا في غرونينغ Groningue على أنها من بر القفقـاس البري. وقـد ظـهر هكـذا في هـذه العينـة، إضافة إلى بر القفقاس المنتظر، الكثير من حبوب الشيلم (*Secale cereale*) الـتي لا يمكـن التعرف عليها بطريقة أخرى، طالما أن شكلانية الشيلم قريبـة مـن شـكلانية بـر القفقـاس، وبخاصة عندما عمل تفحم الوثائق ما قبل التاريخيـة علـى طمـس تفـاصيل ممـيزة دقيقـة[22]. ونحن لا نملك بذلك حتى الآن برهانا نباتيا مطلقا على الزراعة، لأنه بين الأنواع البرية مـن الشيلم فإن النوع *Secale cereale vavilovi* وحده قابل للتدجين ليصبح عندها نباتا مدجنا يسـمى في المصطلـح العلمـي *Secale cereale cereale*. والحـال أن التحليـلات المطيافيـة المذكورة لا تسمح بعد بتمييز هذين الشكلين من الـ *Secale cereale*، أي تحديـد حالتـهما أهي برية أم مدجنة. ومع ذلك فقد بينت تحريات نباتية حديثـة جـدا في تركيـا الشـرقية[23]

أنه على خلاف بر القفقاس البري الذي جعلته قدراته الواسعة على التأقلم يـنزل منـذ اثـني عشر ألف سنة حتى خط عرض المريبط، فإن الشيلم *Secale cereale vavilovi* أكثر تطلبـا بكثير بالنسبة للأرض (إذ تلزمه أرض حمضية وبركانية) والإرتفاع (إذ ينمو على ارتفاع أكثر من 1000 متر). فلدينا هنا حدس قوي جدا لصالح الشيلم *Secale cereale cereale*، أي لزراعة الشيلم في المريبط ابتداء من البذور التي كان قد أمكن أن تنقل مثلا من الأنـاضول مـع الأوبسيديان في الوقت نفسه.

هكذا نرى أن علم النباتات القديمة، مثل علم الآثار، هو علم قابل مع تطوره على تعديل رؤاه مع الزمن[24]. إن نتائجه الأحدث لا تثبت فقط ممارسـة زراعيـة في المريبـط، بـل تضيف الشيلم، الذي كان يعتقد أنه غائب تماما عن منطقتنا. إلى قائمـة الأنـواع المدجنـة في الشرق الأدنى[25].

موازنة ختامية

لقد كان من الممكن إذن أن نستخلص من الدراسة الشكلانية وحدهـا للحبـوب أن زراعة القمح كانت معروفة في منطقة دمشق وزراعة القمح والشـعير في منطقـة أريحـا، وذلـك على أطراف غابة الألف التاسع. وقد كـان بالقـابل مـن الصعـب الولـوج إلى فكـرة «اقتصـاد زراعي» حقيقي حيث يمتد التفسير على قائمة إضافيـة كاملـة مـن النباتـات المزروعـة غـير «المدجنـة» بـالضرورة إنمـا الـتي لا معنـى لوجودهـا دون تدخـل إنسـاني في الأطر البيئيـة المحددة التي نجدها فيها.

والحديث عن «اقتصاد زراعـي» يعـني أن الثقافـات الغذائيـة كـانت تلعـب دورا رئيسيا في نظام بقاء الجماعات. وهذا ما تعـبر عنـه الأهميـة الكميـة الممكـن إدراكـها آثاريـا للأنواع المزروعة أكانت مدجنة أم لا. وبعبارة أخـرى، فـإن هـذه الزراعـات لم تكـن بعـد في مراحلها الإختبارية الأولى. فالأمر يتعلق حقا بجماعات فلاحية تجاوزت بخطوة واسعة عتبة النولتة الإقتصادية. فإذا كنا لا نلحظ انبثاقا تدريجيا لهذه الحالة الجديـدة في واحـة دمشـق ولا في وادي الأردن فذلك لأن قاطني الأرض كانوا كما رأينا من القادمين الجـدد. وقـد سـبق ولاحظنا[26] أن الصيادين القاطفين النطوفيين والخياميين في الأردن كانوا يبنون طواعية قراهـم على التـلال المشرفة علـى الـوادي في حـين أن خلفـاءهم السـلطانيين قـد نزلـوا إلى السـهل

الغريني. وقد أمكن القيام بزراعات أولى متفرقة ومحدودة لم يكن لها تأثير واضح على إقتصاد المجموعات. وذلك في أراضي مختلفة جدا إنما بالضرورة على اتصال مباشر بالأنواع البرية المبذورة: وهذه الأنواع. وهي الزروع بخاصة. لا تنمو اليوم بشكل تلقائي لأسباب تتعلق بمعدل الأمطار إلا على ارتفاعات أعلى بشكل واضح من الأراضي المنخفضة لدمشق ولمر الأردن. وبالمقابل. فإن ترقية هذه الأنواع إلى رتبة المصادر الأساسية في اقتصاد إنتاجي كان يفترض أيضا اختيار الأرض الأكثر ملاءمة لنموها الصناعي: وكانت الأراضي العميقة في السهول الغرينية مفضلة على الأراضي الأكثر انحدارا والأفقر بالتربة العضوية في المرتفعات المجاورة. وهكذا فقد جر اختيار مصادر جديدة. منذ بدايات الإقتصاد الزراعي، خيارا ليس أقل بداهة لأطر جديدة للحياة. باستثناء حالات مثل المريبط كان هذا الغرس الملائم موروثا بشكل ما من الصيادين القاطفين الذين كانوا موجودين سابقا.

إن هذه الإنتقالات الجغرافية للقرى. وإن كانت على مسافة قصيرة، لا يمكن أن تكون قد حرضت إلا باختراع الزراعة نفسها. فلمعرفة نوعية التربة يجب أن يكون الإنسان مزارعا سلفا... وهذا يعني أننا لسنا في تل أسود وفي نتيف هغدود أمام «اختراع» للزراعة. ومثل كل إبداع وكل بداية حقيقية فإن هذا الإختراع ليس أبدا بمتناول أدوات تحليلنا الحالية. فنحن لا نلاحظ أبدا سوى نتائجه، على مستوى تكون فيه الظاهرة بعد أن تأسست بشكل كاف قد غيرت بشكل واسع كتلة المعلومات القابلة للقياس التي يمكننا أن نملكها. وذلك لأن نمط الحياة نفسه قد تغير.

فمنذ وقت ليس بالبعيد. كان ظهور أنواع مدجنة لا يزال عشوائيا جدا ومتفرقا في بداية الألف التاسع يشير ويؤرخ في آن واحد لانبثاق الممارسات الزراعية. طالما أن أثرها على شكلانية النباتات كان يعتبر أنه شبه آني. ويوحي كل شيء الآن بأن هذه الأنواع الجديدة كانت نتيجة صيرورة فرعية وأطول بكثير، وكانت خاضعة لمصادفات تقنيات البذار والقطاف. وهي تظهر على خلفية سابقة من الأقتصاد الزراعي «غير التدجيني»، الذي كان قد تأسس والفعال اقتصاديا نحو 9000 قبل الميلاد، محدودة بمنطقة جغرافية محددة، هي «المر المشرقي»، وبحيث تفترض هي نفسها خلفية من الخبرات السابقة أيضا والتي يجد علم الآثار بصعوبة أولى آثارها. وحتى في المريبط، حيث يجري تحول الإقتصاد تحت أعيننا إذا جاز القول، فإننا لا نتابع مراحله في السوية III إلا على شكل توسع تدريجي للتغيرات القابلة للقياس. أما المبادرة الإنسانية التي كانت أصل هذه التحولات فلا يمكن إلا أن تكون قد سبقتها وهي التي يجب أن نحاول الآن تحديدها بتحليل أسبابها.

الهوامش

1. Lechevallier وآخرون، 1990.

2. لنلاحظ مع ذلك أن الحدود البيئية لتوسعهم لم تتغير منذ النيوليتي. ويبدو هذا التراجع حاليا مرجحا بالنسبة لبعض علماء الطبيعيات (Willcox، 1996).

3. من أجل تفاصيل أكثر انظر Zohary، 1992 وHillman وآخرون، 1989.

4. Van Zeist، Bakker-Heeres، 1982.

5. Van Zeist، Bakker-Heeres، المرجع السابق، ص.237.

6. إن هذه الحجة الأخيرة ليست كما رأينا (انظر أعلاه، هامش 2) قوية بالقدر الذي اعتقدناه: فإذا كان عصر الـ ANPP أكثر رطوبة من عصرنا (انظر Sanlaville، 1996)، فإن التوزع الحالي للأنواع يمكن أن يكون خادعا. ومع ذلك، لو كان القمح البري موجودا في حينه في واحة دمشق لكنا وجدنا آثاره في العينات النباتية من الأسودي. فوجود الزراعة يظل بالتالي محتملا تماما فيها.

7. Hopf، 1983.

8. Zohary، 1992، بل وانظر أعلاه، الهامش 2.

9. Kislev، 1992، ص. 89.

10. Leroi-Gourhan Arl.، 1974.

11. يتم هذا الصعود للزروع في وسط رطوبة خفيفة للمناخ في نهاية الألف العاشر قبل الميلاد، الأمر الذي يزيد النسبة المئوية الشاملة للنجيليات إنما بشكل أضعف بكثير من النسبة الخاصة لنمط الزروع (Leroi-Gourhan Arl.، المرجع السابق).

12. Leroi-Gourhan Arl.، المرجع السابق، ص. 445.

13. Van Zeist، Bakker-Heeres، 1984 b.

14. من الحق أنه بغياب أية أغلفة للحبوب (عصفات) في العينات المتفحمة التي حللت فقد تمت الدراسة على الحبوب «العارية» التي لا يكون لشكلها ولحجمها بعد في هذه المرحلة، بحسب بعض علماء النبات، أية قيمة تشخيصية فعلية. بالمقابل فإن وجود أغلفة حبوب غزيرة جدا اكتشفها مؤخرا ويلكوكس (أفادني بذلك شخصيا) في التراب

المدكوك المستعمل في البناء من تلك المرحلة يبين أن بقايا تقشير هذا «القمح المكسو» والذي هو بر القفقاس كانت مخصصة بالكامل لتحضير التراب للبناء.

15. Van Zeist، Woldring، 1980.

16. Anderson وآخرون، 1991؛ Willcox، 1992. ونشير إلى الدور الهام لغوردون هيلمان في نتائجه: فإذ كان قد حدس منذ فترة طويلة أنه ليس من الضروري أن يتزامن «التدجين» مع «الزراعة» فقد شجع بشدة وساعد بنصائحه تجارب جاليس.

17. Anderson-Gerfaud، 1983. وهذا لا يمنع أنه في المناطق التي كانت الزروع البرية كثيفة فيها بشكل طبيعي كان ثمة نصال مصقولة مماثلة تستخدم بشكل أساسي من أجل الحصاد: انظر مثلا نطوفي حيونيم قرب جبل الكرمل (Anderson et Valla، سيصدر قريبا).

18. Anderson وآخرون، 1991.

19. Zohary، 1992؛ Cauvin J.، 1992 a.

20. Cauvin J.، 1978، ص. 75.

21. Helmer (معلومة مقدمة شخصيا).

22. Mc Laren وآخرون، 1990.

23. تحري D. Zohary وG. Hillman وP. Anderson (معلومة شخصية من P. Anderson).

24. يختبر حاليا جورج ويلكوكس على الفرات الأوسط الطريقة المسماة طريقة «الطفيليات» لكي يثبت الزراعة ما قبل التدجينية من خلال علم النباتات القديمة نفسه. ويتعلق الأمر بخاصة بتقدير وجود احتمال «شغل للأرض» (لا يكون بالضرورة قلبا للتربة) مخصص لتنظيف الحقول قبل البذار من نباتات السهوب الأكثر إعاقة. وسيكون من أثر هذا الإنتخاب أن يسهل في الزراعات وجود «أعشاب ضارة» سنوية (طفيليات) بالنسبة للنباتات الدائمة. وقد أمكن البرهان على زراعة ما قبل تدجينية بهذه الطريقة في الـ BNPP القديم في جعده Dja'de وعلى الأرجح (الدراسة قيد الإنجاز) في المريبطي في جرف الأحمر (Willcox، 1996).

25. أشكر P. Anderson لأنها زودتني بالعناصر غير المنشورة الضرورية لهذه المناقشة حول الشيلم.

26. Zohary (معلومة شخصية)، Bar Yosef، 1990.

الفصل السادس

الزراعة والسكان والمجتمع: الموازنة

إن المرور إلى الزراعة ليس في بداياته إجابة على وضعية قحط: ذلكم كان الإسهام الحاسم لتنقيبات المريبط. ومع ذلك فإن علماء ما قبل التاريخ لم يقدموا حتى الآن أي تفسير آخر لهذا التغير سوى عدم التوازن الغذائي الناتج بين الجماعة البشرية والمصادر البرية. وبالنسبة لغوردن شايلد كان السبب البدئي مناخياً: فإذ أصبح مناخ الشرق الأدنى أكثر جفافاً لم يكن على البشر فقط بل وعلى النباتات والحيوانات القابلة للتدجين أيضاً أن يلجأوا إلى المناطق الأكثر اقتصاداً في هذا القحط: الواحات وضفاف الأنهار. ويكون الزراعة والتدجين قد نتجا مذاك من هذا التجاور الإجباري على مساحات محدودة ومشبعة سكانياً. ولم تثبت الأبحاث هذه الفرضية المناخية. وهكذا أصبح التوسع السكاني في النماذج الأحدث هو المفتاح الوحيد في آن واحد لعدم التوازن البيولوجي وللستراتيجيات الغذائية الجديدة التي كانت تُعدّ من أجل مواجهته. وبالتالي فقد اقترحت «نظرية المناطق الأطراف»[1] بالنسبة للمشرق فائضاً سكانياً بين أوائل المتحضرين النطوفيين القاطفين للزروع والتوسع لجزء من بينهم باتجاه أطراف «المنطقة النووية»، وهناك يكونون قد اخترعوا الزراعة لكي يعيدوا بناء المصادر النباتية التي كانت في موطنهم الأصلي بشكل صنعي.

وقد رأينا أن الفرق كبير بأن كافة القرى النطوفية كانت قد حصلت على الزروع كمصدر أساسي ومفضل على غيرها. وكان يمكن لستراتيجيات البقاء المعتمدة على القنص والالتقاط في هذا العصر، وكانت سلسة ومتعددة، أن تتوافق مع أوساط مختلفة أكان ذلك داخل أو حتى خارج منطقة الزروع البرية؛ وبالمثل فإن استقرار المجموعات، الذي لم يكن

قد أصبح بعد القاعدة العامـة، كـان مشروطاً بالكتلـة العامـة للحيوانـات والنباتـات القابلـة للإستهلاك التي تتلاحق محلياً على مر السنة أكثر منه بالطبيعة المحددة للأنواع المستثمرة. وقد أمكن لشروط بيئية أكثر قسوة أن تشكل عائقاً أمام تأسـيس قـرى ثابتـة لكنـها لم تحـد بشيء من إمكانيات استمرار عيش مجموعات أصغر وأكثر تحركاً ولا توسع الثقافة النطوفيـة إلى المناطق الجافة.

وأخيراً، فإن نمواً سكانياً عادياً لا يبدو أنه يفرض، على هذا المستوى من التطـور البشري، منافسة خطيرة جداً على مستوى المصادر من أجل تبرير زيـادة في السـكان باتجـاه أصقاع أقل اعتدالاً. ولا تثبت خارطة مواقع الإستقرار المعروفة هذا التفسير أبداً.

ولا شك أنه لا يجب رفض كل شيء في نظرية المناطق الأطراف: فالمريبط الـتي لم يعد ثمة في أيامنا هذه زروع بريـة في بيئتـها، وهـو برهـان علـى أن حـدود المنطقـة النوويـة تراجعت كثيراً باتجاه الشمال منذ الألف التاسع، كان يوجد منها الكثير فيها في هذا العصر إنما كان يجب أن توجد مثل أبو هريرة على خط عرض قريب بدرجة كافية من خط عـرض اختفائها. وكانت المريبط موجودة مذاك في محيط المنطقة النوويـة بـالأحرى مـن وجودهـا في قلبها. إلا أنه لا يمكننا مع ذلك أن نعمم هذه الحالة على مجمـل المشـرق الشـمالي قبـل أن نملك معطيات بيئية قديمة لا تزال تنقصنا على كافة المواقع المريبطية التي تم كشفها، أكان بعيداً جداً في عالية نهر الفرات أو إلى الغرب حتى سهل حلب أو إلى الشمال الشرقي حتـى الحوض الأعلى لدجلة.

بالمقابل، بالنسبة للمشرق المركزي والجنوبـي، فـإن منطقـة دمشـق ووادي الأردن كانا يقعان تماماً إلى خارج المنطقة النووية بدرجـة طفيفـة وذلـك لأسـباب تتعلـق هـذه المرة بالإرتفاع. فوقوع هذه القرى الزراعية «على الأطراف» كان يتثبت إذن في هـذه الحالـة لكـن الأمر لم يكن يتعلق أبـداً بمنطقـة اخـتراع. بـل هـي كـانت ستشـهد علـى العكـس (الفصـل الخامس) على نقل متعمد للمواقع السكنية إلى الأراضي الأكثر خصوبـة مـن أجـل الإنتقـال، أبكر مما كان يُعتقد، إلى «اقتصاد زراعـي». والتوسـع المفـترض للقـاطفين بـأعداد أكـبر مـن المعتاد يصبح فيها على العكس، ضمن هذا المنظور، الخيار الحر للفلاحـين المسـتقرين. فـإذا كانت الزروع البرية لا تنمو تلقائياً في الشرق الأدنى لأسباب مناخية إلا في المناطق الجبليـة، فإن الإنتقال إلى المناطق الأطراف، طالما أن السـهول الغرينيـة يمكـن أن تبـدو بـالقدر نفسـه «طرفية» بالنسبة للقوس الجبلي، يشهد على هجرة أولى لمسافة قصيرة لمزارعـين ذوي خـبرة

إنما يرغبون بتغيير محاولاتهم الأولى إلى اقتصاد حقيقي للإنتاج. ولهذا لم يكن تل أسود وأريحا ونتيف هغدود يعطوننا أية معلومة مباشرة حول «أصل» الزارعة.

أما المريبط، وهو موقع انتقال وتحول فيقول لنا أكثر حول ثلاث نقاط أساسية تماماً: غياب ضغط بيولوجي لصالح ستراتيجيات جديدة، والمعنى الإجتماعي للزيادات السكانية المحلية والأصل الثقافي بشكل واضح للزراعة الجديدة.

غياب الضغط البيولوجي

إن تحول ستراتيجيات البقاء والمعيشة هو تحول كلي. وقد تم تحديده في آن واحد على يد علماء النبات والحيوان. فالزراعة والصيد المتخصص تطورا ليس في إطار من الإفقار[2] ولا استنفاذ المصادر الوحشية التي كانت مستثمرة حتى ذلك الحين، إنما عبر تجهيز تقني ـ اقتصادي جديد كان يتركز على أنواع خاصة يختارها الإنسان. وما يدهش في الواقع هو بدرجة أقل لائحة مجمل النباتات والحيوانات المستهلكة فعلاً من قائمة النباتات والحيوانات التي كانت تستهلك سابقاً ولم تعد تستهلك تقريباً.

طبيعة التوسع السكاني

يبدو أنه ثمة صلة حقاً بين زيادة مساحة وسكان المريبط وتحول ستراتيجياتهم الغذائية. كذلك لا يجب أن نخطئ حول طبيعة هذه العلاقة[3] ولا أن نعيد عبرها، على مستوى القرية هذه المرة، إنشاء «اللاتوازن» السكان ـ المصادر كعامل حاسم للتغير. ولم نستطع في الواقع أن نتصور أن ضغطاً ديمغرافياً محلياً تماماً قد أمكن له أن يحرض السكان على تعديل ستراتيجياتهم بهدف جعلها ذات مردود بمواجهة طلب متنام على الغذاء. إن قتل ثور بري يمثل مردوداً أعلى بكثير من لحم الصيد من التضحية بغزال؛ وبالمثل فقد أمكن تفسير زراعة الزروع ضمن منظور الزيادة الإجبارية للتخزين الغذائي. وهذا النمط من التفسير يحظى بالتأكيد بتأييد الكثير من الباحثين الحاليين، الذين كانوا محمولين سابقاً على فك

رموز كافة عناصر الماضي، وحتى أكثرها بدائية. عبر شبكة القراءة الإقتصادية نفسها. والحال أنه كان قد تم البرهان اعتماداً على وثائق أعراقية éthnographiques أن زيادة مجموعة إنسانية بدائية تكون محدودة بدرجة أقل بشكل عام بقدرة محيطها على تغذيتها منها بعتبةٍ كميةٍ ذات طبيعة اجتماعية حصراً، والتي لا يعمل النظام الإجتماعي إلى ما ورائها دون توتر مجحف بتجانس الجماعة. ولهذا السبب بالضبط كان النمو الديمغرافي في قلب القرى النطوفية قد تُرجم دون شك بـإفراق لسكانها الذين كانوا يمضون ليؤسسوا في مواضع أخرى مجتمعات جديدة (لم تكن المساحة تنقص من أجل ذلك) وليس بتوسع للقرى نفسها التي كانت محدودة دائماً بهذه العتبة.

وقد رأينا بالمقابل (الفصل الرابع) أن ما يوحي به تخفف المواقع في نهاية الألف العاشر، مضافاً إلى التوسع المفاجئ لمساحاتها، هو تجمع للجماعات الحضرية بما هو واقع اجتماعي بالأحرى مما هو ديمغرافي عام. فليس من الصدفة إذا كان توسع أريحا إلى هكتارين قد ترافق بنشاطات معمارية من نمط جديد، جماعي، يتطلب تعاوناً في المهام ذات المقصد الجمعي. ويبدو ازدياد المساحة المبنية والسكان الذين يشغلونها غير منفصل فيها عن تنظيم جديد للعمل.

إن الإقتصاد الزراعي يتطلب أكان في المريبط أم في أريحا نفسها تنظيماً مشابهاً تماماً لنشاطات المعيشة والبقاء[5]. وكان علماء السلالات قد أشاروا هنا أيضاً إلى التعارض بين قرية فلاحين وقرية صيادين قاطفين[6]. إن توزع نشاطات القطاف والأشخاص الذين يمارسونه على أرض واسعة ومنتشرة في آن واحد، والطاقة القليلة التي يحصلونها خلال وقت يومي قصير جداً، يتعارض كله بشدة مع التركيز المكاني كما وبالقدر نفسه مع التعاون النشيط المكتسب من خلال أعمال الحقول. وهذا التعاون ضروري في وقت البذار بل وبخاصة في وقت الحصاد، طالما أن نتائج زراعتها كانت في آن واحد التوحيد التدريجي لأوقات نضج نباتات النوع الواحد[7] وحفظ حبوبها على السوق لفترة أطول: وهكذا إنما أمكن أن يتحقق في لحظة مختارة، كما هو الحال الآن، تحرك منظم لمجموعة من العمال من أجل الحصاد. وعلى الرغم من أنه لا توجد بعد إشارة آثارية على وجود تراتبية اجتماعية مؤسسية (يجب أن ننتظر الألف الخامس لنشهد تحقق ذلك) فإنه يُقبل مع ذلك حصول تغير في تنظيم المجتمع، لا يزال من الصعب تحديد طبيعته الدقيقة، من خلال الإعتبار البسيط للنشاطات ولنتائجها.

وبما أن هذا التنظيم كان مذاك شرطاً لا غنى عنه لكي يكون تساكن عدد أكبر من البشر ممكناً. فإن تزايد عدد سكان القرية لم يمكن إذن بأي شكل أن يسبقه ولا أن يؤسس مسبقاً ضغطاً حيوياً لصالح الزراعة والنشاطات المنظمة الأخرى. ومن غير المجدي دون شك أن نبحث عن ترتيب زمني لمختلف هذه الظاهرات. وقد كان للمجتمع الجديد أن يختبر ويؤسس بناه الجديدة عبر تحول نشاطاته أكانت غذائية أو معمارية. وظهر الإقتصاد الزراعي مذاك كحالة خاصة لتأقلم أكثر جوهرية للمجتمعات البشرية مع نفسها ومع التوترات التي تجتازها. وذلك عبر أنماط جديدة للحياة الجماعية. وفي هذه اللحظة المميزة من قصتنا، فإنه لا يمكن للطبيعة ولا لهذا التناقض الإجتماعي أو ذاك المولد من خلال تزايد سكاني أن يُظهرا في الشرق الأدنى عوامل حاسمة للتحول النيوليتي. حتى وإن كانت المردودية الغذائية للستراتيجيات الجديدة مكرسة في النهاية لتيسير التوسع الحيوي للإنسانية. ولا تنفك المعاملات المختلفة تنبثق بعضها على بعض في حركة شبه دائرية من التفاعلات المتبادلة. دون أن نلحظ بجلاء. في نهاية الألف العاشر هذه. ما الذي شرخ عجلة التغير. ويجب لمعرفة ذلك أن نرجع إلى أبعد من ذلك. وهو ما سنحاول القيام به.

الأصل الثقافي للزراعة

من وجهة نظر الحاجات الطبيعية وحدها يمكن أن يبدو ظهور الزراعة كأمر فظ. فالعالم المكتظ بالسكان حالياً لا يستطيع العيش بالتأكيد بفضل الصيد والقطاف، إلا أن الحال لم يكن كذلك منذ أحد عشر ألف سنة: فقد كان يمكن لهذه الأراضي الغنية في الشرق الأدنى أن تتوافق لفترة طويلة مع الزيادة السكانية. فالصيد ـ القطاف كان يسمح فيه كما في الأماكن الأخرى بـ «إقتصاد وفرة» (Marshall Sahlins) حيث يمكننا أن نقرأ ليس فقط توازناً بين الحاجات والمصادر. بل فيضاً لهذه الأخيرة بالنسبة للحاجات الإجمالية. كذلك لا يجب أن نتصور هذا التوازن فقط بمصطلحات الميزان الطاقي القابلة للقياس بين المتطلبات بالحريرات للجسم الإنساني و«الكتلة الحيوية» المتوفرة في المحيط البيئي، والقابل أن يقدمها له. ونحن نعرف بدرجة كافية أنه مهما كان الوضع الغذائي المقدر بهذا النوع من الحساب فإنه من السهل جداً إقناع البشر بأن حاجاتهم ليست ملباة وبخاصة خلق حاجات

جديدة لهم شرط أن نستقطب نفسانيتهم بدرجة كافية: إن إعلامنا اليوم يزودنا بذلك... وفي أيامنا هذه أيضاً ليس ثمة أبداً قياس مشترك بين حالة شعوب الساحل الأفريقي، الذي يعاني فعلياً من نقص التغذية البيولوجية، وحالة طبقاتنا الإجتماعية المحرومة، والحرجة جداً في بعض الأحيان أيضاً، إنما حيث يمكن أيضاً لتجربة القلة والحاجة أن تتأتى من التعارض الملحوظ بين نمط حياتها وما يُعرّفه نوع من التوافق الخاص بثقافتنا على أنه الرفاهية.

إن هذه الأهمية للمعايير الإجتماعية للإزدهار، حيث تُضمّن النفسانية الجمعية بشدة، والتي يمكنها أن تتغير في المكان والزمان لأسباب لا تتعلق بالبيئة أبداً، تبدو غير مقدرة من قبل النظريات الحالية حول أصول الزراعة. فأن يكون قد وُجد توازن نطوفي في الشرق الأدنى ليس أمراً قابلاً للنزاع لكننا بحثنا سدى عما أمكن، على مستوى التقديرات البيئية والديمغرافية، أن يبرر انقطاعه إلى حد أن يحرض حدثاً بمثل روعة إنتاج المعيشة. فعلينا أن نقبل إذن أنه إلى ما وراء عدد الغزلان والصيادين الموجودين كان يمكن أن توجد أسباب أخرى لكي لا يعود أحفاد النطوفيين قانعين بنظامهم السلفي في العيش وأن هذه الأسباب قد أمكن أن تكون من طبيعة ثقافية ببساطة.

إن التحضير الثقافي للثورة النيوليتية ليس موضوعاً جديداً: فقد استنتج روبرت بريدوود Robert Braidwood تأخراً من بضعة آلاف سنة لإستثمار الزروع بالنسبة للظهور التلقائي لأنسالها البرية في الشرق الأدنى، وخلص من ذلك إلى أن «Culture was not ready» أي أن الثقافة لم تكن جاهزة بعد... ولذلك كانت هذا التحضير الثقافي للزراعة منسوباً للنطوفي حيث تطوّر في آن واحد تحضر القرى وتقنية الفلاحين المستقبليين، لكن هذه الأدوات الجديدة لم تكن تقتضي في شيء أن يصبح استخدامها زراعياً، تماماً كما أن التحضر ليس شرطاً مطلقاً للزراعة، طالما أننا سوف نراها لاحقاً ممارسة في وسط شبه بداوي. إن هذا النمط من النمو الثقافي لا يكشف لنا في الواقع أي دفع ديناميكي لصالح التغير. فلو لم يكن ثمة إجبار فيه لكان يجب «أن يراد» التغيير. ولم يكن من الممكن لمثل هذه الإرادة أن تتأتى إلا من هذه المنطقة من النفسانية الجمعية التي انبثق منها عدم رضانا وحيث كانت تتحضر تحولات الثقافة التي ليس لها بالضرورة أسباب إقتصادية كأساس.

والحال أن تحليلاتنا السابقة قادتنا إلى نتيجتين: كانت الأولى أن اقتصاد الإنتاج، كما يمكننا ملاحظته بدءاً من 9000 قبل الميلاد، لم يكن يمكن أن يُفسّر إلا أيضاً

بحدث بلا تأثير اقتصادي قابل للتحليل إنما يقع بالضرورة أعلاه في الزمن: «المبادرة» الزراعية بما هي تدشين لسلوك جديد للمجتمعات الحضرية بمواجهة وسطهم الطبيعي. فلم يعد بإمكاننا مذاك إلا أن نجعلها في الفترة السابقة، أي خلال مرحلة ما من الألف العاشر، وهذا يعني خلال الخيامي أو في بداية العصر النيوليتي ما قبل الفخار أ ANPP. والنتيجة الثانية (الفصل الثالث) هي أن هذه الفترة كانت تحديداً الفترة التي حصل فيها تزعزع عقائدي، وذلك على مستوى ما يسميه ليفي شتراوس «المنظومات الرمزية»، وما أسميناه «ثورة الرموز». إن الترتيب الزمني للتغيرات، التحول الرمزي السابق للإقتصاد الزراعي، أمر مثبت ستراتيغرافياً (طبقاتياً). ويكفي أن يردعنا عن استنتاج كل شيء، كما فعل ذلك غوردون شايلد، من تحول البنى التحتية. يبقى أن العلاقة التي تربط الظاهرتين ليست أكيدة للوهلة الأولى. وعلينا الآن أن نحاول تفسيرها.

الهوامش

1. Binford et Binford ،1968.

2. نشير إلى أن الأمر ينطبق على الثورات الإقتصادية الأحدث: فلا الرأسمالية التمويلية الأولى في القرن السادس عشر، في فينيسيا وأمستردام ولندن، ولا الشكل الأول للرأسمالية الصناعية المؤسسة على شغل النحاس والنسج، والذي ظهر في الوقت نفسه في بلجيكا، لم ينطلقا في إطار من الإفقار (انظر Lefort، 1978، «الرأسمالية والدين في القرن السادس عشر: مسألة ويبر»، في: Les Formes de l'histoire, Paris, Gallimard, p. 113).

3. Cauvin J. et Cauvin M.-C. ،1984.

4. Flannery، 1972، ص.48.

5. Cauvin J. ،1978.

6. Sahlins ،1972.

7. Anderson وآخرون، 1991.

الفصل السابع

الثورة النيوليتية:
التحول العقلي

إن منفذنا الرئيسي إلى النفسانية الجمعية للمجتمعات القديمة التي بلا كتابة يبقى فنها، والحال أن التحول الأول الذي لاحظناه في فجر النيوليتي كانت يتعلق تحديداً بالفن. والمرور من الفن نفسه إلى البنى العقلية التي يعبر عنها مهمة صعبة هنا إنما ملحة. ويشجعنا على ذلك التطور الحديث في المناهج التاريخية: فهو يشهد في الواقع تجاوزاً عاماً للتعريف التقليصي لإبداعات الخيال البشري كمشتق ثانوي من وضعيات أكثر مادية وواقعية. وعلى العكس، وكما يقول جاك لو غوفّ Jacques Le Goff، «فإن التخيل [...] يوجد في غالب الأحيان في أساس المحرضات التاريخية[1]». فهو يستطيع أن يخلق الحدث بذاته وأن يحدد وقائع مادية. وقد جعلنا جورج دوميزيل Georges Dumézil هكذا نتآلف مع فكرة أن التقسيمات الكبرى والوظائف الموجهة للمجتمعات الهندو ـ أوروبية كانت تعكس بنى أسطورية أعمق قابلة لتوجيه وتفعيل مجالات مختلفة جداً من الحياة الإجتماعية والثقافية. وقد اكتسب «الخيال الإقطاعي» بفضل جورج دوبي Georges Duby الحق بأن يُذكر بين المؤرخين. وبشكل أعمّ، فإنه لم يعد بإمكاننا أن نتأمل التاريخ كما لو أن مدرسة الحوليات Ecole des Annales لم تكن قد وُجدت ولا تجاهل الحركة العلمية التي تعيد النظر تدريجياً منذ عقود كثيرة، في العلوم الإنسانية، بالتبسيطات الإيجابية مرتكزة على دراسة التمثيلات الجمعية: وتقوم هذه الأخيرة في مصدرها على الخطاب نفسه بواسطة الصورة

المعرَّفة بواسطة التحليل النفسي في الحياة الحلمية للفرد. ويظهر فيها هذا الخطاب، الذي يُجعَل مشتركاً ومركباً في منظومات رمزية كبرى هي أساس البنى الإجتماعية، في الدين وفي الفن بشكل تام.

فما هو الحال في ما قبل التاريخ؟ إن «مادية» علماء ما قبل التاريخ تتأتى بشكل خاص من أنه ليس لديهم في غالب الأحيان سوى وقائع مادية لفكها وشرحها. فبقدر ما شكّل «الفكر التقني» لأناس ما قبل التاريخ، أي الترابطات التصورية التي أدت إلى تصنيع واستخدام أدواتهم، موضوع دراسات معمقة وبخاصة في فرنسا، كذلك تبقى مقاربة إيديولوجيتهم وعقائدهم أمراً مختصراً وسريعاً. فقد ظلت الوثائق التي كانت تسمح بذلك نادرة جداً لفترة طويلة، بل وحتى غير موجودة. ومع ذلك فثمة فن كان قد وُجد قبل وخلال الثورة النيوليتية. وإذا كنا مجبرين على البحث عن أساس هذه الثورة بواسطة الإستبعادات المتلاحقة داخل الفاعل الإنساني نفسه، فإننا لا نستطيع ألا نقدر أهميته ولا أن نرفض دفع تحليل أولى الوثائق الفنية الموجودة إلى أقصاه.

فن الصيادين ـ اللاقطين

لم يفدنا فن أوائل الصيادين ـ اللاقطين النطوفيين في الشرق الأدنى نفسه إلا بالقليل، باستثناء أنه كان فناً حيوانياً بشكل أساسي. أما الفن الفرانكو كانتابري في الغرب، البعيد جداً في المكان إنما السابق مباشرة في الزمن طالما أنه انطفأ نحو 12000 قبل الميلاد في حين أن النطوفي كان يبدأ في الشرق الأدنى، فهو أكثر تعبيراً بكثير حول ما كان يمكن أن تكونه المنظومات الرمزية للصيادين ـ اللاقطين في العصر الحجري القديم (الباليوليتي) الأخير. فقد أضيف للفن المتاعي فيه في الواقع فناً جدارياً حيث يشكل فيض من الصور الحيوانية الذي اعتُبر لفترة طويلة كفن فوضوي مجموعات تأليفية بحصر المعنى[2]. فقد أمكن أن نحلل فيه بدقة ليس فقط الصلات الكمية للأنواع فيما بينها، بل وقواعد مواضعها بالنسبة لبعضها وصلاتها مع العلامات الهندسية التي ترافقها. هكذا إنما بين أندريه لوروا ـ غوران في البداية أن هذا التصوير لم يكن أبداً مجرد انعكاس لصلة تجريبية مع الحيوانات الملاحَقة: فالرنة، وهي الطريدة المفضلة في المجدلاني ممثلة فيه تمثيلاً قليلاً جداً، ربما

لتفاهتها الزائدة تماماً كما في شاتال هويوك وفي النيوليتي المشرقي بشكل عام بعد 7500 قبل الميلاد. ولم تكن الماعز والخراف والخنازير ممثلة أبداً أيضاً في حين كانت في ذلك الوقت مدجنة وأساس التغذية اللاحمة. ووفق تعبير ليفي ـ شتراوس فإن الحيوانات «الطيبة للأكل» ليست بالضرورة «جيدة للتفكر بها»[3]: والحال أننا نتعامل حقاً مع منظومات تفكير. ومنظومة العصر الحجري القديم تُترجم بخاصة بـ «تصنيف» رمزي بحت للأنواع في نصفين متتامين يتصفان بصلات تكون في إحدى الحالات «ذكرية» وفي الأخرى «أنثوية»، ويستبعدان في كل حال بالتبادل نفسيهما في الفضاء الجداري. إن هذا التقسيم الثنائي الأساسي. المشترك في الفن الفرانكو كانتابري كله. لا يمنع بالضرورة استخداماً أكثر تمايزاً وأكثر «عشيرية» للرمزية الحيوانية. هذا إذا كان صحيحاً أن مجموعات أو عشائر مجدلانية قد استطاعت أن تظهر صلات أكثر خصوصية مع هذا النوع أو ذاك. وفي الواقع فإن أنواعاً يعتبرها أندريه لوروا ـ غوران على أنها متعاوضة من وجة نظر انتمائها المشترك إلى «نصف» رمزي للكون. تبدو إذا أخذناها واحدة واحدة مكررة على درجات متعددة جداً من منطقة إلى أخرى. بل ومن معبد جداري إلى آخر: ويمكن أن ترجع هذه التعددية إلى انفصال أراضي إعمار أو مرور المجموعات البشرية الخاصة. فإذا بدا أن «القواعد» الرمزية مشتركة للجميع فإن «المفردات» ليست كذلك ومغزاها الدقيق لا يزال من جهة أخرى غير قابل للتوضيح.

إن ما يهمنا هنا هو أنه لا تعداد الصور النوعي ولا تحليلها المكاني يوحيان في الباليوليتي بنمط التراتبية الذي سيميز الفن النيوليتي. فلم يثبت في أي مكان. وكان ذلك سيكون أمراً سهلاً. شخصاً حيواناً يسود على الآخرين ويمكن أن يشكل صورة كائن أعلى. فحيوانات الباليوليتي تبقى عموماً مدركة وممثلة جماعياً. وحتى الأكثر تأثيراً من بينها، وهو الماموت. فإنه يظهر في روفينياك Rouffignac مثل قطيع من الماموت وليس كـ «إله ماموت». والأمر كذلك بالنسبة للأنواع الممثلة في أغلب الأحيان: البيسون والأحصنة البرية.

إن وظيفة الرمزي كما بينها كلود ليفي ـ شتراوس في كل مجتمع إنساني. أكان مجتمع قنص أو زراعة ورعي. هي أن تجعل الإنسان يعقل العالم الذي يحيط به كما ويعي في الوقت نفسه مكانه في هذا العالم. وثمة فيه بشكل خاص الأوضاع الحدية التي يصطدم بها كل إنسان. وهي الألم والموت والقلق المدمر الذي يولدانه. وهي حالات على كل أسطورة أن تعطيها إجابة لتؤمن التوازن الداخلي للمجتمعات وتجانسها النفسي ـ العاطفي وبذلك استمرارها نفسه.

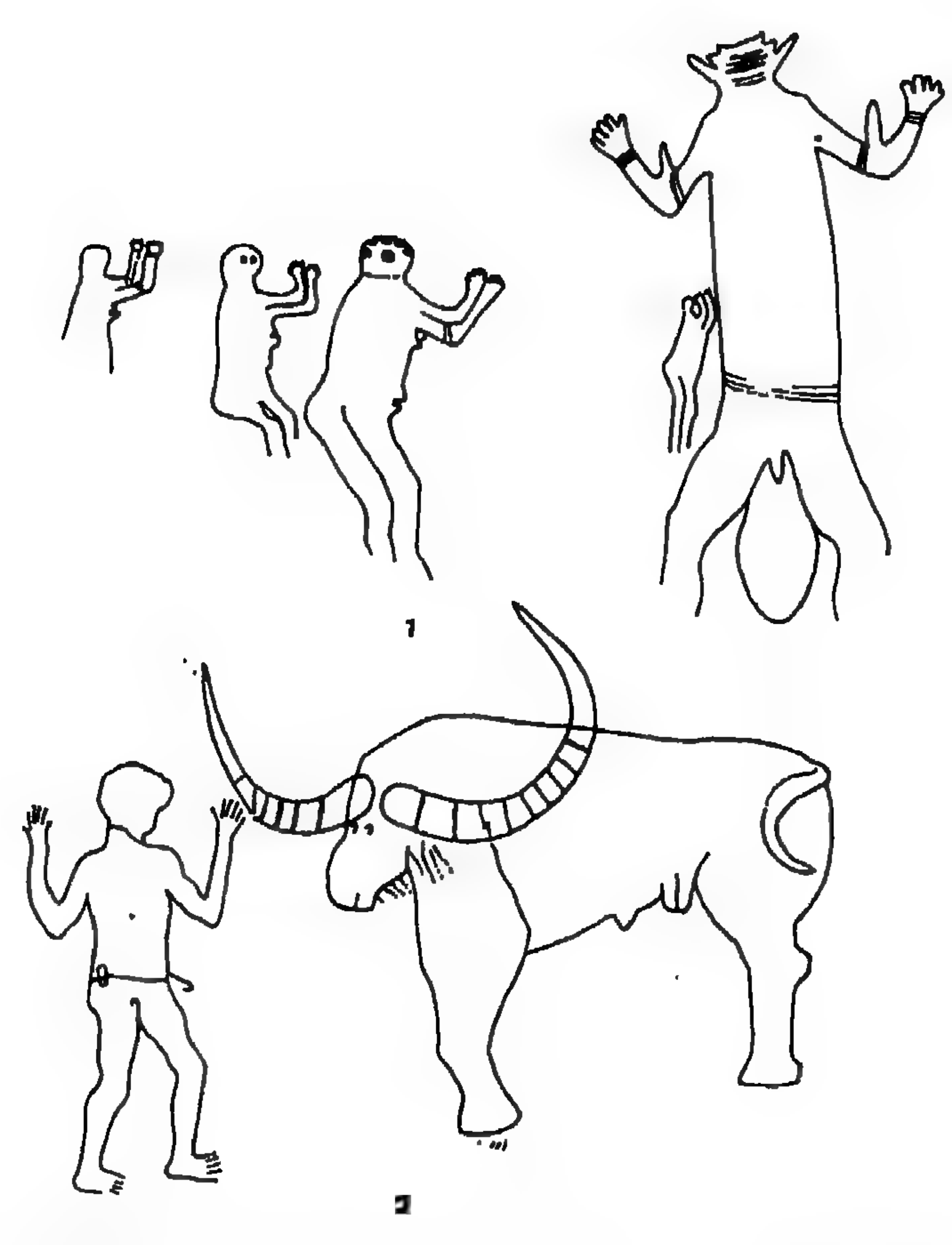
إن وجود مثل هذه المنظومة في العصر الحجري القديم الأعلى يبدو أمرا مؤكدا إنما مجردا جدا بحيث يصعب تفسيره. فلا نفهم أبدا كيف كان الصيادون اللاقطون المجدلانيون. الذين ما كانوا ليفلتوا أكثر منا من الألم والموت. يواجهون ذلك عقليا ولا أية «حكمة» كان فكرهم الأسطوري قد أعد كإجابة. وفي كل حال فإن اللجوء في معابدهم تحت الأرضية التي لم يكن من الممكن أن تكون سوى أماكن إسرار[4] إلى آلهة مشخصنة وإن كان ذلك لا يزال على شكل حيواني لا يبدو أنه شكل منظومات تفسير.

هل يمكننا أن نعترض بأنه قد وجدت حقا مجتمعات من الصيادين اللاقطين مع آلهتها الصريحة. طالما أن علماء سلالات قد صادفوها في أيامنا هذه؟ مع الأسف، فإن المجتمعات التحتية الحالية التي يدرسونها لا تفيدنا هنا بأي شيء. حتى وإن كانت تبدو من وجهة نظر اقتصادها كـ «متحجرات حية» (جاك دو مورغان Jacques de Morgan)، فإنها تحمل غالبا جدا في ذاكرتها. أكان ذلك في أفريقيا أو في أمريكا. موروثا واعيا بدرجة أو بأخرى لمجتمعات أكثر تطورا منها بكثير. بل وحتى دولا حقيقية سبقتها في المساحة الجغرافية نفسها. إننا لا نعرف جيدا الآثار الإيديولوجية لهذا الموروث ولا الشروط التي يمكن فيها للمجتمعات ذات نمط الحياة البدائي جدا أن تكون متأثرة عقائديا بمنظومات مجاورة أكثر تطورا. فليس لدينا إذن حل آخر. من أجل أن نطرح بمصطلحات «تاريخية» حقاً مسائل تكون الفكر الرمزي، إلا أن نرجع إلى الوثائق التي يقدمها لنا علم ما قبل التاريخ. على الرغم من أنها لا تزال نادرة جدا. ويجب أن تحفظ هذه الندرة فقط قيمة «نموذج» بسيط ذي نتائج على الأبحاث القادمة أن تحسمها.

الإلهي المشخصن في النيوليتي

على عكس صور الحيوانات الفرانكو كانتابرية، فقد ظهر لنا المرأة والثور النيوليتيان في الشرق الأدنى مثل ألوهتين امتد انبثاقهما في الألف العاشر من خلال انتشار في كامل المشرق القديم. والإلهة التي يرافقها قرين مذكر مشبه بالثور ستكون مركز القبة لنظام ديني كامل ينتظم من حولها. ويمكن لهذين الكائنين الأعليين أن يغيرا وجهيهما بحسب مناطق العالم: فـ «الإله المريخي الأعظم» (هنري لوت Henri Lhote) من المنطقة

الصحراوية يفرض صورة هائلة بشرية الشكل، أنثوية أو عديمة الجنس، تسيطر على شخصيات بشرية صغيرة ترفع أيديها في وضعية الصلاة (الشكل 21: 1)، تماماً مثل «الكبش ذي الكرة»[5] في الجنوب الأوراني والذي يشبه محيطه المحيط السابق، وجاموس موقع كف مكتوبة Kef Mektouba (الشكل 21: 2) وأمثلة أخرى كثيرة[6]. إن موضوع «المصلّي» يُدخل بين الإله والإنسان صلة تبعية جديدة تماماً. والحال أن هذه التصويرات تشترك كلها بهذا أنها تنبثق كلها، في مناطقها الخاصة، في بداية النيوليتي قبل أن تستمر إلى ما بعده.



الشكل 22. *صور لصلين من النيوليتي الصحراوي. 1: سفار Sefar (عن لوت Lhote). 2: كف مكتوبة من قصر الأحمر (عن فروبنيوس Frobenius).*

لقد حصل حدث كان من طبيعة نفسانية. وقد حددناه[7] على أنه صدع جديد في قلب الخيال البشري بين «أعلى» و«أدنى». بين نظام للقوة الإلهية المشخصنة والمسيطرة ونظام لبشرية يومية يمكن أن يُرمِّز جهدها الداخلي باتجاه هذا الكمال الذي يصعِّدها بالأذرع المرفوعة للمصلين. والإلهة بما هي مُولِّدة كونية مزودة حقاً بصفات «ملكية» واضحة ليس أقلها عرشها من الشقر الأناضولية: إننا نفسره بسهولة كعرش لا سيما وأننا بعودتنا بالفكر عبر مسار معاكس للمسار التاريخي نتذكر العروش اللاحقة للملوك الشرقيين الأوائل، وهي هذه المرة مواد من المتاع إنما نجد أن مسنديها سيكونان منحوتين تحديداً على شكل جذع أمامي من الشُقر. ونعلم أنه في اللحظة التي ستظهر فيها الدول حيث سيتمدن ويتراتب في آن واحد. المجتمع الإنساني نفسه، فإن العاهل أكان في بلاد الرافدين أم في مصر لن يكون أبداً سوى ممثل للألوهة بين البشر وأنه سيستعير بالتالي من الخيال الديني الصفات التي ترمز إلى وظيفته. والحال أنه ذو مغزى أن مفهوم الملك نفسه ظهر أولاً في النيوليتي في الخيال الفني قبل انتقاله الإجتماعي والذي سيجعله. إذا صح القول، ينزل إلى الأرض. وإنه لمن الأهم أيضاً أن انبثاق الصور الإلهية كان يبدو أنه ينتج على الفرات كمقدمة لصيرورة النولتة نفسها. وليس ثمة في ذلك ما يدهش باعتبار أن الحضارات المدنية ذات الكتابة، والتي غالباً ما نجعل تاريخنا يبدأ عندها، لم تقم سوى بتكثيف: عبر تطور سريع وبلا انقطاع. دورة من التحول الذي دُشن منذ اثني عشر ألف سنة قبلنا.

مسرَحَة ديناميكية

ولكن كيف يمكننا «إدراك» الصلة الحقيقية التي أمكن لها أن تجمع ثورة الرموز مع إنتاج المعيشة الذي جاء بعدها بقليل؟ هل يمكننا أن ننسب إلى تحول بنى الخيال قيمة ديناميكية كافية ليولد تتمة التغيرات. أو أيضاً، إذا كنا نرفض أن نلجأ إلى سببية خطية جداً بشكل تلخيصي، بماذا كانت هذه التغيرات طريقة أخرى في إظهارها؟

نشير إلى أن الألم والموت كانا موجودين حقاً منذ ذلك الحين فصاعداً في صفات الإلهة الشرقية. منذ العصر النيوليتي: فالشقر والنسور وحيوانات أخرى خطيرة بالنسبة للإنسان هي التي ستكون حاشيتها المباشرة وتحدد قدراتها. مع استبعاد الأنواع المألوفة

والمضبوطة بشكل سلمي. إن غموض الرمز الذي يتلاقى فيه الولادة والموت يمكن فكه بسهولة بالنسبة لنا نحن الذين نحمل «الأم الرهيبة» في الطبقات العميقة من لاوعينا. ومع ذلك فإن الأم الكونية بما هي ألوهة قد وُضِعت على المستوى المتعالي حيث يمكن حل الخوف والصراعات. وحيث يصبح الأشقر الشريك مقعداً. وحيث يكون السن الذي يمزق ومنقار الكاسر «مظهراً آخر» أكثر اختباء للثدي المرضع. كما لو كان الألم يسقي من منظور معين بشكل معارض الحياة. فما هو هذا الخطاب الذي تفرضه قوة الصور الذي يبدو قريباً جداً من خطاب الديانات التاريخية الكبرى التي ستلي. فكما لو كنا نكتشف ونفاجئ بشكل ما أصولها؟ وأي توتر جديد يرفع في مكان آخر ذراعي الإنسان باتجاه السماء عندما يدعو الكائن الإلهي؟ إن الذي «يصلي» يشعر في نفسه بالعجز ويدعو إلى نجدته ما هو أعلى منه. وعندها فإن تبولوجيا عمودية تتأسس في قرارة النفسانية ذاتها، حيث يمكن للحالة البدئية من القلق أن تتبدل إلى يقين بفضل جهد عقلي تصعيدي معاش مثل نداء إلى حُكم إلهي خارج عن الإنسان وأكثر سمواً منه. إن هذه «العبادة» هي هنا الوجه الآخر لبؤس يتم الشعور به يومياً. فالقدرة الإلهية والمحدودية البشرية هما القطبان الصلبان لهذه المسرَحَة غير المنشورة والتي تركزت في قلب الإنسان نحو 9500 قبل الميلاد.

كنا قد طرحنا أعلاه أنه يجب أن تكون قد وُجدت أسباب أخرى من مجرد نقص الغذاء حتى يكون أحفاد النطوفيين قد شعروا بعدم الرضى على نمطهم التقليدي في الحياة فعملوا على تعديله رأساً على عقب. والحال أن ما نكشفه عندها في تطور الخيال هو الأساس الإناسي لعدم الرضى هذا بالأحرى من أسبابه الإتفاقية. إن الرغبة بالتغيير، «التقدم» الناتج عنه والذي سيتسارع بدءاً من ذلك الحين، إن ذلك كله، الذي سيميز بعد مئات آلاف السنين من التطور البطيء جداً السباق الحديث للإنسانية وصولاً إلينا، يمكن أن يتجذر في هذه «الثورة الثقافية» قبل الحرف حيث أعاد الإدراك الذي كونه الإنسان عن نفسه طرح إدراجه ودوره بشكل كامل.

إن هذا الإنفتاح الذي يتخلق بين الإله والإنسان هو في الحقيقة انفتاح ديناميكي:
فهو لا يؤثر مباشرة على الوسط نفسه، لكنه أدى إلى تحويل كامل للتمثيل الذي كان يشكله الفكر البشري وإلى تحريض مبادرات مستجدة وذلك بأن أطلق بشكل من الأشكال الطاقة الضرورية لإيصالها إلى النجاح، مثل الأثر التعويضي لضيق وجودي لا يُستشعر أبداً. وهكذا أجازت المجتمعات النيوليتية التي كانت حتى ذلك الحين متفرجة على الأدوار الطبيعية

لتكاثر العالم الحي التدخل فيه كمنتجة نشطة. وكان هذا الأمر ممكنا حتى قبل ذلك، بالمصطلح التقني. ولكن لا الفكرة ولا الرغبة لم تكونا ببساطة قد ناسبتاها أبدا: وبهذا المعنى فقط يجب إعادة النظر وتفسير عبارة روبرت بريدوود «*الثقافة لم تكن جاهزة بعد*».

وليس من غير المهم أيضا أن شكل الآلهة اتخذ منذ البداية شكلا بشريا. فالإلهة ممثلة فيها إجمالا كامرأة: وكانت هذه الأنسنة للفن هي التغير الأكثر يقينا وبهاء الذي لوحظ منذ العصر الخيامي. فالدعوة العلوية لم تكن مذاك غريبة عن الإنسان كليا مهما كانت بعيدة بالنسبة له. إن واقع أنه من خلالها إنما تصدر الإنسانية والطبيعة عن منبع مشترك، طالما أن الطفل وصغير الحيوان يقرنان بها في الأناضول، يمكن أن يقول لنا الكثير عن المسيرة الميتافيزيائية الجديدة لذلك الزمن: فالإلهة النيوليتية لا تندرج فقط تاريخيا كرائدة للنظريات اللاهوتية الخلقية التي ستأتي بعدها، بل إن الإنسان بات بطريقة ما يعرف نفسه مذاك في كل ما يحيط به، طالما أن مبدأ موحدا ومشخصنا يوفق على مستوى تكوينهما الرمزي الإنسان التجريبي والطبيعة التي تواجهه.

الهوامش

1. Le Goff وآخرون. 1986. ص. 15.
2. Leroi-Gourhan. 1965.
3. Levi-Strauss. 1989.
4. Vialou. 1978.
5. هذا «الكبش» بحسب بعضهم (Muzzolini. 1991) هو من جهة أخرى ثور...
6. انظر Anuoniewicz. 1968. والإلهة الشرقية ستحاط أيضاً بعد فترة قليلة تالية بشخوص بشرية ترفع أياديها. وذلك على الأختام الرافدية التي ترجع إلى الألف الخامس.
7. انظر Cauvin J. 1987.

الجزء الثاني

بدايات الإنتشار النيوليتي

الفصل الثامن

الإطار الجغرافي والزمني للإنتشارات الأولى

مع ثورة الرموز وتأسيس زراعة في الممر المشرقي شهدنا الحدث المؤسس لإنسانيتنا الحديثة، لكنه كان حدثاً لا يزال متموضعاً جداً في المكان. وهو لم يمتد حتى في الأصل، كما اعتقد ذلك غوردون شايلد وروبرت بريدوود، إلى المناطق الجبلية في الشرق الأدنى التي كانت مناسبة له مع ذلك.

وهكذا فإن الخطوات الأولى للنيوليتي تظل بالتالي ضمن الوضع الحالي لتوثيقنا منحصرة في الشرق الأدنى بحصر المعنى (أي المشرق)، في حين لم يكن التدجين ولا الفخار المستعمل قد ظهرا بعد. وعندما نرى بعد ذلك ظهور مؤشرات إنتاج معيشة على محيط هذه المنطقة الإبتدائية مع انزياحات زمنية مميزة بعض الشيء بالنسبة لها، فإننا نُغرى بأن نفسرها كَنتائج لإنتشار. ومع ذلك فإن هذا الإنتشار لا يمكن أن يكون تفسيراً كافياً إذا لم نتساءل في الوقت نفسه ما هي الظاهرات الثقافية وما هو السلوك البشري الذي يغطيه، وإلا فإن المفهوم يمكن أن يبقى غير فاعل جزئياً ويفسر الكثير من الشكوك الباقية حوله. ليس فقط في الشرق نفسه بل في كامل الساحة المتوسطية والأوروبية بل وحتى الآسيوية. وقد بدا لنا، فيما يخصنا، أن صيرورات انتشار كانت قائمة فعلاً منذ منتصف الألف العاشر في الشرق الأدنى وأنه أصبح من الممكن تحديد طرقها وأحياناً حتى حوافزها. وإن كنا لا نريد هنا أن نبحث الإنتشارات على مسافات بعيدة، فإن تأكيد الظاهرة نفسها عند نقطة بداية النولتة نفسها يمكن أن يساعد على فهم مدلولاتها الأبعد.

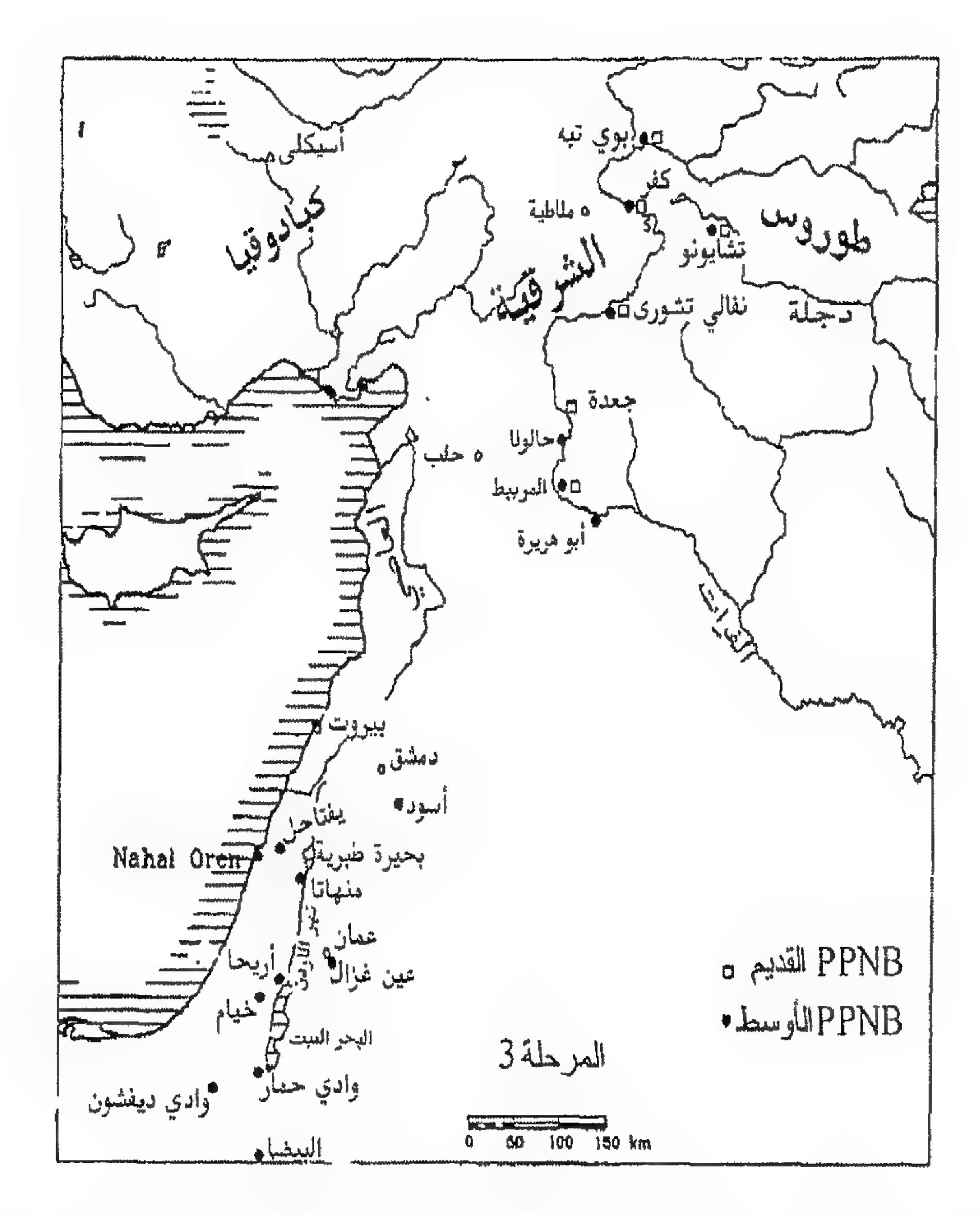
مراحل الـ PPNB

تعود تسمية الـ PPNB (Pre-Pottery Neolithic B)، مثل الـ PPNA، إلى مرحلة من طبقاتية (ستراتيغرافية stratigraphie) أريحا حيث تم التعرف عليه للمرة الأولى. وهو عبارة عن ثقافة مُفرَّدة بسمات ثابتة، وقد انتشرت بشكل واسع على مجمل المشرق وجنوب شرق الأناضول. وفي حين كان يمكن بسهولة عزل ثلاث ثقافات مميزة على الأفق الزمني للـ PPNA، فإننا نجد بعد ذلك فصاعداً وحدة حقيقية على مجمل الشرق الأدنى والتي تتعلق سماتها الرئيسية ذات الدلالة في آن واحد بتقنيات نحت الحجر والنموذجية والأهمية الكمية والفنية للتسليح، وشبه التعميم للعمارات المستطيلة، والإقتصاد الغذائي نفسه. حيث يظهر التدجين ويتعمم بينما تصبح الزراعة أكثر كمالاً. وأخيراً ممارسة طقسية معروفة تحت اسم «عبادة الجماجم».

وقد دامت هذه الحضارة ما قبل الفخارية لفترة طويلة: فقد بدأت نحو عام 8700 قبل الميلاد وتُحدَّد نهايتها اتفاقاً عندما تعمم الفخار حوالي عام 7000 قبل الميلاد. وليس لهذا الفخار، الذي سيصبح دوره المميَّز دوراً كبيراً بالتأكيد طالما أن الأنماط الخزفية المتنوعة جداً بحسب المناطق ستفيد في تمييز الثقافات، الأهمية التي أعطيت له في الخلفية: أولاً لأن المحيط كله لم يتحول دفعة واحدة، وثم لأن صناعة الفخار نفسها يمكن أن تظهر في بعض المواقع منذ 7500 قبل الميلاد أو على العكس تتأخر كثيراً حتى الثلث الأخير من الألف السابع (الـ PPNB الأخير في الصحراء).

وبالتالي فإن أكثر من ألف سنة بقليل من الوجود هي مسافة طويلة بالنسبة للـ PPNB. ونميز فيها مراحل كما هي العادة. لكن ليست جميع مناطق الشرق الأدنى معنية بها بشكل متساو. فللـ PPNB منطقة انبثاقه (الشكل 23) ومن حوله مناطق توسعه التدريجي.

إن الـ PPNB القديم (8700 – 8200 قبل الميلاد) يتعلق أولاً بأراضي سوريا الشمالية التي كان يشغلها سابقاً المريبطي: فمن هذا الأخير في الواقع إنما يُشتق الـ PPNB مباشرة عبر تطور داخلي. ومن جهة أخرى فإن مرحلة توسع أولى تمد النيوليتي إلى جنوب شرق الأناضول.



الشكل 23. *خارطة القرى المذكورة في الـ PPNB القديم والأوسط، 8700 – 7500 قبل الميـلاد، 9600 – 8600 قبل الحاضر.*

والـ PPNB الأوسـط (8200 – 7500 قبـل الميـلاد) هـو فـترة موجـة ثانيـة مـن الإنتشار الثقافي التي لم تخرج أبداً مع ذلك من السهوب ذات الغابة المتناثرة وهي السـهوب التي تحدد بيئياً منطقة الزراعات الجافة. ويصل هذا التوسع الجديد إلى المشـرق الجنوبـي، في حين أن سمات محلية متعددة مـن الـ PPNB تتمـايز حاليـاً (سمـات الفـرات الأوسـط، طوروس، دمشق، فلسطين) وحيث أمكـن للصفـات العامـة للثقافـة أن تفـرض نفسـها بقـوة بحسب الأماكن على خصائص محلية أقل تميزاً بشكل ما. وهي أخيراً الفترة التي ظهر فيها تدجين المجترات الصغيرة في بعض القرى الحضرية من المشرق.

وأخيراً الـ PPNB الحديث (7500 – 7000 قبل الميـلاد) الـذي يجعلنـا نشـهد انفجاراً حقيقياً للـ PPNB، ومعه انفجار النولتة، خارج المنطقـة النوويـة مـن المشرق الـتي

كانت مسرح إعداده: فالنيوليتي سيمتد إلى المناطق الساحلية والمعتدلة من سوريا الشمالية التي ظلت خالية طيلة الـ ANPP بقدر ما سيمتد أيضاً إلى البادية الداخلية التي كان الإنسان قد تركها أو كاد بعد النطوفي (الشكل 45). وقد رافق هذا الإنتشار المستجد في المكان تغيرات اقتصادية عميقة، وأشكال جديدة للزراعة، وتدجين لأنواع حيوانية جديدة، وظهور للبداوة الرعوية. ومن وجهة النظر هذه، فليس لتاريخ 7000 قبل الميلاد الذي يفترض أنه يميز نهاية الـ PPNB[2] هو أيضاً أي معنى، إذ امتدت صيرورة «الهجرة» هذه بلا انقطاع قبله وبعده. وبالتالي فإن دراستنا ستتجاوزه إلى ما بعده لتشتمل إضافة إلى الـ PPNB الأخير على الثقافات ذات الخزف المعاصرة خلال الثلثين الأولين من الألف السابع قبل الميلاد (الشكل 50). والمنهج المتبع هنا سيكون أن نأخذ أيضاً بعين الإعتبار، مرحلة مرحلة، وثائق نملكها، ثم أن نحاول موازنة مختلف المعاملات التي هي أصل ليس الثورة النيوليتية الشرقية نفسها بل أصل قدرتها كمثال ومستقبل عالمي سيخصص لها.

الهوامش

1. حتى عام 1986 أمكن لنا الإعتقاد إثر تنقيبات فيليب سميث Philip Smith في غانج داره Ganj Dareh أن جبال زاغروس الإيرانية كانت هي أيضاً مركزاً ذاتياً ومبكراً للنولتة معاصراً للـ ANPP في المشرق. إنما تمت مراجعة التأريخات بالقياسات المشعة (الكربون 14) لهذا الموقع مما قلص من عمر متتاليته الزمنية (Hole، 1987؛ Stordeur، 1994). زد على ذلك أن عمارته المستطيلة تبدي أكثر بكثير من التوافقات مع الـ PPNB في المشرق الأكثر تأخراً منها مع الـ ANPP. فالزراعة في زاغروس الشرقية ليست سابقة إذن للألف الثامن قبل الميلاد. فهل اختُرعت محلياً أم هي مشتقة من زراعة المشرق؟ هذه مسألة أخرى؛ ويبقى أنها كانت دائما تالية له. ومن جانبها فقد كشفت زاغروس الغربية (كردستان) عن إنشاءات مثل كريم شاهير Karim Shahir أو معلفات Mlefa'at معاصرة للـ ANPP المشرقي. إنما لا يظهر فيها بعد أي أثر لإنتاج المعيشة (Howe، 1983) والقرى الزراعية الأولى في الكردستان ترجع هي أيضا إلى الألف الثامن قبل الميلاد. ومنذ فترة أحدث أثبتت اكتشافات جديدة في قرميز ديري Qermez Dere (Watkins وآخرون، 1990) وفي نمريك Nemrik (Kozlowski، 1990 a و 1990 b). وهما قريتان تقعان في هضاب سنجار عند سفوح جبال زاغروس الغربية، موروثا ثقافيا أصيلا في تواز زمني متلاحق ابتداء من 12000 سنة قبل الميلاد مع النطوفي والخيامي والثقافتين ANPP و PPNB في المشرق. إنما مع عدم وجود الزراعة فيه قبل 8000 قبل الميلاد. على الرغم من نمط حياة حضري وعمارات دائرية معدة بمستوى رفيع منذ البداية (انظر الفصل 6).

2. 8000 قبل الآن أو أيضا 6000 قبل المسيح بحسب التأريخ الزمني بالكربون 14 التقليدي، الأمر الذي يوافق 6900 قبل الميلاد.

الفصل التاسع

ولادة ثقافة في المشرق الشمالي ونولتة الأناضول الشرقية

حتى قبل أن يُعرف بهذا الإسم، كان الـ PPNB الثقافة النيوليتية الأولى «ما قبل الفخارية» التي اكتُشفت في الشرق الأدنى وفي العالم. وكان كذلك في الثلاثينات في المشرق الجنوبي بفضل تنقيبات جون غارستانغ John Garstang في أريحا. وكانت هذه الفكرة الجديدة لنيوليتي يمكن أن ينقصه الفخار، وهو أمر عادي الآن، قد حرضت وقتها مفاجأة عميقة بين أخصائيي النيوليتي الأوروبي. وبعد أن استأنفت كاثلين كينيون Kathleen Kenyon هذه التنقيبات بعد الحرب العالمية الثانية لاحظت أن هذا النيوليتي ما قبل الفخاري نفسه لم يكن يمثل الإعمار الأول لأريحا، بل أنه كان يعلو ثقافة نيوليتية أقدم منه هي الـ PPNA والتي جئنا على وصفها باسم «السلطاني». ولكن لم تلحظ أية استمرارية في أريحا في ذلك الوقت بين الـ PPNA والـ PPNB. فالبيوت الدائرية والتسليح الفقير جداً في الأول كان يتعارض بشدة مع المساكن المستطيلة ذات الأرضية من الكلس والأسلحة الغنية في الثاني. كذلك كانت تميز الـ PPNB شعائر جنائزية جديدة («عبادة الجماجم») في الوقت نفسه مع أنواع جديدة مزروعة ومع وجود التدجين. وقد نسبت كاثلين كينيون كافة هذه الإبتكارات إلى قادمين جدد إلى الموقع[1] أوحى جان برّو Jean Perrot بعد ذلك بقليل أنهم يمكن أن يكونوا قد قدموا من سوريا. فقد تم إذن لفترة طويلة وصف الـ PPNB اعتماداً على أحد فروعه المشتقة منه. في حين أن هذه الثقافة قد ولدت ونضجت فعلاً في المشرق الشمالي (الشكل 23).

وسنرى أنه على هامش هذا الإنقطاع الحقيقي يوجد أيضاً في أريحا من مرحلة إلى أخرى عناصر ثقافية أخرى ترجع إلى التطور الأكثر تدرجاً لأساس أهلي: إنه تحديداً التقريب بين هذا الموروث المحلي والسمات الجديدة التي لم يكن يحضّرها شيء في الموقع هو الذي يعطي الأهمية للـ PPNB الفلسطيني بالنسبة للمسائل التي تشغلنا.

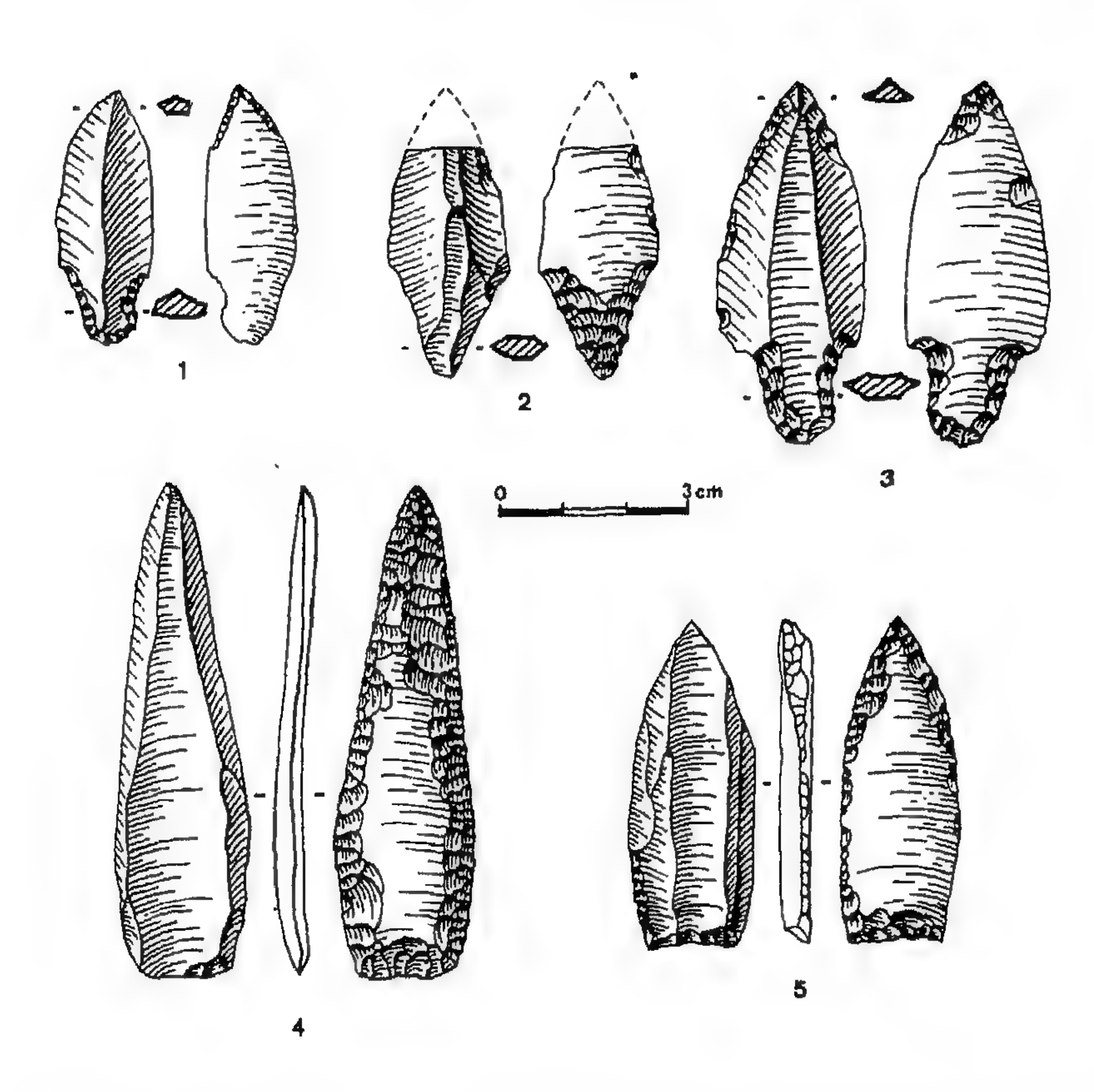
إعداد الـ PPNB على الفرات الأوسط

ولم يكن الأمر مماثلاً على الفرات الأوسط السوري. فقد رأينا أنه كان يوجد قبل 8800 قبل الميلاد، منذ المريبطي الأخير، تقصيب نصلي ابتداء من نوى «سفينية الشكل naviforme»، وإنشاءات مستطيلة على هامش البيوت الدائرية المستمرة، وتسليح متطور كان قبل أن تظهر بعد الأنماط المميزة للـ PPNB يحضّرها بالتأكيد. والواقع أن المرحلة الأولى من الـ PPNB نفسه، أي الـ PPNB القديم الذي يندرج بين 8800 و 8200 قبل الميلاد. هي المعروفة بدرجة أقل في سوريا. ولم تكن قد نقبت في المريبط إلا على مساحة محدودة ومحرومة محلياً من العمارة[2]، وهي تبدأ بأن تصبح معروفة بشكل أفضل بفضل موقع جعدة المغاره التي لا يزال التنقيب جارياً فيها[3]. وهنا إنما نرى ظهور أول تسليح نموذجي للـ PPNB، مع نبال سهام أكبر من السابق تم ترقيق قاعدتها ورأسها بتشذيبات مسطحة وطويلة ومتوازية تسمى «تشذيبات صفيحية». ويختص هذا التشذيب بنبال ذات أشكال كثيرة، وبخاصة «نبال جبيل» (الشكل 24: 1 – 3)، وهو نمط جديد سيدوم أكثر من ألفي سنة، ويتميز في آن واحد بتشذيبه وبسويقته المفصولة عن جسم القطعة بفرضة مزدوجة[4].

ويبين استمرار بعض السمات المريبطية التي لن تبقى بعد هذه المرحلة، مثل العصي المصقولة من الحجر، وصيد متخصص ومكثف للثور البري، وفي التسليح نفسه بعض السهام من الأنماط التي لا تزال مريبطية. أن الإستمرارية التاريخية كلية، أي أن انبثاق الـ PPNB تم في الموضع نفسه وبلا انقطاعات، بتطور بسيط وداخلي للمريبطي الأخير.

أما المرحلة التالية من المريبط (B IV). والتي تبعها بسرعة كبيرة أول إعمار لموقع حالوله Halula والنيوليتي «ما قبل الفخاري A» في أبو هريرة[5]، والتي أعيد إعمارها

في هذا العصر بعد هجر طويل لها. فإنها مراحـل تنتمـي إلى الــ PPNB الأوسـط. والبيـوت فيها كلها مستطيلة. وهي مبنية بالتراب المدكوك، وتشـتمل في أبـو هريـرة وفي المريبـط علـى العديد من الغرف المتطاولة المتوضعة عرضانياً مع محور البناء.

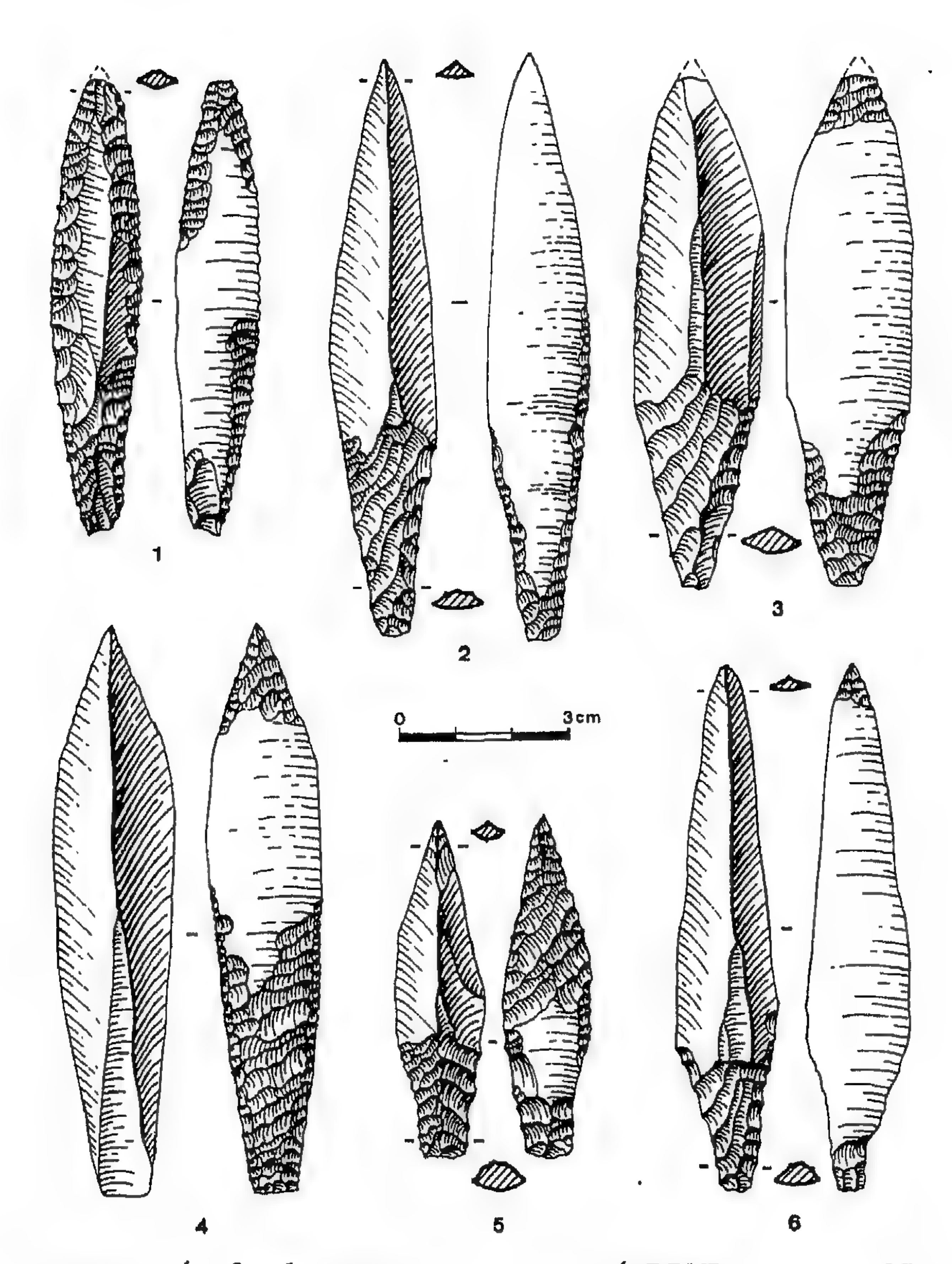


الشكل 24. *تسليح من الـ PPNB القديـم في المريبط: نبـال بيبلـوس (جبيـل) قديمـة (1 – 3)؛ رؤوس ذات قاعدة مبتورة (4 – 5).*

وكـان تقصيـب النصـال الكبيـرة مـن الصـوان بـالطرق ابتـداء مـن نـوى «سـفينية الشكل». وكانت هذه النصال تستعمل كركائز لإنجاز أدوات مختلفة: نبال بيبلوس (جبيـل) متطاولة، كما وأنماط أخرى مشكلة بالدقـة نفسـها (الشـكل 25). وتحـل بلطـات وبليطـات حادة مصقولة من الصخر الأخضر من جهتها بشكل كامل محل البليطات الصوانية المنحوتـة في عصور سابقة.

وكانت ستراتيجيات المعيشة لا تزال غير معروفة بشكل جيد. وقد توقف صيد الخيليات. الذي كان مهماً جداً في المريبط حتى الـ PPNB القديم دون أن نعرف لماذا في الـ PPNB الأوسط، وذلك لصالح مطاردة تجددت للغزال. وقد تفوق أيضاً صيد الغزال في الـ PPNB الأوسط في أبو هريرة لكننا لا نلحظ فيه بالإضافة إلى ذلك كما في حالوله الإشارات الأولى على تدجين للماعز والذي لن يصبح كثيفاً إلا في الـ PPNB الحديث[6]. ونرى أخيراً ظهور بر القفقاس فجأة في أبو هريرة أيضاً وقد اتخذ شكلاً مدجناً منذ ذلك الحين فصاعداً، وذلك في الوقت نفسه الذي باتت تزرع فيه أنواع القمح النشوي والشعير والعدس والفول[7]. وكان القمح النشوي في حالوله هو الزراعة المدجنة الرئيسية في حين أن بر القفقاس غير موجود فيها. ونلاحظ أن القمح النشوي لم يوجد أبداً على الفرات الأوسط بشكله البري. فهو إذن قدِم من موضع آخر (الأناضول؟) مدجناً، وربما كان ذلك بتيسير من كثافة التبادلات المميزة للـ PPNB الأوسط، والذي يتجلى أيضاً، منذ قاعدة حالوله، بالتدجين الأول للماعز الغائب أيضاً عن المنطقة بشكله البري (Helmer، معلومة زودني بها شخصياً).

أخيرا تشهد هذه المواقع من الـ PPNB على تغيرات عقائدية هامة. فالفن نادر لكنه يحمل مغزى دون شك كما سنرى، وإن لم يكن الأمر يتعلق سوى بصورة واحدة في المريبط هي صورة ذكرية للمرة الأولى: وهي عبارة عن حلية متدلية من الحجر الأحمر المصقول تمثل رأس رجل ملتح (الشكل 32: 4). وبشكل خاص فإن الشعائر الجنائزية تحولت: فالميل في الـ PPNA إلى دفن الجماجم البشرية جانبا يتوسع هنا إلى حد أن يجعل منها متاعا طقسيا حقيقيا، بحيث أنها لا توضع في القبر لهذا الغرض. ونجد في المريبط IV B، على هامش المدافن العادية، جماجم وقد صفت في الواقع على أرض أحد المنازل على امتداد أحد الجدارن. وكان ثمة مدرات من الصلصال الأحمر المجلوب يستخدم كقاعدات لها. فقد كانت إذن مكشوفة للهواء ومعروضة لكي ترى: فالأمر يتعلق بشيء آخر مختلف تماما عن المدافن الفرعية. وفي أبو هريرة تتجاور المدافن العادية وأخرى ذات هياكل عديمة الرأس مع مخازن لجماجم لا يوجد فيها أي عظم آخر. وثمة جمجمة عليها آثار تلوين[8]. وهذا الميل إلى إعداد جماجم بشرية كمواد فنية هو ميل جديد. وسنرى أنه أمر أكثر إدهاشا بكثير في المشرق الجنوبي.



الشكل 25. *تسليح من الـ PPNB الأوسط في المريبط: رؤوس بيضوية (1 – 3)، رأس ذو قاعدة مبتورة (4)، رؤوس بيبلوس (5 – 6).*

والأمر المهم في هذا الـ PPNB للفرات الأوسط هو انبثاقه المحلي إذن. وهو يتجذر في تقليد يرجع إلى النطوفي قبل ثلاثة آلاف سنة، ولم ينفك مذاك يتحول عبر مراحل. وسنجد الـ PPNB من طوروس وحتى سيناء بل وفي كل مكان، منبعثاً في أوقات مختلفة، بحيث يحمل في كل مرة سمات ثقافية متنافرة بالنسبة لمواريث المكان الذي ظهر فيه. والفرات الأوسط هو حقاً مهده طالما أنه الجزء الوحيد من الشرق الأدنى الذي نجده بشكل أهلي فيه.

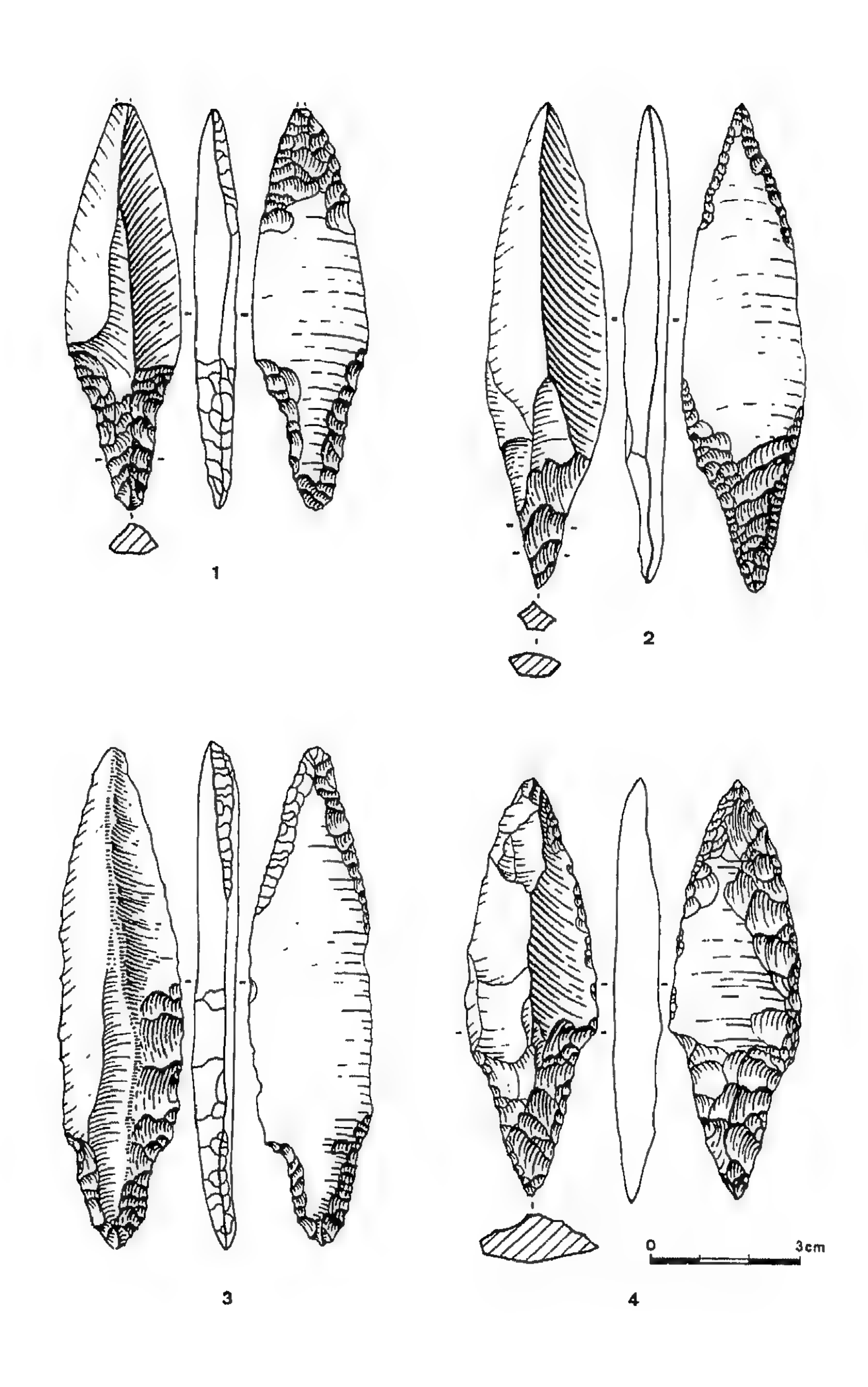
الدخول إلى الأناضول: PPNB طوروس

لقد ظل الأناضول الجنوبي الشرقي لفترة طويلة خالياً على خارطة النيوليتي: فوحده موقع تشايونو Cayonu ما قبل الفخاري، في حوض دجلة الأعلى، معروف منذ عشرين سنة وقد استمر التنقيب فيه منذ ذلك الحين[9]. إن بناء السدود على الفرات الأعلى التركي وتحريات وتنقيبات الإنقاذ التي نجمت عنها جعلتنا نعرف منذ فترة أحدث كفر هويوك[10] Cafer Huyük وبويتبه[11] Boytepe بالنسبة لعصر الـ PPNB القديم والأوسط. وتشايونو لم تعد إذن معزولة، إذ أمكن تحديد مرحلة ثقافية خاصة هي «الـ PPNB الطوروسي»[12] على هذه المواقع الثلاثة[13]. ونضيف إليها موقعاً رابعاً هو نفالي تشوري[14] Nevali Cori الذي يمثل، بوقوعه في آن واحد إلى جنوب وفي مستوى أدنى من المواقع الثلاثة الأخرى عند الحدود الشمالية لهضاب الجزيرة السورية التركية (الشكل 23)، سمات انتقالية بين الـ PPNB في الفرات الأوسط والذي في طوروس الشرقية.

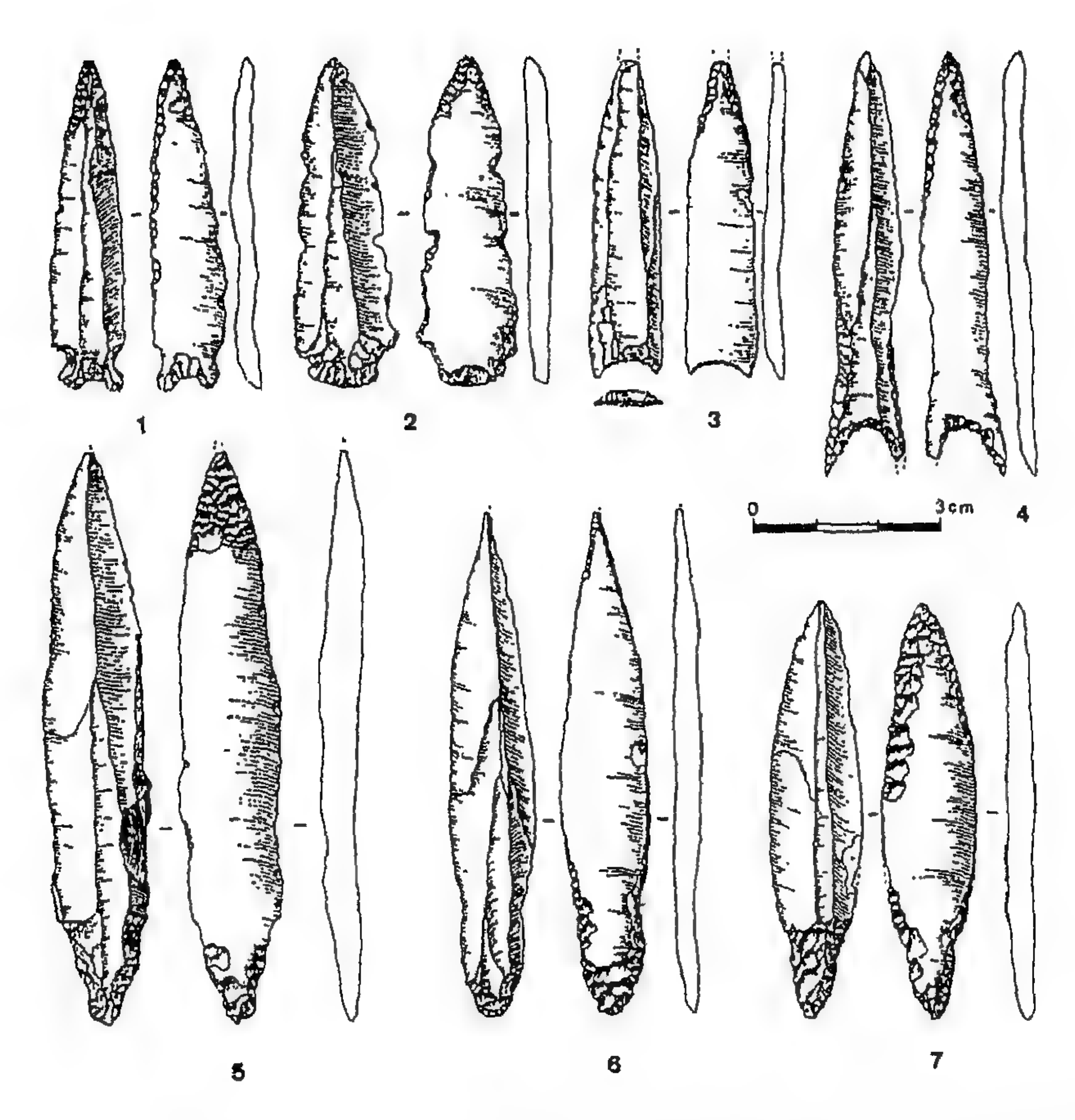
وكما يشير إلى ذلك اسمه، فإن الـ PPNB في طوروس يجمع سمات سائدة من الـ PPNB، منسجمة تماماً مع الفرات الأوسط، مع صفات أصيلة يمكن أن تعكس ببساطة أحياناً البيئة الجبلية المستجدة، المُونة بشكل خاص بمواد جديدة. إنه الأوبسيديان، الذي يشكل أيضاً أحياناً الموروث المنفصل عن جوهر ثقافي محلي لا يزال غير معروف بشكل جيد.

ويعود هذا العصر (زيادة في التوضيح) بأصوله إلى الفرات الأوسط، حيث وجدناه يتجهز تدريجياً، بالدرجة الأولى بالتسليح النموذجي PPNB[15] (الشكل 26 و 27) المرتبط هنا أيضاً بالنوى السفينية (الزورقية) الشكل naviformes التي أعطت النصال؛ وبالدرجة الثانية بالموروث المعماري من بيوت مستطيلة، أكان بحجرات طويلة ومستعرضة، أو بخلايا صغيرة مربعة تقريباً[16] (الشكل 28).

إن ما ندعوه في الـ PPNB القديم في تشايونو *المخطط الشبكي* grill-plan (الشكل 28: 1 – 2) هو قاعدة مستطيلة مؤلفة من جدران متوازية ومتقاربة كانت الفراغات بينها تملأ بالتراب: وكان مجموعها يشكل مصطبة حقيقية مرتفعة كان يبنى عليها المسكن بحصر المعنى، وذلك على الأرجح بالآجر المشوي، إنما لسنا نعرف بعد مخططه الدقيق[17]. ونجد



الشكل 26. *تسليح من الـ PPNB من طوروس. 1 – 3 كفر هويوك ؛ 4: تشايونو (عن بريدوود).*



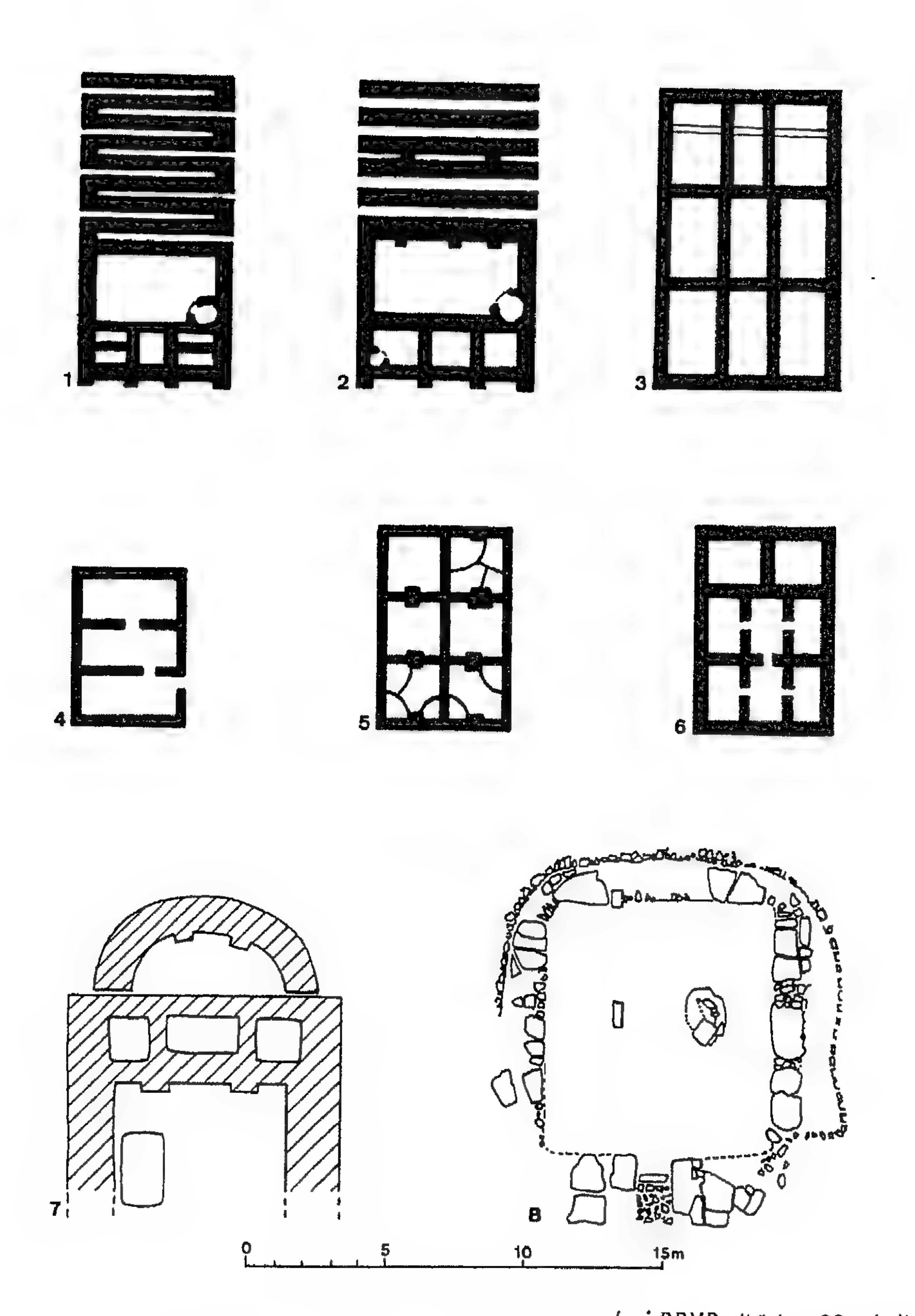
الشكل 27. *تسليح من نفالي تشوري (تركيـا) في الـ PPNB: رؤوس ذات سويقات قصيرة من الموروث المريبطي (1 – 2)، رؤوس ذات قاعدة مبتورة مقعرة (3 – 4)، رؤوس بيبلوس (5 – 7). عن شميدت.*

بعد ذلك في تشايونو، في الوقت نفسه مع قـاعدة كفـر هويـوك (الشـكل 28: 4)، مرحلة ذات بيوت من ثلاثة أقسام بحجرات متطاولة طويلة، وهي تشبه جداً مخطط البيـت ذي الدعامة pier-house في المشرق الجنوبي (*انظر لاحقاً ص. 104. الشكل 34*). وأخيراً تحل في الـ PPNB الأوسـط، في تشـايونو (الشـكل 28: 6) كمـا في كفـر هويـوك، المرحلـة المسماة ذات المخطط الخلوي cell-plan، أي ذات الخلايـا الصغيرة المربعـة أو المستطيلة. وقد بدا من المؤكد في كفر (الشكل 28: 5) أن هذه الخلايا، التي كانت تدعم بركائز وتزيـن من الداخل بحفر بزاوية ربـع دائريـة. كـانت تُستخدم في آن واحـد كقـاعدة بنـاء وكمكـان

للتخزين في طابق للسكن اختفى: وكان يمكن جداً لهذا الأخير أن يكون هو أيضاً ذا مخطط مقسم إلى ثلاثة أجزاء. وبمقارنة هذه المخططات كلها إذن نجد أنها في الواقع تكون أحياناً مساحات سكنى بمعنى الكلمة، وأحياناً ركائز نقارنها: فيمكن لتنوعها إذن أن يكون مخادعاً. وذلك ما أن نلاحظ الميل الأناضولي إلى عزل أرض مساكنه بواسطة بنى معقدة ذات استلهامات مختلفة[18]. ونجد أخيراً في نفالي تشوري جهازاً متوسطاً بين *المخطط الشبكي والمخطط الخلوي*: فثمة مسكن هو هذه المرة خلوي كان قد شُيّد على مصطبة محجرة، وكانت هي نفسها مقطوعة كثيراً بـ«أقنية» مستعرضة (الشكل 28: 3 واللوحة I: 2).

وقد لوحظ أيضاً هنا وجود بيوت كبيرة مستطيلة وذات غرفة واحدة، إنما أقل تميزاً، وهي معاصرة غالباً للمخططات الأخرى: وسنعود إليها. وأخيراً فقد لوحظ استخدام الكلس من أجل تلييس الأرضيات بشكل متفرق، وإن كان لم يُعمم بعد كما في الـ PPNB في المشرق الجنوبي.

إن كافة هذه السمات المعمارية، على الرغم من المظهر المدهش بشكل خاص لها في الأناضول الشرقية، يمكن أن تتجذر في موروث الفرات الأوسط، في الـ PPNB القديم أو قبل ذلك بقليل[19]. وثمة لسمات أخرى تلحظ مباشرة بدرجة أقل معنى مشابه. وهكذا فإن صناعة العظم، في تشايونو كما في كفر هويوك وفي نفالي تشوري، تستمر تماماً بموروث الفرات الأوسط: فهي تشتمل مثلاً على إبر تم الحصول على فتحة العين فيها بالحز الطولاني من الوجهين[20] (الشكل 29). والإبرة ذات العين ليست اختراعاً من الشرق الأدنى طالما أنها كانت توجد في المجدلاني الأوروبي، لكن الطريقة الخاصة التي نشير إليها هنا ترجع حقاً بأصلها إلى الخيامي في المريبط قبل 9500 قبل الميلاد. وسنعود فنجدها في الـ PPNB في طوروس حوالي 8000، وفي شمال العراق في مغزلية نحو 7500، وفي الأناضول الشرقية بعد وقت أكثر تأخراً نحو 7000 (في شاتال هويوك). ويمكننا أخيراً تتبعها حتى فجر النيوليتي اليوناني (سسكلو Sesklo). كذلك نجد مقابض من العظم من أجل البليطات وإبزيمات للزنانير من المادة نفسها مشتركة أيضاً بين الفرات الأوسط وطوروس. وأخيراً، فإن أشياء مثل حجارة الثلم والحز المزينة بفرضات، وسبق أن وصفناها في المريبطي، هي أيضاً «معلمات انتشار» موجودة بكثرة في تشايونو وفي كفر هويوك (الشكل 20: 5).

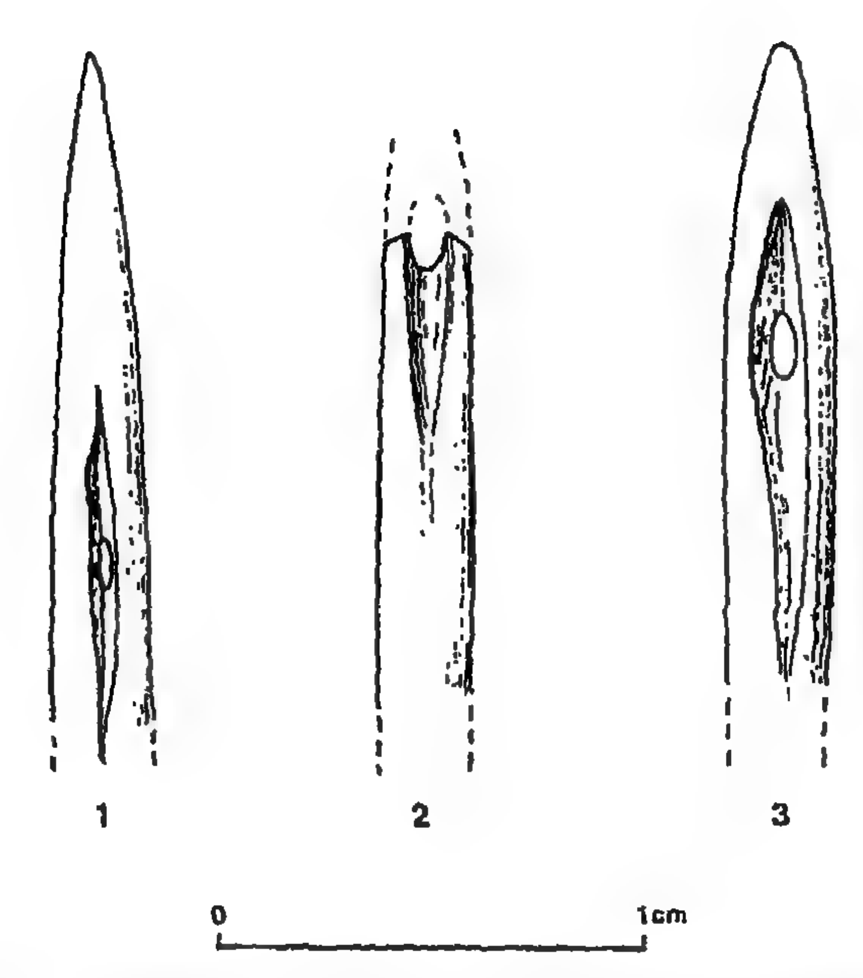


الشكل 28. عمارة الـ *PPNB* في طوروس.

مخططات بيوت. 1 – 2. 6: تشايونو. 3: نفالي تشوري. 4 – 5: كفر هويوك.

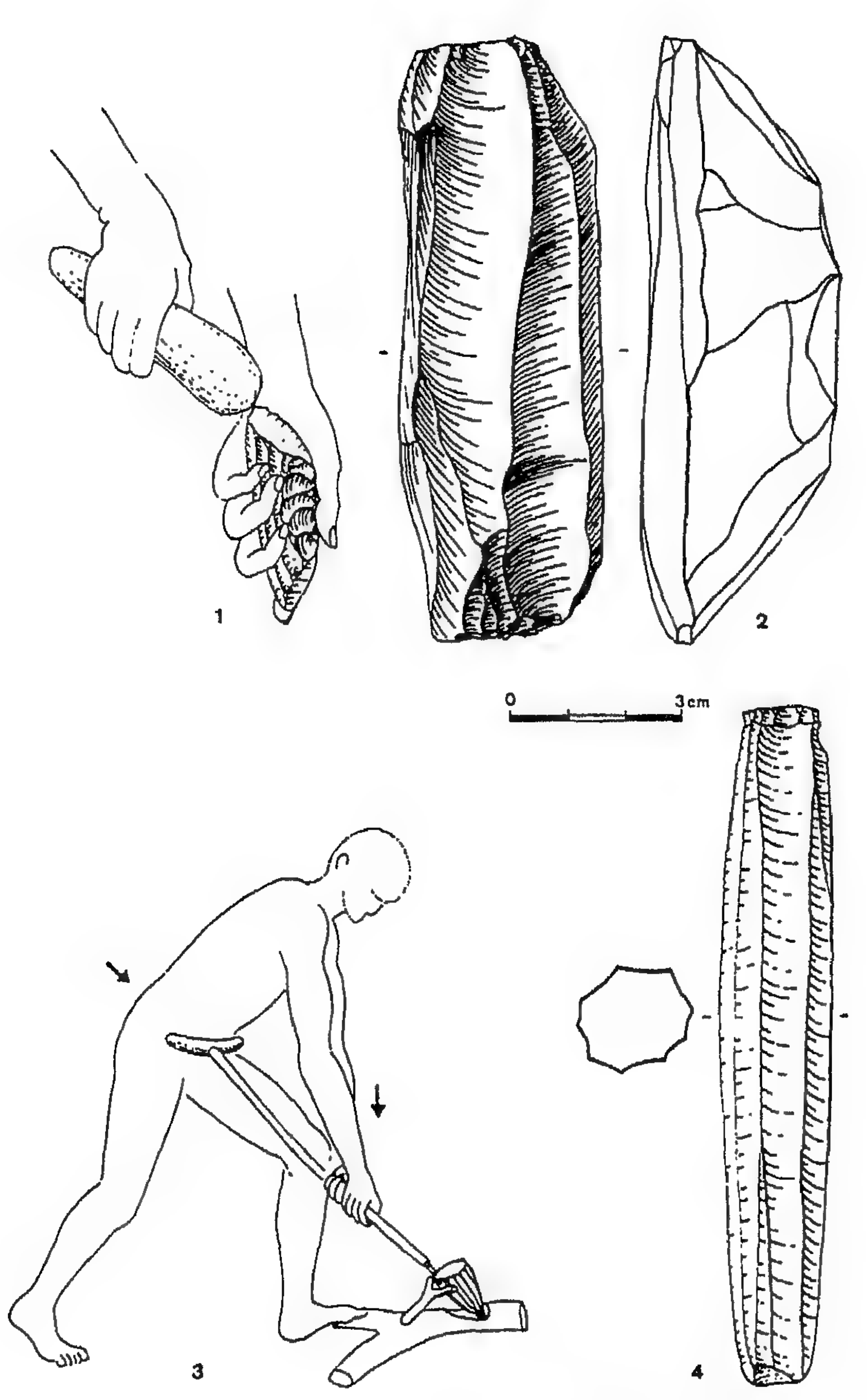
مخططات معابد. 7: تشايونو. 8: نفالي تشوري.

عن أوزدوغان وهوتمان وج. كوفان ومولييست.



الشكل 29. *الإبر من العظم ذات العين المحزوزة من موروث الفرات الأوسط. 1: خيامي المريبط. 2: PPNB طوروس (كفر هويوك). 3: تشايونو (1 – 2 عن ستوردور، 3 عن ردمان Redman).*

وثمة صفات أخرى بالمقابل تميز PPNB طوروس وحده. فهناك أولاً الأوبسيديان المستخدم بكثافة: فهذا الصخر البركاني، اللامع والزجاجي، موجود في حالته الطبيعية في الأناضول المركزية (كبادوقيا) كما في الأناضول الشرقية، أي في طوروس نفسها (في بينغول Bingol) وفي الجبال المحيطة ببحيرة فان Van (الشكل 33). وقد أدخلت كِسر صغيرة من كبادوقيا عبر المشرق كله منذ العصر النطوفي: وهي تشهد فقط على فتنة مبكرة لهذه المادة القادمة من بعيد جداً، لكن دورها التقني والإقتصادي ظل معدوماً[21]. والأمر مختلف تماماً هنا: فالـ PPNB في طوروس استخدم الأوبسيديان بما هو مادة أساسية لأسلحته وأدواته. ومع ذلك فإن قراه لم تكن على اتصال مباشر مع مناجمه الطبيعية، إذ كانت بعيدة جداً. والصوان غالباً ما يكون موجوداً في المحيط المباشر وكان قرويونا يستخدمونه أيضاً. أما الأوبسيديان، فكان على العكس يوجد على بعد أكثر من 200 كلم من كفر هويوك، لكن سكانها لم يتراجعوا أمام هذه المسافة الطويلة من أجل الحصول عليه بشكل متزايد باستمرار. وقد جلبوا من بينغول 45 ٪ من مادة صناعتهم في بداية تاريخهم و90 ٪ منها في



الشكل 30. *تقنيتان في تقصيب النصال الحجرية.*

التقصيب الثنائي القطب بواسطة النقر الذي يميز الـ PPNB بشكل عام. هنا (2): نواة «سفينية الشكل» من الـ PPNB الأخير في قدير بسوريا.

والتقصيب بواسطة الضغط نُستخدم بشكل شائع من أجل الأوبسيديان: (4) نواة من الأوبسيديان («bullet core») من بقرص في سوريا. عن M. -C. Cauvin, J. Roodenberg.

نهايته. وفي تشايونو. حيث كان الأوبسيديان يأتي من بينغول كما وأيضاً من بحيرة فان، فقد كانت نسبته بالنسبة للصوان 5 ٪ في البداية و45 ٪ في النهاية. وفي بويتبه Boytepe كان معظم الأدوات من الأوبسيديان. ووحده نفالي تشوري، وهو الموقع الأبعد إلى الجنوب الذي يشبه PPNB طوروس بعمارته وبتسليحه. يتميز حول موضوع الأوبسيديان الذي ظل دائماً هامشياً جداً بالنسبة للصوان.

ولم يصادف الـ PPNB فقط باحتلاله الأناضول هذه المادة الجديدة، بل وأيضا طريقة في نحت الحجر النادر الإستعمال في منطقته الأصلية. والحق أن التقصيب ثنائي القطب ابتداء من نواة سفينية الشكل ليس الوحيد المستخدم: فثمة أيضا تقنية أخرى يتم تقصيب النصال فيها بالضغط[22]، وذلك بضغط رأس عصا بشدة على نواة حجرية مثبتة في الأرض (الشكل 29: 2).

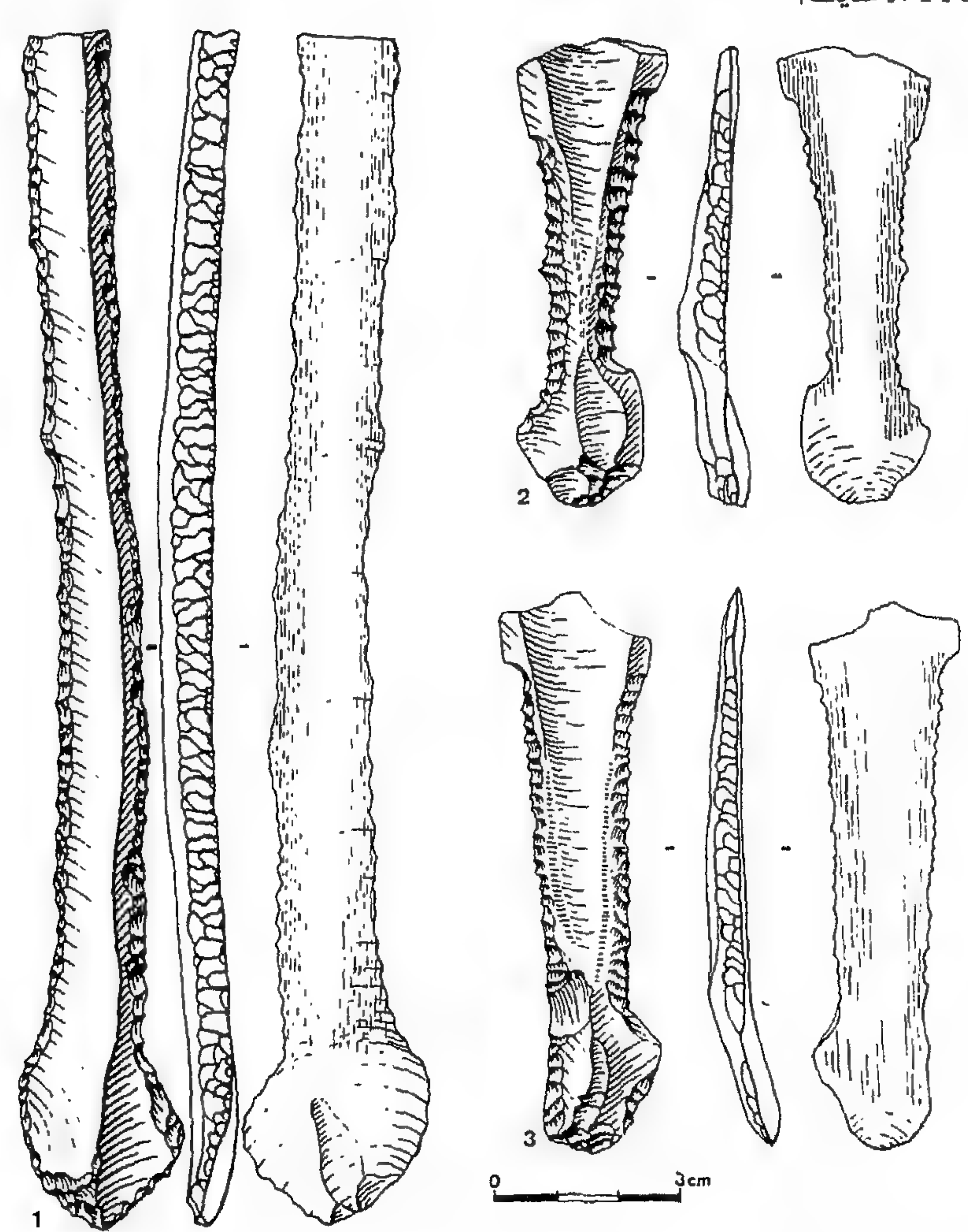
إن هذه التقنية لا توجد في الـ PPNA ولا في الـ PPNB في المشرق ولا يمكن بالتالي أن تأتي منه. وقد كانت بالمقابل معروفة في جبال زاغروس نحو 9500 قبل الميلاد[23] ولا شك أنها كانت موجودة أيضا في حينه في طوروس الشرقية، غير المعروفة جيدا كما رأينا بالنسبة لهذه الفترة. والأمر ينطبق على حرفة خاصة أخرى، هي شغل الرخام (اللوحة II)، والتي أدت إلى الآنية المصقولة الجميلة جدا في كفر هويوك، وفي كل مكان إلى أساور ذات تقنية رفيعة[24]. وهنا ايضا لا نجد السوابق في المشرق بل في زاغروس حيث كان يتم شغل الرخام منذ الباليوليتي الأخير[25] L'Epipaléolithique.

فالأمر المهم هنا إذن هو أن الـ PPNB في طوروس يبدو منذ البداية ثقافة مختلطة. يعبر وفق نموذج نصادفه غالبا عن المثاقفة من خلال ثقافة مسيطرة متوسعة على خلفية محلية مستمرة. ولا تعود هذه الخلفية المحلية فقط إلى الوسط الجغرافي والبيئي الجديد الذي يجب التأقلم معه، بل وتظهر أيضا موروثا ثقافيا أهليا يتم الإصطلاع به جزئيا وتتكامل العناصر الواردة من الخارج على طريقتها.

وتشتمل نولتة الأناضول الجنوبية الشرقية هذه بشكل طبيعي على جوانبها الإقتصادية. ففي تشايونو، ومنذ المرحلة ذات *الخطط الشبكي*، نجد أن العدس والباقية* اللذين كانا سائدين في البداية يستبدلان شيئا فشيئا بالقمح النشوي وبر القفقاس الذي لا يزال «بري» الشكل. ولم تصبح هذه الزروع «مدجنة» إلا بدءا من *الخطط الخلوي*[26]، أي

* الباقية أو البيقة نبات عشبي حولي من فصيلة القرنيات الفراشية تخصب التربة إذا طمرت فيها، م.

خلال الـ PPNB الأوسط كما على الفرات الأوسط، في حين يبدو أن تدجينها في كفر هويوك ظهر منذ الأساس، أي قبل قليل من المخطط الخلوي[27]. ومن المرجح أنه كانت قد وجدت في البداية. كما يوحي بذلك فان زييست Van Zeist، مرحلة زراعة ما قبل تدجينية في الـ PPNB القديم في طوروس كما في سوريا الشمالية نفسها في العصر نفسه. ويحد إنتاج المعيشة من جهة أخرى هنا بنسخته الزراعية، إذ أن التدجين هنا متأخر ولن يظهر إلا في الـ PPNB الحديث.



الشكل 31. PPNB طوروس. «أدوات من تشايونو». تشايونو (عن بريدوود). 2 – 3: كفر هويوك (عن م. كوفان). وكانت هذه الأدوات من الأوبسيديان تستخدم من أجل إتمام الآنية والحلي الحجرية.

وأخيرا. بمعرفة الصفة العامة للنولتة فإننا لا ندهش بأن عناصرها الرمزية موجودة أيضا: فالتماثيل الصغيرة الأنثوية من الطين المشوي موجودة بكثرة في كل مكان، أكانت واقعية تقريبا أو تخطيطية (الشكل 32: 1 – 3). ويمكننا أن نلحظ في كفر أو نفالي تشوري أو غوبليكي تبه Gobleki Tepe حالات نادرة أيضا لتماثيل صغيرة ذكرية بوضوح (الشكل 32: 5). والأمر الهام وجود تماثيل حقيقية بشرية الشكل من الحجارة في نفالي تشوري، وذلك بأحجام مختلفة، وأحيانا تكون أكبر من الحجم الطبيعي[28]. ويوجد من جهة أخرى نقش بارز مدهش من الجص (اللوحة III) يمثل شخصيتين بشريتين جنبا إلى جنب وهما ترفعان الأيدي: وعلى الرغم من غياب أية إشارة واضحة للجنس فإن عدم تساوي حجميهما يوحي بأن الأمر يمكن أن يتعلق للمرة الأولى بـ «زوج» حقيقي (إلهي؟). وهما يحيطان بشخصية ثالثة أصغر ذات أطراف أقصر و«بطن» منتفخ، وهي تخطيطية جدا في الواقع لكي نستطيع القبول تماما وبلا تحفظ بتفسيرها كـ «سلحفاة» كما اقترح هارولد هوتمان[29] Harold Hauptmann.

وفي مجال الرمزية الحيوانية تم العثور على عظام كتف لثيران، لا علاقة لها ببعض بقايا المطبخ العادية، داخل بيت في كفر هويوك: وهي تذكرنا بالتأكيد بتلك التي كانت ترافق الجماجم في المريبط[30]. وثمة بالإضافة إلى ذلك ثيران ممثلة كثيرا جدا بين التماثيل الصغيرة من الطين في تشايونو (الشكل 32: 6 – 7) كما وأيضا إنما بشكل أندر حيوانات أخرى ذات قرون وكلاب[31]. وتضيف نفالي تشوري إلى ذلك تمثيلات للشقر والثعابين والكواسر، أكانت نهارية أم ليلية، والأفاعي كانت موجودة كما رأينا منذ المريبطي في سوريا، وبخاصة في جرف الأحمر. وهي تشكل مع الشقر جزءا من المجموعة التصويرية التي سترافق بعد فترة وجيزة إلهة شاتال هويوك.

وأخيرا، وبفضل اللقيات الجديدة في تشايونو[32]، أصبح متوفرا بين أيدينا وثائق مدهشة حول «عبادة الجماجم» في الـ PPNB في نسختها الأناضولية: فأكثر من سبعين جمجمة بشرية كانت مجمعة في مبنى فريد، داخل خلايا صغيرة على شكل صناديق، وهي مغلقة بواسطة بلاطات أفقية كبيرة. إنه لـ «بيت موتى» حقيقي، وهو بناء كبير مخططه مستطيل ممتد بشكل استثنائي، في مرحلته الأقدم، بمحراب (الشكل 28: 7)، وكان قد اشتمل أيضا إضافة إلى الجماجم على مختلف بقايا أربعمائة فرد مدفونين تحت الأرض.

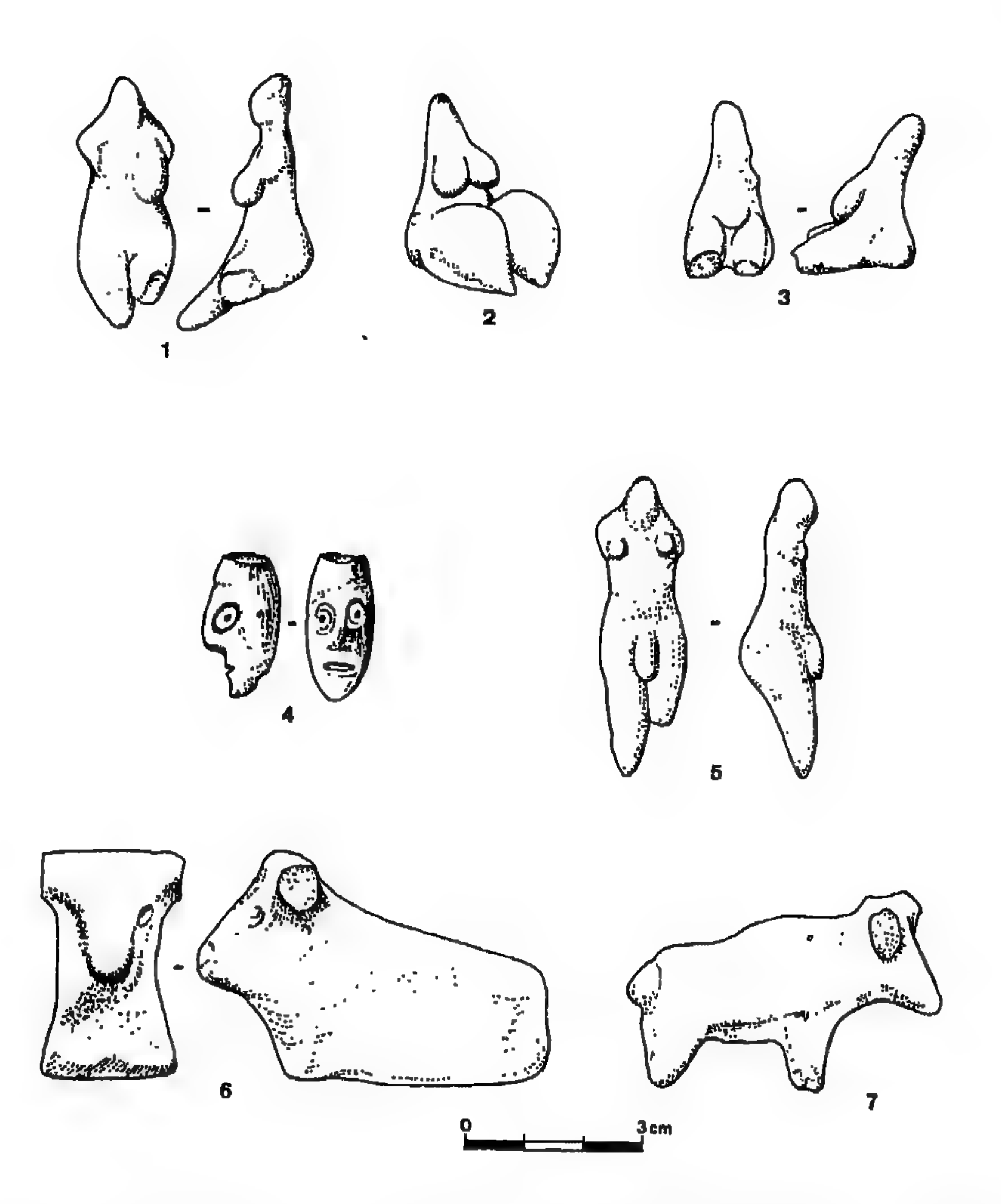
وكانت الجماجم تنتمي إلى رجال ونساء، وأحيانا إلى أطفال، لكن الأمر يتعلق في غالب الأحيان بشبان بالغين. وفي جزئه المستطيل كانت قد نصبت مسلات عمودية. وقد كشف حجر كبير مسطح (مذبح؟) فيه عند تحليله عن آثار دماء حيوانية (مجترات كبيرة وصغيرة) وعن دم بشري[33]. وفي مراحل أخرى من تاريخ تشايونو كان مبنيان كبيران مستطيلان آخران بحجرة واحدة[34] قد لعبا دور المعبد نفسه، إذا لم يكن دور «بيت الموتى». وهما متميزان في آن واحد بأبعادهما وبالعناية التي تم بها تحضير أرضيتيهما: وتذكر أرضية أحدهما بشكل خاص بـ «فسيفساء» بفضل أثر التعارض بين لياسة من الكلس وحجارة ملونة. وكانت بلاطة كبيرة مزينة برأس بشري نافر تحمل هي أيضا آثار دم بشري[35]. ولم تكن هذه القاعدة الخاصة في التضحية، التي كانت تشتمل ربما على ضحايا بشرية، قد لوحظت حتى ذلك الحين في نيوليتي الشرق الأدنى.

وتشايونو ليس الموقع الوحيد في الأناضول الشرقية التي كشفت كذا مباني استثنائية، أكان بمخططها أم باستخدامها الشعائري. فثمة معبد حقيقي يوجد أيضا في نفالي تشوري (اللوحة 1، الشكل 28: 8). ولا يتعلق الأمر بـ «بيت للموتى»: إذ كانت قد وجدت فعلا جماجم بشرية في هذه القرية إنما داخل مبنى عادي..وبالمقابل فإن هذا المعبد يبدي في مرحلته القديمة الطرف المستدير نفسه للذي للبيت الجنائزي في تشايونو. وقاعدته المستديرة محاطة أيضا ببلاطات كبيرة، أكانت موضوعة مسطحة وتغطي خلايا صغيرة، أم كانت مزروعة عموديا في الواجهة الداخلية من الجدار الطرفي؛ وتحمل الأرض كما في تشايونو بلاطة كبيرة أفقية في حين أن مسلة منحوتة نصبت إلى جانبها، وهي بشرية تخطيطية الشكل. وليس ثمة شك بأن الأمر يتعلق هنا بمكان عبادة.

وأخيراً فهناك معابد أخرى يقوم باستكشافها حالياً علماء آثار ألمان في منطقة أورفة[36]. وقد قدم لنا أحدها وهو في غوبيكلي تبه تمثيلات لشقرٍ كما ولتمثال بشري صغير كما رأينا من الحجر القضيبي الشكل[37] ithyphallique: إن هذه الرجولة الواضحة نموذجية للـ PPNB فيما يتعلق باستلهامها.

وهكذا فإننا نلج بالتالي للمرة الأولى، بفضل هذه الوثائق، إلى البداهة الواضحة للمباني الشعبية والإحتفالات الشعبية ذات السمة الدينية التي تجري فيها: ولا شك أن

هذه الأخيرة كانت قد رسَّخت بقوة التآلف النفسي للمجموعات البشرية المتحضرة. ومن المرجح جداً بالمقابل، إذا أخذنا بمسلة نفالي تشوري، أنها كانت تتوجه إلى ألوهة شخصية: ولا يدهشنا ذلك إذا اخذنا بعين الإعتبار ما نعرفه عن الإنبثاق التدريجي منذ الألف العاشر لهذا الشكل الخاص للمقدس.



الشكل 32. *فن الـ PPNB. تماثيل أنثوية صغيرة من الطين الشوي من الـ PPNB في طوروس. (1: كفر هويوك. 2 – 3: تشايونو) وذكرية (5: كفر هويوك). وتماثيل صغيرة لثيران من تشايونو (6 – 7). قرط حجري من الريبط (سورية) على شكل رأس مذكرة (4). عن جاك كوفان (1، 4، 5) و V. Broman-Morales (2 – 3، 6 – 7).*

مسألة النولتة

من الأناضول المركزية إلى الـ PPNB الأوسط

لقد تَنَوْلَتَت الأناضول الجنوبية الشرقية إذن قبل 8200 قبل الميلاد بكثير. وربما كان أصل هذه الظاهرة مثاقفة تمت بواسطة الـ PPNB القديم في المشرق، وذلك منذ فترات تحضيره الأولى على الفرات الأوسط: بل يمكن أن يرجع هذا الأصل حتى إلى نهاية المريبطي.

فإلى أين وصلت عندها في المكان موجة التحول هذه؟ فهل وصلت وهي تتقدم باتجاه الغرب إلى الأناضول المركزية؟ كان تل هاشيلار[38] Hacilar قد كشف منذ مدة طويلة عند قاعدته عن آثار قرية ربما كانت ما قبل فخارية والتي بدا في حينه أنها ترجع إلى النصف الأول من الألف الثامن وتبدي تجانسات معمارية مع الـ PPNB، إنما ليس هناك أي يقين حول عمرها الفعلي. وتكشف حالياً قرية أسيكلي Asikli في كبادوقيا عن معطيات أكثر كمالاً ترجع إلى الألف الثامن[39]. وهو موقع يشتمل على عمارات، متراصة في نسيج قروي كثيف جداً (الشكل 54: 1)، وهي مستطيلة ذات حجرات متعددة، وذات أرضيات وجدران تكون أحياناً مليسة بالكلس ومطلية بالأحمر. والمتاع الحجري غزير فيها. وهو يشتمل بحسب بلقان[40] N. Balkan على نوى ثنائية القطب تنتسب إلى «النوى السفينية الشكل» الـ PPNB، بل وثمة أيضاً فيها نبال ذات سويقات من الأوبسيديان مختلفة عن نبال جبيل (بيبلوس)، وذلك على هامش أدوات شائعة من المادة نفسها مؤلفة بشكل خاص من الحجارة الدقيقة والنصال المنمقة والمكاشط. وهي ربما من أصل محلي. وليس ثمة فيها أي أثر لتقصيب بالضغط يذكّر بالأناضول الشرقية. وحدها بعض التماثيل الحيوانية الصغيرة من الطين نصف المشوي وفي حالة سيئة، وبالتالي غير محددة تماماً، كما وبخاصة بعض الإبزيمات للزنانير من العظم، تبدي بعض التجانسات مع الثقافات المعاصرة في الفرات الأوسط وفي طوروس الشرقية.

وليس ثمة تدجين، والصيد متنوع. ولا شك أن الزراعة موجودة لكن الزروع والجلبان القابلة أن تكون مزروعة تبدو نادرة جداً في هذه المرحلة. والأمر المفاجئ المساحة الكبيرة للقرية (أربعة هكتارات)، وبالتالي لسكانها وللمستوى الرفيع لعمارتها. وقد وجدنا بالمقابل كميات كبيرة من عنبيات* الميس** التي ترجع إلى نشاط القطاف.

---

* العنبية ثمرة لحمية غير متفتحة ليس لها نواة بل تحوي بزرة أو أكثر كالعنب، م.

وأخيراً فإن الممارسات الجنائزية هي عبارة عن مدافن بسيطة لا وجود فيها لطقس القطع الموجود في كامل الـ PPNB[41].

وتنتج عن هذه النتائج الأولية إشارتان. الأولى هي أن صفات الـ PPNB لا تظهر في أسيكلي إلا بشكل مخفف وحذر. ولا شك أننا يمكن أن نتكلم عن تأثير من المشرق لتفسير وجود بيوت مستطيلة وتقنيات بنائها، طالما أنها لا تبدو حتى الآن مشتقة عن أي تطور محلي. ومع ذلك فإن مخططات البيوت لا ترتبط بأية صلة مع مخطط البيت ذي الدعامة المشرقي pier-house. وهي تؤسس بالمقابل الموروث الخاص بالأناضول لتنظيم قروي متلاصق سيكون هو تنظيم شاتال هويوك بعد فترة لاحقة. ومن جهة أخرى، لا تبدو هذه التأثيرات للـ PPNB في الأناضول المركزية آتية من الأناضول الجنوبية الشرقية، لا من أجل المخططات المعمارية ولا بالنسبة لتقنيات الحجر طالما أن النحت بالضغط ليس مستعملاً هنا. فربما كانت قد سلكت الطريق الأكثر اختصاراً الذي كان يربط منذ زمن طويل عبر «تجارة الأوبسيديان» المشرق الغربي بكبادوقيا؟

والإستنتاج الثاني الذي يحتاج إلى إثبات[42] هو المستوى الضعيف لإنتاج المعيشة، أي للنولتة الإقتصادية، بالنسبة للإطار المحيط في الشرق الأدنى. ونحن نعلم عبر المثال النطوفي أن قرى للصيادين ـ القاطفين كانت قد سبقت الزراعة. ويمكن لأسيكلي أن تشهد على نوع من استمرار لهذه الظاهرة خلال فترات أحدث، تماماً مثل قرى شمال العراق التي سوف نذكرها لاحقاً. وفي كل حال فإن أسيكلي تظهر شاذة بدرجة كافية بالنسبة لصيرورة الإنتشار التي نعالجها هنا.

خاتمة حول نولتة الأناضول

إن انتشار النيوليتي باتجاه الأناضول لا يتعلق إذن بالفعل إلا بطوروس الشرقية وهو يتفرد فيها بثلاثة أشكال.

** الميس شجرة حراجية تستعمل للتزيين، م.

فهو مبكر بشكل خاص. أي قريب جداً من أصول الـ PPNB بل وربما معاصر في تشايونو لمرحلة إعداده في أفق المريبطي الأخير.

وهو غير منفصل عن النولتة الإقتصادية لأرض جديدة، طالما أن الزراعة تدخل إليها بفضله تقريباً في لحظة انبثاقه على الفرات الأوسط.

وهو يشكل أخيراً المنظومة الرمزية الأولية للنيوليتي، وذلك تحت الشكل المزدوج لاستحضارات الإلهات والثيران. إنما المحمل مذاك بسمات جديدة خاصة بـ PPNB المشرق بمجمله: وهي بداية أنسنة للألوهة الذكرية و»عبادة للأسلاف» مجسدة بمخازن الجماجم المنفصلة عن المدافن. وتدشن الأناضول هنا بغنى الإطار الشعائري الذي ترجعه لنا دورها كمصدر بارز للمعلومات في المجال الديني الذي ستحفظه خلال العصر التالي مع شاتال حويك التي سبق أن ذكرناها.

وفي كل حال، فإن تزامنية كافة هذه الإسهامات، التي تخص المسكن ومعظم التقنيات كما وبالقدر نفسه نمط المعيشة ونظام التفكير، توحي بشدة بالإسهام الجزئي على الأقل لجماعة جديدة. ولا بد أن هذه الجماعة كانت قد أتت من الفرات الأوسط الأمر الذي يبدو أنه يثبت واقعاً جديداً أيضاً يخص أوبسيديان الأناضول الشرقية ومسيرته في اتجاه معاكس عبر المشرق كله، وهي ظاهرة من الموافق أن نذكر هنا بتاريخها.

مسيرة أوبسيديان الأناضول
في الألفين العاشر والتاسع

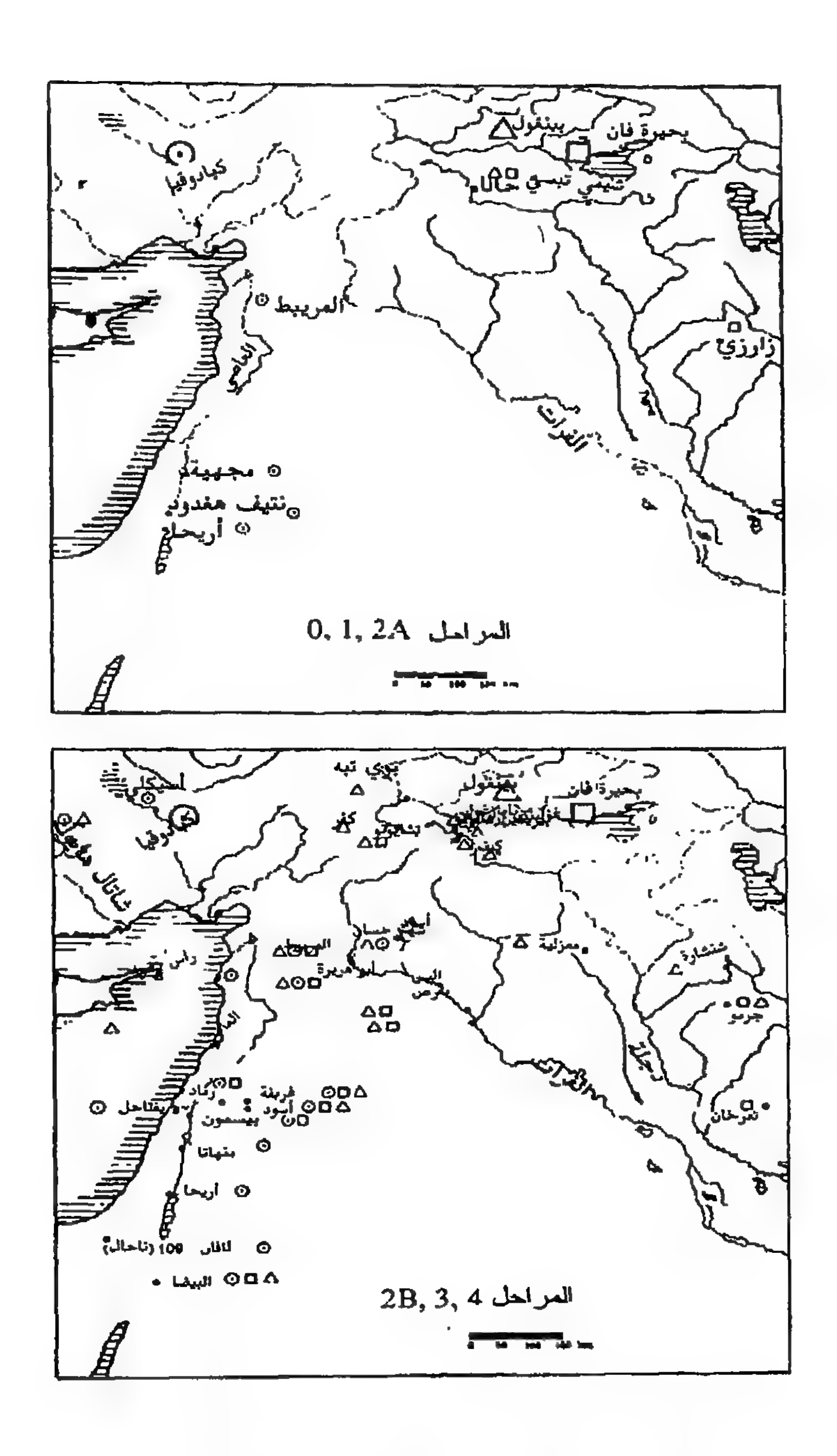
كان الأوبسيديان، الذي كان مادة أساسية للأسلحة والأدوات في PPNB طوروس، يبدو لنا فيها مميزاً بالنسبة لمواد أخرى تساويه في نتائجها وأسهل بلوغاً بكثير كالصوان. إن مظهره الفيزيائي الجذاب جداً، وهو بشكل عام أسود وبراق وغالباً ما يكون أيضاً نصف شفاف وملوناً تلويناً خفيفاً بالرمادي والأخضر والأحمر، يمكن أن يفسر وحده هذا التفضيل. وقد رأينا في كل حال أن ميزة خاصة فقط للأوبسيديان كان يمكن أن تفسر أنه كان منتشراً منذ الألف الثاني عشر في كامل المشرق على شكل نصيلات صغيرة، وذلك بكمية ضئيلة جداً بحيث لا تمثل أية أهمية في المنظومة التقنية للمجموعات التي كانت تحصل

عليه[43]. وتشبه هذه «التجارة» البدائية كثيرا تجارة النحاس الطبيعي أو التركواز، وهما مادتان أخريان مميزتان انتشرتا انطلاقا من الأناضول أو من سيناء، أو أيضا قواقع البحر المتوسط والبحر الأحمر (النابيات* والديدان الشاطئية، إلخ.) التي دخلت بعمق منذ النطوفي إلى كامل المشرق القاري مع معنى رمزي بالتأكيد أكثر منه عملي. والحال أن الأوبسيديان في الشرق الأدنى بين 12000 و8800 سنة قبل الميلاد، والذي كان قد وصل مذاك حتى ضفاف البحر الميت وفي وادي الأردن، كان يأتي حصرا من المناجم الطبيعية في الأناضول الوسطى، أي من كبادوقيا. وليس ثمة أي شيء واضح بعد حول الطبيعة الدقيقة لهذا الإنتشار المبكر: فكبادوقيا التي كانت فارغة حتى تأسيس أسيكلي لم تكشف عن أي أثر لإعمار إنساني معاصر للباليوليتي الأخير أو للـ PPNA المشرقي. وليس من موقع ما قبل تاريخي يبدو أيضا أنه يعلم ويوجه الدروب الطبيعية التي كان لهذه «التجارة» أن تسلكها، من الأناضول المركزية إلى سورية الشمالية. فهل كانت الأناضول المركزية في ذلك العصر غير مسكونة، الأمر الذي يمكن أن يفسره استمرار أطول يثبته علماء المناخ للصقيعيات الجليدية وتأخر في ارتفاع درجات الحرارة[44]؟ يلزم أن نفترض عندها أن قرى المشرق كانت قد أوفدت مباشرة مع اعتدال المناخ بعثات بعيدة باتجاه كبادوقيا وهدفها الوحيد هو جلب الأوبسيديان[45]. ومن المرجح أكثر أن جماعات من الصيادين القاطفين التي يصعب أكثر كشفها، والتي ربما كانت بقاياها قد انطمرت بالرسوبيات الشديدة التي شهدتها الوديان النازلة من الأناضول، كانت قد لعبت دور الوسيط في منظومة تبادل أكثر كلاسيكية.

والأمر الجديد هو دور الأناضول الجنوبية الشرقية، منذ 9000 قبل الميلاد، كمصدر جديد للأوبسيديان في المشرق[46]: ويتعلق الأمر بمناجم منطقة بينغول في طوروس وبمناجم بحيرة فان الأكثر إلى الشرق قليلا (الشكل 33). وقد بينت تحليلات فيزيائية - كيميائية أن هذا الأوبسيديان الأخير قد ظهر على الفرات الأوسط السوري، بشكل متمم للحجر الكبادوقي المستورد تقليديا، منذ نهاية المريبطي، أي في الفترة نفسها التي تمت فيها النولتة الأولى للأناضول الجنوبية الشرقية. وإذ اغتنت عندها الخلفية «koiné» النيوليتية بمقاطعة جديدة، يبدو أن المحتلين الجدد للأناضول قد حافظوا على صلات مع الأرض التي انطلقوا منها ودشنوا منذ ذلك الحين تيارا حقيقيا من التبادلات معها.

---

* النابية رخوية بحرية تعيش في الرمال وصدفتها أو قوقعتها مقوسة كالناب، م.



الشكل 33. *انتشار الأوبسيديان في الشرق الأدنى بين 14000 و 7000 قبل الميلاد. وبدءاً من 9000 قبل الميلاد بلغ أوبسيديان الأناضول الشرقية (المثلثات والمربعات) المنطقة الساحلية من الشرق والذي كان يمون سابقاً عبر كبادوقيا فقط (الدوائر). عن م. كوفان و Ch. Chataigner (قدمت لي بشكل شخصي).*

الهوامش

1. Kenyon، 1957.
2. إنها المرحلة المسماة «A IV» في المريبط.
3. Coqueugniot، 1994.
4. كان قد تم التعرف على «نبال جبيل» للمرة الأولى في جبيل (بيبلوس) كما يشير إلى ذلك اسمه، وهو موقع أكثر تأخرا بكثير على الساحل اللبناني. وكما هو الحال عند علماء الطبيعيات فإن التسمية المستخدمة عند علماء ما قبل التاريخ لا تشير إلى الأصل التاريخي للأنماط المشار إليها بل إلى مكان التعرف عليها لأول مرة.
5. Moore وآخرون، 1975. بالنسبة لحالوله انظر Molist، 1996.
6. Legge الذي يذكره Helmer، 1992، انظر لاحقا. وبالنسبة لحالوله انظر Helmer in Molist، المرجع السابق.
7. Hillman in Moore وآخرون، المرجع السابق. ويجب أن نضيف حاليا إلى هذه القائمة الشيلم الذي سبق لـ Hillman أن حدسه: انظر Mc Laren وآخرون، 1990.
8. Molleson وآخرون، 1992.
9. Cambel et Braidwood، 1980؛ Braidwood et Braidwood، 1982؛ Ozdegan et Ozdogan، 1990، 1995.
10. Cauvin J. et Aurenche، 1982؛ Cauvin J.، 1989؛ Molist et Cauvin J.، 1991.
11. Balkan، 1990. 12.
12. يتعلق الأمر هنا بالجزء الشرقي من «طوروس» بحسب سكانها وبحسب الجغرافيين الأتراك. وهي معروفة أكثر في الخرائط الغربية باسم Anti-Taurus.
13. Cauvin J.، 1988.
14. Hauptmann، 1988.
15. يتألف تسليح كفر هويوك وتشايونو بخاصة من نبال جبيل (الشكل 26: 1 – 3، 4). ويشتمل تسليح نفالي تشوري (الشكل 27) في آن واحد على هذا النمط وعلى نبال ذات قاعدة مقعرة أو على سويقة قصيرة، وهي أقرب إلى الموروث المريبطي الأسبق.

16. Aurenche، 1982 a.

17. مبدأ المخطط الشبكي معروف أيضا في الـ PPNB القديم في الفرات الأوسط. وكان الكثير من «المخططات الشبكية» في جعدة. وهي أصغر بكثير من مخططات تشايونو إنما أقدم منها قليلا. (حوالي 9200 قبل الآن، أي 8500 قبل الميلاد)، يستخدم أيضا كأساسات عازلة لطبقات عليا لا شك أنها كانت من مواد خفيفة: انظر Coqueugniot، المصدر السابق.

18. انظر Aurenche et Calley، 1988.

19. لقد استطعنا التوصل إلى تحديد أفضل للشعوب المحلية لطوروس التي كان قد أمكن لها أن «تستقبل» الـ PPNB بفضل وجود مرحلة ذات بيوت دائرية في تشايونو سابقة للمخطط الشبكي. وقد فسرت في البداية على أنها تظهر بالأحرى تقليدا معماريا قديما كان قد تم التعرف عليه في زاغروس (انظر Aurenche et Calley، 1975، ص. 8؛ Cauvin J.، 1975، ص. 73). ولم تكن هذه المرحلة التمهيدية قد ذكرت حتى الآن إلا بشكل مختصر جدا في منشورات المنقبين. ويبدو في الواقع من خلال المواد التي كان قد قدمها لنا في عامي 1994 و 1996 كل من M. et A Ozdogan في اسطنبول أنه توجد فيها عناصر من المريبطي الذي يتميز هو أيضا بالبيوت الدائرية. فإذا ثبتت هذه التجانسات من خلال الدراسة الجارية للصناعة في تشايونو على يد كانفا I. Caneva، فإن ذلك يمكن أن يسبق تاريخ «صعود» التأثيرات الجنوبية إلى طوروس الشرقية ببضعة قرون أي حتى المريبطي نفسه. ويجعل ذلك أيضا النولتة الأناضولية شبه معاصرة لبدايات الإقتصاد الزراعي في سوريا الشمالية. في النصف الأول من الألف العاشر قبل الميلاد.

20. Stordeur، 1988.

21. Cauvin M.-C.، 1991 b.

22. انظر بالنسبة لكفر هويوك: Calley, 1985. وتوجد نوى ذات نصال مميزة لهذا النمط من التقصيب أكان في كفر أو في تشايونو. بالنسبة للصوان كما وللأوبسيديان.

23. Inizan، 1990.

24. Maréchal، 1985. وقد سمحت محاولات تجريبية لأندرسون ومارشال أن يحددا الأداة من الأوبسيديان التي كانت قد استخدمت لتزيين الحجر: ويتعلق الأمر بصفيحة ثخينة ذات فرضات نصلية خشنة وتحمل حزوزا نوعية للإستخدام على وجهها الأسفل وهي معروفة باسم «أداة تشايونو» (الشكل 31).

25. مثلا في كريم شاهير (Howe، 1983) وفي زاوي شيمي شـانيدار (Solecki، 1981). إن هذين الموقعين المسميين أيضا «قبيل نيوليتيين proto-néolithiques» معاصران للـ PPNA في المشرق دون أن يكونا مع ذلك زراعيين. انظر لاحقا.

26. Van Zeist et Roller، 1994؛ Ozdogan، 1995.

27. Moulins، 1994.

28. Hauptmann، 1993.

29. Hauptmann، المرجع السابق، ص. 67. وسنجد تمثيلات شبه مطابقـة في الأناضول المركزية في نهاية الألف السابع قبـل الميـلاد على تزيينـات بـارزة لفخـار كوسـك هويـوك Kosk Hoyuk (Silistreli، 1989، الشـكل 12). وهـي تنـدرج في إطـار إلهـات وجماجم وصور بقريات وحيوانات أخرى ذات قرون. وهي هنا أيضا ليست سهلة التفسير.

30. في الألف السابع سنشير إلى الوجود الماثل لعظام كتف بقريات في بيـت ذي محراب من «النيوليتي القديم» في بيبلوس، وهو مفسـر مـن قبـل دونـان Dunand (1973، ص. 25) على أنه معبد.

31. Broman-Morales، 1990.

32. Ozbek، 1988؛ Ozdogan et Ozdogan، 1990.

33. انظر Ozbek، المرجع السابق، ونشير مع ذلك إلى أن إمكانية أن نميز فعـلا بالتحليل بين الدم الحيواني والدم الإنساني ليست موضوع إجماع بين البيوكيميائيين.

34. Schirmer، 1990.

35. انظر Aurenche et Calley، 1988، ص. 17.

36. Schmidt، 1995.

37. المرجع السابق، الشكل 1: c.

38. Mellaart، 1970.

39. Esin وآخرون، 1991.

40. Balkan-Atli، 1991.

41. لقد وجدنا في قاعدة هاشيلار جماجم بشـرية مفصولـة محمولـة بحوامـل مـن الحصى بحيث أن توافقها مع الـ PPNB مؤكد، إنما التي عمرها الفعلي غير مؤكد.

42. الحاجة إلى التأكيد تتأتى من المفاجأة أمام النتائج بالأحرى مـن شـروط أخـذ العينـات وتحديـد البقايـا النباتيـة اللذيـن قـام بـهما وولدرينـغ Woldring (في مخـابر غرونينغ Groningue) بحسب أكثر الطرق الممكنة جودة.

43. Cauvin M.-C.، المرجع السابق.

44. Balkan-Atli، 1994.

45. هذا ما توحي به بعض مشاغل نحت الأوبسيديان التي وجدت في كبادوقيا التي كانت على تماس مباشر مع المناجم الطبيعية نفسها. ويمكننا أن نحلل فيها السلاسل العملياتية التي لها هي نفسها معنى ثقافي. والحال أنه إذا كان قد تم في بعض المشاغل تقصيب الأوبسيديان بشكل جلي لصالح قرى ما قبل فخارية محلية من نمط أسيكلي، فثمة أيضا منها ما يحمل الأشكال السفينية المتطاولة وثقوب اليد المميزة للـ PPNB السوري - الفلسطيني. وقد تركت كافة النصال المستخرجة من هذه النوى المشغل: ونحن نعود فنجدها موزعة على مواقع كثيرة في المشرق حيث سمحت التحليلات الكيميائية للمادة بتحديد أصولها الدقيقة (انظر Cauvin M.-C.، 1996).

46. Cauvin M.-C.، المرجع السابق، ص. 172.

الفصل العاشر

الإنتشار
في المشرق المركزي والجنوبي

يمتزج انتشار الـ PPNB في الأناضول منذ مرحلته القديمة مع نولتة هذه المنطقة. والأمر ليس كذلك بالنسبة للمشرق المركزي (منطقة دمشق) والجنوبي (فلسطين). فهنا، أكان الأمر في تل أسود أم في وادي الأردن، كان يوجد انتاج معيشة منذ 9000 قبل الميلاد. والإنتشار المتعلق به، وهو أكثر تأخراً، ليس نولتة طالما أن النولتة كانت موجودة في المنطقة، إنما ببساطة التوسع باتجاه الجنوب لثقافة أكثر شمالية مصدرة إليها. إذا جاز القول، نولتة مختلفة.

إن هذه الصفة التدخلية واضحة بشكل خاص في PPNB المشرق الجنوبي حيث التعارض عميق بين العمارات الجديدة والقديمة، وبين الأدوات الجديدة والقديمة. وسنستمد منها عناصر كثيرة للتأمل فيما يخص الطبيعة الدقيقة لانتشار الـ PPNB . أما حالة منطقة دمشق، التي يتوسط موضعها الجغرافي بين المشرق الشمالي والمشرق الجنوبي (الشكل 22)، فهي أقل وضوحاً كما أنه من الصعب أكثر تحديد الوجود البشري الذي يغطي فيها وصول الـ PPNB بسبب عدم توفر معطيات كافية.

الـ PPNB الأوسط في منطقة دمشق

كانت قرية أسود، منذ 9000 قبل الميلاد، إحدى بؤر الإقتصاد الزراعي الأبكر في الشرق الأدنى كما رأينا. وقد تم وصف تجمع من البيوت الدائرية فيها نصف المدفونة كما

كان الحال المعتاد عند الافق PPNA. وهذه القرية نفسها هي التي سوف تغير في نهاية الألف التاسع ثقافتها وتتبع مذاك الـ PPNB[1]. ومع ذلك وعلى خلاف ما نستنتجه في مواضع أخرى فقد ظلت المساكن من النمط نفسه: فهي دائماً حفر مستديرة حيث تُستخدم من أجل الطبقات العليا مواد خفيفة. ولم تظهر فيها أية عمارة مستطيلة وليس ثمة فيها أرضية كلسية كما في المشرق الجنوبي. كذلك فإننا نجد استمراراً قوياً في تركيب الأدوات[2]، أي في توزع النشاطات كما تكشف عن ذلك النسب الخاصة بالأدوات: غزارة كبيرة بالنصال ـ المناجل، المستخدمة من أجل الزراعة بحصر المعنى كما ومن أجل قطع القصب والأسل الداخلين في البناء[3]، والمكاشط النادرة والفؤوس المنحوتة بشكل استثنائي. إنها بالإجمال القرية نفسها التي تتطور إنما تحفظ على مدى الأجيال دون تبدل عاداتها البيتية والعملية ونشاطاتها الأساسية. إن هذه الظاهرة من «العطالة الثقافية» هي ظاهرة متكررة في المجتمعات الحضرية التي تجتاز العصور والثقافات دون أن يتجدد العمق البيولوجي لشعبها.

أين هي التغيرات إذن؟ إن أحدها يتعلق بتفصيل من الزراعة: فجدول النباتات المزروعة اغتنى بنوع جديد من القمح، هو برّ القفقاس المدجّن[5]. ويُشتق هذا النوع (*Triticum monococcum*) من بر القفقاس البري الذي كان كما رأينا يقطف دورياً ثم يُزرع في المريبط قبل أن يصبح شكلانياً مدجناً في PPNB أبو هريرة. وبالمقابل، فإن هذا النوع في حالته البرية غريب تماماً عن بيئة المشرق المركزي. فبر القفقاس الذي أُدخل إلى تل أسود لم يكن من الممكن أن يأتي بالتالي من الشمال على شكل سبق تدجينه. ومع ذلك، فإن الإبكار الخاص الذي نسبناه إلى الفلاحين الدمشقيين في مجال التدجين النباتي لا يبدو أنه يناقض الـ PPNB . فأسود هي حتى الآن إحدى القرى الوحيدة التي نجد فيها مذاك أنواعاً مدجنة لن تنتشر خارجاً إلا في وقت لاحق: الشعير ذو الصفوف الستة (*Hordeum vulgare*) والكتان المدجن (*Linum usitatissimum*).

فضلاً عن ذلك، فإن التغيير الأهم والثقافي الأكثر مباشرة يتعلق بنمطية التسليح[6]، والذي نتذكر أنّه يشكل «قطاعاً محسوساً» حيث يندرج مرور الـ PPNB في كل مكان بالشكل الأقوى والأكثر تعبيرية. فالتسليحات الهجومية في أسود لا تصبح عندها فقط أكثر صلابة وأكبر حجماً، بل وتمثل أشكالاً مختلفة جداً عن أشكال الماضي المحلي. فثمة تشذيب نصلي يشكل فيها في الواقع رؤوس بيبلوس ورؤوس العمق Amouq والرؤوس

البيضوية الخاصة بالـ PPNB . ويفيد هذا التشذيب أيضاً في إعطاء مظهر أكثر تطوراً لبعض الرؤوس ذات الفرضات من الشكل PPNA الذي كان ليختلط بسهولة بدونها مع الرؤوس السابقة. وهكذا فإننا نكتشف بالتالي في التسليح في آن واحد مظهراً تقليدياً جداً بالنسبة للمشرق الشمالي. حيث اختفت هذه الرؤوس ذات الفرضات منذ وقت أبكر، بل وأيضاً العلامة الأكثر يقيناً، وهي الوحيدة ربما هنا، لـ «حداثة» الـ PPNB . وليس ثمة بالمقابل أي أثر لـ «عبادة الجماجم»، والتماثيل الأنثوية الصغيرة التي ظهرت حينها في أسود ليس فيها ما هو مبتدع طالما أنها كانت توجد خارجها منذ نحو ألف سنة.

كذا فإن PPNB دمشق هو بالتالي ثقافة مختلطة أكثر من PPNB طوروس كما وأيضاً من PPNB فلسطين كما سنرى، إلى حد أن أحداً ما كان ليتكلم هنا عن PPNB لو لم يوجد فيها التسليح. فباستثناء تقصيب النصال الصوانية، الذي يتم هنا أيضاً ابتداء من نوى سفينية الشكل naviformes، فإننا لا نجد في هذه القرية أية سمة ثقافية من الـ PPNB ، هذه القرية التي ظلت بشكل مدهش محافظة على مدى ألف سنة طويلة من الوجود.

إن الإسهامات الجديدة تأتي بالتأكيد من سوريا الشمالية، لكن من الصعب أن نحدد كيف. وفي كل حال لا يبدو التأثير PPNB في هذه المرحلة أنه يصل المنطقة الدمشقية إلا مساً خفيفاً وهو لا يغير دون شك أبداً العمق السكاني المحلي. وقد اعتمد هذا الأخير بعض مهارات يد نحاتي الصوان وتسلح بأسلحة الشدة في ثقافات هذا العصر. فثمة إذن تفاعل واضح مع الإطار PPNB، لكن الأمر يتعلق بشيء مختلف جداً عن حالة الأناضول وعما سوف نصفه بالنسبة للمشرق الجنوبي[7].

الـ PPNB الأوسط في فلسطين

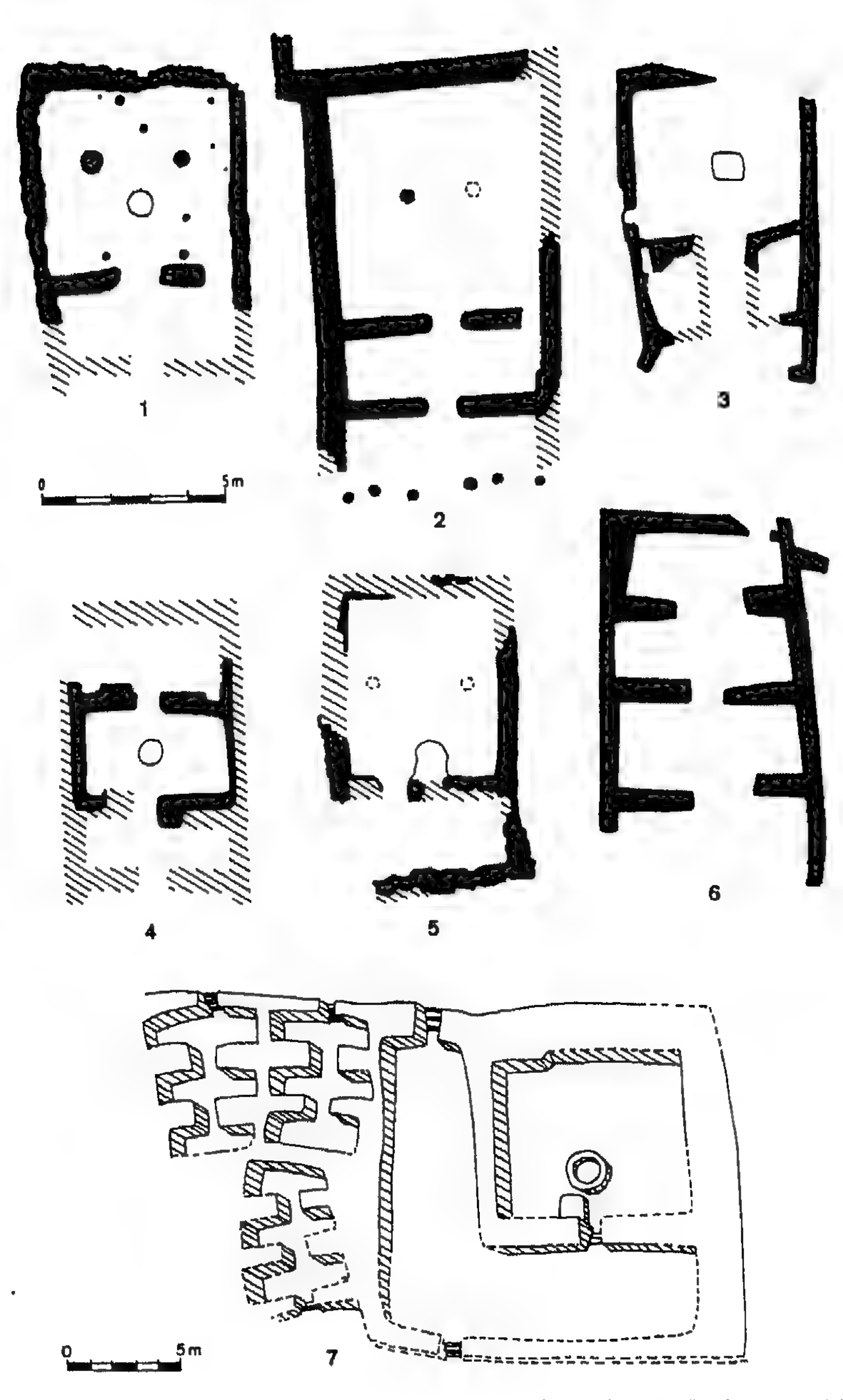
إن السمة الفلسطينية للـ PPNB هي أقدم السمات المعروفة في المشرق، طالما أن الإهتمام بها يرجع إلى خمسين سنة في فلسطين والأردن وطالما أن الإكتشافات تستمر فيها. ومع ذلك فليس ثمة أي موقع فيها سابق لـ 8200 قبل الميلاد: وبالتالي فإن الـ PPNB ظهر في المشرق الجنوبي فقط في مرحلته المتوسطة. ويمتد توسعه في أرض المنطقة (الشكل

22) من بحيرة طبرية في الشمال وحتى النقب في الجنوب، دون أن يمتد أكثر باتجاه سيناء. كذلك فإنه لا يجتاز الهضبة الأردنية التي تحف بنهر الأدرن باتجاه الشرق. ويتعلق الأمر كما في سورية بقرى مزارعين متحضرين[8]، والتي لا تزال في هذه المرحلة غريبة عن المناطق الجافة في المشرق. ويبدو أن إعمار هضاب النقب المتصحرة تماما اليوم وصحراء فلسطين يتعارض مع هذا التأكيد لو لم تكشف إعادة تشكيل المشهد مرات كثيرة على يد علماء الطبيعة عن وجود مياه دائمة وأشجار حيث لا يوجد اليوم سوى وديان جافة وحصى، وثيران برية وأيائل (نوع غابي) حيث لا نتوقع وجود سوى غزلان. فقد مد في حينه إذن مناخ أكثر رطوبة قليلا أو أقل حرارة باتجاه الجنوب القرن الغربي للهلال الخصيب.

وهناك طريقتان لوصف هذه الثقافة. فعندما لم نكن نعرف الـ PPNB إلا في المشرق الجنوبي، كان مجمل السمات الملاحظة ينتسب على قدم المساواة، إذا أمكن القول، إلى تعريفه الشامل. والحق أنه لم يكن يتم وصف سوى سمة خاصة هي السمة التي نسميها «السمة الفلسطينية». وقد توصل الجهد الذي بوشر به حاليا لتنظيم هذه المادة المعقدة وتمييز الأصول الخاصة لمختلف عناصرها بهدف تحديد الظاهرة البشرية التي كانت أصل انبثاق الـ PPNB في هذا الجزء من المشرق إلى نمط آخر من الوصف. فالـ PPNB الفلسطيني مثل مكافئيه في طوروس ودمشق لم ينبثق في الواقع في أرض خالية. فقبله كان ثمة موروث محلي قوي يشغل الأرض، هو النيوليتي السلطاني. وقد ترك هذا الموروث آثارا هامة: فثمة جوانب كاملة من الحياة اليومية ستستمر تابعة له غير ممسوسة أو متطورة في مكانها. فسيكون من الموافق إذن أن نميز بين مختلف صفات الثقافة المدروسة، الصفات الجديدة من الصفات التقليدية، والصفات الآتية من الخارج من الصفات المحلية. ومن وجهة نظر ثقافية وليس زمنية فقط فإن هذه الأخيرة ليست PPNB بمستوى الأخرى نفسها.

العمارة

إن العمارة المستطيلة والمتعددة الخلايا وذات الأرضيات والجدران المليسة بالجص هي العلامة الأكيدة على هذا الـ PPNB والتي لم يكن شيء يحضر لها في المشرق الجنوبي. وهي موجودة في كل مكان، من الناصرة إلى البحر الميت، ومن الهضبة الأردنية إلى الساحل.

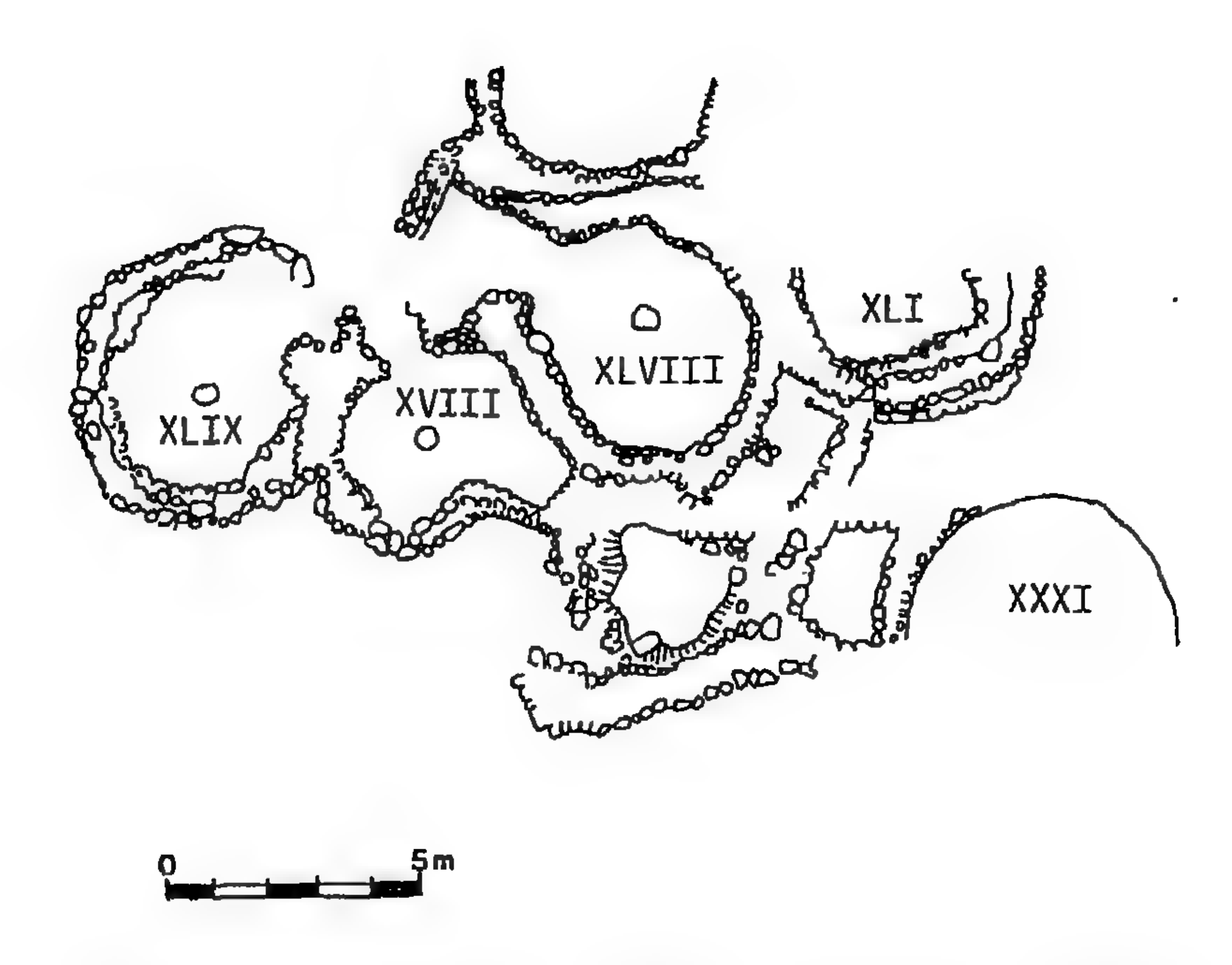


الشكل 34. *العمارة في PPNB الشرق الجنوبي.*

Pier houses. 1 – 4: عين غزال. 2 – 3: أريحا. 5: بيسمون. 6: يفتاحل.

بيوت ومعبد (؟). 7: بيضا.

عن *B. Byrd et E. Banning (1 – 6) وD. Kirkbride (7).*



الشكل 35. *بيوت دائرية من سوية الـ PPNB في قاعدة البيضا (الأردن). عن كيركبريد.*

ومن النادر أن تصلنا مخططات كاملة. والمخطط النموذجي الوحيد هو الـ pier-house[9]، وهو مبنى مستطيل ذو حجرتين أو ثلاث وهي متطاولة ومتصلة ومتوضعة بشكل متعامد على المحور الكبير للبيت، مع أعمدة أو أوتاد داخلية تحمل السقف وموقداً محورياً (الشكل 34). ولا يختلف هذا المخطط كثيراً عن المخطط المثلث الأقسام الأناضولي، ولا دون شك عن المخطط السوري في المريبط IV: فهو إذن سمة PPNB عامة. وحده الموقد المحوري، وليس الزاوي كما في كفر هويوك، والإستخدام الأكثر تعميماً بكثير للكلس يشهدان على تمايزات محلية خاصة بالمشرق الجنوبي.

وثمة حالة خاصة هي موقع البيضا[10]، وهي أكثر قرانا بعداً إلى الجنوب وتقع إلى جنوب البحر الميت في موضع غير بعيد عن البتراء. وكان قد سكنه النطوفيون في الماضي ثم سُكن من جديد في الـ PPNB . وكان كل مسكن مؤلف فيها في البداية من مجموعة من الأكواخ الدائرية المحاطة بجدار كسور (الشكل 35). ويبدو المخطط قديماً لكن علامة الـPPNB تظهر فيه من جهة في هذا التجمع للبنى الدائرية التي تشكل المكافئ بالنسبة

لبيت واحد لمسكن متعدد الخلايا. ومن جهة أخرى في وجود الكلس من أجل تلييس الأراضي. ثم تظهر المساكن المستطيلة. وهي نفسها أصيلة لأنها في آن واحد مدفونة وتشتمل على ممر مركزي تحاذيه من على جانبيه ثلاث خلايا تنفتح عليه (الشكل 34: 7). ولم يكن كل منها في الواقع سوى الطبقة التحتية التي تستخدم كمشاغل أو كمخازن لمسكن بحصر المعنى يقع فوقها، وكان نسخة بحسب بيرد B. Byrd وبانينغ E. Banning عن المخطط المثلث الأقسام pier-house، كما سبق لنا واستنتجنا بالنسبة للمخطط الخلوي في كفر هويوك. ويوجد أيضاً في البيضا مبنى مختلف جداً عن هذه المساكن الموحدة النمط، وهو مبنى وحيد الخلية واسع جداً وشبه مربع مع موقد كبير دائري على محور المدخل وبلاطة كلسية موضوعة بشكل مسطح قربه. وكان مجمل هذه الإعدادات مطلياً بالأحمر مع قاعدة الجدران في الوقت نفسه. وثمة باحة مفتوحة تجاوره من الجنوب والشرق. وسنتساءل لاحقاً حول معنى هذا المبنى المختلف جداً عن المعايير البيتية في PPNB البيضا.

الإقتصاد: ظهور التدجين

باستثناء ناحال ديفشون Nahal Divshon في النقب، والتي لم تكن سوى محطة صيد، فإن كافة المواقع المدروسة هي عبارة عن قرى مزارعين. ونجد أن القمح النشوي المدجن كان يزرع في أريحا والبيضا وناحال أورين وعين غزال. ويرافقه الشعير المدجن (الشعير ذو الصفين) في أريحا وعين غزال. وبالمقابل، فإن الأمر يتعلق في البيضا بـ «شعير بري مزروع[11]»، أي أنه لم يبلغ بعد عتبة التدجين الشكلي. ونعلم أن الشعير والقمح النشوي كانا يزرعان قبلاً في المشرق الجنوبي منذ السلطاني. وبالمقابل فإن بر القفقاس، وهو من الزروع الشمالية، لم يكن موجوداً. غير أن بر قفقاس مدجن أضيف في أريحا إلى الأنواع الأخرى في الوقت نفسه الذي وصل فيه إليها الـ PPNB ، تماماً كما في تل أسود في سوريا. فلا يمكن هنا أيضاً إلا أن تكون البذور قد جلبت من سوريا الشمالية.

وفضلاً عن ذلك، تلعب البقليات دوراً أعظمياً في هذه الزراعة. وهي يمكن أن تكون غالبة فيها وأحياناً حتى مطلقة. فقد لاحظنا كذا في عين غزال أن الجلبان والعدس كانا أغزر من الزروع، وفي يفتاحيل Yiftahel لم يكن يُزرع سوى العدس والفول[12].

وأخيراً. يمكننا على أساس الدراسات الدقيقة في أريحا والبيضا أن نؤكد أن بداية تدجين الماعز تقع. كما على الفرات، في الـ PPNB الأوسط، على الأقل في جزء من قرى المشرق الجنوبي[13]. فما هي المعايير التي اعتمدنا عليها؟ إن بعض المعطيات العامة حول التدجين الحيواني ضرورية هنا. فالتدخل الإنساني قد غير بالتدجين الشروط الطبيعية للإخصاب الداخلي بحجبه الحيوانات عن «الجماع العفوي panmixie» للقطعان البرية. وقد تغير غذاؤها أيضاً. والنتائج الدقيقة لهذين النمطين من التخلخل لا تزال غير موضحة تماماً. وينتج عن ذلك في كل حال، بسرعة تقريبية كما بالنسبة للنباتات، تغيرات شكلانية تحقق انبثاق أنواع مدجنة جديدة. ولكن هنا أيضاً، كما بالنسبة لبدايات الزراعة، يمكن أن يكون من الصعب الإحاطة بالمرحلة الإنتقالية: فيمكن أن عملية التدجين كانت فعالة قبل أن تظهر التغيرات الشكلانية الناتجة عنها لكي يستطيع الأخصائي اليوم أن يلحظها. وهكذا فقد اقتُرح (بيير دوكو Pierre Ducos) معياراً آخر هو الدراسة الإحصائية لعمر الحيوانات المذبوحة والذي يمكن تحديده من بقايا معينة: إن هذه الطريقة مفيدة بشكل خاص من أجل أن نحدد بأي نمط من التدجين يتعلق الأمر وما هي أنواع المنتوجات (اللحوم. الوبر، الصوف، العمل، إلخ.) التي تنتظر منه.

وباعتبار أن الإنسان سينتخب أولاً بشكل متزامن الحيوانات البرية الأقل حجماً والأقل تسليحاً لكي يستطيع ضبطها بشكل أفضل، فإن النوع المدجّن سيميل على الأقل خلال مرحلة أولى إلى أن يصبح أصغر وستؤثر بالمقابل تغيرات في الشكل على جهازه الدفاعي. وفي PPNB أريحا، كانت فعلاً بعض القرون ذات الشكل المحلزن، وليس بشكل «السيف» كما عند الماعز البري égagre، هي التي أوحت لجولييت كلوتون ـ بروك Juliet Clutton-Brock بتدجين الماعز. وفي البيضا، حيث كان الماعز البري يصاد بكثرة منذ النطوفي، فإن تناقص حجم الحيوانات هو الذي يشهد على «الضبط الثقافي» (H. Hecker) المارس عليها.

فبلاد المشرق. الفرات الأوسط والمشرق الجنوبي، هي إذن مكان انبثاق تدجين الماعز الذي كانت الأناضول لا تزال تجهله، بينما تم حالياً تقليص عمر تدجين الماعز الضأن ovicaprinés الذي تم إلى الشرق أكثر على يد بدويين من زاغروس، والذي أُرجع لفترة طويلة إلى بداية الألف التاسع، وذلك في الوقت نفسه مع ستراتيغرافية (طبقاتية) غانج داره Ganj Dareh التي كانت قد قدمت أقدم الوثائق على ذلك. وأخيراً، وعلى عكس ما اعتُقد

أيضاً، فإن هذا التدجين الأول للماعز يبدو أنه تم في وسط بشري متحضر تماماً وليس مترحل.

التقنيات

في الـ PPNB إنما بدأ في المشرق الجنوبي تقصيب النصال الصوانية ابتداء من النوى السفينية الشكل، وهنا أيضاً إنما لفت التسليح أولاً من بين المنتجات المنجزة لهذه الصناعة الإنتباه بعدده وبنوعيته (الشكل 35). وإضافة إلى تسليحات السهام «التقليدية» المشتركة في المشرق كله، يوجد تنويع محلي: «نبال أريحا». وهو لا يتميز عن نبال بيبلوس، وهو اعتماد محلي له، إلا بالجنيحات الرهيفة التي تجانب من كلا الطرفين سويقته (الشكل 36: 3 – 5). إن كافة أسلحة الصوان هذه موجودة على مجمل المناجم إلا أنه لوحظ حديثاً أن رؤوساً ذات سويقات من الخشب كانت تستخدم أيضاً لتسليح عصي السهام. وأحد أجمل الإكتشافات خلال العقد الأخير هو في الواقع مغارة وادي حمار[14] Nahal Hemar في صحراء فلسطين، وهي كنز حقيقي من متاع الـ PPNB، والتي سنعود إليها مرات كثيرة: إن شروط الرطوبة الجوية الإستثنائية التي حفظت لنا في المنطقة نفسها بشكل جاف مخطوطات البحر الميت الذائعة الصيت قد حفظت لنا هنا مواداً قابلة للفساد قلما نصادفها في التنقيبات ما قبل التاريخية. والحق أن رجال الـ PPNB ، المسلحين بوضوح بشكل متفوق إذا لم نأخذ بعين الإعتبار سوى الإكتشافات الجارية، يبدون لنا أنهم كانوا مذاك مسلحين أكثر من ذلك عندما تكشف لنا فرصة استثنائية ما الذي ضاع في مواضع أخرى...

والنصال المناجل هي أيضاً من نمط جديد، وهي مشكلة هنا على نصال من الصوان ناتجة عن التقصيب الجديد. وهنا أيضاً كشف لنا وادي حمار المتمم القابل للتلف: وهو جسم منجل مقوس على شكل قرن مع ثلاثة نصال من الصوان المُدخلة في ثلمته والمثبتة بواسطة الجص. إن هذه النصال المناجل لم تعد على صلة في كل حال مع النمط الأعرض والأثخن الذي كان مستعملاً في السلطاني.

ولا ينطبق الأمر نفسه على الأدوات الثقيلة المستخدمة كما يعتقد في شغل الخشب: فقد استمر بغزارة في الواقع التقليد السلطاني للـ «مقدّة» الصوانية ثنائية الوجه

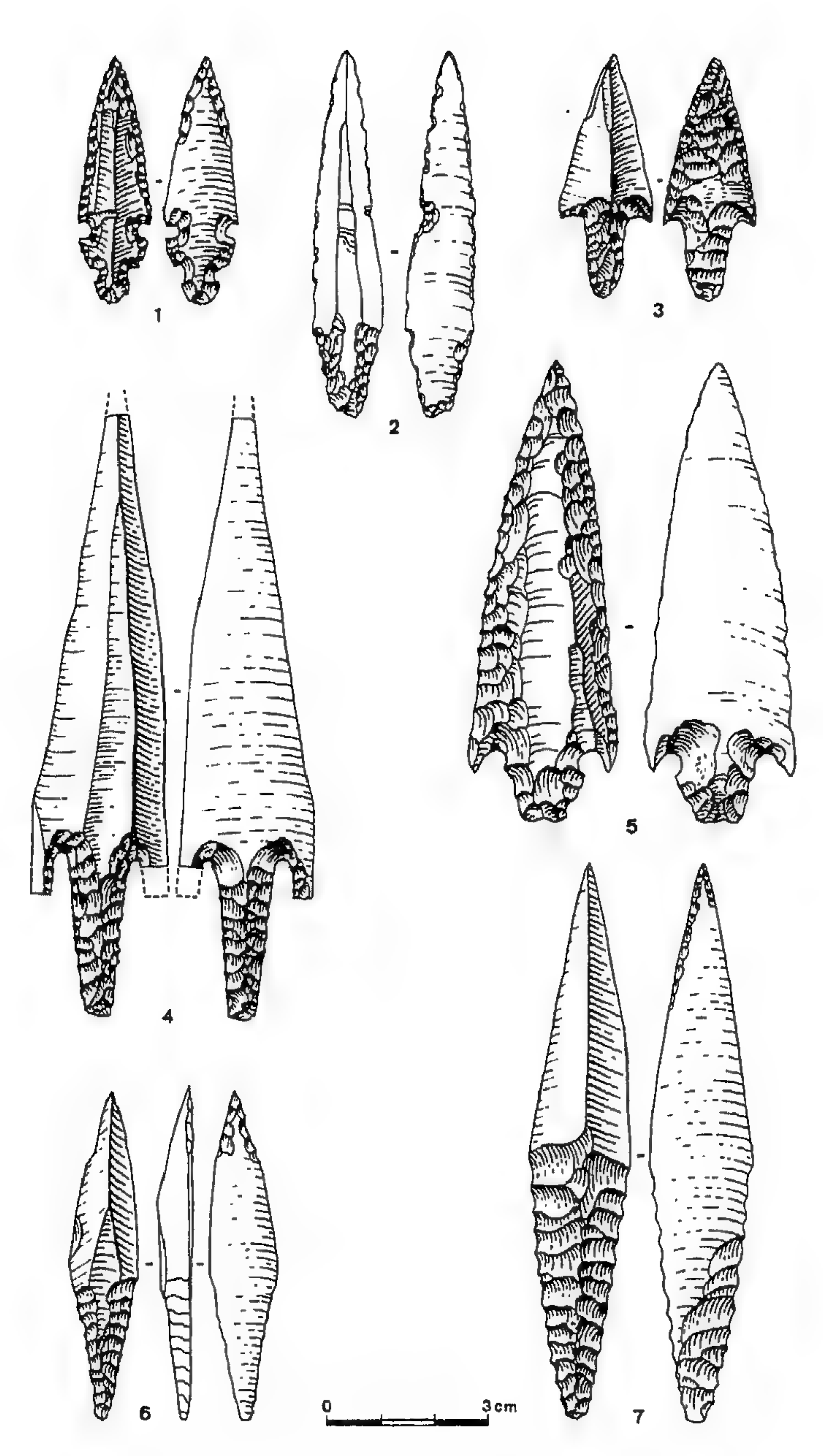
(البيفاس biface). أما بالنسبة للأدوات الأخرى الشائعة من الحجر (المكاشط والأزاميل إلخ.) فهي لا تحمل كما هو في العادة أية علامة ثقافية محددة.

أما الأدوات العظمية فقد حفظت مع القليل جداً من التغيرات الأنماط السلطانية الرئيسية: فالمقدات العظمية التي كانت تميز منذ الـ PPNA المشرق الجنوبي لا تزال موجودة[15]، فالمخارز والسكاكين المسطحة تبدو من جانبها بشكل أساسي أدوات صناعة سلال ونسيج. والحال أننا بفضل وادي حمار أيضاً نملك وثائق مباشرة على هذه التقنيات الأخيرة: قطع من الحبال والسلال والنسج الصوفية. وبمقارنتها بالوثائق الآتية من بقية الشرق الأدنى ووثائق الشرق الأوسط، وذلك غالباً على شكل طبعات مسجلة على الصلصال، فقد سمحت بتحديد تقليد خاص بالمشرق الجنوبي: فهذا الأخير يجهل على خلاف زاغروس والمشرق الشمالي حصير القصب لكنه يمارس مثلهما السلالة المحلزنة وكان سيحفظ أيضاً تفرد السلالة الحبلية والسلالة بالحصير المتراكب فوق بعضه بعضاً[16]. والحال أن تقنيات السلالة الثلاث هذه كانت موجودة كما سبق أن رأينا في سلطاني أريحا. فثمة إذن هنا حرفة محلية يبدو أنها لم تعاني هي أيضاً من أي تحول مع وصول الـ PPNB .

وجهة النظر الإناسية (الأنثروبولوجية)

ومذاك، ولكي نبقى أيضاً عند الثقافة المادية، فإن التعارض بين الـ PPNA والـ PPNB قوي جداً في المشرق الجنوبي، إنما أقل مع ذلك مما أوحت به في البداية الأعمال في أريحا. فثمة مواد لم تدرس في حينه، مثل السلالة أو الصناعة العظمية، تنفي حالياً باستمراريتها نفسها فرضية الحلول الصريح والبسيط لثقافة محل أخرى.

فما الذي حدث إذن؟ إن أريحا بالتحديد هي التنقيب الوحيد الذي قدمت فيه دراسة إناسية تمت مرحلة مرحلة البرهان على ما كان لا يتعدى الشك في مواضع أخرى. وعلى الرغم من الطريقة المجردة جداً أحياناً التي ننظر فيها في ما قبل التاريخ إلى العلاقات بين الثقافات التي «تحل محل بعضها» أو «تتأثر ببعضها بعضاً» دون أي تحديد آخر، فقد كان يُشك أنه يمكن لثقافة جديدة من أصل غريب تستطيع الوصول إلى موقع دون أن يكون فيه ثمة أشخاص لكي يعتمدوها. وإنه لمن الصعب أكثر تقدير السعة الدقيقة لهذا الإسهام البشري الذي يمكن أن يتراوح من الحلول الكامل لجماعة محل أخرى إلى الإتصالات الأكثر محدودية بكثير والتي تؤدي إلى استعارات بسيطة للسمات الثقافية.



الشكل 36. *تسليح الـ PPNB الأوسط في الشرق الجنوبي. 1: رأس سهم ذو فرضة. 2: «رأس بيبلوس». 3 – 5: «رؤوس أريحا». 6 – 7: «رؤوس العمق»*

(1: البيضا. عن كيركبريد. 2 – 5: أريحا. عن كروفوت J. Crowfoot. 3 – 4، 7: منهاتا. عن برو J. Perrot).

والحالة هذه. فقد وصلت فعلا جماعة جديدة من النمط «المتوسطي المشيق»، الذي كان هو نمط المريبطيين[16] في سوريا الشمالية، إلى أريحا مع الـ PPNB في الوقت نفسه مع بعض قصار الرأس[17] branchycéphales. ومع ذلك فإن هؤلاء الواصلين الجدد لم يحلوا محل «المتوسطيين الضخام» من الثقافة السلطانية، بل انضموا إليهم ليؤلفوا مجموعة مركبة عرقيا. ومذاك يتوضح امتزاج السمات الثقافية بشكل حسي. وينتج تثاقف الـ PPNB هنا دون لبس من إسهام عرقي هو توسع شعب قادم من سوريا ليغطي خلفية شعب أهلي دون أن يدمرها منصهرا فيها.

وهكذا يتأسس تصنيف مركبات الـ PPNB الفلسطيني على الشكل التالي: فالعمارة والتسليح، مع طريقة جديدة لاستخراج نصال الصوان، يحملان كما في الأناضول علامة القادمين الجدد الذي أحضروا معهم في الوقت نفسه زروعهم الشمالية ممثلة ببر القفقاس. وتمثل على العكس وثائق ذات صفة أكثر «تدجينية»، مثل شغل العظم والألياف النباتية، الموروث المحلي الذي استمر. وأخيرا فإن سمات أخرى خاصة بجماعات الـ PPNB الأوسط في فلسطين، مثل رؤوس أريحا أو الإستخدام الكثيف بشكل خاص للكلس، هي كذلك تفردات محلية مزادة على تقنيات آتية من الخارج.

وواقع أن العناصر الأجناسية التي وصلت إلى المشرق الجنوبي أدخلت إليه في آن واحد تسليحا جديدا وطريقة جديدة في السكن، يوحي إذا لم يكن بدخول بالقوة يصعب الأخذ به فعلى الأقل بمثاقفة شديدة تجلت فيه في القطاعات الهامة نسبيا بل والمدهشة. وازدهار الفن والطقوس اللذان يميزان الـ PPNB سيؤكدان لنا هذا الإنطباع.

الهوامش

1. حول المرحلة II من الموقع انظر Contenson وآخرون، 1979.
2. Cauvin M.-C. in Contenson et al., 1979 et Contenson (éd.), 1995.
3. Anderson in Contenson، 1992.
4. Stordeur، 1988، ص. 115.
5. Van Zeist et Bakker-Heeres، 1982.
6. Cauvin M.-C.، 1995.
7. تشهد مرحلة قصيرة انتقالية بين الأسودي والـ PPNB ، وهي مؤرخة في نهاية الألف التاسع قبل الميلاد، على تأثير شمالي منذ الـ PPNB القديم، لكن التنقيب المحدود لم يقل لنا الكثير حول هذه النقطة.
8. المواقع الرئيسية هي منهاتا (Perrot, 1966b) وأريحا (Kenyon, 1957, 1981) في وادي الأدرن، وعين غزال (لخص وفهرس في Rollefson، 1989) على الهضبة الأردنية، وبيسمون (Lechevallier، 1978) ويفتاحل (Garfinkel، 1987) في الناصرة، وناحال أورين (Noy وآخرون، 1973) على الساحل، وناحال ديفشون (Servello، 1976) في النقب، والبيضا (Kirkbride، 1966، 1968) جنوب البحر الميت.
9. Byrd et Banning، 1988.
10. Kirkbride، 1966. ويضاف إليه القليل من القمح النشوي المدجن.
11. Helbaek، 1966.
12. Garfinkel، 1987.
13. Helmer، 1992.
14. Bar Yosef، 1985.
15. Stordeur، 1983.
16. Stordeur، 1989 a.
17. Ozbek، 1976.
18. Strouhal، 1973.

الفصل الحادي عشر

المعطيات الرمزية للمشرق الجنوبي

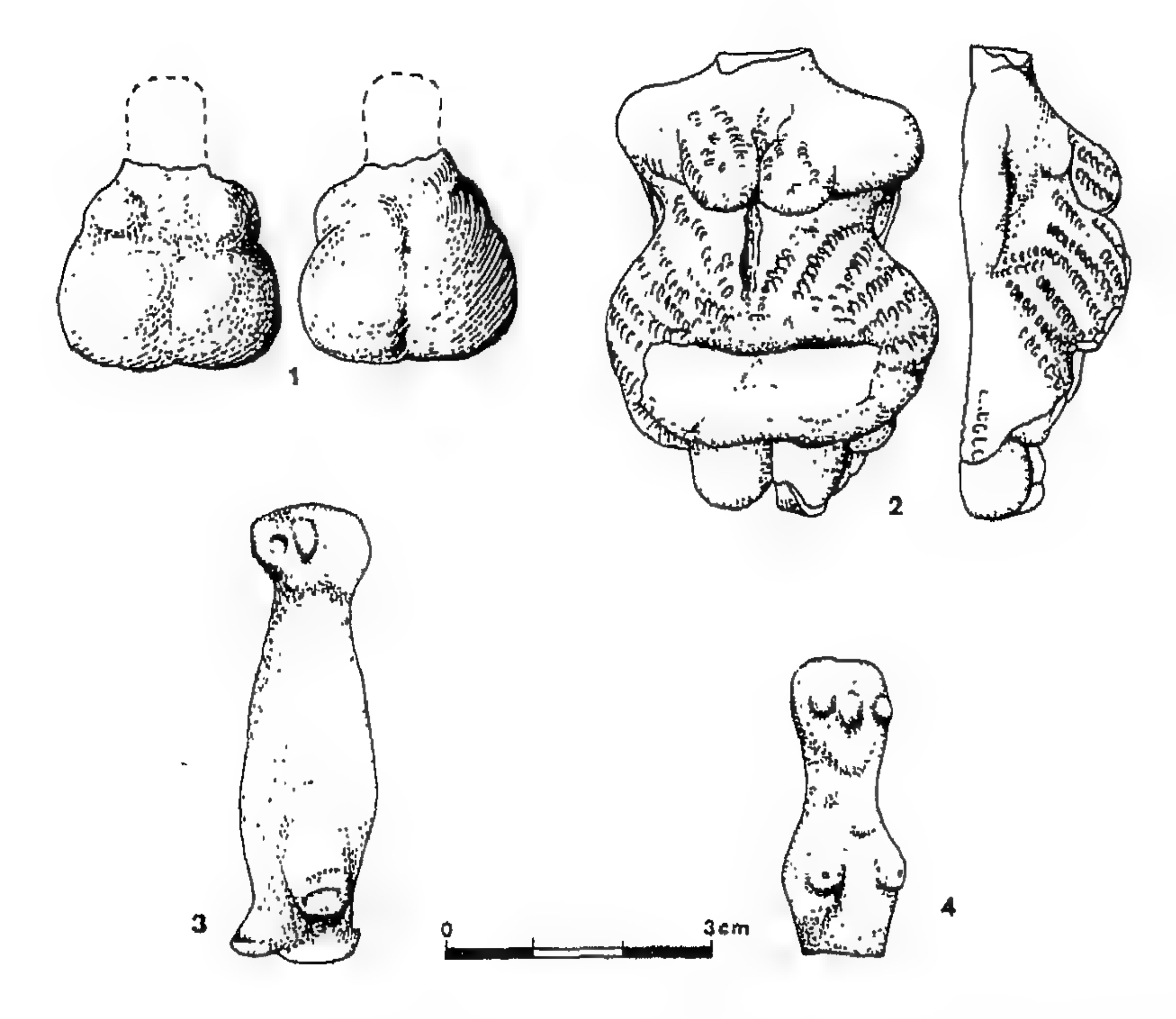
لقد حمل الـ PPNB معه حيثما امتد موروث ديانة الـ PPNA في نسختها المريبطية بنوع خاص، أي أنه لا يشتمل على الألوهة المؤنثة فقط، والتي ظهرت بشكل متزامن في الممر المشرقي كله، بل وعلى مبدأ مذكر ممثل على شكل حيواني، هو الثور، والذي لم يكن أي شيء يشير إلى وجود سابق له في المشرق الجنوبي لا في الخيامي ولا في السلطاني. ويبدو أنه لم يصل إليه تحديداً إلا مع الـ PPNB الأوسط، في مرحلة أكثر تأخراً بالتالي منه في الأناضول التي أصابتها بشكل مبكر أكثر تأثيرات سوريا الشمالية.

التماثيل الصغيرة

لقد مُثلت الإلهات والثيران، كما وأولى التمثيلات الإنسانية الذكرية وبعض الأنواع الحيوانية الأخرى، بشكل تماثيل صغيرة قبل كل شيء. وهي في المشرق الجنوبي كما في الأماكن الأخرى قطع ذات حجم صغير مشكلة في غالب الأحيان من الصلصال ثم، كما نقرأ ذلك غالباً في تقارير التنقيبات، «مقساة بالنار»، وهي الطريقة المراوغة لتسمية شكل من الشوي يكون أحياناً متقدماً قليلاً. زد على ذلك أنه إذا بدت التماثيل الأنثوية الصغيرة في غالب الأحيان متوافقة مع بعض القوالب التي تدعم وظيفتها الرمزية (كالمبالغة الكلاسيكية مثلاً للصدر أو للوركين)، فإن التماثيل الصغيرة الحيوانية الشكل تخضع بدرجة أقل لهذه المعالجة الإنتقائية لأجزاء الجسم وبالتالي يظهر فيها التجسيد أكثر حيادية بشكل عام.

وأخيراً فإن النموذج يمكن أن يكون مجملاً في الفئتين. والسبب الجزئي في ذلك هو صغر حجمها. إنما بشكل خاص جزء واضح ومتواتر يبالغ فيه جداً بتبسيط الواقع الطبيعي المجسَّد: وكان ذلك صحيحاً بالنسبة للتماثيل الأنثوية الصغيرة في المريبطي والسلطاني، وبالحري بالنسبة للـ «العصيات» البسيطة من الأسودي حيث لا نعود نتعرف فيها على شيء؛ وكان ذلك صحيحاً أيضاً بالنسبة لمعظم التمثيلات البشرية والحيوانية في الـ PPNB في طوروس وهذا صحيح أيضاً بالنسبة لـ PPNB فلسطين. وأخيراً فإن الإستنتاج نفسه يمكن أن يمتد بسهولة على مناطق كثيرة من المناطق النيوليتية في الشرق الأدنى والمتوسط وأوروبا الوسطى.

والحال أن كلمة «تخطيطي» ترادف غالباً بالنسبة للذي يضع نفسه في منظور طبيعي، لكلمة «مهمل» أو «فج». إن هذه النظرات المنتقصة للقيمة يمكن أن تنتهي إلى استبعاد هذه الأشياء من أية محاولة تفسير تأليفية حقة. ولو تبعنا بيتر أوكو Peter Ucko، وهو مؤلف كتاب هام جداً حول التماثيل الصغيرة ما قبل التاريخية المشرقية[1]، فإنه يجب في غالب الأحيان استبعاد المقاربة بين التمثيلات الأنثوية النيوليتية مع الإلهة المشرقية والمتوسطية. وثمة تفسيرات مختلفة كثيرة يقترحها هو والذين يتبعونه: وتفسير «الدمى» أي الألعاب البسيطة لاستخدام الأطفال هو الأكثر انتشاراً بشكل عجيب، هذا عندما لا يُعزى تشكيلها إلى أصابع الأطفال أنفسهم الخرقاء أصلاً. لكن هذه التماثيل الصغيرة تظهر في الشرق الأدنى منذ النيوليتي ما قبل الفخاري في حين لم يكن قد انتشر بعد تشكيل قطع المتاع من الصلصال. وسيكون من المجازفة أن نضع مذاك أول ظهور لها في العالم اللعبي الطفولي، والذي نعرف أن وظيفته الأساسية هي تقليد عالم الكبار ومشهد نشاطاتهم. وقد بينا بشكل خاص أن مواضع كثيرة في الشرق الأدنى وجدت فيها إنجازات أكثر اعتناء، وهي منمنمة بالتأكيد، إنما جميلة جداً وتعطي للشخصيات نفسها حاشية من التفاصيل الأكثر وضوحاً بحيث لا تترك أي شك حول معناها. فهل تلغي طريقة صنع أكثر إيجازاً وإجمالاً هذا المعنى؟ وهل يجب بالمثل في الموروث المسيحي مثلاً القبول بالقيمة الدينية لصليب من الذهب المرصع بالحجارة الكريمة والآتي من كنز إحدى الكنائس ورفضها للصلبان المصنوعة من الخشب والأكثر تواضعاً والأكثر شيوعاً بكثير؟ هل المادة الباذخة هي وحدها التي تحمل المعنى؟



الشكل 37. *تماثيل صغيرة من الـ PPNB من الطين المشوي في المشرق الجنوبي.*
تماثيل أنثوية صغيرة. 1: البيضا. 2: عين غزال. 4: منهاتا.
تمثال مذكر صغير: 3: منهاتا.
عن Kirkbride (1). G. Rollefson (2). Perrot (3 – 4).

وبالنسبة للذي ينسب على العكس قيمة أقل للحامل التصويري منه للفكرة التي يشتمل عليها، فإن هذه الأخيرة سترتضي بشكل أفضل الإستحضارات المبسطة وشبه الإلماحية بحيث كنا لنأمل مزيداً من مضاعفتها وطبع الظروف الأكثر تنوعاً للحياة الإنسانية بها. وهذا هو حقاً حال الرموز الدينية. وعلى عكس ما أكده أوكو وباحثون آخرون بعده، فإن البساطة المتواترة في صناعتها ليست إذن حجة ضد معنى وحيد للتماثيل الصغيرة؛ وعلى العكس فالتنوع المستند إلى الأطر الآثارية حيث نجدها، أكانت جنائزية أم بيتية، ليس حجة أيضاً.

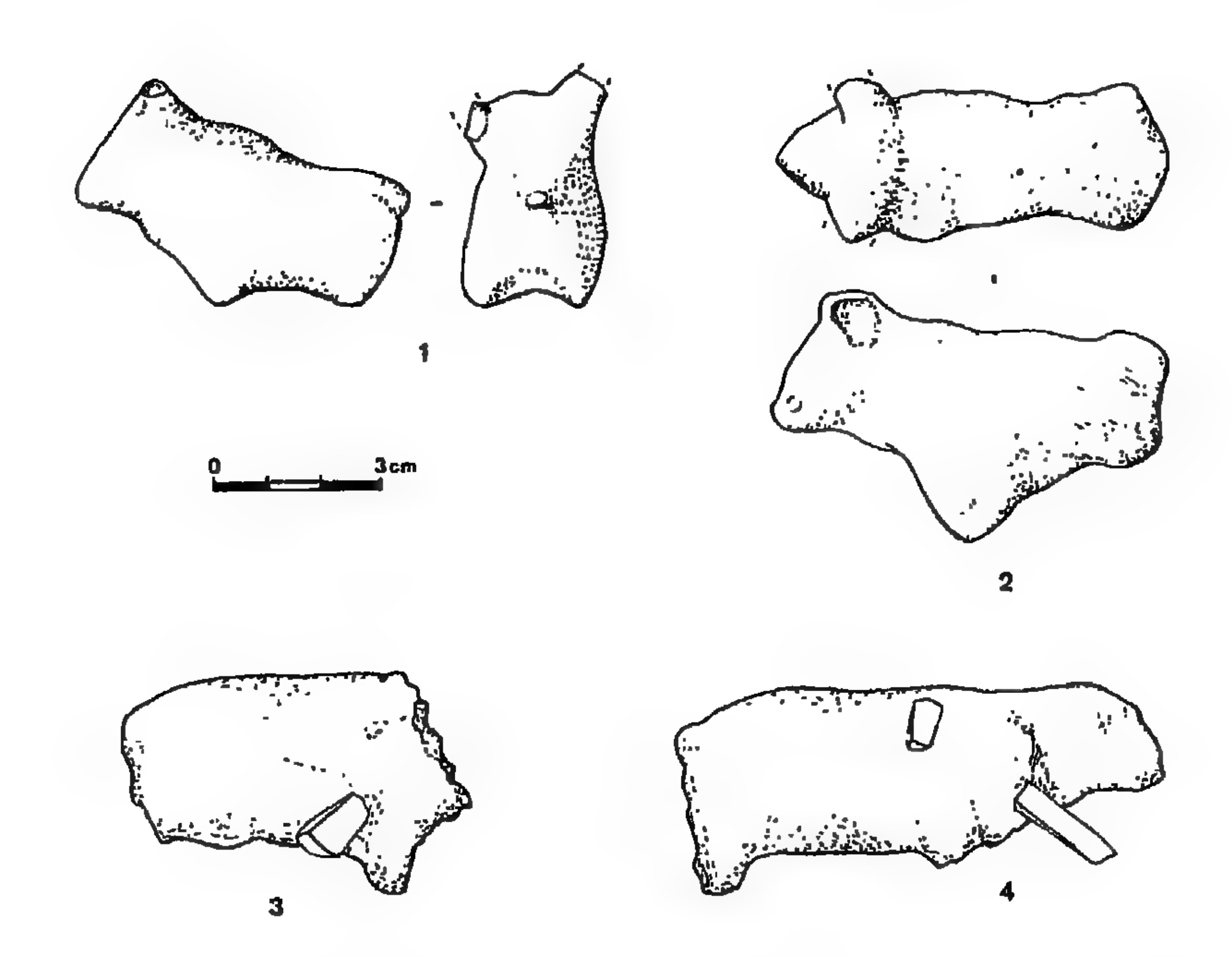
وتقدم لنا التماثيل الصغيرة من الصلصال في المشرق الجنوبي علامات أكثر إيجابية. فالتمثيلات الأنثوية موجودة فيها في الـ PPNB الأوسط (الشكل 37، 1 – 2،

4): فتماثيل أريحا والبيضا والمنهاتا تبقى فظة المظهر على الرغم من الأنماط المختلفة جداً بحسب المواقع. ولا يتم فيها بالضرورة تبسيط الشكل الأنثوي بالطريقة نفسها؛ فكل موقع يمكن أن يمثل إطاراً خاصاً من التوافقات الجمالية. الأمر الذي لا يثبت أبداً الفرضية بأن الأمر يمكن أن يتعلق بـ «ألعاب أصابع» بسيطة ومجانية كما كان قد قيل. ويشهد تمثالان من عين غزال بالمقابل على جهد أكيد في التزيين على هامش إنجازات أخرى أكثر إجمالية.

وعين غزال مميزة كثيراً بفنها الحيواني: ليس لأن تماثيلها الحيوانية الشكل الصغيرة والكثيرة جداً. وهي معظمها من الصلصال، ذات صناعة أكثر إعداداً من الأماكن الأخرى. بل على العكس فنحو نصفها ليست قابلة للتحديد. لكن الربع القابل للتحديد على نحو مؤكد منها يمثل بقريات[2] (الشكل 38) والتعرف نفسه يبقى محتملاً بالنسبة لتماثيل أخرى كثيرة. والحال أن القسم الأساسي من الأنواع المضحى بها من أجل الغذاء في عين غزال كان يشتمل على المعزيات، المدجنة على الأرجح. كذا كانت إذن فيها الحيوانات المستأنسة التي لم يتأخر عن إنتاجها فن ذو استلهام تقليدي بحت. فالإنزياح نفسه الذي في الفن الباليوليتي يظهر هنا إذن بين الأنواع الممثلة والأنواع المستهلكة. ومع ذلك فإن الأرخص، الذي كان نادر الصيد كما في السابق في خيامي المريبط، كان يلهم وحده تقريبا الفن الحيواني كله المتعرف عليه في عين غزال كما في أريحا. ولا تكمن هنا فقط أهميته: فبعض تماثيل البقريات، غير المشكلة من جهة أخرى بصورة أفضل من غيرها، تظهر في عين غزال نصالا من الصوان المغروزة في الصدر أو الرأس (الشكل 38: 3 – 4). وتشكل هذه النصال التي كانت تدخل خلال صنع العجينة الطينية التي لا تزال لينة جزءا مكملا للواقع المصور: ليس الحيوان وحده بل الحيوان المهاجم من قبل الإنسان. ومن الصعب ألا نرى فيه، وهو ما تذكر به تقنية أخرى، المكافئ لمشاهد «صيد الثيران» التي كانت قد رسمت بعد فترة بسيطة على جدران شاتال هويوك أو على الفخار الحلفي. إن «مصارعة الثيران» الشرقية، التلميحية على الأقل، تبدو هكذا موجودة منذ بداية الألف الثامن في رمزية الـ PPNB.

فإذا قبلنا بهذه المقاربة مع التمثيلات الأكثر تأخرا من شاتال هويوك، فإنه يصبح أخيرا من المقبول جدا أن الحيوانات الأخرى ذات القرون، العنز البري أو الكبش، التي نادرا ما تمثل إنما تظهر بوضوح في بعض المواقع، قد أمكن لها أن تكون مثل الكبش أو الأيل في شاتال هويوك بدائل بسطية للثور[3].

إن التمثيلات الأنثوية والبقرية ليس فيها شيء جديد جداً بالنسبة للـ PPNA في سوريا الشمالية. فـ «ديانة» المزارعين المريبطيين الأوائل هي حقاً التي تنتشر من خلالها باتجاه الجنوب في الألف الثامن.



الشكل 38. *تماثيل صغيرة لبقريات من الطين المشوي من PPNB المشرق الجنوبي. 1، 3 – 4: عين غزال (عن رولفسون). 2: أريحا (عن هولاند Holland). الرقمان 3 و 4 مخروقان بنصال من الصوان.*

وبالمقابل كان الاستخدام الرمزي للجسم المذكر جديداً، وهو معاصر تقريباً لظاهرة مماثلة سبق تسجيلها في الأناضول. والتماثيل الصغيرة لم تكن موجودة حتى الفترة الراهنة إلا في منهاتا: وفي هذا الموقع كان «معيار» هذه القرية الخاص يقود كل تمثيل بشري إلى نتوء بسيط من الصلصال ذي قاعدة مفلطحة لجعله منتصباً، مع رأس شبيه بالقرص حيث تعلم العينان فيه بواسطة عجائن صلصالية أو بطريقة الفجوات. ولكن بينما كانت النسخة الأنثوية تؤكد على الصدر نجد أن النسخة الذكرية قضيبية ithyphallique بشكل صريح (الشكل 37: 3).

وأخيراً توجد في منهاتا كما في وادي حمار أو أريحا رؤوس بشرية صغيرة وبسيطة من الصلصال أو العظم. إنما لا نستطيع تحديد جنسها (الشكل 39). وهنا أيضاً تُشكَّل سمات الوجه (الأنف والعينان) بأسلوب إجمالي ظاهر، لكن الإنحفاظ المميز للقطع العظمية من وادي حمار يقدم لنا البرهان على دقتها التزيينية التي كانت مع ذلك موضوعها. فهذه الرؤوس كانت متعددة الألوان: الحُمر الأسود وملونات من الأخضر والأحمر والأبيض، وربما أيضاً من أجل العينين تعشيقات من مواد أخرى قد استُخدمت من أجل تمييز سماتهما. فإن لم تكن هذه الآثار لإعدادات ثانوية تفصيلية التي هي علامة مواد ثمينة، لكنا تحدثنا بالتأكيد عن إهمال كما بالنسبة لوثائق منهاتا (الشكل 39: 4 – 5) شبه المطابقة لها من وجهة النظر التشكيلية وحدها.

النحت

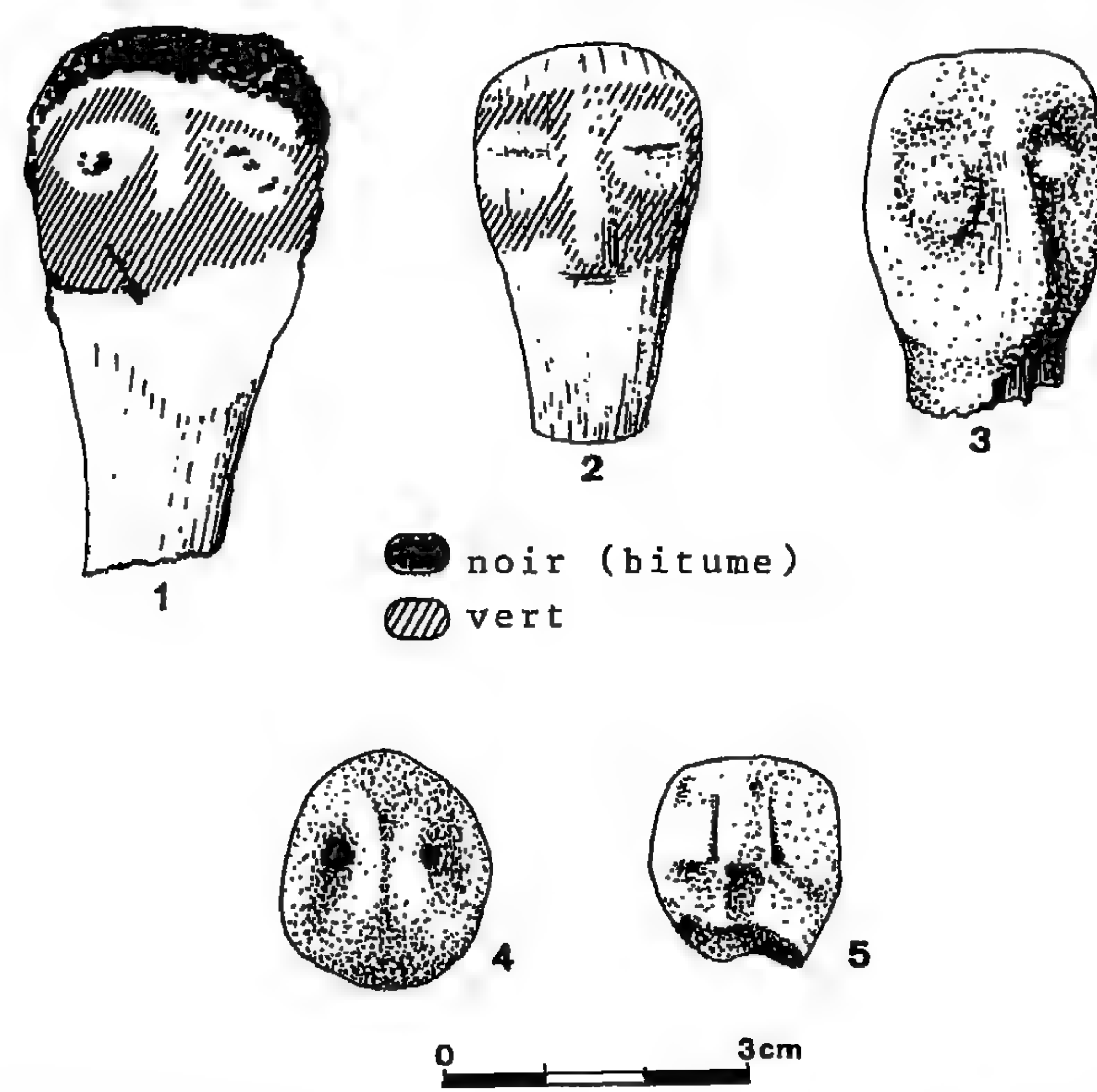
من المهم بالنسبة لتاريخ الفن أن النحت الأول ، أي تمثيلات الشكل الإنساني بشكل بارز وأبعاد أكبر بكثير من حجم التماثيل الصغيرة، قد وُلد في الـ PPNB. وقد ذكرنا نحتاً حجرياً بالنسبة للأناضول في نفالي تشوري. أما تماثيل المشرق الجنوبي فهي ليست منحوتة بل مشكلة من الجص على قلب من القصب؛ وهي مسطحة من الأمام إلى الخلف بحيث تتطلب مشاهدتها النظر من الأمام. وبعضها بالحجم الطبيعي إنما لم نجد منه سوى أجزاء، وبعضها الآخر أصغر إنما أكمل في بعض الأحيان. وموقعا الإكتشاف هما أريحا وعين غزال. واللقية الأولى التي تمثل صفات فنية أكيدة، بحسب معاييرنا على أية حال، هي الأولى بالنسبة للتاريخ: وهي رأس بشري مميز بعينين ممثلتين بقوقعتين، وقد وُجد في أريحا على يد جون غارستنغ[4] وفُسِّر على أنه مذكر من خلال خطوط ملونة شعاعية الشكل يبدو أنها تمثل لحية... (الشكل 40: 1). أما الأجزاء الجسمية الأخرى التي اكتشفها هو، ثم اكتشفتها كاثلين كينيون (أقدام وأكتاف إلخ.) فكانت ضعيفة جداً تعبيرياً، باستثناء أنها كانت تبدو موافقة لثلاثة نماذج حجمية بالنسبة للتماثيل: كبير ووسط وصغير، ومنها استنتج جون غارستنغ النتيجة المتسرعة قليلاً بأن «ثالوثاً» كان يُعبد في أريحا.

إن الوثائق التي نُبشت حديثاً على يد غاري رولفسون Gary Rollefson في عين غزال أكثر عدداً (نحو ثلاثين) ويوجد وصف مفصل لها[5]. وكانت كافة هذه «التماثيل» قد وجدت مجمعة، كما لو كانت مخزنة، في حفرة (الشكل 41)، وحالتها مجزأة جداً، الأمر الذي تطلب إعادة بناء في المختبر، وذلك بسبب هشاشتها بمواجهة عمل الحيوانات النقابة. وليس ثمة فيها حجم طبيعي إنما مُيزت فيها فئتان حجميتان. الأولى (الشكل 40: 2 – 3) ارتفاعها نحو 35 سنتمتراً وتتعلق بأشكال قصيرة وسمينة نسبياً، ولا تشتمل إلا على الرأس وعلى جذع بلا أطراف ذي قاعدة عريضة، وهي ملائمة لتأمين استقرار الجسم الموضوع منتصباً؛ والثانية (ارتفاعها نحو 90 سنتمتراً) تظهر هياكل بشرية كاملة، أكثر تطاولاً، بما فيها الذراعين والرجلين التي يبقى صغرها غير متناسب مع ذلك بالنسبة لبقية الجسم. وكان قصب التسليح يبرز من قاعدتها، وذلك بشكل واضح من أجل السماح بتناولها أو تثبيتها عمودياً. ويبدو بجلاء أنه أريد تمثيل أشكال بشرية من الجنسين، حيث النسخة الأنثوية هي الوحيدة المثبتة، طالما يوجد حالة صدر مسدلى (اللوحة IV) والذي كان يمكن لغيابه أن يشير في أشكال أخرى إلى تمثيلات إما غير جنسية أو ذكرية وهو الأرجح وذلك بسبب النقص كما يمكن القول (اللوحة V). وليس ثمة أي تحديد تشريحي إضافي يمكن أن يفيدنا حول هذه النقطة بشكل حاسم.

إن النموذج العام إجمالي جداً في الحقيقة وكل ما كان يمكن قوله حول فجاجة التماثيل الصغيرة الصلصالية يمكن، على الرغم من تغير المستوى، أن يُنقل إلى هذا المستوى. إن محيط العينين مرسوم بواسطة حز بسيط محزوز، والأذنان هما بروزان بلا شكل بهما انخفاض مركزي؛ والأنف مرفوع بشكل بوق والفم معلم فقط بواسطة خط محزوز، وفضلاً عن ذلك فإن أداء الجسم «أخرق» تماماً، ويجعل ذلك كله هذه التماثيل غير جميلة حقاً في نظرنا. وردة الفعل هذه ليست بالنظر إلى ذلك في غير موضعها طالما أننا نعرف من خلال رأس أريحا أن نحاتي الـ PPNB كان يمكن أن يكونوا موهوبين أيضاً...

ومع ذلك، وكما بالنسبة لقطع وادي حمار العظمية، فإن غلاظة الأحجام ملطفة بجهد تزييني هائل. فهذه التماثيل كانت ملونة أو معشقة. وتحفظ أجسامها آثار شرائط برتقالية على الرجلين أو الحُمر الأسود على قمة الجمجمة أو المفاصل. وكانت الوجوه أيضاً متعددة الألوان: فالمقلة تتميز عن بقية الوجه ببياض أكثر نصاعة من خلال اختيار كلس أكثر نقاء. وأشير إلى البؤبؤ فيه بنقطة سوداء من الحمر الأسود، والذي يملأ أيضاً الحز

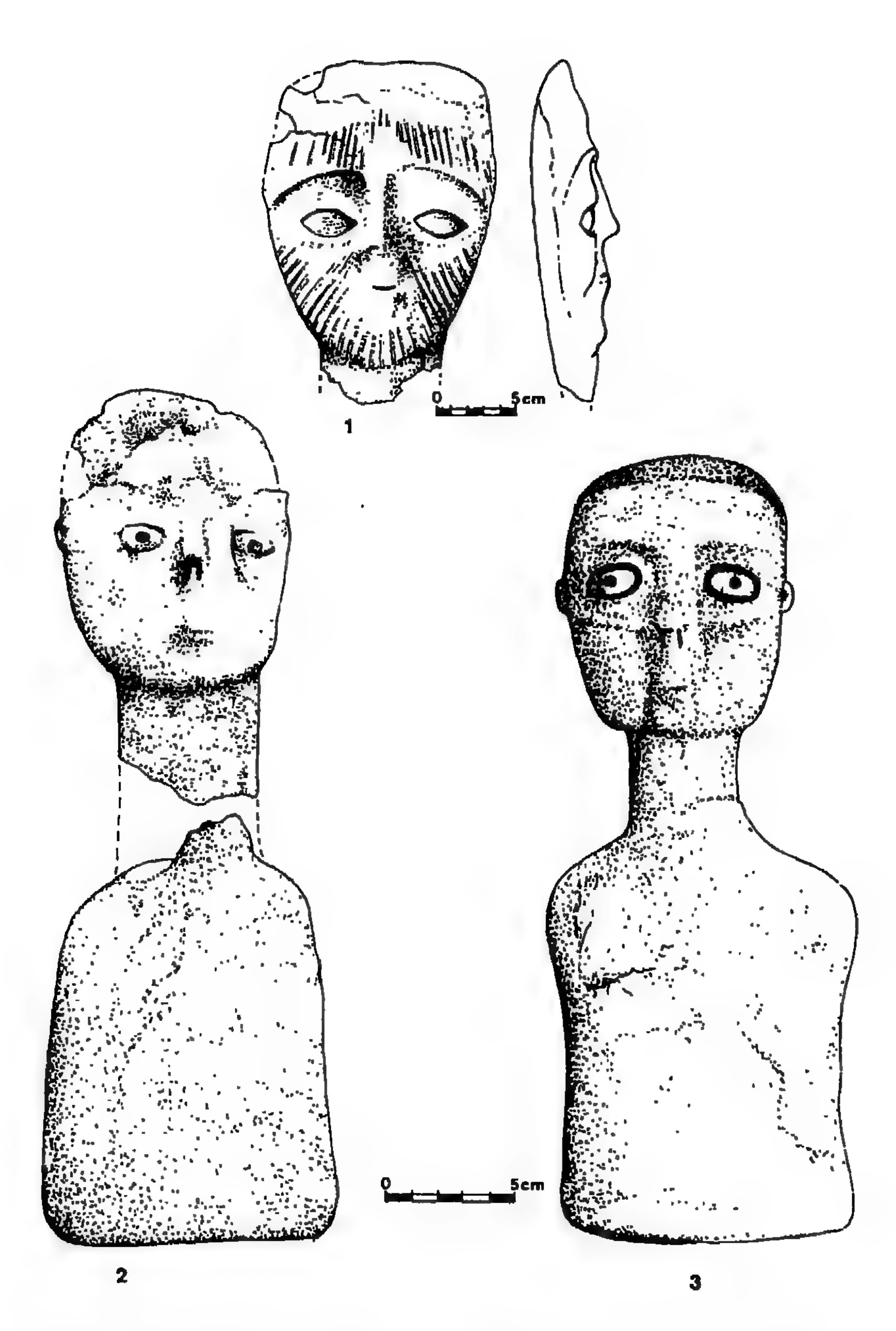
المحيط بالعين، في حين أن باقياً من التلوين الأخضر مصنوع من مركب نحاسي (dioptase) يزاد عليه غالباً عند الحد الأدنى للعين. إن أثر هذه التماثيل كان يجب أن يكون مؤثراً إذا ما أعدنا في المخيلة ترميم كافة هذه الألوان التي امحت حالياً. ونضيف أن الحُمر الذي كان يُستخدم غالباً ليس ملوناً فقط بل ولاصقاً أيضاً. فإذا كان يغطي قمة الرأس أفليس علاوة على ذلك من أجل إضافة «شعر» من ألياف النباتات، كما افترض ذلك بار يوسف كما سنرى بالنسبة للأقنعة الحجرية؟



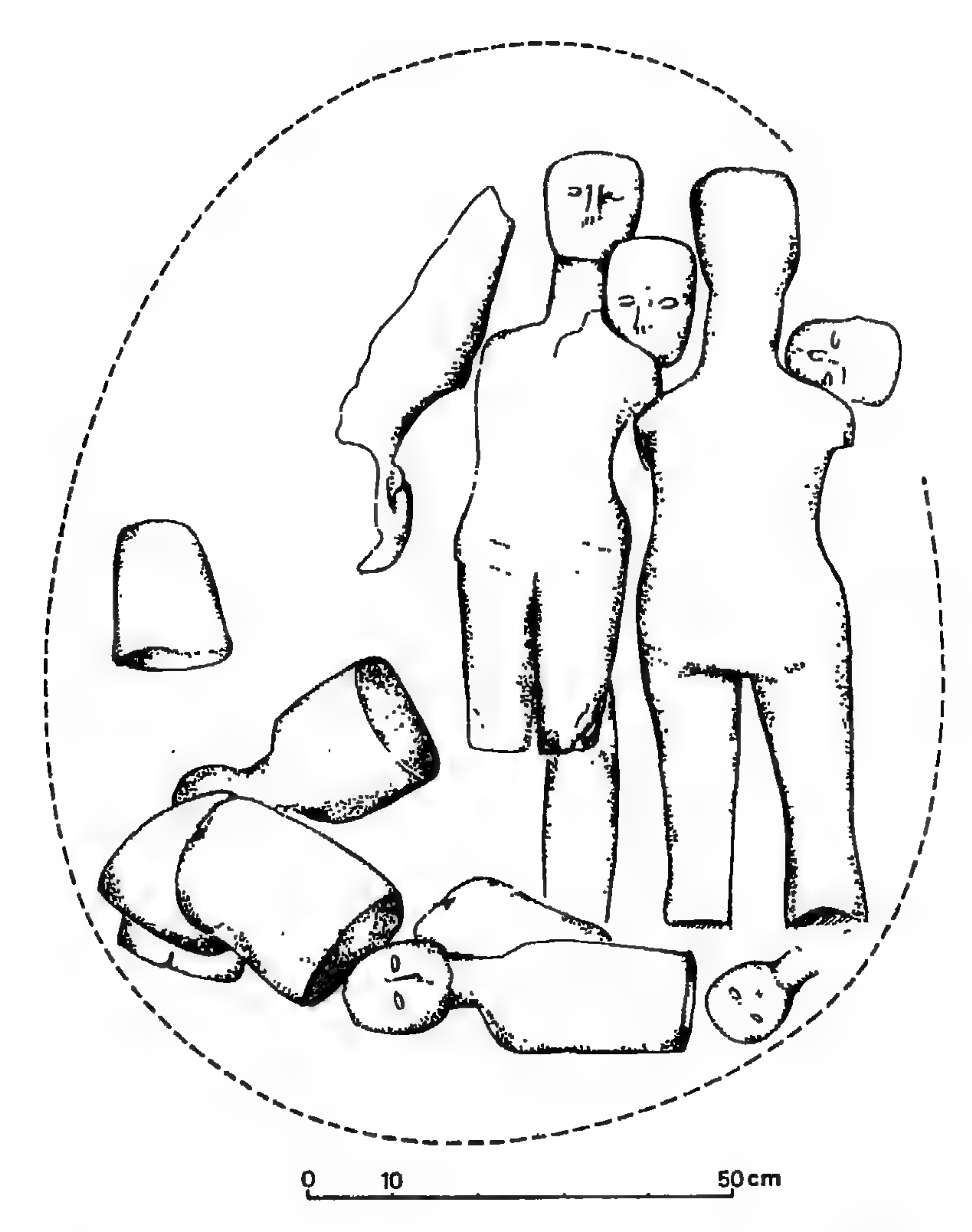
الشكل 39. PPNB *المشرق الجنوبي. 1 – 3: رؤوس بشرية صغيرة من العظم من وادي حمار. 4 – 5: رؤوس صغيرة من الطين المشوي من منهاتا. عن بار يوسف وبرو.*

ينتج في كل حال من هذه الملاحظات أربع نتائج:

- نادراً ما تكون تماثيل الـ PPNB من عمل «فنانين» موهوبين بالمعنى الذي نأخذ به هذا المصطلح، أو بشكل أدق، فإن القيمة الفنية التي يمكن أن تعكس الكفاءات الفردية ليس لها الأهمية التي ستحصلها فيما بعد؛



الشكل 40. *تمثال نحتي من الجص من الـ PPNB الأوسط في الشرق الجنوبي. 1: أريحا. 2 – 3: عين غزال. عن غارستانغ وورلفسون.*



الشكل 41. *الحفرة ذات التماثيل من الـ PPNB الأوسط في عين غزال. عن رولفسون.*

ـ ومع ذلك فقد كانت موضوع استثمار حرفي قوي كان يعطيها القيمة، ليس فقط بتقنيتها العامة المتكلفة جداً في التصنيع بل وعلى مستوى تزيينها. ويبدو أن هذا التزيين كان يوافق. بحسب القليل الباقي منه، اصطلاحاً دقيقاً لا مكان ظاهر له بالنسبة للإرتجال؛

ـ والتماثيل بحسب كينيون، أكان في أريحا أم في عين غزال، وُجدت مكومة مسطحة في الحفر. أي بالنتيجة في وضعية غير وظيفية طالما أنها صممت أصلاً لتمثل عمودياً ومواجهة: ونستنتج من ذلك أنها لم تكن «تعمل» إلا في ظروف متقطعة وخاصة (احتفالات طقسية؟)؛

ـ من كانت تمثل؟ لم يكن الأمر يتعلق بالتأكيد بـ «صور» أفراد خاصين. وبالمقابل فإن تمثيل كينونات فوق طبيعية أمر محتمل جداً، وإن كانت فرضية غارستنغ ـ ثالوث إلهي ـ ليست قابلة للبرهان ضمن الوضع الحالي للوثائق. ومع ذلك فثمة خصوصية تثبت، في أريحا كما في عين غزال، هذا المظهر فوق الطبيعي: وهي وجود أقدام تحمل ليس خمسة أصابع بل ستة. إن هذه السمة التشريحية، التي نعرف استنتاجها في الواقع من تشوه مورثي، قد ظهرت لوقت طويل في الفن المقدس ما قبل الكلاسيكي بدءاً من الشرق الأدنى وحتى المتوسط الغربي (مالطة)، بل وحتى في إيرلندا في أسطورة كوشولاين Cuchullaïn، وذلك كعلامة تسامي. وهي تميز آلهة أو أبطالاً متألهين في التوراة كالعمالقة مثلاً أو الرفائيم.

وسنعالج مسألة معناها في الوقت نفسه مع مسألة الجماجم المقولبة surmodelés.

الجماجم المقولبة

إن «عبادة الجماجم» هي أحد الطقوس الأكثر إدهاشاً في الـ PPNB الفلسطيني. وكانت قد كُشفت منذ التنقيبات الأولى لغارستنغ في أريحا وقد كتب عنها الكثير مذاك. كما لوحظ منذ ذلك الوقت أنها لم تكن محدودة بالمشرق الجنوبي بل كانت تشكل إحدى السمات المميزة للـ PPNB بمجمله، بما في ذلك الـ PPNB الحديث وبعض الثقافات الأكثر تأخراً التي تنتج عنه. وكنا قد وصفنا أولى ظهوراتها على الفرات الأوسط وفي جنوب شرق الأناضول. وسنجد أيضاً في الألف السابع جماجم مفصولة عن الجسم لتكون موضوع عبادة خاصة على الساحل الفينيقي (جُبيل)، وفي الأناضول المركزية وحتى في ثقافة حلف، طالما أن الآنية ذات التزيين الملون التي سبق أن فصلنا معناها الرمزي (الفصل الثالث) كانت تشتمل تحديداً على جمجمة بشرية.

يبقى أنه فقط في PPNB المشرق الجنوبي كان يتم، إضافة إلى ذلك، بدلاً من فصل الجماجم ببساطة عن الهياكل من أجل حفظها جانباً، تشكيل سمات الوجه عليها، وهي عملية «فنية» أضيفت مذاك لقَطْع الرأس السابق لها. وقد وجدت هذه الجماجم المقولبة في أريحا[7] (اللوحة VI) وبيسمون[8] وكفر حا حورش Kfar Ha Horesh وعين غزال[9]. وبتجاوزها للـ PPNB الحديث في المشرق الجنوبي نفسه فإننا نجدها في المشرق

الأوسط في تل الرماد[10]. وهو موقع في المنطقة الدمشقية. وثمة أيضاً بالمقابل في PPNB وادي حمار جماجم معدة لكن الوجه ليس مقولباً عليها: ومن جهة أخرى تحمل القلنسوة الجمجمية فيها شبكة شعرية مجدولة مخضبة بالحُمر مشكلة ما يشبة قلنسوة سوداء[11]، والقابلة هي أيضاً لأن تكون مثبتة لشيء ما (اللوحة VII). وفي مواضع أخرى، في البيضا أو يفتاحل، يبين وجود حالات دفن عديمة الرأس وجود ممارسات مماثلة، حتى وإن لم تكن قد وجدت الجماجم نفسها.

وتفسير الجماجم المقولبة ليس سهلاً[12]. وذلك ناجم أحياناً عن نقص في الملاحظات الكافية. أولاً على مستوى التشكيل والقولبة نفسهما: فمن الغريب أن المادة التي استخدمت في اللياسة لم تحلل في أي مكان، باستثناء في أريحا حيث يتعلق الأمر بالكلس كما هو الحال بالنسبة للتماثيل. ويغطي هذا الطلاء الوجه والصدغين معيداً تشكيل سمات الوجه. أما الفك السفلي فنادراً ما يكون موجوداً، في حين أن الفك العلوي كان من جهته موضوع اقتلاع سني متعمد بعد الموت post mortem. ويتم إظهار العينين إما بواسطة قواقع (الغوري* cauris والصدف المزدوج bivalves) كما في أريحا، أو بطلاء أكثر بياضاً يجعلهما تبرزان. والأداء العام للوجه يُعتبر أحياناً على أنه واقعي وقريب من المظهر الحي (كينيون) وأحياناً على العكس اتفاقي وغير دقيق في تقليده (أوجين ستروهال Eugen Strouhal، ودنيز فرمباخ Denise Ferembach). وفي الواقع نلحظ الإختلاف نفسه الذي بين التماثيل بين تحقيقات نادرة تشير إلى شيء من الموهبة الفنية (اللوحة VIII) وأغلبية من الإنجازات الأخرى حيث كان ثمة لامبالاة واضحة من وجهة النظر هذه، على الأقل على مستوى التحقيق الفني: وهنا أيضاً كان ثمة تزيين ملون لم يبق منه سوى آثار ضعفية يساهم في الواقع في المظهر النهائي للرأس. وتبين وثيقة من عين غزال أن الأمر كان يتعلق بخطوط ذات مظهر مشعع مطابق للخطوط التي كانت تزين رأس تمثال أريحا.

إن الملاحظات التي تمت على الهياكل المدفونة بلا رؤوس من حيث كانت قد استُخرجت كما وبالمقدار نفسه على الجماجم نفسها تتعاضد في إظهار أن هذا القطع تم في مرحلة متقدمة، إذا لم تكن كاملة، من التفسخ الطبيعي. وهكذا كانت تتم العودة إلى القبر بعد عدة سنوات أو أشهر بعد الدفن من أجل استخراج الرأس منه[13].

---

* نوع من الأصداف كان رائجاً في الهند وأفريقيا السوداء كنقد للتداول والتبادل، م.

فهل تم العثور على الجماجم المقولَبة؟ كان قد تم تمييز بديل إلى الشمال أكثر: فإما أن الجماجم كانت قد وجدت معروضة في وضعية «وظيفية»، وقد وُضعت داخل مساكن على حوامل من الفخار. أو أنها كانت مجمعة في مخزن في أحواض مبنية. وليس من السهل دائماً تمييز ما كان مصير جماجم المشرق الجنوبي والأوسط. فقد كان يوجد على الأرجح جماجم موضّعة على أرضيات البيوت، وبخاصة في أريحا، لكن الدمار وإعادة البناء المتعاقبين للمساكن أفسدا إلى حد كبير المجموع. وبالمقابل فإن الخيار الثاني وهو المخزن مثبت فعلاً في أريحا وفي تل الرماد حيث كانت مجموعة من إثني عشرة جمجمة مجمعة في بناء من الآجر المشوي والكلس، بينما وجدت ثلاث جماجم أخرى في حفرة. ويوجد أخيراً خيار ثالث وهو الجمجمة المقولبة المدفونة[14]، وهو نتيجة محتملة لبطلان متأت إزاء بعضها والذي أصبح «لا يُستخدم» لسبب ما: فالقولبة لا تعنى أي شيء في الواقع بالنسبة لجمجمة مدفونة.

ومعناها؟ هناك من جهة الجماجم، ومن جهة أخرى القبور التي فيها الهياكل غالباً إنما غير المقطوعة الرأس دائماً: وهذا يعني إذن أنها حقاً رؤوس بعض المتوفين من الجماعة التي يتم انتقاؤها وحفظها وإعدادها. وينتج عن ذلك فكرة حالة خاصة من عبادة الأسلاف. ومع ذلك فلم تفقد كافة الهياكل رأسها، الأمر الذي يعني دون شك أنه لم يكن لجميع الموتى أن يزعموا جدارة الأسلاف. وباستثناء أن كافة الهياكل لبالغين فإن معايير الإنتقاء ليست واضحة وحتى فيما يخص الجنس: ففي أريحا عشرة جماجم من ثلاث عشرة جمجمة هي جماجم مذكرة، وجماجم عين غزال لرجال. بالمقابل فإن الخمس وأربعين جمجمة في تل الرماد كلها مؤنثة مثل جماجم بيسمون. لقد لعبت بالتالي عادات ومعتقدات محلية دوراً في هذا الخيار، إلى جانب قصص خاصة بالموتى الأمر الذي جعل جزءاً منهم يقع عليه الإختيار.

ونجد الصعوبة نفسها من أجل تحديد أنماط هذه العبادة: هل هي دائمة (كما في البوذية الحالية) أم اتفاقية؟ عائلية أم جماعية؟ إن المؤشرات متناقضة غالباً. فالجمجمة الموضوعة على حامل في المسكن، كما في المريبط، توحي بالعبادة العائلية على امتداد السنة في نوع من «المعبد البيتي[15]»، كما سيوجد فيما بعد في شاتال هويوك. وعلى العكس، يفترض المخزن، بخاصة إذا كان في مبنى عام كما في تشايونو، تمثيلاً متناوباً مرتبطاً دون شك باحتفالات. وفضلاً عن ذلك فمن غير المرجح كثيراً أن يستمر فيه تذكر فردي للموتى

لفترة طويلة بالأحرى من عبادة شاملة وغير مسماة لـ «أسلاف الجماعة». وسنرى أن وجـود معابد جماعية في المشرق الجنوبي محتمل جدا دون أن يكون مؤكدا. لكن المخـازن موجـودة فيه فعلا. ومخازن تل الرماد تؤكد معنى تخزين وقتي: فنحن نجد فيـها في الواقـع تمـاثيل صغيرة خشنة من «الطين» (؟) ملتصقة مـع الجمـاجم، وقـد فسـرت في البدايـة علـى أنـها حوامل بشرية الشكل حيث كانت تطعم الجماجم عندما كـانت تعـرض[16]. إن هـذا التفسـير يبقى ممكنا، حتى وإن كنا نميز بشكل سيء من خلال الوثيقة الوحيدة الكاملة، ذات القمـة العريضة والمسطحة، والتي أمكن إعادة تشكيلها من بين هذه المجموعة مـن التمـاثيل سيئة الحفظ، كيف كانت الجماجم المقولبة في تل الرماد، والتي كان نوع من الرقاب غير المنتظمة من الكلس يطيلها، يمكن أن تندمج بها (الشكل 41). ومن جهة أخرى، فإننا نعرف حاليا تماثيل عين غزال التي ليس لها أي متمم جمجمي، في حين أن تخزينها مشابه. فإن تعتـبر أخيرا جماجم و»تماثيل» تل الرماد متكاملة أو متمايزة وظيفيا كما في عين غزال فإن الإقتراح يظل هو نفسه في كل حال: كان يوجد ثمة ظروف ذات صفة وليمية حيث كـان هـذا المتـاع الطقسي يخرج، وهو يمكن من جهة أخرى أن ينقل أو يوضـع علـى حـد سـواء. إن وجـود الأقنعة سيدعم هذا التخمين.

الأقنعة

كنا نعرف منذ فترة طويلة بوجود الأقنعة الحجريـة في المشـرق الجنوبـي، والـتي وجدت بالمصادفـة في منطقـة الخليـل (اللوحـة VII) والـتي تنتمـي إلى مجموعـات عامـة أو خاصـة[17]. وكـان مـن الصـواب نسـبها إلى ثقافـة الــ PPNB[18] بوجـود بعـض التشــابهات الأسلوبية مع الفن المنمذج في هذه الثقافة[19]. وقد تم إثبـات هـذا التـأريخ بشـكل سـاطع مـن خلال الإكتشاف الحديث في وادي حمار، في إطار مـؤرخ بشـكل جيـد، لقنـاع مشـابه شـبه كامل (اللوحة VII) ولفم قناع آخر[20]. ونجد على كافة هذه الأقنعة أن العيون هي عبارة عن ثقوب دائرية وأن الأنف نتوء قليل البروز. أما الفم نصف المفتوح فلـه في ثـلاث حـالات مـن خمس الأسنان المشار إليها بحزات في الحجر[21]. وقد حفظ المثال شبه الكامل في وادي حمـار بالإضافة إلى ذلك آثار تلوين بالأحمر والأخضر تشكل خطوطا مشعة من المركز باتجاه محيـط

الوجه. وهو موضوع قريب هنا أيضا من الموضوع الذي يزين تمثال أريحا[22]. إن هذه الأقنعة تحمل على طرفها صفا من الثقوب من أجل تثبيتها مع وجود آثار حمر، في وادي حمار. يمكن أن يكون قد استخدم بحسب بار يوسف كمادة لاصقة من أجل «شعر» مستعار.

وهذه القطع أساسية بالنسبة لمحاولتنا في إعادة تشكيل الحمية الدينية في الـ PPNB. وعلى الرغم من أنها ثقيلة على الحمل[23]. فإنها تبدو لنا لا تنفصل عن الإطار الإحتفالي الذي كانت توحي لنا به قبلا مؤشرات أخرى. وهي تميل أيضا الكفة لصالح تظاهرات ذات طابع عام وشعبي. طالما أننا كذلك لا نتخيلها أبدا مستخدمة للتخويف في العائلة... وأخيرا. بما أن القناع كان يصمم لكي يحمل بواسطة «ممثل» يجسد وقتيا كينونة ما فوق طبيعية. فمن المكن أن نلحظ هنا أصل المسرح المقدس في المتوسط الشرقي وهو أصل قديم جدا حتما.

مسألة المعابد

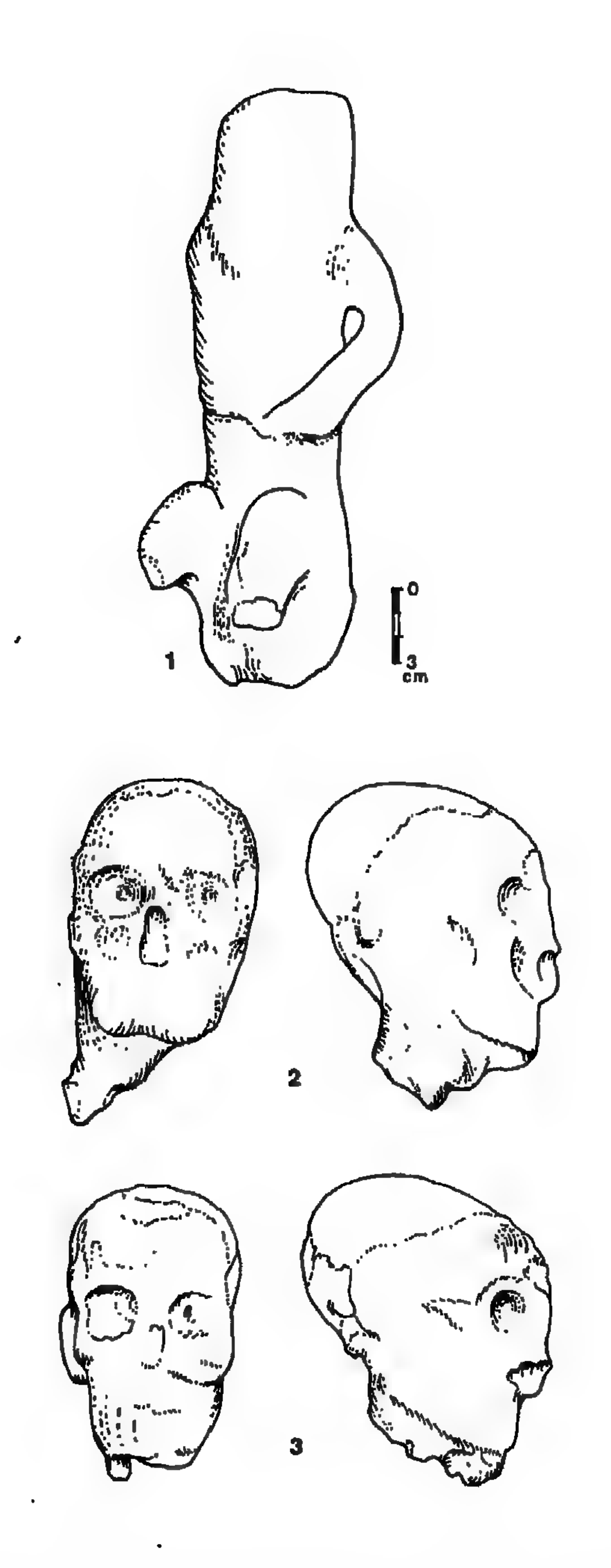
من يقول باحتفالات ينسب لها بشكل طوعي إطارا معدا لهذا الغرض. إنها وظيفة «المعابد» شرط أن نعطي لهذه الكلمة أبسط مفهوم لها: أي «مكان مقدس» للإستخدام الديني. وبهذا المعنى فقد كانت المغائر المزينة الفرانكو كانتابرية عبارة عن معابد منذ ذلك الوقت طالما أننا لا نجد أبدا أي معنى آخر لتجهيزاتها الجدارية سوى المعنى الرمزي. ومع ذلك فلم يكن من الممكن أن نميز فيها بعد. كما يقترح ذلك مفهوم آخر للمصطلح. «مكانا مخصصا لألوهة[24]» طالما أنه لم يكن ثمة بعد أي «إله» هناك. وعندما تطور مع النيوليتي فن البناء نصل إلى أحد التعاريف في قاموس Petit Robert: «معبد = صرح مخصص لاحتفالات ديانة ما.» وهذا التعريف لا يتضمن أن يكون الصرح قد بني لهذا الغرض. وفي أيامنا هذه أيضا يمكن لأية قاعة. في ضواحينا الغربية. أن تشكل باستمرار مقرا لكنيسة أو لجامع. وهي حالة عادية للتقديس من خلال استخدام مكان مبني لأمر آخر. ويمكن أن تطرح المسألة على علم الآثار عندما يجذب مثلا تركيز خاص بالتماثيل الصغيرة الإنتباه إلى منزل عادي. ومن جهة أخرى. فإن هذا التخصص الديني للفضاء المبني، أكان بدئيا أم ثانويا. لا يتضمن أيضا أن الأمر يتعلق ببناء عام وشعبي. وهكذا كانت «المعابد البيتية» في شاتال هويوك في الألف السابع. والتي تحتل حجرة من اثنتين في كل بيت. تكرر عدد

مرات وجود المواقد. كما أن مذبح الأسلاف في البوذية اليوم يحدد في كل مسكن مساحة مقدسة من هذا المستوى.

والحال أنه اعتقد لفترة طويلة أن المباني العامة لم تكن سابقة للثورة المدينية: وبالنسبة لغوردون شايلد فإن المعبد والقصر يحددان المدينة. ويتم إرجاعهما حاليا إلى الفترة الإنتقالية حيث كانت تستشعر في قلب آخر القرى ما قبل التاريخية العلامات الدالة على التمدن: إن الأمر يتعلق والحالة هذه بـ «ثقافة العبيد» التي احتلت الشرق الأدنى والأوسط بين عامي 6300 و 4600 قبل الميلاد. فثمة فيها «هياكل» تختلف بوضوح بمخططها وأبعادها. وأحيانا بأبعادها فقط. في النسيج القروي حيث أنشأت[25]. ودون أن نكون متيقنين بشكل مطلق بأن الأمر يتعلق بصروح دينية بالأحرى من أماكن اجتماعات دنيوية، مع قبول أنه كان لهذه المسألة معنى في وقت بهذا القدم. فإنها تظهر في كل حال أن وظيفة اجتماعية من التعبير الجماعي كانت قد تفردت بدرجة كافية حتى يخصص لها مذاك بناء مستقل.

ولكن ها أن الإكتشافات الحديثة في الـ PPNB الأناضولي تعيد طرح هذه الفكرة المقبولة: فمعابد تشايونو ونفالي تشوري تسبق بأكثر من ألف عام معابد العبيد. وبالتالي فإن المعابد العائلية من الألف السابع في شاتال هويوك. مع بقائها استثنائية بغناها التزييني، لم تعد تشهد على المستوى الإجتماعي على أي تقدم خاص. بل على العكس. ذلك أننا نلاحظ قبلها بكثير في تشايونو وفي نفالي تشوري معا أبنية ذات مخطط وأبعاد إستثنائيين بالنسبة لبقية القرية. الأمر الذي يجعل منها أماكن عامة تبعا للمعايير المستخدمة بالنسبة لعبيد، بحيث أنها تقدم البرهان بأن الأمر كان يتعلق حقا بأماكن عبادة ذات مشاهد تقدمة قرابين، طالما أنه هكذا كان يبدو معنى البلاطات الكبيرة المسطحة حيث كان الدم قد سال.

ولم يكن أي استنتاج من هذا النوع قد اعتمد حتى الآن بالنسبة للـ PPNB الفلسطيني. لكن المثال الأناضولي يدعونا إلى إعادة قراءة أكثر انتباها لهذه الوثائق. ففي سلطاني أريحا إنما كان قد ظهر. كما نذكر من الفصل الرابع. صرح جديد الطابع هو البرج الضخم من الـ PPNA. ومن الممكن أنه كان منذ بنائه مقدسا بطريقة ما دون أن نستطيع إثبات ذلك. وقد بقي هذا البرج موجودا في الـ PPNB، وواقع أن درجه الداخلي المحول حشر بالهياكل البشرية مذاك أوجد فيه تركيزا من الموتى يقارن بـ «بيت الموتى» في تشايونو إنما لا يجعل منه بسبب ذلك مكانا للإجتماع والعبادة. ومن جانبها فإن استنتاجات كاثلين كينيون لصالح تفسير ديني لكثير من المباني من الـ PPNB ليست مقنعة كليا[26]، في حين أنه وصف بينها مخطط معطى على أنه غير مألوف، حيث يدعم وجود بعض التماثيل الصغيرة الأنثوية والحيوانية اقتراح استخدام شعائري.



الشكل 42. تمثال صغير من الجص (1) وجمجمة مقولبة (2 – 3) من رماد في سوريا. عن كونتنسون .H .de Contenson

أما ونحن نعرف الآن المعابد الأناضولية. فإن المبنى الكبير في البيضا، الذي سبق وصفه. لهو أكثر إدهاشا بقدر ما أن أبعاده ليست وحدها السبب بل وأيضا بلاطته الكبيرة من الحجر التي تذكر بـ«مذابح» المعابد السابقة[27]. وسنقيم أيضا مقاربة أكثر افتراضية بين صدر المعبد ذي الصناديق الحجرية الذي يحف من أحد الجهات بالصروح الأناضولية، مع المجموع الضبابي قليلا من الجدران المقوسة والصناديق الحجرية، الوحيدة أيضا في مخطط البيضا في هذا العصر. والذي يجاور باحة بنائه الكبير ويفصله عن مجموعة موحدة النمط تماما من المساكن ذات المر[28]. إن الصلة المعمارية لهذه المجموعة مع البناء الكبير لا تظهر والحق يقال مؤكدة لا على المخطط ولا في نص الكاتب الذي يقترح التفسير الأكثر ركاكة لسور ذي حيوانات. وتقترح ديانا كيركبريد مع ذلك هي نفسها أن نرى مجموعة أخرى كمعبد. وهو أيضا منحني ويقع إلى الشرق أكثر[29]، وحيث نجد في خلايا دائرية أو بيضوية أكبر بلاطات كبيرة أفقية كما وأيضا حجارة مزينة تذكرنا بالأحرى هذه المرة بمعبد نفالي تشوري (اللوحة I). يظهر إذن أنه من المحتمل جدا أنه لدينا هنا كما في الأناضول عمارات متخصصة للإستخدام الطقسي، طالما أننا قبلنا بالنسبة لوثائق أخرى أن الإحتفالات كانت موجودة في المشرق الجنوبي.

وخلال فترة أحدث إنما دائما خلال النيوليتي، ستقدم قرى كثيرة من الألف السابع المشرقي، والمشتقة ثقافيا من جهة أخرى مباشرة من الـ PPNB، بشكل أبسط مباني مستطيلة تتميز هي أيضا عن كافة البيوت الأخرى في القرية بوجود محراب في أحد أطرافها. وكان موريس دونان Maurice Dunand قد وجد أحدها في «النيوليتي القديم» في جبيل في لبنان، والذي كانت أصالته تحمل معنى هاما بقدر ما كان مخطط هذه القرية شبه معروف بشكل كامل: فقد جعله تركيز من التماثيل الصغيرة الأنثوية المشغولة من الحصى كما وعظام الكتف لبقريات يفكر بمعبد[30]. وقد اكتشف مؤخرا مخطط مطابق من الفترة نفسها في السويات الحديثة من عين غزال، مع تخمين مماثل[31]. إنها بالتأكيد موروثات من الـ PPNB حيث لم يعد ثمة شك أبدا بوجود معابد مبنية. ومن المدهش أن نستنتج استمرار الجدار المنحني في هذه الثقافة التي كانت الأولى في إدخال المخطط المستطيل على مساكن البشر. وذلك من أجل تمييز بداية pro parte المباني الدينية، بالتوافق المدهش مع الصدر المستدير في الكنائس أو المحراب في المساجد.

بالمقابل فإن المغارة من الـ PPNB في وادي حمار توحي كثيرا، على الرغم من التركيز المميز للمتاع الطقسي (جماجم معدة، أقنعة، تماثيل صغيرة) والمواد المختلفة التي تحتويها. بمخبأ أكثر منه مكان عبادة. وربما كان ثمة ظروف مشابهة للظروف التي جعلت المخطوطات الأسينية في قمران توضع في كهوف مجاورة قد حصلت قبل ثمانية آلاف عام؟ وفي كل حال من غير المحتمل أن تكون هذه المواد قد استخدمت في الموضع الذي وجدت فيه.

المعنى الإجتماعي للمعابد

إن اكتشاف الصروح العامة المخصصة للعبادة منذ بداية الألف الثامن، مع كافة تفاصيل البراهين المقدمة كدعم من جانب الوثائق الأناضولية، يعيد طرح بعض الأفكار الكلاسيكية على بساط النقاش. ويجب أن نحددها لكي نوازن بشكل أفضل المكتسبات الجديدة الناتجة عنها.

ولا شك أن عمر وطبيعة المدنية ليسا موضع إعادة بحث. فالمدنية أنجبت في الألف الخامس مجتمعات متمايزة وتراتبية في آن واحد: وتعتبر بلاد الرافدين بشكل مبكر أكثر من المشرق على أنها المسرح المميز لهذا التحول، والذي سيترجم آثاريا بـ «تمايز حقيقي للمسكن المؤسس علىتخصص أكثر تقدما لوحدات أساس معينة»[32]. إن هذا التمايز، الذي يمكننا متابعته في الوقت نفسه عبر الحرف المتخصصة التي تشهد منذ الألف الخامس على احترافية معينة في النشاطات، يتضاعف بتراتبية عمودية للوظائف توجت بأولى الملكيات السومرية في العصر البرونزي، مرتكزة على إدارة دينية ومدينية هي نفسها متدرجة.

ومن هنا تتأتى الأهمية المنسوبة للـ «هياكل» في الثقافة العبيدية، والتي ظهرت لفترة طويلة على أنها المخالفة الأولى للبنية المتعادلة التي كانت تشع حتى ذلك الوقت عبر المخطط المتجانس للقرى النيوليتية. ولكن بعد فترة من التقديس التلقائي الذي جعلها تسمى «هياكل» وجد بعض الآثاريين أنه من الموضوعي أكثر جعلها دنيوية وأن يرى فيها بالأحرى أنواع من البيوت الجماعية من أجل الإجتماعات والإستقبالات ذات الطابع المدني[33]. وكنا

قد سبق وتساءلنا[34] إذا لم يكن هذا التعارض بين المجالين الديني والمدني يُجازف بأن يكون مصطنعا بعض الشيء بالنسبة للعصر المعتبر. وليست المقارنة المقترحة مع «البيــوت العامـة» لقرى الرافدين الحاليـة، ذات الإستخدام الدنيـوي حقـا، هـي الـتي سـتخلصنا مـن هـذا الإشكال. طالما أن البعد التاريخي غائب تحديدا عــن هـذه المسيرة: فكيـف نعـرف إذا مـا كانت هذه التعارضات المعمارية تظهر اليوم الأمر نفســه الـذي كـان منـذ سبعة آلاف سـنة؟ وحتى إن استحضرنا المسألة إلى الوقت الحاضر، فهل سنفكر، بغياب براهين موضوعية أكثر كمالا، بالكنيسة التي في القرى أو بالبلدية أو بالسوق المفتوح؟ فالإيديولوجيـا أو التفضيـلات الشخصية لعالم الآثار أو تفضيلات عصره ألن تملي عليه خياره في النهايــة؟ إن أحـدا ليـس بمنأى من هذا النمط من التفضيل عندما تكون الوثائق صامتة فتتم صياغة التاريخ علــى ضـوء الحاضر.

إن هـذا بـالضبط مـا يصنـع تفـرد وقيمـة وثـائق الــ PPNB، وبخاصــة وثــائق الأناضول، الواضح استخدامها بالنسبة لنا. فنحن نعلم حاليا بفضلها أن المباني العامة الأولى في التاريخ ترجع إلى بداية الألف الثامن وأنها كانت حقا عبارة عن معابد. ومن جهـة أخرى فإن بلاطاتها الكبيرة المخصصـة للتضحيـة يمكـن أن تدعـم فرضيـة أن البلاطـات الماثلـة في «هياكل» العبيد الأكثر تأخرا كانت هي أيضا عبارة عن مذابح. إن هذه الهياكل مـا كـانت، مهما قلنا عنها، لتغتصب اسمها إلى هذا الحد. ولكن ليس ثمة ما يبرهن بالمقـابل أن معـابد الـ PPNB هي مؤشر على تراتبية اجتماعية مبكرة ولا أن بعض «الكهان» المتخصصـين قـد خدموها، كما يقبل الأمر في أحيان كثيرة بالنسـبة لمبـاني ذات صفـة دينيـة[35]. إن واقـع أن البعد الديني يعبر عن نفسه من خلال عمارة جماعية وأنه يخصـص لـه مـذاك فضـاء نوعـي. مبني لا يتطلب أي شيء آخر سوى وجود تشـابهات دوريـة علـى القريـة كلـها أن تشـارك فيها. ولا شك أن شخصية معتبرة بشكل خاص هي التي تقود عمومــا «احتفـالا مـا»، لكـن ذلك لا يفترض أي انفساخ اجتماعي سوى الذي ينتج عـن الهبـات الفرديـة: فالمجتمعـات الأكثر بدائية تجد دائما في وسطها بعض الأفراد الملهمين (الشامان او السـحرة) الذيـن تنتـج وظيفتهم ببساطة عن اعتراف تلقائي من أقرانهم بتفوق «طبيعي» يمارس في ظروف محــددة، تماما مثل القائد الحربي في بعض القبائل الهندية القديمة الذي لم يكن يبقى قـائدا إلا فـترة الحرب... وهكذا فإن تخصص الموقع لا يفترض بالتــالي، ليـس أكـثر ممـا يفـترض بالنسـبة للمعابد في المغائر ما قبل التاريخية، أي تخصص مستمر ومؤسساتي لجزء من المجتمـع، ولا

«سلطة» أخرى سوى التي تنتج عن كفاءات شخصية تستثمر بشكل اتفاقي. وهـذا مـا كـان يقدر له أن يحصل دائما. فلا يمكننا إذن أن نجعل معابد الـ PPNB تقول أكـثر ممـا تقـول ولا أن نرجع بسببها تاريخ صـيرورة التمـدن. وبالتـالي لا يبـدو لنـا أن تصـور بنيـة متعادلـة للمجتمعات النيوليتية مهدد في اللحظة الراهنة.

يبقى أن معابد الـ PPNB تصور فعلا وبشكل مسبق على طريقتها هيـاكل العبيـد وهياكل المرحلة المدينية التي تليها. ففي الـ PPNB إنما اجتمعت جماعة ما للمرة الأولى من أجل بناء واستخدام المباني بشكل خارج عن المعايير. وهذا الإستخدام ليس للإفادة منـه بـل يكشف عن نشاط رمزي. فثمة هنا منعطف تاريخي نرى مرة أخـرى أنـه مسـتعار بتحـريـض من المخيلة الدينية. لكن المعبد لا يظهر هنا. ليس أكـثر ممـا يعيـد عـرش الإلهـة في شـاتال هويوك بالنسبة لعصره إلى ملكية أرضية موجودة. إلى تراتبية فعلية للمجتمع الذي يسـبقه في الواقع بثلاثة أو أربعة آلاف سنة.

الهوامش

1. Ucko. 1968.

2. خمس وعشرون منها مجمعة في مخبأ واحد. Rollefson. 1983.

3. بالنسبة لتفسير الكبش كبديل رمزي للثور انظر Forest. 1993، ص. 5.

4. Garstang. 1940.

5. Walker-Tubb. 1985.

6. Barnett. 1986/ 1987.

7. Kenyon. 1957. ص. 60 – 72؛ Strouhal. 1973.

8. Levchevallier. 1978. يمكن أيضا لموقع بيسمون غير المؤرخ أن ينتمي إلى الـ PPNB الحديث.

9. Rollefson. المصدر السابق. وبالنسبة لكفر حا حوريش انظر Goring-Morris وآخرون. 1904.

10. Ferembach. 1970.

11. Bar Yosef. 1985.

12. ثمة على جمجمة من عين غزال آثار حزات على الجدار الجمجمي تجعلنا نفترض تفسخا قريبا جدا من الوفاة.

14. كذا هو الأمر في بيسمون وفي عين غزال. وتبدو حالة كفر حا حوريش أكثر تعقيدا: إذ يبدو حقا وجود حوض مستطيل من الكلس فيها هو نفسه مغطى بـ «أرضية» من الكلس. ولكن الجمجمة المطلية فيها فريدة مع العظام البشرية ومع هيكل الغزال (Goring-Morris وآخرون. 1994. الصفحة 84). وفي موضع آخر يبدو أن مخزنا (في الأساس؟) يجمع بين جمجمة بشرية غير مقولبة وجمجمة أرخص (المصدر السابق، ص. 83).

15. ليس لدينا مع ذلك أي برهان أن العمارة الوحيدة المصادفة خلال السبر في الـ PPNB في المريبط كانت مسكنا بسيطا وليس «معبدا جماعيا» مثلما كانت هذه المعابد موجودة في ذلك العصر. انظر لاحقا.

16. Contenson. 1967؛ Cauvin J. 1972 a.

17. أحدهما في متحف إسرائيل في القدس (اللوحة IX)، والآخر ينتمي إلى مجموعة دايان. وثمة آخر وجد في الرام شمال القدس موجود في Palestine Exploration Fund de Londres. ومن أجل المسرد الكامل انظر Bienert، 1990.

18. وأيضا مع سويقة من العظم من أريحا يبدو أنها تصغير لقناع (Kenyon، 1957، اللوحة XIXc).

19. Perrot، 1978.

20. Bar Yosef، المصدر السابق، ص. 14.

21. وحده قناع الرام ليس مثقوب العينين والفم بشكل كامل: وهو يبدو غير مكتمل.

22. هذا يعني أننا وجدنا ثلاث مرات التزيين الوجهي نفسه على وثائق متغايرة الخواص ظاهريا: على تمثال من أريحا، وعلى جمجمة مقولبة من عين غزال وعلى القناع الحالي من وادي حمار.

23. لقد أمكن أن يوجد منها من مواد أكثر خفة إنما قابلة للفساد.

24. Aurenche، 1977.

25. Aurenche، 1981، b1982؛ Cauvin J.in : Lichardus et al., 1985؛ Huot، 1990؛ Margueron، 1991.

26. Kenyon، 1957، ص. 59؛ Cauvin J.، a'1972، ص. 47. وبالنظر إلى المساحة المنقبة فإن البيوت المنبوشة في أريحا ليست كثيرة. أما ذات المخطط الكامل فنادرة جدا. فكيف نعرف بالتالي إذا كانت إستثنائية؟

27. Kirkbride، 1966؛ لقد أعد أورنش نفسه على ضوء المعطيات الأناضولية تفسيرا جديدا لهذا المبنى كمعبد (Aurenche et Calley، 1988، ص. 18).

28. في الفرضية التي تكون فيها هذه الصناديق قد احتوت، كما في تشايونو، على جماجم بشرية، فإنه لا يجب أن ندهش لعثورنا عليها فارغة: فعلى الرغم من وجود مدافن مقطوعة الرأس فإنه لم يتم العثور على أية جمجمة في البيضا التي نقبت مع ذلك على مساحة واسعة. وتعتقد كيركبريد أنها كانت قد نقلت بواسطة السكان عندما تركوا الموقع.

29. Kirkbride، 1968، ص. 95.

30. Dunand، 1973، ص. 25.

31. Rollefson وآخرون. 1992. الشكل 7.

32. Margueron. المصدر السابق. الجزء الثاني. ص. 18.

33. Aurenche. 1981.

34. Cauvin J.. المصدر السابق. ص. 204.

35. مثلا: Mellaart. 1967 بالنسبة لشاتال هويوك.

الفصل الثاني عشر

ديناميكية ثقافة مجتاحة

عندما بلغت الزراعة الأناضول الشرقية كانت قد مضت عدة قرون منذ أن تناثرت القرى الزراعية على امتداد واسع من المشرق. وقد شهدنا في الواقع ابتداء من أحد البؤر الأصلية للنيوليتي المشرقي، وهو بلاد الرافدين العليا على مستوى الفرات الأوسط، ظاهرتي انتشار باتجاهين مختلفين، أحدهما باتجاه الشمال والشمال الغربي والآخر باتجاه الجنوب.

وكان الإنتشار باتجاه الشمال والأناضول يمثل الحالة التاريخية الأولى للـ «نولتة الثانوية»: فللمرة الأولى يبلغ نموذج الحياة النيوليتية، المشتمل على إنتاج المعيشة، منطقة ليس مولوداً فيها. وهذا التوسع مرتبط بتوسع ثقافة محددة، هي المركَب التطوري المريبطي الأخير ـ PPNB القديم. وثمة هنا المبرر الكامل للإعتقاد بأنه قد حصل هنا إسهام حقيقي للشعب الآتي ليوافي عمقاً من الصيادين ـ القاطفين الأهليين، وهو عمق قليل الكثافة بجلاء ومُفترَض من قبلنا بالأحرى من كونه معروفاً حقاً.

وبعد عدة قرون، وصلت موجة جديدة من التوسع إلى المشرق الجنوبي. فإذا كان يمكن أن يتعلق الأمر ثانية باستعمار، مع إسهام عرقي مؤكد، فهو أمر لا شك به كما رأينا. لكن ليس ثمة أي شيء يعبر عنه بمصطلحات اقتصادية: فالـ PPNB الأوسط لا يحمل شيئاً تقريباً في هذا المجال لمزارعين جنوبيين مؤكد وجودهم، باستثناء نوع جديد من الزروع المزروعة. أما بالنسبة للتدجين، فإن خطواته الأولى كانت متزامنة على الفرات الأوسط وفي فلسطين التي لم تتلق هنا أيضاً شيئاً من الشمال. فليس ثمة في هذه الحالة «نولتة»، حتى وإن كان يوجد توسع للأراضي في الـ PPNB.

فلماذا حصل إذن هذا التوسع؟ إن أحد التفاسير الذي يلقى التأييد من مجلة New Archeology يرجعه إلى ضغط سكاني إقليمي قذف بجزء من السكان باتجاه المناطق المحيطية. وهو لا يبدو أبداً أنه يستحق المناقشة طالما أن إعمار بلاد الرافدين العليا السورية كان لا يزال متناثراً: وحتى إذا إخذنا بعين الإعتبار المواقع التي لا نزال نجهلها، فإن لا شيء حقاً يوحي بضرورة التغرب من أجل الإزدهار قبل 8000 قبل الميلاد. إن قوة توسع الـ PPNB يجب أن ترتكز منذ أصولها على ديناميكية داخلية في الثقافة نفسها: فحتى إن كانت قد استطاعت إيصال الزراعة إلى الأناضول، لكن انتشارها الجنوبي يبرهن لنا بوضوح أنه ليس هذا هو الجانب الأساسي[1].

سنحاول أن نفهم طبيعة هذه الديناميكية بمراجعة تحليل السمات الثقافية ليس فقط بالإكتفاء بوصفها، بل بالبحث إلى ما وراء المتعدد عن الوحدة البنيوية التي تعطيها المعنى والفعالية والتي يمكنها بشكل خاص أن تأخذ بعين الإعتبار واقع أن الـ PPNB كان منذ مرحلة إعداده ثقافة مجتاحة.

الثقافة المادية والرموز

لقد مهد لنا الطريق بشكلٍ ما «علم الآثار الرمزي» أو «contextuelle» الذي علّمه عالم الآثار الأجناسي ethnoarchéologue يان هودر[2] Ian Hodder: فهودر يرى في الواقع أنه للأشياء النفعية في المجتمعات البشرية معنى يتجاوز قيمتها التقنية وحدها، وأن الثقافة المادية بمجملها تشكل منظومة ذات مغزى قابلة لأن تأخذ بعين الإعتبار في آن واحد العمل الشامل للمجتمع وتأقلمه مع الوضعيات المحسوسة وتغيراته المحتملة. ومع ذلك فإن دراسات الحالات التي جمعها في البداية بنفسه[3] ترجع في غالب الأحيان إلى مجتمعات لا تزال حية، ذات نمط أصيل بالتأكيد إنما أكثر تطوراً بكثير من التي نهتم بها هنا: إن الأمر يتعلق دائماً بأن نربط فيها هذا المظهر الخاص من الثقافة المادية، على سبيل المثال أشكال وتزيينات الآنية، ومخططات السكن والمتاع أو الأثاث الجنائزي، مع هذا الجانب من التراتبية الإجتماعية (السلطة، التقسيم المؤسساتي للوظائف، المجموعات المسيطرة، إلخ.). والأمر ينطبق على الأمثلة الآثارية المقدمة النادرة: فجميعها ترجع إلى النيوليتي الحديث إلى

عصر المعادن. أي إلى مجتمعات تراتبية أصلاً أو في طريقها لتصبح كذلك. وليس ثمة للـ «رمزية» المعنية أي دور سوى أن تسمح لنا تحديداً بكشف هذه الإنقسامات الإجتماعية وهذه الطبقات[4]. وليس لمثل هذه المسيرة أي معنى بالنسبة لقراننا ذات البنية التي لا تزال متجانسة ومتعادلة من النيوليتي البدئي. إنما يمكننا أن نتساءل إذا لم تكن الثقافة المادية يمكن أن ترمز فيها إلى شيء آخر غير نمط تنظيم إجتماعي لا يزال موجوداً.

من جهة أخرى كانت «المنظومة الرمزية»، بالمعنى الذي أعطته البنيوية لهذا المصطلح، شيئاً آخر: فالتعبير كان يشير إلى البنى العقلية نفسها التي على الرغم من أنها لاواعية كانت لتنظم بطريقة دقيقة أساطيريات المجموعات البشرية وشعائرها وبنى قرابتها. وكان الحدس الجوهري لكلود ليفي ـ شتراوس في الواقع أن منظومة عقلية وحيدة كانت تحكم مختلف سويات الواقع وتجعلها «متجانسة» بعضها مع بعضها الآخر. ولا يمكن لهذا النوع من الدراسة أن ينطبق مع الأسف إلى ما وراء المجتمعات القديمة التي لا تزال حية بسبب نقص الوثائق الكافية. حيث يمكن أن يُطبق البحث اللفظي. أو المجتمعات التي اختفت وتركت أساطيرها مكتوبة. وينطبق هذا القول على أن ما قبل التاريخ لا يبدو أبداً معنياً. طالما أن المسافة كبيرة بين السرود الأسطورية المفصلة. بل والمهذارة، التي رواها ليفي ـ شتراوس والـ «الصور» الرمزية البسيطة التي نلحظها في ما قبل التاريخ، مع بعض الإسهامات البنيوية الجوهرية الموحاة فيما بينها. في أفضل الأحوال. بتحليلها المكاني. يجب مع ذلك أن نذكّر مع جان بيير فيرنان[5] Jean-Pierre Vernant أن البنيوية كانت قد تأثرت بشدة في مصدرها بنماذج لسانية. ولهذا السبب فإن الصورة تظل فيها تابعة للأسطورة. كما الكلمة تابعة للجملة. وليس لها معنى إلا بالنسبة لها: وضمن هذا المنظور فإننا لن نستطيع التقدم أبداً. مع نسائنا وثيراننا النيوليتيين. طالما أنه تفلت منا آلاف المغامرات المعقدة حيث كان على الثقافة الشفهية لهذه المجتمعات أن تدخلها في خطابها الأسطوري. ويبين جان بيير فيرنان على العكس. متبعاً في ذلك غروزر Greuzer وإرنست كاسيرر Ernest Cassirer. أن الصورة الرمزية تسبق الأسطورة. بحيث يجعلنا نرى مباشرة وقبل كل خطاب. تحت شكل متماسك ومحسوس. «وجود ما يُفلت بما هو إلهي من حدود الواقعي والملموس والمنتهي[6]». ويُستشعر هذا الإلهي نفسه من جهة أخرى كقدرة أكثر منه كفكرة. ونستنتج من ذلك أنه بقدر ما هو الأمر على هذا النحو فهو على صلة مع عناصر من اللاوعي الإنساني أكثر ديناميكية من مجرد مبادئ بسطية باردة قليلاً من تنظيم الخيال

والواقع. ونفهم من ذلك أن البنى العقلية اللاواعية التي تميز بحسب ليفي شتراوس «الفكر الوحشي» قد أمكن لها ليس فقط أن تعطي الإنطباع بعقلانية ما بل وأنه أمكن أن تُلام لأنها لم تأخذ فعلياً بعين الإعتبار لا الجهد في التأقلم المادي للمجتمع مع وسطه ولا التحولات خلال مجرى الزمن[7].

والحق أن ما يهمنا هنا هو حقاً الأحداث الكبرى والثورية في مجال الصلة بين الإنسان ووسطه. والقليل مما ندركه من ثورة الرموز نحو 10000 قبل الميلاد كان له الأفضلية أن ينطلق مباشرة إلى ممارسة جديدة للبيئة. أي في آن واحد إلى الحياة المادية وإلى تجددها. وبعبارة أخرى كان الرمز بذاته قوة قادرة على توليد تغير ملموس بشكل أكبر: إنه ظهور الإقتصاد الزراعي.

ومن الممكن. في رأينا. أن نباشر عملا مماثلا على الـ PPNB بالإعتماد في آن واحد على السفحين المعزولين غالبا أحدهما عن الآخر في تحليل الثقافات ما قبل التاريخية: أي جانبه غير النفعي. الفن والشعائر. الكاشفة بشكل مباشر أكثر عن عمل النفسانية الجماعية. بل وأيضا ثقافته المادية. الستراتيجيات الإقتصادية والصنعية. والتي نبين أن العناصر الأكثر تعبيرية فيها ذات صلة مع بقية العناصر. ويمكننا بذلك أن نقدر ليس فقط بماذا يمثل الـ PPNB مرحلة جديدة في تجهيز العقلية النيوليتية. بل وأيضا بماذا كان هذا التغير أصل سلوك وإشعاع نوعيين.

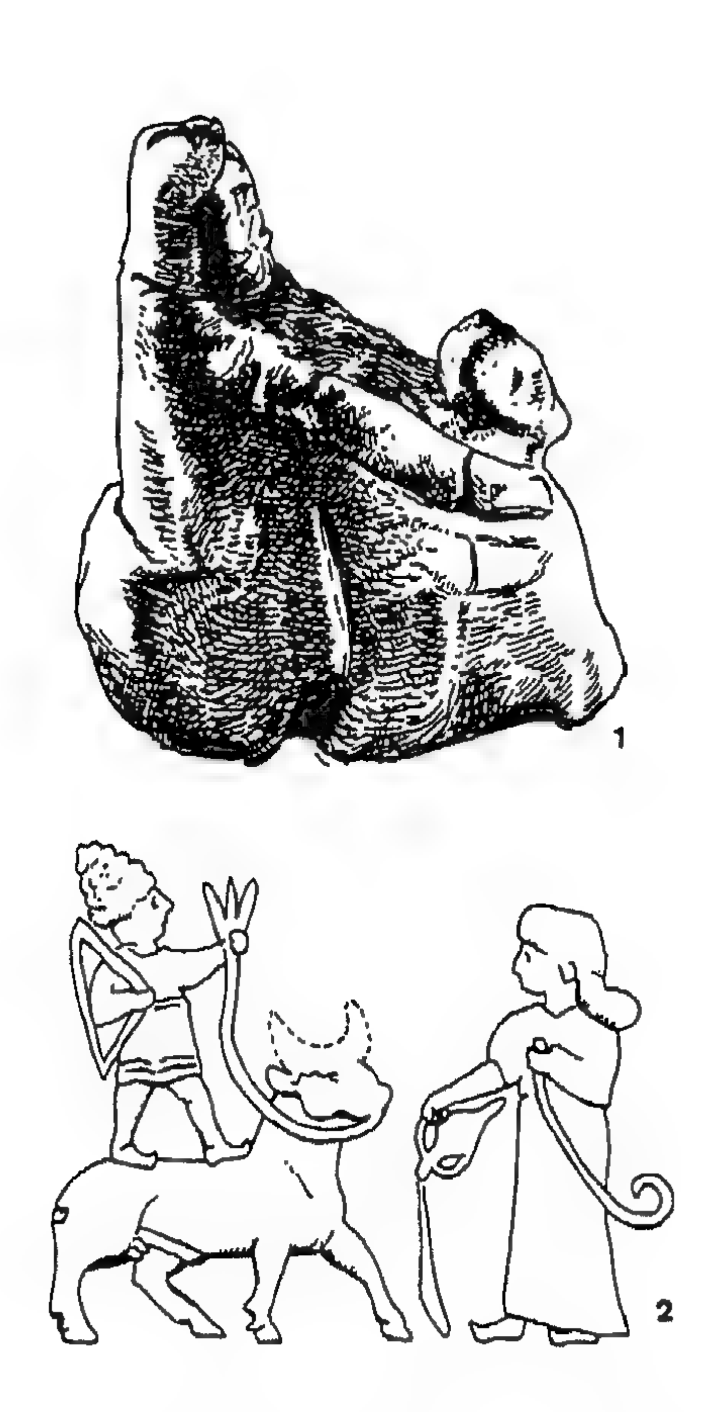
ديانة الثور

يمكننا أن نسمي سكان الـ PPNB «شعب الثور». بقدر ما بدت لنا واضحة أهمية هذا الحيوان في خيالهم. ويغوص هذا الخيار كما رأينا بجذوره في الموروث الثقافي لبلاد الرافدين العليا بدءا من خيامي الفرات الأوسط. وفي كامل المشرق خلال العصر النطوفي. وفي المشرق الجنوبي حتى مجيء الـ PPNB. كانت قطعان من الأرخص تشكل مع ذلك جزءا من المشهد. ولكن بينما كان يبدو أن الصيادين كانوا يتجنبونها بالأحرى فإن هذه الحيوانات نفسها لم تحرض في إنتاجهم الثقافي سوى عدم الإهتمام. وهذا برهان ساطع على أن نوعا حيوانيا لا يمكن أن يدمج في المجموعة الرمزية الحيوانية لثقافة إلا بقدر ما تتعرف

فيه هذه الأخيرة بطريقة ما على نفسها وتسقط في نفسها بعض الأبعاد التي تأتي تحت عتبة الشعور والوعي من النفسانية الجمعية.

فإذا كانت صورة الثور تعني قوة فظة وغريزية وعنيفة، فإن الفكرة تلقائية بالنسبة لنا وهي لا شك عالمية. ومع ذلك ليس من غير المجدي إثباتها من خلال المعطيات التصويرية والنصية التي ستزودنا بها لاحقاً، في المساحة الثقافية نفسها، الحضارات المدنية من العصر البرونزي الشرقي. والحق أن صورة الثور تنتشر في كل مكان فيها، وتكون في غالبا الأحيان مرتبطة بإله بشري الشكل ومذكر بحيث تكون تابعة له أو نسخته الحيوانية. وبها كان الإله يرمز في آن واحد إلى القوة الإخصابية وقوة العاصفة والقيمة الحربية. والإنسان لا يستطيع شيئاً بالتأكيد أمام العاصفة: فلا يمكن إلا الخضوع لهذا الشكل «الكوني» من العنف المثار أو الإختباء منه. ووحده الإله، أكان بعل الفينيقي أو حدد الحثي (الشكل 42: 2) أو قبلاً كما يبدو الإله المذكر النيوليتي في شاتال هويوك (الشكل 42: 1)، يستطيع أن يمتطي غيوم العاصفة والثور السماوي. تماماً كما كانت الإلهة وحدها تستطيع السيطرة على النمر. ولكن في الإنسان نفسه، ما أن يتم ضبط العنف الخشن، أي ما أن «يؤنسن»، فإنه يمكن أن يتحول إلى قوة منظمة للمواجهة. وعلى صورة بعل أوغاريت الذي كان، كسيد للثور أو وقد أصبح الثور نفسه، يُقدم أيضاً كبطل محارب وحامل للحضارة[8]، فإن الإنسان المجرِّب سيجد الفرصة بمجابهة الحيوان ـ الثور لاختبار ضبطه لنفسه وشجاعته وفعاليته القتالية. فليس من المدهش بالتالي أنه من شاتال هويوك إلى إيبيريا مروراً بكريت المينوية كانت المواجهة بين الإنسان والثور قد جرت كمشهد خطير وطقسي، والذي يحفظ ثوب مصارع الثيران (الماتادور matadore) الحالي آثاراً لا تزال حية عنه.

والحال أن تطوراً واضحاً يُلحظ في صلات البشر ما قبل التاريخيين في المشرق مع الثور: فقد ظلت أولى جماجم الثيران من خيامي المريبط مدفونة في ثخانة الأبنية بشكل غير مرئي من ساكنيها. فربما كان يراد فقط باللجوء إلى هذا الرمز الجديد من أجل تكريس بدئي تأمين مقاومة الصرح لأي دمار بشكل مجازي. ولم تكن الساعة قد حانت لمواجهة الحيوان بشكل مباشر. ثم كان المريبطيون الأوائل ـ والوحيدين في عصرهم ـ الذين صادوا الثيران البرية بشكل منتظم. ولكن بالإضافة إلى دوام وتضاعف رمز الثور وانتشاره الجديد في الأناضول وفي المشرق الجنوبي. فقد أضاف الـ PPNB عنصرين موضوعيين مستجدين: ظهور الإنسان نفسه، أي الكائن البشري المذكر الجنس. في الفن الديني والإشارة الصريحة الأولى (في عين غزال) إلى مشهد مصارعة الثيران.



الشكل 43. إله بشري الشكل يمتطي ثوراً. 1: نيوليتي شاتال هويوك في الألف السابع قبل الميلاد، تركيا (عن J. Mellaart)، الإرتفاع 10,7 سمنتمتر. 2: إله العاصفة الحثي (عن غارستانغ).

ومذاك خرجت القوة الفطرية جزئياً من غطائها الحيواني عندما وجدت «رجلاً» لتواجهه. وما كان الخيال يقبل به في فئة الـ «رجولة»، القوة التناسلية أو المصارعة، توقف عن أن يعاش في تلقائية الغريزة طالما أنه ليس برجل حقاً، بالتحديد، سوى الذي يسيطر على الغريزة وطالما أن البطل، في اندفاعهم المشترك، شيء آخر مختلف تماماً عن الخشونة. ومن الممكن أن هذه الجدلية للـ «رجولة» بما هي تأمين جذاب قد انبثقت في لاوعي البحر المتوسط حوالي 8000 قبل الميلاد وأنه هنا إنما تكمن تحديداً، على مستوى الصور الأسطورية السائدة مسبقاً وإلى جانب الظهورات المرئية أكثر التي سوف نعرض لها الآن، الديناميكية الحقيقية الداخلية لثقافة الـ PPNB.

محبة الأسلحة

إن أي رأس من الصوان أو الإوبسيديان، حتى وإن كان مشذباً بشكل مختصر أو حتى خشناً، يمكن أن يزين عصا السهم أو سلاحاً يدوياً. وبشكل خاص، وابتداء من اللحظة التي ظهر فيها التقصيب النصلي، الذي يستخرج من النواة الحجرية منتجات متطاولة وخفيفة في آن واحد وذات حواف قاطعة ورأس غالباً ما يكون حاداً تلقائياً، كان يكفي حداً أدنى من الرتوش من أجل تحضير قاعدته بهدف تثبيته على العصا أو عند الإقتضاء من أجل شحذ الرأس. وقد اختار الخياميون في المشرق كله، كما وخلفاؤهم السلطانيون في المشرق الجنوبي كما سبق ورأينا، أن يبتروا قاعدة الرؤوس وأن يسهلوا مرور رباط وذلك بأن يحفروا ببساطة فرضتين جانبيتين متعارضتين. وهذا ما يسمى بـ «رأس الخيامي» (الشكل 5: 1 – 2؛ الشكل 12: 1 – 2). ويشتمل حل آخر معروف منذ الباليوليتي الأعلى الأوروبي على تحرير سويقة من أجل إنشاب التسليح في عصاها. وفي الشرق الأدنى توصل تأليف بين الطريقتين إلى نمط خاص من تسليح السهام يسمى «نبال حلوان»، وهو يحمل في آن واحد السويقة والفرضتين، وقد ظهر في نهاية الخيامي. ولم تكن هذه الإعدادات كلها، تحت الأشكال البسيطة التي نصفها[10]، تتطلب أبداً من الصانع ما قبل التاريخي كما ومن المجرب الحديث سوى بضعة ثواني. والحال أننا لم ننفك نجد في كافة الأشكال الإقليمية للـ PPNB بحثاً جديداً وعاماً يتعلق بالتسليح. ويُستخدم فيه نمط من التشذيب جديد في الشرق الأدنى، طويل ونصلي، لا يخص سوى بعض الأسلحة ويتجاوز بكثير في نتائجه ما كان يتطلبه بحث بسيط عن الفعالية. وحتى إن كان هذا التسليح قد استخدم جزئياً من أجل الصيد يبدو أنه من المستبعد أن نستنتج من غزارته وبخاصة من نوعيته أي شكل من تكثيف الصيد، في حين أن ظهور التدجين سيغير بالتحديد تدريجياً، بمعنى أكثر هدوءاً، صلة المجتمعات البشرية مع المملكة الحيوانية. إن هذا المجال التقني قد أصبح ببساطة قطاعاً للهيبة، مستدعياً استثماراً حرفياً إضافياً وبحثاً جمالياً لا يمكن تفسيره بشكل آخر. وهكذا فإننا نلحظ في أصله ما هو أكثر من «حاجة» جديدة، إنه موقف عقلي مستجد يرفع قيمة التسليح والذي يرجع هو أيضاً بأصله إلى المريبطي حيث كشفناه في البداية. ومفاد القول إنه مرتبط حقاً في الزمن بـ «ديانة الثور» منذ أصوله وحتى عدة الحرب التي ستحيط في العصر البرونزي بالآلهة المذكرة.

وبالتأكيد فإننا لا نستطيع أن نعرف إذا كان توسع الـ PPNB قد تم فعلياً «بواسطة الأسلحة». فظهور «الحرب» في النيوليتي يُطرح من قبل علماء ما قبل التاريخ كنتيجة منطقية لملكية جديدة يجب الدفاع عنها بالأحرى منها كنتيجة مثبتة من خلال الوثائق المتوفرة: إن رأس سهم وُجد هنا أو هناك مغروزاً في فقرة بشرية ليس ربما برهاناً كافياً بالقدر الذي يقال إنه كاف. وهنا، فإن الثقافة الجديدة المسيطرة التي جلبها قادمون جدد يبدو أنها تساهم أكثر في «زواج» مع المستوطنين القدماء منها في إبادتهم العنيفة، وإذا كان الأولون يفرضون أخلاقاً جديدة في كثير من المجالات، فليس لدينا أية مؤشرات أنهم شكلوا أية نخبوية بالمعنى الإجتماعي للمصطلح. كما سيكون الحال فيما بعد في الأراضي المجتاحة. سنكتفي إذن بالحديث عن توسع، حتى وإن كان للـ PPNB مذاك فصاعداً كرمز كبير، إضافة إلى الإلهة الخاصة بالنيوليتي كله، صورة رجولية سيخص أحد معانيها الرئيسية الحرب بوضوح بعد فترة قصيرة تالية. ونبقى في التماثل الذي برهنه كلود ليفي - شتراوس عندما نجد حالة مشابهة في التثمين الخاص لفئة معينة من الأدوات المشغولة. إن لهذا التسليح قيمة «رمزية» حقاً كما كان ليقول يان هودر. ومع ذلك، فإن ما يتكشف في هذه المرحلة جزئياً بفضله ليست بعد البنى الإجتماعية بل النفسانية الجمعية للثقافة.

مروضو الماعز

إذا كان الصيادون في الـ PPNB القديم والأوسط قد واجهوا الثور بطريقة مختلفة عن الأسلوب الرمزي، وذلك بدرجة متفاوتة التواتر بحسب الأماكن، فإنهم لم يدجنوه. وسيكون هذا التدجين فعالا في بعض المواضع فقط في المرحلة الحديثة من الثقافة نفسها، في الـ PPNB الحديث. وسبب هذا التأخير يجب أن يرجع إلى الصعوبات الأكيدة للمشروع... والحيوان المسمن الذي دجن أولا وهو الماعز أسهل وصولا واقترابا منه. وقد تبعه الخروف بعد قليل.

والحال، إذا كان الكبش البري ممثلا في بعض الأحيان في تماثيل الـ PPNB الصغيرة، فإن الماعز ليس ممثلا فيها بحسب الظاهر. فلم يكن ثمة أي «تحضير عقلي» محدد يبدو أنه يعلن هنا عن تدجينه. ولم يظهر التيس أحيانا إلا فيما بعد، خلال

الكالكوليتي (العصر الحجري النحاسي) وعصر البرونز الرافديـين. وذلـك في النحـت وعلى الأختام. مرافقاً مثل الثور أو الأشقر لشخصية إلهية ما. وهكذا فإنه يُسول لنا أن نبقـى هنـا عند التسلسل الوصفي الذي اقتُرح لفترة طويلة من قبل بعض علماء الحيوانات القديمة: إننا نرى فيه. خلال مرحلة متقدمة من الصيد المتخصص الذي كـان قـد جعـل مـن المـاعز نوعـاً سائداً اقتصادياً في الغذاء اللحمي للمجموعة البشرية. الصيادين يتعودون تدريجياً مع القطيع البري الذي يحيون عليه ويقبلون به إلى حد الإقتراب مـن الحيوانـات بسـهولة أكـثر فـأكثر واختيار الأفراد الضحى بها من بينها بحسـب العمـر والجنـس. متبعـين مخططاً في تنظيـم القطيع أكثر فأكثر عقلانية. وفي نهاية هذا التعلم البطيء المتبـادل بـين الحيـوان والإنسـان، وجد هذا الأخير نفسه على رأس قطيع «مدجّن» تابع له. وذلك عندمـا توصـل إلى التحكـم بتحركاته ثم فيما بعد إلى مكاثرته نفسها. ولهذا فإن الصيد المتخصص والإنتقـائي قـد سمـي من جهة أخرى من قبل بعضهم «ما قبل تدجيني»، لأنه كان يتمتع بالمنـاخ الكـامل لخلـق الشروط الضرورية. إذا لم تكن الكافية. لهذا الإنتقال.

ولنشر إلى أن هذا المخطط وصفي إلا أنه لا يفسر شـيئاً. وبـالأخص فـهو لا يصـف كافة الحالات. وهو يصادر في الواقع مقولة أن تدجين نوع ما يتـم حيـث يحتـل هـذا النـوع مسبقاً. في إطار صيدي. مكانة أساسية في الإقتصاد الغذائي. ويمكـن أن تكـون صيرورة مـن هذا النوع قد جرت في البيضا. حيث يُعتَبر ماعز الـ PPNB الأوسط على أنه ماعز مدجَّـن، طالما أن النطوفيين القدماء كانوا قبل الـ PPNB بكثير يصيدونه بشكل كثيف لأسباب بيئية ببساطة[11]. ولكن ليس هذا هو الحال دائماً: ففي أبو هريرة. وهو موقع هام جداً بالنسبة لنـا لأنه ربما كان الأقدم الذي دُجن فيه الماعز. كان الماعز قد دُجِّن كما سبق ورأينـا منذ بدايـة الـ PPNB الأوسط. وبالتالي على الأقل نحو 8200 قبل الميلاد. لكنه لم يكن يمثل بعد فيها سوى 6 ٪ من بقايا الحيوانات المُستهلَكة. أي ليس أكثر من الأرويات* البرية من النطوفي في الموقع نفسه قبل ألفي سنة. وبعد فترة قصيرة إنما وصل استهلاكه إلى 70 ٪[12]. فالتدجين لا يظهر هنا إذن مرتبطاً بالوسط المسبق للصيد المتخصص. وكمـا برهـن حديثـاً دانييـل هلمـر[13] Daniel Helmer. فإن كل شيء كان يجري في ذلك الوقت كما لو أن الحيـوان المدجَّـن مـا كان يقوم خلال مرحلة أولى سوى بالحلول محل مكافئه الـبري بكميـة مسـاوية، أكـان هـذا الأخير يصاد بغزارة أم لا.

* الأروية نوع من الماعز البري، م.

فكيف لا نرى بالتالي أنه كان يوجد مذاك تشابه بين بدايات التدجين وبدايات الزراعة. وأن الأفكار نفسها التي تم تصورها مسبقاً أمكن لها أن تولد هنا وهناك أخطاء الأحكام نفسها؟ وربما لا يجب أيضاً أن نخلط أصول التدجين مع أصول اقتصاد مؤسس عليه ولا اختراع الزراعة مع بدايات الإقتصاد الزراعي. فإذا كان التدجين كما يقول بريان هس Brian Hesse هو بشكل أساسي أصل تحول للـ «حدود المشتركة interface بين الإنسان والحيوان»[14]. فإننا نعلم مرة أخرى أن علينا أن نبحث عن الأسباب في جانب الثقافة وليس في منطق اقتصادي لضبط تدريجي لتخزين غذائي متخصص سلفاً.

في كتابه المميز *الإنسان والحيوانات الداجنة*. استطاع جان بيير ديغار Jean-Pierre Digard أن يبين، على أسس أجناسية ـ آثارية بشكل خاص إنما بشكل مشابه لنتائجنا الخاصة حول أصل الزراعة، أن الحوافز الغذائية كانت الأقل احتمالاً بالنسبة لظهور التدجين الحيواني. إذ كان هذا الأخير استجابة لرغبة إنسانية قبل كل شيء بالسيطرة على الحيوانات. وهو يقول: «إن حماس الإنسان المدهش للتدجين لا يُفسَّر بشكل آخر [...] إلا بالبحث عن التدجين لذاته ومن أجل الصورة التي يعطيها للسلطة على الحياة والكائنات[15].» وتؤكد المعطيات الحديثة التي نملكها بالنسبة للـ PPNB وجهة النظر هذه تماماً: فليس من غير المهم أن أول تدجين معروف رأى النور في مرحلة «تحول إلى الرجولة» في الثقافة النيوليتية، عندما انبثق تحديداً الموضوع الرمزي للمواجهة مع الحيوان. وهكذا فإننا نصبح بعيدين عن السبب الوجيز قليلاً والأكثر شيوعاً: تأمين المصادر من اللحوم...

المسكن المربع

إضافة إلى عبادة الثور والترقية الرمزية للتسليح، تم إثبات سمة ثالثة تجلت منذ المريبطي الأخير طورها الـ PPNB ونشرها: إنها العمارة المستطيلة.

لا شك أنه كان ثمة أسباب ذات توافق تقني صرف لكون المنازل البشرية الأولى كانت دائرية: إن ما يدعوه أوليفييه أورنش Olivier Aurenche «البيت الأصلي[16]» هو في البداية حفرة بسيطة من الطبيعي أن تكون مستديرة. فالبيت الدائري (أو البيضوي) نصف

المطمور هو إذن النموذج الأول للبناء الذي ظهر في الشرق الأدنى من الخيامي إلى النطوفي. وبالطريقة نفسها. وبعد وقت طويل من تعمم العمارة المستطيلة. فإن سكّاناً من الدجّنين البدو من الألف السابع الذين عادوا إلى الحياة الحضرية أعادوا إنتاج المخطط البدئي للحفرة الدائرية خلال مرحلة أولى، وقد ظهر مذاك كحل أخير لكل ثقافة ليس لها أو فقدت تجربة فن البناء[17].

وهكذا فقد اعتُقد أنه من الحق القول إن المخطط الدائري كان المفهوم السائد والمقبول لدى الجماعات المترحلة أو شبه المترحلة، بل وحتى في بدايات التحضر، في حين أن المخطط المستطيل كان يميز القرى الزراعية كاملة التحضر[18]. ومع ذلك فلهذا النموذج قيمة قابلة للنقاش تاريخياً في الشرق الأدنى، طالما أن القرى الزراعية الكبرى في الـ PPNA حفظت كلها بيتاً دائرياً. وقد حفظته تحديداً لأن البيت المستطيل لم يكن قد انبثق بعد في الثقافة النيوليتية: إن هذا الإنبثاق هو حدث تاريخي حيث الـ PPNB في الشرق الأدنى هو الوكيل الناشر الأول له. وهو حدث يجب أن نأخذه بعين الإعتبار.

ومن جهة أخرى فقد أشرنا إلى أن البيت المستطيل كان يسمح بإضافات على شكل حجرات جديدة، في حين أن البيت الدائري كان يبلغ مجمل مساحته السكنية النهائية ويصل بالتالي، ضمن منظور التوسع، إلى حد لا يمكن تجاوزه[19]. ومن هنا النموذج الثاني المقترح من قبل كِنت فلانري Kent Flannery، حيث يرتبط المسكن الرباعي الزوايا بنمط جديد من البنية العائلية الذي يجمع تحت سقف واحد الأهل وذريتهم القابلة للتكاثر، في حين أن كل «كوخ» نطوفي دائري ما كان ليُشغل إلا من قبل شخص أو شخصين على الأكثر في نظام أسري تعددي polygynique، وذلك على أساس أمثلة أعراقية مأخوذة من *تجمعات* أفريقية أو أمريكية.

ولنلاحظ هنا أيضاً أنه لو كانت العائلة النواة موجودة قبل ذلك، في السلطاني مثلاً في أريحا، فإنها ما كانت لتستطيع بشكل مؤكد الظهور بأبنية مستطيلة للسبب البسيط أن هذه البيوت لم تكن قد اختُرعت بعد. إن نسب هذا الإختراع إلى ضغط بنية عائلية معطاة ليس سوى فرضية. وبعد القبول بالميزات غير القابلة للنقاش لهذا الشكل من البناء، من أجل إيوائه. فإنه من الرهافة أكثر موازنة مختلف المعاملات التي أمكن لها فعلياً أن تسبق انبثاقه. ويتعلق الأمر في رأينا بثلاثة مستويات يجب أن نفصلها كلا على حدة.

النسق الأول هو مستوى تقني تماما. فبناء الأبنية المستطيلة يفترض معرفة نصب جدار مستقيم في مجال مفتوح كما وأيضا تثبيت جدارين متعامدين معا. وقد تم تعلم الجدار المستقيم في البداية من أجل تقسيم البيوت الدائرية: وقد اختبرت فيها بشكل خاص منظومات جديدة من التسليح بالخشب المخصص في آن واحد لتأمين تجانس الجدران من التراب المدكوك ولتقوية زواياها بواسطة تراكباتها[20]. ثم لم تظهر أولى المباني المحدودة بأربعة جدران مستقيمة[21] إلا في المريبطي الأخير، في المريبط نفسها وفي الشيخ حسن. ويتعلق الأمر هنا بتقدم تقني: وقد رأينا في أمثلة أخرى أن هذا التقدم يتبع مجرى منتظما تقريبا وثابتا دون أن يبرر لهذا التغيرات الأخرى. وهو هنا يجعل شكل العمارة الجديد ممكنا لكنه لا يفسر وحده ظهوره. ليس أكثر من المساحق والمناجل التي سبقت الزراعة ولم تولدها بشكل مباشر.

والعامل الثاني يظهر أنه مرتبط كثيرا بضغط اجتماعي: إنه مبدأ التقسيم الداخلي لمساحة المسكن. وقد رأينا أنه كان يمكن أن يتحقق دون انتظار العمارة المستطيلة. وكان يمكن لهذه الأخيرة مذاك أن تكون ردا على الحد النهائي السابق ذكره، أي موانع الشكل الدائري أمام مضاعفة الحجرات. ومع ذلك، فإن مثال أوائل مساكن الـ PPNB في البيضا يبين أنه يمكن أيضا ملاصقة الخلايا الدائرية المتوسطة حول باحة (الشكل 35) من أجل الحصول على النتيجة نفسها. وبشكل خاص فإننا لا نفهم وجود قرى بعد فترة لم يكن للمنازل المستطيلة فيها سوى حجرة واحدة، على سبيل المثال في الـ PPNB الحديث في تل الرماد في منطقة دمشق، وفي النيوليتي القديم في بيبلوس على الساحل[22]. وتميز هذه البيوت ذات الخلايا الواحدة بعض المناطق الجغرافية: وقد رأى أوليفييه أورنش أن الأمر كان يتعلق باختيار ثقافي لسكانها[23]. ويبين ذلك في كل حال أن المخطط المتعدد الخلايا والمخطط المستطيل ليسا مرتبطين بالضرورة. وأخيرا فإننا نريد أن نفهم لماذا ستبقي بعض الثقافات من الألف السابع عن عمد، وبشكل مستقل عن أي عدم قابلية تقنية، المخطط الدائري، أكان في قبرص أو في بلاد الرافدين العليا في ثقافة حلف. ومع ذلك فقد كان البناؤون فيها أكفاء بدرجة عالية[24] ولا يمكن أن يلتمس فيها بشكل منطقي الرجوع إلى بنى عائلية قديمة.

يجب إذن النظر في معامل ثالث لا يستبعد أيضا العاملين الآخرين بل يجب أن يأخذ بعين الإعتبار، على المستوى الثقافي، خيارات شكلية مستقلة بشكل واضح عنها. وهذا هام كما سنرى من أجل توضيح الرجوع المدهش إلى أشكال مسكن قد تم تجاوزها بشكل

واضح. وينطبق ذلك أيضا عندما يتعلق الأمر بذكر هذا «الإنجاز العالمي الأول من نوعه» الذي هو المرور من الدائرة إلى المستطيل في المسكن البشري مع PPNB المشرق.

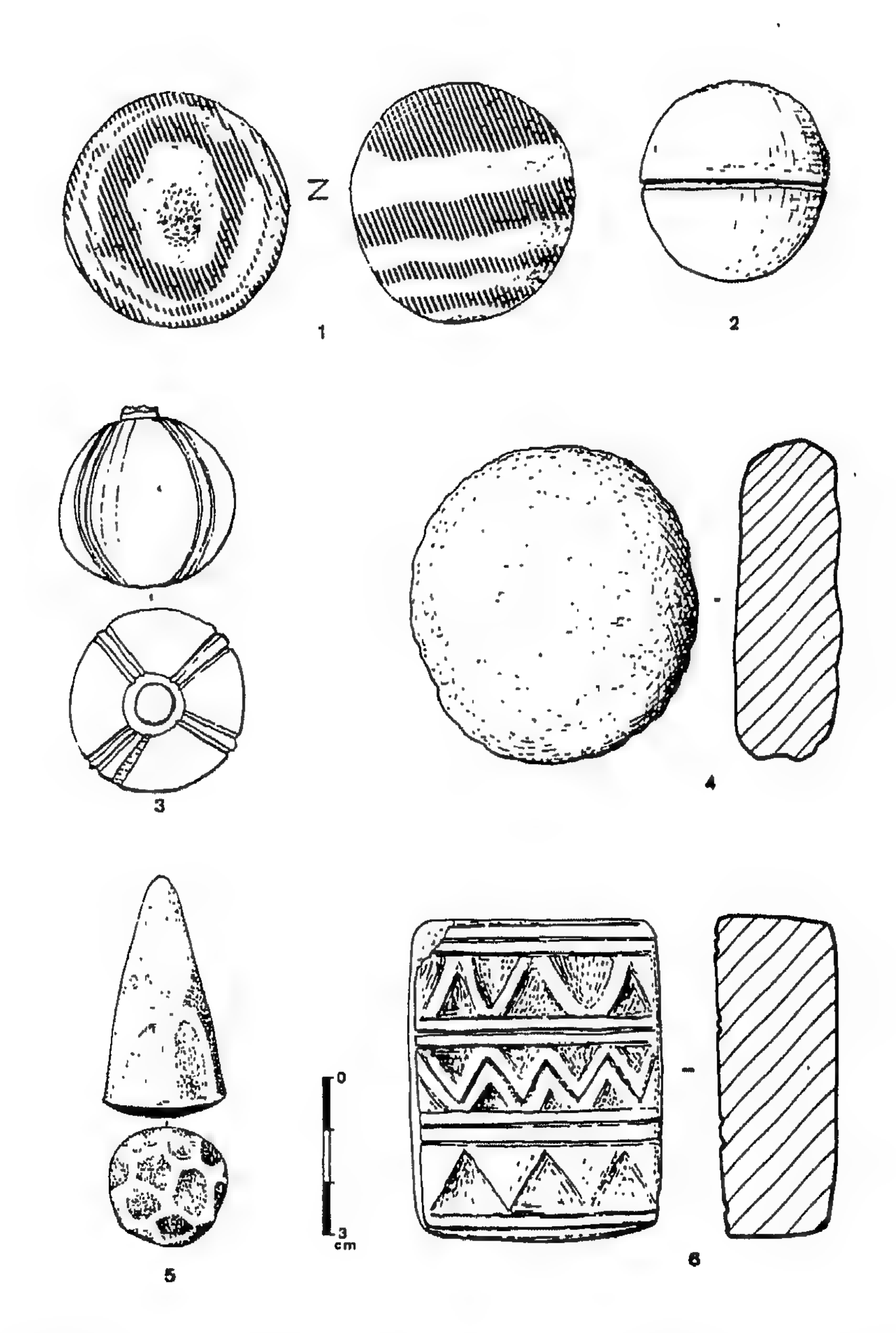
إن للإشكال الهندسية صلة مباشرة مع الذكاء البشري تنتهي اعتبارات ملائمة بذاتها ذات نسق تقني أو بيئي أو اجتماعي بأن تنساها. فمنذ النطوفي، وعلى امتداد النيوليتي، كانت هذه الأشكال موجودة ليس فقط في الحلي، حيث كانت «اللآلئ» هي أولى المنتجات البشرية التي «اتخذت أشكالا هندسية»[25]، بل وأيضا في أشياء صغيرة غالبا ما توصف بأنها غامضة وعثر عليها بشكل غزير في التنقيبات. إن هذه الكرات أوالأسطوانات أوالأقراص أوالمخاريط أو متوازيات السطوح، والتي تكون أحيانا من مواد نصف ثمينة ومزينة غالبا بإشارات منقوشة أو بأشكال هندسية أكثر تعقيدا (الشكل 44)، لا تزال حتى الآن غير مفسرة تفسيرا دقيقا. وهي تشهد مع ذلك على مفردات مبكرة جدا من الأشكال الأساسية التي لم يعدها إنسان ما قبل التاريخ، على الأقل في الأزمنة الأولى، لأسباب نفعية. إن «لغة» الأشكال الهندسية هذه تقطع جزئيا دون شك بعض التناظرات الملاحظة في الطبيعة (النجوم، الأزهار، القواقع، الأبراج)، لكننا نجدها مجملة على مستوى عال من التجريد بمعزل عن كل تأثير تصويري. وبشكل خاص، فإن هذه الهندسة لا تبدو أنها تنتج في شيء، على عكس ما افترض لفترة طويلة، من معالجات محسوسة من قبل الإنسان لوسطه اليومي، كتقنيات مسح الأراضي على سبيل المثال. ومن وجهة النظر هذه، فإن الفكر الهندسي عند الفيثاغوريين، حيث تشكل الدائرة والمربع إلخ. مفهوما إجماليا للأفكار ذات البعد الكوني، يمثل ربما مسيرة للفكر تماثل ببدائيتها على الأقل المسيرة التي تشتق الرياضيات، والهندسة بشكل خاص، من التنظير الثانوي لمعرفة عملية[27].

وفي مجال مخططات البيوت، فإن هذه الرمزية المباشرة للشكل الهندسي تجازف أكثر من مرورها بشكل غير ملحوظ أن تدخل في تنافس في آن واحد مع قصدية نفعية جدا هذه المرة للبناء ومع ضغوط من سوية أخرى، أكانت تقنية أم اجتماعية. ومع ذلك، فكما يقول مرسيا إلياد Mircéa Eliade فإن «الرمزية الكونية للمسكن مثبتة في الكثير من المجتمعات البدائية. وبشكل واضح تقريبا فإن المسكن يعتبر مثل صورة للعالم *imago mundi*. وبما أننا نجد أمثلة عليها في كافة سويات الثقافة فإننا لا نرى لماذا يشكل أوائل النيوليتيين في الشرق الأدنى استثناء، لا سيما وأنه في هذه المنطقة إنما شهدت الرمزية الكونية للعمارة التطور الأسرع[28]».

وضمن هذا المنظور، ما الذي يمكن أن يقوله المرور من الدائرة إلى المربع في مخطط المساكن؟ ليس ثمة أي مصدر مباشر يمكن أن يعلمنا بشكل مؤكد وجهة نظر البناة. ولا يمكننا سوى أن نفترض اتجاهات تفسيرية معتمدين على المبدأين اللذين ألهما هذا الكتاب: أحدهما هو أن الفكر النيوليتي ليس غريبا عن فكرنا طالما أنه بشكل من الأشكال أسسه تاريخيا من خلال لعبة الإنتقالات الثقافية في الحوض المتوسطي؛ ويفترض الثاني أنه على الرغم من أنه للخيال تاريخ وأنه من أهدافنا تحديدا تحليل تطوره وتغيراته في النيوليتي، فإن للمفردات الرمزية أيضا جوانب متواترة يجدها مؤرخو الديانات الحاليون في كل مكان تقريبا كما لو كانت تشكل «مركبات فطرية نوعية» (جيلبير دوران Gilbert Durant). وبفضلها إنما نستطيع أن نتخطى دون خطر يذكر المساحة الثقافية حيث كنا نحصر حتى الآن مقارناتنا. إن الدائرة (أو الكرة) في اللغة العالمية للأشكال البسيطة تشير إذن في آن واحد إلى ما يتجاوز الإنسان ويظل خارجا عن متناوله (الشمس، الكلية الكونية، «الإله»)، وما ينتسب على مستواه تحت القمري الخاص إلى المنتش والسجلي[29] والحميم. وعلى العكس، فإن المستطيل، الذي لا تقدم لنا طبيعته التي نراها كل يوم أي مثال، يحرض المبادرة الإنسانية أكثر من أجل الوجود: فالحجر لا يكون مكعبا أو مستطيلا إلا إذا شكلناه هكذا. فالمربع والمستطيل يشيران إذن إلى الظاهر والملموس والمنجز.

ونعلم أيضا، على مستوى الخيال الذي لا يزال بسيطا، أن المنحني مؤنث في حين أن الخط المستقيم والزاوي مذكران. وليس لدينا هنا أيضا أي سبب يدعونا للإعتقاد أن النيوليتيين شذوا عن القاعدة كما كان ليقول مرسيا إلياد...

ومذاك أصبح شبه التواري في الأرض في حفرة مستديرة يمكن أن يبدو موقفا بدائيا، وبعد فترة يمكن أن يبدو ارتداديا، ليس فقط من وجهة نظر تقنية، بل أيضا على مستوى الوظيفة الرمزية نفسها. بالمقابل، فإن «المسكن المربع»، الذي يبنى عموما على السطح، يشهد على موقف عقلي مختلف، حيث يصادف تقدم المعرفة التقنية المبادرة التي تستخدمه، والتي تفرض على حاجة أساسية، هي حاجة السكن والإلتجاء، شكلا جديدا تماما وصنعيا ومسبق التصميم.



الشكل 44. *قطع هندسية نيوليتية: 1: كرة من الحجر ذات شرائط حمراء (PPNB كفر هويوك). 2: كرة من الكلس ذات نصفين (مريبطي المريبط). 3: كرة من الكلس ذات سرة ومقسمة إلى أربعة أجزاء (جبيل، الألف السابع قبل الميلاد). 4: قرص من الطين المشوي (مريبطي المريبط). 5: مرجان متحجر على شكل مخروط (PPNB كفر هويوك). 6: متوازي سطوح من الطبشور ذو تزيين من الشارات (مريبطي شيخ حسان). عن جاك كوفان (1 ـ 2، 4 ـ 6)، ودونان (3).*

وقد أمكن أن نبين أن الإنسان في المنزل النطوفي لا يقوم سوى بدعم جدار سابق الوجود هو جدار الأرض نفسها حيث حفر ونزل. وذلك بواسطة الحجارة والخشب، ليغطي من ثم مجمل ذلك. إن خروج المسكن إلى الهواء الطلق ومروره إلى مخطط مستطيل الشكل يحققان إذن تنسيقا تقنيا بل وعقليا أيضا. ولا يجب أن ننسى أن العمارة المستطيلة عندما ظهرت في نهاية المريبطي لم تكن قد وجدت أبدا ولا في أي مكان في العالم، في حين أنها ستصبح سريعا النموذج البدئي للبيت البشري[30]. وبها فقد ترك الإنسان المتحضر حفرة البدايات والإستدارة السجلية لمسكنه الأول. وهذا الواقع لا يمكن أن يقارب من إنبثاق تأكيد للذات الواعية والمعبرة ثقافيا والتي يبدو أن وثائق أخرى قد شهدت عليه. نعتبر إذن أن البيت المستطيل مثل سمة «مشابهة» للسمات السابقة، بالمعنى البنيوي للمصطلح.

ثقافة متوسعة

هكذا رسمت شيئا فشيئا صورة أكثر تجانسا لثقافة الـ PPNB. وثمة أربع سمات غالبة تميزها في كل مكان، على هامش صفات محلية أكثر تنوعا: بداية تحول الرموز إلى الذكورة، وتدجين حيواني مبتدئ سيتعمم مع الـ PPNB الحديث، وتسليح مجهز، وانتشار العمارة المستطيلة. وتقدم هذه السمات عادة كما لو كانت مستقلة عن بعضها بعضا: والحال فقد بدت لنا مرتبطة، كما لو من الداخل، بشبكة وحيدة المعنى. إن خيال الـ PPNB، الملاحظ مباشرة على مستوى الفن والشعائر، يبدو أنه يلعب دور «سببية قطعية»، بمعنى الفلسفة اليونانية، بالنسبة لمجالات أكثر ركاكة قبليا: المسكن والسلاح وتقنيات المعيشة.

وخلاصتنا الثانية هي أن الأمر يتعلق، في نولتة الشرق الأدنى، بتحول عقلي جديد، تحضر خلال المرحلة السابقة بواسطة المرينبطي في بلاد الرافدين العليا في سوريا وفيها وحدها. إن هذا التحول لم يعد على علاقة بولادة الزراعة. فهذه الأخيرة، السيرة الأولى «المؤنسنة» للعالم، كانت قد رافقت صعودا للصورة الإنسانية في الفن لكنها كانت صورة مؤنثة. فهذا الإختراع كان قد تم إذا جاز القول تحت رعاية الإلهة ويمكن أن يكون فعلا أمرا من صنع النساء، واقعيا ورمزيا في آن واحد[31]. ودون أن يتم أيضا نفي نظام الأمومة الديني هذا[32] حيث تظل الإلهة هي السلطة العليا، فقد اجتازت الثقافة في الـ PPNB

مرحلة رجولية تمهد لما سيصبح في العصر البرونزي، في الوقت نفسه الذي تطور فيه التسليح المعدني، ترقية الآلهة في الأسطورة إلى أبطال مقاتلين: فالصفات الرمزية بدأت تتشكل في الألف الثامن. ويمكننا من هذا الواقع أن نفترض أن التدجين الحيواني، تبعا للأبعاد النفسية ـ الشعورية التي يهزها، كان في بدايته مبادرة مذكرة. وهذا المظهر المذكر أيضا هو الذي أعطى لثقافة الـ PPNB طبيعتها «المجتاحة» والتي يشهد عليها انتشارها السريع. إن الثور البري ليس رمز توازن ولا رمز تحضر هادئ. فبه تغلي قيم التوسع عندما يماثل الذكر البشري نفسه طقسيا به ويرفع بجرأة، من خلال المواجهة في مصارعة الثيران، التهور الأعمى للغريزة.

وبالنتيجة فقد رأينا تكاثر الشكل البشري نفسه في الفن والطقوس: رجالا ونساء. فكانت التماثيل والتماثيل الصغيرة والجماجم المقولبة ترسم كما لو مجتمعا مقابلا غزيرا، حيث من الصعب إنما ربما غير الضروري، وبخاصة بالنسبة للتماثيل، التأكد مما إذا كان الأمر يتعلق بآلهة أو بأسلاف مرفعين إلى مراتب الأبطال. وحتى الجماجم المحفوظة التي كانت تشير على الغالب إلى أسلاف منتخبين من بين الموتى (لا نعرف بالضبط وفق أية معايير)، تكشف لنا عن الظاهرة العامة نفسها التي يكشفها لنا الفن نفسه: الحضور الكلي للوجه البشري في المحيط الديني، وهو شيء جديد جدا ومختلف جدا عن التقوي البسيطة الجنائزية التي كانت موجودة منذ زمن طويل إنما التي كانت تدفن في القبر مع الميت ذكرى سيغطيها النسيان سريعا. ويتعلق الأمر هنا على العكس بالتحيين، الدوري والطقسي دون شك، لوجود أحدهم. وقد أشرنا في موضع آخر[33] كم أن هذه العبادة المكثفة التي خصت بها إنسانية الـ PPNB نوعها، طالما أن الإلهي نفسه يتكشف أكثر فأكثر تحت سماتها، تفترض ثقة قوية وجديدة بقيمة هذه الأخيرة ورباطا اجتماعيا وعقائديا لم يسبق الوصول إليه أبدا بين أعضائها. وبالمصطلحات الهيغلية يمكننا التحدث عن بزوغ «وعي للذات» لم يصبح فرديا بعد بل لا يزال جمعيا، و»مرتهنا» أيضا في صور إسقاطية.

فليس ثمة ما هو مدهش ضمن هذه الصلة في أن تظهر معابد متخصصة في هذا الوقت. ومع ذلك علينا أن نحفظ في الذاكرة أنه في النيوليتي ما قبل الخزفي لا يجب تخيل مجمع كهنوتي ولا طبقة محاربة، ولا حتى قطعات منظمة كانت لتترك آثارا ملحوظة أكان في تنظيم المساكن أو في تراتبية في المدافن. ويمكننا أن نصادر ببساطة وجود درجة متزايدة من التعاون الذي كان يؤمن تشييد الأبنية الجماعية كما وبالقدر نفسه استخدامها الشعائري. إن

السلطة الضرورية لإيصالها إلى هدفها يمكن أن تتأتى بقدر متساو من اجتماع للقدماء أو من كبار العائلة أو من إنفساخ «طبيعي» ما في جسم المجتمع. والذي يقدم لنا علم السلالات عينة كاملة من النماذج الممكنة حوله.

إن هذا التنظيم الجنيني كان ليكفي في كل حال ليحرض ليس فقط «إحتفالات» بل وانطلاقات جماعية وتوسعا باتجاه أراض جديدة، أكان قد سبق إعمارها من قبل آخرين أم لا. ونلحظ هذا التوسع منذ المراحل الأولى من الـ PPNB الذي أتينا على عرضه. وكنا قد اعتقدنا أننا كشفنا في الأطر العقلية للثقافة المقوم الطاقي الذي كان قد حزضها. وسنتحقق الآن من أن هذه المنافذ الإستعمارية قبل عام 7500 قبل الميلاد ما كانت إلا تمثيلا مسبقا لهجرة أوسع بكثير ستكون واقع الـ PPNB الحديث.

الهوامش

1. يؤدي ذلك أيضا بالنسبة للحالة الراهنة إلى حذف نمط ثان من التفسير يجعل، على امتداد انتشار النيوليتي باتجاه أوروبا، السبب الرئيسي لإنتشاره في الفعالية الإقتصادية لنمط المعيشة الجديد (انظر Renfrew، 1990).

2. Hodder، 1982.

3. Hodder، المرجع نفسه، 1989.

4. كان ذلك من جهة أخرى المواقف التقليدية لعلم الإناسة الأمريكي، انظر Binford، 1972، ص، 208 – 243.

5. Vernant، 1990.

6. Vernant، المصدر نفسه، ص. 20.

7. Hodder، المرجع السابق، ص. 8 – 9.

8. Caquot وآخرون، 1974.

9. Cauvin J.، سيصدر لاحقا.

10. وليس الرؤوس ذات الفرضات الأكثر تطورا والتي توجد أمثلة عليها في المريبطي وفي الأسودي كما في الـ PPNB نفسه (انظر أعلاه).

11. نشير مع ذلك إلى أن الفترة المتوسطة، بين 11000 و 8000 قبل الميلاد تبدو غير ملحوظة في البيضا.

12. Legges, in Moore et al.، 1975، كما وبخاصة معلومة غير منشورة بعد لهذا المؤلف في مؤتمر فالبون Valbonne حول النطوفي في عام 1989 (ذكره Helmer، 1992، ص. 147).

13. Helmer، المرجع نفسه.

14. Hesse، 1984.

15. Digard، 1990، ص. 215.

16. Aurenche، 1981، ص. 185.

17. Cauvin J.، 1978، ص. 61؛ انظر لاحقا.

18. Flannery، 1972، ص. 39.

19. Flannery، المرجع نفسه، ص. 30؛ Aurenche، 1981، المرجع السابق ذكره، ص. 188 و 1980، ص. 52.

20. Aurenche، 1981، ص. 87.

21. لقد رأينا أن جرف الأحمر بدأ في الفترة نفسها بتقديم مبان شبه مستطيلة إنما ذات زوايا مستديرة، بحيث أنه كان يتم تجنب «مشكلة الزوايا» فيها (Stordeur، سيصدر لاحقا). ولم تظهر المساكن ذات المحيط الزاوي فعليا إلا مع نهاية الإعمار في الموقع (معلومة قدمها لي بشكل شخصي).

22. Dunand، 1973.

23. Aurenche، المرجع نفسه، ص. 192.

24. يمكن أن توجد من جهة أخرى مداخل مستطيلة أمام الـ«tholoï» الدائرية عند الحلفيين... انظر Aurenche، المصدر نفسه.

25. Maréchal، 1993. إن هذه الأشياء التي مثل الشكل الهندسي عليها لنفسه دون أن تمليه اعتبارات نفعية يجب تمييزها بالتأكيد عن «الحجارة الدقيقة الهندسية» التي ظهرت في المشرق مع «أشباه المنحرفات» في الكباري الهندسي. ولم تكن أشكال هذه الأخيرة سوى نتيجة عقلية تقنية تطبق بشكل منهجي على نصال صوانية حركات بسيطة ومعروفة منذ وقت طويل (صنع وجه وقفا) من أجل مجانسة التسليحات المخصصة للإدراج في حوامل مركبة (.Cauvin J، 1983، ص. 263).

26. لقد اقترحت شماندت ـ بيسيرا Schmandt-Besserat (1978)، بعد أن صدمت بغزارة القطع التي من هذا النوع من الطين المشوي في العصرين المديني وما قبل المديني، أن نرى فيها حصيات تعداد *calculi*، أي أدوات للحساب (انظر أيضا: Le Brun، 1985). إن هذا الاقتراح معقول جدا في الوقت الذي استقر فيه اقتصاد تجاري، لكنه لا يتوافق بشكل جيد مع الندرة النسبية لهذه القطع في العصر الأقدم حيث كانت تبدو، مثل الأشكال الهندسية التي ظهرت تدريجيا في الحلي، أنها ظهرت أولا من إنتاج فكري. انظر Chevallier و Gheerbrandt، 1982، و Barthélémy De Saizieu، وهو سيصدر لاحقا، و Maréchal، 1995.

27. كما يقول ميشيل سير Michel Serres بالنسبة لانبثاق الهندسة اليونانية، فإن «شروط نمط ديني أو ميتافيزيائي هي أكثر حسما من الأسباب الإقتصادية أو الإجتماعية» (Serres، 1993، ص. 307).

28. Eliade، 1984، ص. 55.

29. في الهيروغليفيات المصرية كانت إشارة الدائرة تبسط المشيمة. وإننا لنجد معاني مشابهة في مناطق ثقافية أخرى. انظر مثلا Griaule et Dieterlen، 1991، ص. 132. حيث تحتفظ الدائرة المقسومة داخليا عند الدوغون Dogons في مالي بمعنى المشيمة نفسه.

30. الكتابة النقوشية الأولى في بلاد الرافدين من الألف الخامس ترسم المستطيل للدلالة على البيت.

31. ربما لأن الأمر كان لا يزال متعلقا عند هذه المرحلة بـ «مساعدة» الطبيعة أكثر من السيطرة عليها.

32. ليس ثمة والحق يقال أي برهان في النيوليتي كله ما قبل الخزفي في المشرق (كما ولا في أي مكان آخر...) على أن الأمومة الرمزية قد أصبحت ملموسة ومتحققة في عمل المجتمع من خلال سيطرة أنثوية. حتى وإن كان ثمة اعتبار خاص للنساء يظهر فيه بشكل محتمل. انظر Cauvin J.، 1978، ص. 136.

الجزء الثالث

الهجرة الكبيرة

الفصل الثالث عشر

الإشكالية الحالية لانتشار النيوليتي

الثورة النيوليتية التي ولدت في الشرق الأدنى ستُصدَّر الآن. إن فرضية النولتات المحلية التي تمت في مناطق مختلفة من الأرض بشكل مستقل، والتي دُعمت لفترة طويلة كرد فعل ضد ما سمي، ليس دون نفاذ صبر، «سراب الشرق أدنى»، تفقد أكثر فأكثر شعبيتها، على الأقل فيما يخص أوروبا والشرق الأوسط وربما أيضاً أفريقيا الشمالية. وهي تخفق قبل كل شيء حول هذه القائمة المدهشة بغناها من الأنواع النباتية والحيوانية المدجنة في الشرق الأدنى بين 9500 و 7000 قبل الميلاد، وهي أنواع لم يكن بعضها كما رأينا موجوداً إلا هنا في حالته البرية، في حين أن أنواعاً أخرى منتشرة بشكل أوسع كانت قد دُجنت فيه أبكر من أي مكان آخر وانتشرت بشكلها المدجن في الوقت نفسه مع الزروع. ولنذكّر بأن مجموعات نيوليتية من المشرق كانت تزرع قبل 7500 قبل الميلاد القمح والشعير والشيلم بالنسبة للزروع، والجلبان والعدس والفول والبيقة والحمص بالنسبة للبقوليات، والكتان من أجل استخدامه في النسج. وإذا كان عالم النبات دانيال زوهاري Daniel Zohary قد توصل وفق معايير مورثية إلى النتيجة بأن قائمة هذه النباتات كلها كانت قد دُجنت خلال مهلة زمنية قصيرة جداً وعلى أرض محدودة[1]، فقد رأينا أنه إضافة إلى الكمون من الأنواع القابلة للتدجين الذي كان يتوفر للبشر من حولهم كان ثمة «الحماس المُدجِّن» الذي يذكره جان بيير ديغار Jean-Pierre Digard والذي عملنا في هذا الكتاب على تحديد أصوله النفسانية القديمة. وهذا ينطبق بالأحرى على المجال الحيواني، حيث كان الكلب وحده، منذ الباليوليتي الأعلى الأوروبي، أقدم رفيق للإنسان. في حين يبدو أن الحصان كان قد رُوِّض قبل ذلك بكثير في سهول أوكرانيا[2]. وبالمقابل، فإن ثدياتنا الرئيسية المغذية، الماعز

والخروف والثور والخنزير. كانت قد دُجنت في الخطوة المنشئة للحضارة نفسها، في المنطقة نفسها والزمن نفسه. وهذه هي الحيوانات التي نجدها في الزوايا الأربع من العالم القديم منذ بداية النيوليتي.

إسهام البيولوجيا الجزيئية

يضاف إلى هذا الإنتشار للأنواع المدجَّنة، من أجل برهان الهجرات البشرية التي جلبتها. الطيف المورثي للشعوب الأوروبية الحالية[3]. ويبدو من خلاله أن الشرق الأدنى كان قد ساهم حقاً في إعمار أوروبا، وذلك وفق صيرورة تتخامد آثارها على التركيب المورثي للشعوب الحالية كلما ابتعدنا عن نقطة الإنطلاق: فمن الثابت أن هذا «الإعمار» لم يتم في أرض خاوية وأن الإسهامات الإنسانية الخارجية المنشأ قد ذابت في عدد متناقص تدريجياً مع الشعوب السابقة الوجود من البلقان وحتى اسكنديافيا. ويعتقد صاحبا هذا التحليل، وهما ألبرت أمرمان Albert Ammerman وكافالي ـ سفورزا L. L. Cavalli-Sforza، أن الإنتشار النيوليتي وحده قد اكتسى في الماضي درجة من العمومية كافية من أجل تفسير الظاهرة. وترجع إليهما أيضاً نظرية «موجات الطليعة» (waves of advance)، حيث يُحسب فيها أن هذا التوسع قد تقدم باتجاه الغرب بسرعة وسطية تساوي كيلومتر واحد في السنة.

إسهام اللسانيات

وثمة منهج علمي ثالث، هو اللسانيات التاريخية، يرى الإستعمار النيوليتي الخارج من الشرق الأدنى كمعامل ناشر للغات الهندو ـ أوروبية في أوروبا وآسيا[4]. ونحن نعلم أن النظرية التقليدية لتوسع اللغات الهندو ـ أوروبية باتجاه أوروبا الغربية وآسيا، وهي نظرية غوردون شايلد ثم ماريجا غيمبوتاس Marija Gimbutas، كانت تجعلها تنبثق نحو الألف الرابع قبل الميلاد من بؤرة بدئية تقع في السهوب الروسية لنهري الدون والفولغا. وكان هذا الإنتشار ليبيسّر حينها بتطور الإقتصاد الرعوي والتعدين والحصان والعربة ذات

العجلة. وقد عارض توماس غـامكريليدز Thomas Gamkrelidze وإيفـانوف V. Ivanov هذه النظرية بواقع لساني: فـ «قُبَيل الهندو ـ أوروبية»، التي تم التوصل إلى إعادة تشكيلها بمقارنة اللغات الهندو ـ أوروبية الحالية، تشتمل مـن جهـة علـى أغلبيـة مـن الألفـاظ ذات الطبيعة الأرضية والزراعية (الأنواع والأدوات)، ومن جهة أخرى على مصطلحات تشير إلى النباتات ومناظر الجبل. وهي مختلفة جداً عن مصطلحات السـهوب المقترحـة مـن ماريجـا غامبوتاس. ومذاك فـإن الأنـاضول هـي المقتَرَحـة بـالأحرى كمنطقـة إنطـلاق لهـذا الإنتشـار اللساني ونولتة أوروبا كشعاعها الإقتصادي.

ويعود إلى عالم ا لآثار كولن رينفرو Colin Renfrew تقديـم تـأليف مـدو في عـام 1987[5] لمختلف هذه الثغرات النظرية وذلك بأن قابل من جديد نتائج البيولوجيـا الجزيئيـة ونتائج اللسانيات مع المكتسبات الحديثة لعلم الآثار. وبالتالي فإن مـا يعتـبره هـو كناشـر لـما قبل اللغات الهندو ـ أوروبية ابتداء من الألف السابع تبعـاً لصـيرورة الموجـات الطليعـة هـو نولتة أوروبا ابتداء من الأناضول، والمعتبَرة كاستعمار حقيقي مع إسـهام للشعوب الجديـدة. وقد وسع نظريته منذ فترة أحدث[6] إلى ما وراء هذه العائلة من اللغات بـالرجوع إلى الفرضيـة المسماة «الإقليمية nostratique» للسانيين الـروس. وفي الواقـع، إلى مـا وراء التجانسـات في المفردات وشكلانية الكلمات والتصويت التي تسـمح بطريقـة المقارنـة كشـف عـائلات لغويـة يُفترض أنـها مشتقة من أصل مشترك (على سبيل المثال العائلة الهندو ـ أوروبية)، فقد لوحظ أن بعض هذه العائلات نفسها كـان يمكـن أن تمثـل فيمـا بينـها بدرجـة كافيـة تجانسـات لتُجمَع بدورها في «عائلات كبرى» تُعيد أيضاً إلى أصل مشترك. وهكذا إنما يكـون ثمـة لغـة قبلية «إقليميـة »[7] هـي في آن واحـد أصـل العـائلات الهنـدو أوروبيـة والشـامية ـ السامية والعيلامية ـ الدرافيدية والأورالية الألتائية، أي معظم اللغات المتكلمة في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا. ويصل كولن رينفرو هذا الإستنتاج بنظرية للـ «فلقـات الأربـع» للنيوليـتي المشـرقي الأول[8]، أي للمناطق الأصلية الأربع للنولتة وهـي وفقـه المشـرق والأنـاضول وزاغـروس وربمـا تركمنستان. ويمكن لكل من هذه الأرومات الأربع، الذي ظـهر ابتـداء مـن جماعـة ابتدائيـة ذات لغة إقليمية ، أن يعطي على التوالي أربعة اتجاهات للتوسع الزراعي الرعـوي وللتمـايز اللساني في آن واحد: الأناضول باتجاه الغرب (البلقان وأوروبا) مع ما قبل الهندو ـ أوروبي، والمشرق باتجاه الجنوب (الجزيرة العربية وأفريقيا) مع ما قبـل السـامي، وزاغـروس باتجـاه الشرق مع ما قبل اللغات العيلامية الدرافيدية، والتركمانستان أخيرا باتجـاه آسيا الوسـطى

مع لهجات العائلات الأورالية والألتائية. ومن الطبيعي أن هذه النظرية المثيرة جداً يمكن أن تغطي بشكل جيد جداً بعض الوقائع ولكنها على المستوى الحالي للأبحاث الآثارية لا يمكن أن تتعدى في نظر مؤلفها نفسه أكثر من كونها فرضية نظرية، بحيث يبدو له الإتجاه الأوروبي فيها هو الوحيد حالياً المدعم بشكل كاف.

الصعوبات الآثارية

كان يمكننا أن نستنتج من الفصول السابقة أن مفهوم «الأقسام الأربعة» للنولتة البدئية بحسب كولن رينفرو، في نظر عالم ما قبل تاريخ مشرقي، أقل فأقل قبولاً وفق هذا الشكل. وهي تشتمل في الواقع على تقسيم «المنطقة النووية» التي تحدث عنها روبرت بريدوود إلى أربعة أقسام بعد أن أعيد تحديدها من منظور علم النبات القديم بواسطة دانيال زوهري وماريا هوف[9] Maria Hopf، حيث اعتُبر فيها كمنطقة شاملة ومتزامنة للإنبثاق الأول للزراعة والتدجين كامل المنطقة الجبلية في الشرق الأدنى والأوسط التي تحف بالهلال الخصيب والتي توجد فيها الأسلاف البرية للزروع المدجّنة. وقد رأينا أن هذا الوجود الوحيد لم يكن كافياً وأنه لم يكن ثمة تزامن بين نولتة المشرق ونولتة بقية «الأقسام». فهل كانت هذه الأخيرة هي الأماكن التي وصل إليها أول انتشار انطلاقاً من الممر المشرقي. لقد بات هذا مثبتاً بالنسبة للأناضول، ومحتملاً في رأينا إنما لا يزال قابلاً للنقاش بالنسبة للمناطق الأخرى. ومع ذلك، فإن الأناضول يبقى ممراً إجبارياً فيما يتعلق بالإنتقال إلى البلقان، وهذا أمر لا شك فيه أبداً.

إن الصعوبات الآثارية الرئيسية ذات طبيعة مختلفة[10]. فعالم اللسانيات يطلب من عالم الآثار أن يزوده بحامل تاريخي ملموس لإعطاء وجه بشري لانتشار لغاته: فإن يكون المتكلمون بها قد مروا عبر أراضي شاسعة هو في الواقع الشرط الذي لا غنى عنه لهذه الإنتقالات عبر مسافة كبيرة. وقد رأينا أن وجود الحيوانات والنباتات التي وصلت هي أيضاً من الشرق الأدنى إلى كامل أوروبا النيوليتية كان الإشارة المتعذر ضحدها لمثل هذه المسيرة. لكن الطبيعة الدقيقة لهذه الحركات البشرية أقل وضوحاً بكثير: وفي الواقع فإن التيار النيوليتي وحده المسمى «الدانوبي»، والذي امتد تدريجياً في الألف السابع من سهول

هنغاريا حتى الحوض الباريسي. ومساكنه المميزة و«فخـاره ذا التزيين الخطـي»، الـذي لا يقل شهرة على الرغم من بعض التحولات التدريجية. يجسـد «الحالـة المدرسـية»، حيـث نشهد فعلاً الطليعة الملموسة لشعب من المزارعين ـ المدجِّنين المتحضرين والذي كان يبـني في كل جيل قرية جديدة أبعد بعشرين كيلومتراً[11]، وذلك حتى وصلوا إلى الأطلسي. وفي طريقهم لم يحتاجوا أبداً إلى الإختلاط مع شعوب أخرى وبقيت سماتهم الثقافية معروفة على امتـداد هذه المسيرة الطويلة الممتدة على عدة قرون.

ولكن ثمة هنـا كافـة الحـالات الأخـرى الأقـل وضوحـاً: فـهناك أولاً الحـالات، وبخاصة في البلقان. حيث انبثقت ثقافة نيوليتية جديدة تماماً بشـكل منقطـع بالتـأكيد عـن الصيادين ـ القاطفين المحليين ولكن إنما دون أن يكون أصلها الخاص محدداً ثقافياً. وحدها الأنواع المدجَّنة كانت تشهد مع الوضع الجغرافي للمنطقة لصـالح أصـل مـن الشـرق الأدنـى. وبالنسبة لبعض المؤلفين يكفي ذكر انتقال الأفكار دون أن ينتقل الأشخاص أنفسهم، أو على الأكثر يذكرون التبادلات التجارية لتفسير التأثيرات المتلقاة من الشـرق الأدنـى علـى خلفيـة إبداع أهلي. وحتى بالنسبة للتيار الدانوبي، الذي يمكن بسهولة أن نعيد بناء خط سيره مـن السهوب الهنغارية إلى فرنسا. فإن هذا العمل أقل سهولة بكثير بالنسبة للجزء الأول من الــ «مسيرة» بين الأناضول ومركز أوروبا. وتبـدو الثقافـة الفخاريـة الخطيـة مشـتقة مـن خـلال تحولات متتابعة من النيوليتي القديم في شمال اليونان[12]. لكن هذا الأخير كان قـد انبثـق في تساليا «مسـلحاً تماماً». بالتأكيد منقطعاً كلياً عن القمع الميزوليتي (العصر الحجري الوسـيط) إنما دون أن يشير إلى مرجع محدد. أكان في العمـارة أو في الصناعـات، إلى الإتصـالات مـع الشرق الأدنى الذي يُعتبر مع ذلك كمصدر له. وذلك بأخذ الأنواع المدجَّنة الموجودة والصفة الأهلية allochtone المؤكدة لهذه الثقافة الجديدة بعين الإعتبار في آن واحد[13].

وثمة مجموعـة ثانيـة مـن الحـالات تطـرح مشـكلات أكـثر صعوبـة: وهـي كافـة الحالات. التي يستخدمها من جهة أخرى مؤلفون كثر[14] من أجل معارضة أو تعديل فرضية كولن رينفرو. حيث تتم النولتة ليس بانقطاع إنما باستمرارية ثقافية مؤكَّدة مـع الصيـادين ـ القاطفين الأهليين. وهذه هي الحـال بخاصـة في اليونـان نفسـها. في فرانشـتي Franchti في أرغوليد[15] Argolide وعدد كبير مـن الثقافـات النيوليتيـة في أوروبـا حيـث يُفـرض الفخـار وإنتاج المعيشة على مواريث تقنية. وبخاصـة حجريـة. محليـة تمامـاً. ونتكلـم عندهـا عـن تأثيرات وعن بذور وحيوانات مستوردة بالنسبة للأنواع المدجنة[16] دون أن يبدو هذا النمـوذج

متوافقاً في كل حالة مع فرضية الهجرة كما لا يبدو متوافقاً مع التحولات اللسانية التي تستطيع هي وحدها مع ذلك أن تبررها.

وقد اقتُرح تنوع كبير من الحلول بين القبول البسيط بنموذج رينفرو والرفض الجذري للإنتشار، على الأقل بشكل الهجرة. ويبدو حل مرك وكميل زفلبيل Marek et Kamil Zevelebil أحد أكثرها منطقية: فهو يقبل ظاهرة محدودة من الإستعمار البدئي، منذ الفترة الممتدة بين 7000 و 5500 قبل الميلاد، محدودة بالبلقان والمجرى الدانوبي والمتوسط الجنوبي الشرقي. وقد أمكن للإنتشار أن يكتمل عبر مراحل كثيرة لاحقة، بما فيها المرحلة الأخيرة الخاصة ببداية عصر المعادن وموافق تماماً للنموذج الكلاسيكي لماريجا غيمبوتاس[17].

ومع ذلك تبقى صعوبات نظرية كثيرة. فمن جهة تظل أنماط الإنتشار النيوليتي كما نرى ذلك غامضة بما فيه الكفاية. طالما أنه يجب أن نختار لكل حالة على حدة بين فرضية المهاجرين الذين نسوا حسب الظاهر ما أن اجتازوا بحر مرمرة الذكريات الثقافية لمنطقتهم الأصلية وبين فرضية الشعوب المحلية المتثاقفة وفق صيرورة لا نعرفها: إن «انتقال الأفكار» ينقصه كفرضية في الواقع الكثافة الملموسة، وتبدو «التجارة» في النيوليتي القديم لا تزال هامشية جداً بحيث لا يمكن لها تفسير كل شيء. وبشكل خاص فإن محرضات الإنتشار النيوليتي ليست أكيدة مهما كان الشكل الذي ننسبه له. وقد حاول بعضهم عبثاً التفسير[18] أن الإقتصاد الجديد، بما هو أكثر إنتاجية بكثير من الصيد والقطاف، قد ساعد على صعود ديمغرافي لا ينفصل عن سلوك توسعي، أو أنه للأسباب الإنتاجية نفسها لم يستطع الصيادون ـ القاطفون المحليون إلا أن يعتمدوا بسرعة نموذج الإستثمار هذا المتفوق على نموذجهم. وكان تحليلنا السابق لشروط انبثاق إنتاج المعيشة في المشرق قد جعلنا حذرين تجاه هذا النوع من الحجج. وفي أوروبا نفسها لا يبدو أن المزارعين الأوائل، الذين واجهتهم إعاقات عديدة بيئية كما وتقنية، قد استفادوا من تفوق بهذا الوضوح على الصيادين القاطفين. ولا أن قابلية العيش الإقتصادية وكثافة هؤلاء الأخيرين قد قدرتا بمستوييهما الحقيقيين[19]. فيبدو أنه يمكننا إذن فيما يتعلق بالنولتة الأوروبية الوصول إلى نتائج مشابهة بالقدر نفسه لنتائجنا بالنسبة للنطوفي في المشرق: فلم يكن على الميزوليتيين أن يغيروا في البداية المنظومة الإقتصادية بسبب عدم كفاية المنظومة التي كانوا يطبقونها في ذلك الوقت.

وجهة النظر الشرقية

إن الإنتشار النيوليتي ابتداء من الشرق الأدنى هو حالياً في قلب نقاش محتدم متعدد المناهج. والسبب في ذلك ليس فقط أصل الحضارات الزراعية ـ الرعوية في أوروبا وخارجها، بل وأصل موروثنا المورثي واللغات التي نتكلم بها. فإذا كان من الصحيح أن الأساسي من هذه الزعزعات قد جاء من الشرق الأدنى، فإن ذلك يعني أن عالم ما قبل التاريخ الشرقي الذي يقف عند بداية صيرورة الإنتشار يوجد في موقع يسمح له بالتساؤل عن أسبابه ونماذجه.

وقد رأينا تحديداً أنه منذ نهاية الألف التاسع وفي خضم أولى التجارب الزراعية، كان ثمة ظاهرات انتشار تظهر مذاك في داخل الشرق الأدنى نفسه. وكان توسع الـ PPNB القديم والأوسط حوالي عام 8000 يجعلنا نستشف مجموعة معقدة من الإمكانيات والوضعيات النماذج: نولتة أهلية (ثقافات الـ PPNA والـ PPNB على الفرات)؛ الإستعمار الذي يدخل النولتة على كينونة ثقافية سابقة الوجود (PPNB طوروس)؛ الإستعمار الثقافي دون إسهام إقتصادي لنيوليتي سابق الوجود (PPNB فلسطين)؛ المثاقفة الهامشية بلا إسهام بشري (PPNB منطقة دمشق)؛ وربما حتى النولتة الظاهرة مع إسهام ثقافي محدود جداً وبلا تحول اقتصادي حقيقي (»ثقافة أسيكلي» في الأناضول المركزية)، وهي والحق يقال نسخة غير معروفة بشكل جيد لا زلنا لا نحدد بشكل جيد مركباتها.

وقد بينا أن هذه الدقة العلمية التي أظهرنا درجاتها لم تستبعد بحثا لتفسير موحد لكن المهمة سهلت فيه من خلال واقع أن ثقافة واحدة متوسعة، هي الـ PPNB، كانت داخلة عمليا في كافة حالات الإنتشار. ومن جهة أخرى، كان كل شيء لا يزال يجرى داخل المنطقة النواة، بالمعنى البيئي الذي يعطيه علماء الطبيعة لهذه الكلمة.

إن ما ندعوه، بين 7500 و 6300 قبل الميلاد بـ «الهجرة الكبيرة» يمثل، على أفق الـ PPNB الحديث والثقافات ذات الفخار المشتقة عنه تكثيفا للحركة السابقة من التوسع وخروجها من منطقتها البيئية البدئية، على الرغم من البقاء عند محيطها. وسنرى أنه خلال اجتياح هذه الأراضي الجديدة، التي تشمل مشاهد أميل للصحراوية subdésertiques كما وعلى وسط جزيري (قبرص). ستنتج بعدد كبير الوضعيات

النموذجية للنولتة الثانوية، بما فيها الوضعيات التي يصعب علينا التعرف فيها بالمقارنة الآثارية فقط على الأصل الثقافي للمهاجرين، والأكيد مع ذلك لأسباب أخرى. ونأمل أن هذا التحليل. الذي ييسره هنا أيضاً حصاد دولي كثيف للمعطيات التي تقربنا من زمن التأليفات. يساهم في توضيح بعض الأسرار الباقية من الإنتشار النيوليتي.

فيلزمنا إذن الآن أن نعود إلى وصف أكثر واقعية. وسنحاول بعد ذلك أن ندرك معناه.

الهوامش

1. Zohary، 1992. وبالمقابل كانت المحاولات الحديثة من أجل اقتراح تدجين محلي للعدس البري الموجود في فرانشتي (اليونان) وفي الأبورادور Abeurador (في هرول Herault في فرنسا) قد أبطلت من قبل علماء النبات أنفسهم (انظر بالنسبة لفرانشتي Hansen، 1992؛ وبالنسبة للأبورادور Willcox، 1991). وقد بين هانسن بشكل خاص أن العدس المزروع في فرانشتي كان مشتقاً من العدس البري في الشرق الأدنى (Lens orientalis) وليس من النوع المحلي الذي كان يقطف في الميزوليتي.
2. Helmer، 1992، ص. 98.
3. Ammermann et Cavalli-Sforza، 1984.
4. Gamkrelidze et Ivanov، 1985.
5. Renfrew، 1990، الترجمة الفرنسية.
6. Renfrew، 1991.
7. بالنسبة لأصل هذه الفرضية انظر Renfrew المصدر نفسه، ص، 6 – 7.
8. نظرية كان قد اقترحها سابقاً Sherratt et Sherrátt، 1988.
9. Zohary et Hopf، 1988.
10. Cauvin J.، 1972 b.
11. Demoule، 1989.
12. Demoule، المصدر نفسه.
13. Perlès، 1990.
14. انظر بخاصة Zvelebil et Zvelebil، 1988.
15. Perlès، المصدر السابق.
16. Dennell، 1985.
17. يفسر ذلك أن «المعجم» ما قبل الهندو - أوروبي يشتمل أيضاً على مصطلحات تشير إلى المحراث وحيوانات الركوب والعربة ذات العجلة وتجهيزاتها، والتي من المؤكد أنها لم يمكن أن تصل مع الإنتشار النيوليتي الأول.

18. Renfrew، 1990.

20. Dennell، المصدر السابق؛ Zvelebil et Zvelebil، المصـدر السـابق، ص. 579.

الفصل الرابع عشر

إتمام النولتة في «النواة المشرقية»

نعالج هنا الإثـني عشر قرنـاً المتديـن بـين 7500 و6300 قبـل الميـلاد كمرحلـة واحدة، وذلك على الرغم من أننا نستطيع أن نرى فيها فترتين منفصلتين[1] إذا أخذنـا بعـين الإعتبار شبه التعميم للفخار ابتداء من عام 7000 قبل الميلاد على مواقع مـن الشـرق الأدنـى والأوسط. وفي الواقع، فإن هذا التاريخ الأخير لا يمثـل في المشـرق أي توقـف ثقـافي جوهـري طالما أن العمارة والصناعات من موروث الـ PPNB ستتابع تطوراً بلا انقطاع، وذلك مع تنوع جغرافي ببساطة يتنامى باستمرار شرط أن تُختَرَع أنماط متاع جديدة: والفخار مـن بـين هـذه الأنماط الجديدة.

نقصد بـ «النـواة المشـرقية» المنطقـة السـورية الفلسـطينية بشـكل أساسـي حيـث ظهرت وحيث توطدت تدريجياً، من الألف العاشر إلى الألف الثامن، المجتمعات الحضريـة الزراعية ـ الرعوية. ونشـمل فيـها الإمتـداد في تركيـا الحاليـة لسـهوب الجزيـرة حتـى أولى الجبال بما فيها طوروس الشرقية[2].

إن العدد الإجمالي للقرى المعروفة يزداد، فيمـا يخـص المواقـع المنقبـة وفي الوقـت نفسه تلك التي حُددت خلال التحري. ويبدو أن ذلك يتوافـق جيـداً هـذه المـرة مـع ازديـاد ديمغرافي إجمالي، وذلك بقدر ما تبلغ بعض القرى أبعاداً لم تُقارب حتى ذلك الوقت. بل إن تبايناً شديداً سيظهر للمرة الأولى بين شمال وجنوب المشرق.

كان الإقتصاد الزراعي قد انطلق في نهاية الألف العاشـر بشـكل متـزامن في كـامل الممر الغريني، من الفرات إلى الأردن. وقد بدا لنا شمال سوريا بعد ذلك في الـ PPNB القديم

مركزاً حاسماً، ونقطة انطلاق انتشار ثقافي تجاوز باتجاه الجنوب البحر الميت. بل إن الـ PPNB الأوسط الفلسطيني بلغ كل ما يرجوه في إنجازاته المادية كما والعقائدية من مراحل الجزيرة أو الأناضول الشرقية. وكما رأينا فإن بدايات التدجين الحيواني كانت حتى نتيجة المبادرات المتزامنة تقريباً في مقاطعتين من المشرق. وسيتغير الوضع منذ ذلك الحين فصاعداً عبر مراحل: فالجنوب سيُفرغ نفسه شيئاً فشيئاً من إنشاءاته الحضرية، الأمر الذي لا يعني بالضرورة أنه يخلي سكانه؛ وبالمقابل فإن الشمال سيضاعفها وهنا إنما نستطيع التحدث عن «اكتمال» للنولتة، وذلك بقدر ما سيظهر في قائمته آخر العناصر الناقصة من النيوليتي بالمعنى الأكثر تقليدية والأكثر كمالاً للمصطلح أي الفخار وبعض الأنواع المدجنة التي لم تُصادف بعد.

نضيف أن أولى الإنتشارات للنيوليتي الحضري خارج النواة المشرقية ستتم منذ 7500 قبل الميلاد ابتداء من نصفه الشمالي: ومذاك لم تعد الإختراعات التقنية والإقتصادية التي سوف يتم التمسك بها محصورة بهذا الجزء. وبالمثل، فإن البداوة الرعوية الجديدة التي ستكون موضوع بحث هنا (إنما بشكل خاص في الفصل 17) تشكل بذاتها معاملاً هاماً للإنتشار يتعلق هذه المرة بكامل المشرق، وبخاصة بالنسبة لانتشار النيوليتي إلى المناطق الجافة المتاخمة في كل مكان.

فالمخطط بأن نعالج على حدة، الآن أيضاً، المساحة البدئية للنولتة لا يستبعد بالتالي أن مناطق أخرى من الشرق الأدنى قد استطاعت بعد أن أصبحت منولتة أن تقدم في بعض المجالات وثائق أغنى بكثير. ويبرر ذلك من خلال المنظور التوسعي بوضوح الذي تفرضه علينا الوقائع، حتى وإن كان يمكن للـ «مركز» أن يخفت بالنظر إلى الإزدهار الجديد لمحطيه.

المشرق الجنوبي والمركزي في الـ PPNB الحديث: تعديل مكاني

لقد تم وضع خارطة الإنشاءات في الـ PPNB الحديث في المشرق (الشكل 45): وقد وصفنا في مكان آخر هذا التعديل الظاهر جداً في أماكن الإنشاء والبناء بـ «حمى

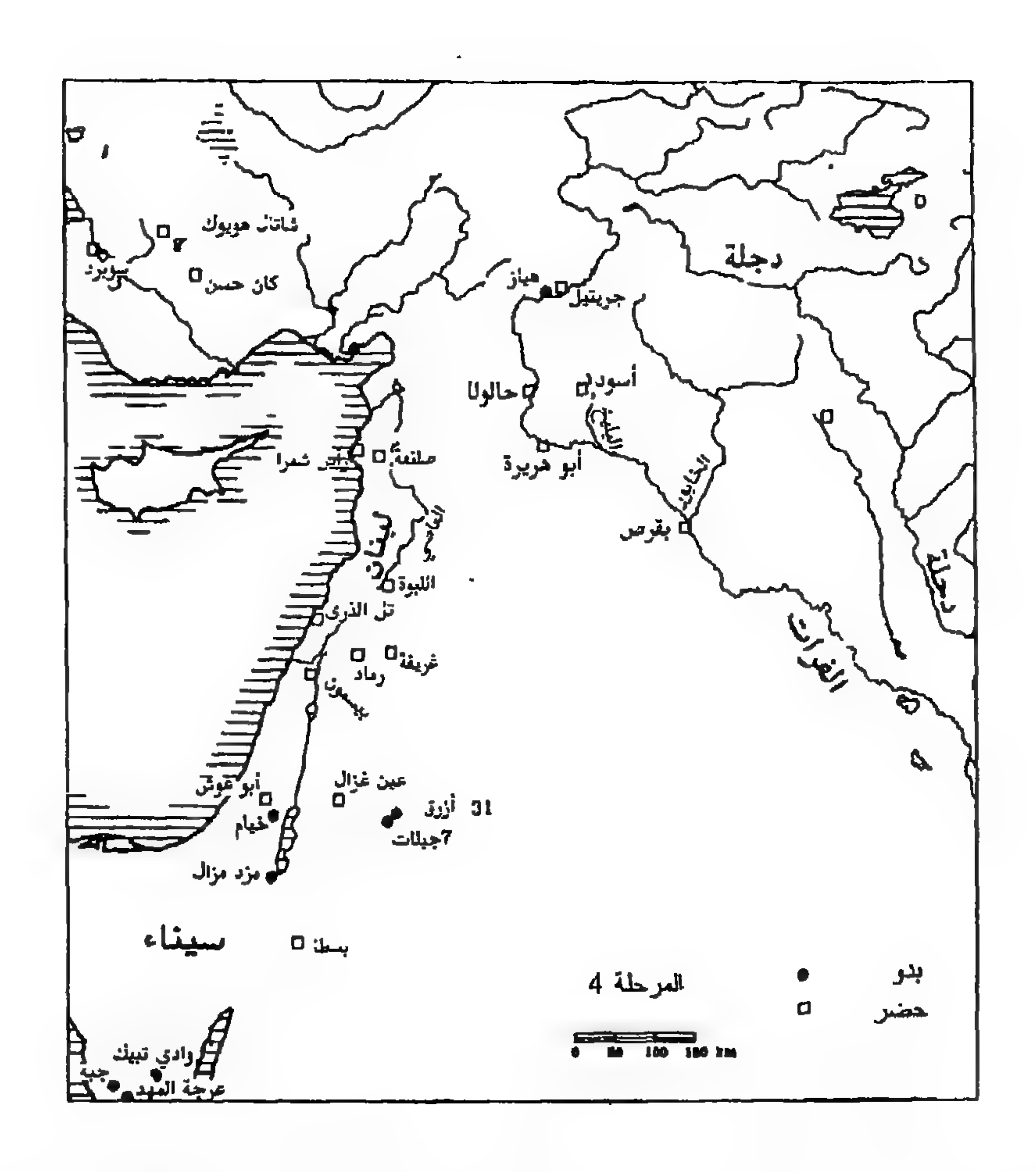
الإنتقال». وهو المتعارض بشدة مع استمرارية ثقافية لا تقل عنه يقيناً. فقد فرغ الجزء المنخفض من الأردن. حيث توقفت أريحا عن كامل نشاطها. لنحو ألف سنة كاملة. في حين استمرت بعض القرى في المرتفعات إلى الجنوب أكثر حيث حلت بسطه محل البيضا. وقد جرى كل شيء كما لو كان معظم المزارعين الحضر قد بدأوا يتركزون بشكل طوعي أكثر في المناطق الأعلى والأكثر مياه: جبال فلسطين والنقب. والناصرة والمجرى الأعلى من نهر الأردن. في حين أن عين غزال في الشرق ظلت مسكونة على الهضبة الأردنية.

وفي المشرق المركزي حلت مستوطنة الغريفة محل تل أسود في غوطة دمشق. ثم نشأ تل الرماد خلال القرون الأخيرة من الألف الثامن. على بعد نحو عشرين كيلومتراً خارج الغوطة. كانت الأماكن تتغير لكن الإعمار المحلي ظل مستقراً.

وباختصار. يمكننا أن نلاحظ. داخل هذه الأصقاع المنقبة من جهة أخرى بشكل جيد. وجود إسكان من القرويين البعيدين عن المركز بالنسبة للـ PPNB الأوسط، وذلك باتجاه الأطراف الجبلية والمشرق المركزي في آن واحد.

العمارة

لقد استمر المسكن في الرماد[3] وأبو غوش[4] والبسطه[5]. وهي مواقع استكشفت بواسطة التنقيبات، بالمخطط المستطيل ذي الجدران المبنية من الحجارة والأرضيات الكلسية من الـ PPNB الفلسطيني، باستثناء أنه في المشرق المركزي كانت البيوت كما رأينا وحيدة الخلايا بشكل أكثر طوعية. وإلى الجنوب تماماً نجد في قرية البسطه بيوتاً ذات عدة حجرات حيث ترتكز الأرضيات الكلسية على مصطبة مرصوفة مقطوعة بأقنية متوازية مغطاة بحجارة، وذلك وفق طريقة كانت قد لوحظت في الأناضول الشرقية، في نفالي تشوري، ومخصصة دون شك إلى خلق فراغ مجاري صحية[6] تحت المسكن: نجد إذن عودة انبثاق الحل التقني نفسه الأصلي تماماً داخل العائلة الثقافية في الـ PPNB إنما منزاحاً بشكل واضح عدة قرون وعلى بعد 800 كلم.



الشكل 45. خارطة الـ PPNB الحديث (7500 – 7000 قبل الميلاد. 8600 – 8000 قبل الآن) في الشرق الأدنى مع تحديد مواقع البدو.

ومع ذلك، فإننا نعرف أيضاً حالات أكواخ ذات حفر دائرية في الغريفة وفي السوية الدنيا من الرماد كما وبالقدر نفسه في مواقع صغيرة مثل تل إيلي Eli على بحيرة طبرية أو تل فرح في السامرة. فيمكن أن يتعلق الأمر بشعوب من موروث حضري تماماً إنما اعتمدت بشكل أكثر تأخراً من غيرها المخطط المستطيل: وهذا بلا شك هو حال الغريفة وقاعدة تل الرماد، بعد ما رأيناه من التشبه بالأقدمين في العمارة في منطقة دمشق خلال الـ PPNB الأوسط. ويمكن أن يتعلق الأمر أيضاً بجماعات كانت مترحلة سابقاً أعادت باختصار بحسب النموذج المعروف المراحل الأولية لفن البناء[7]. وهذا هو الحال في المشرق

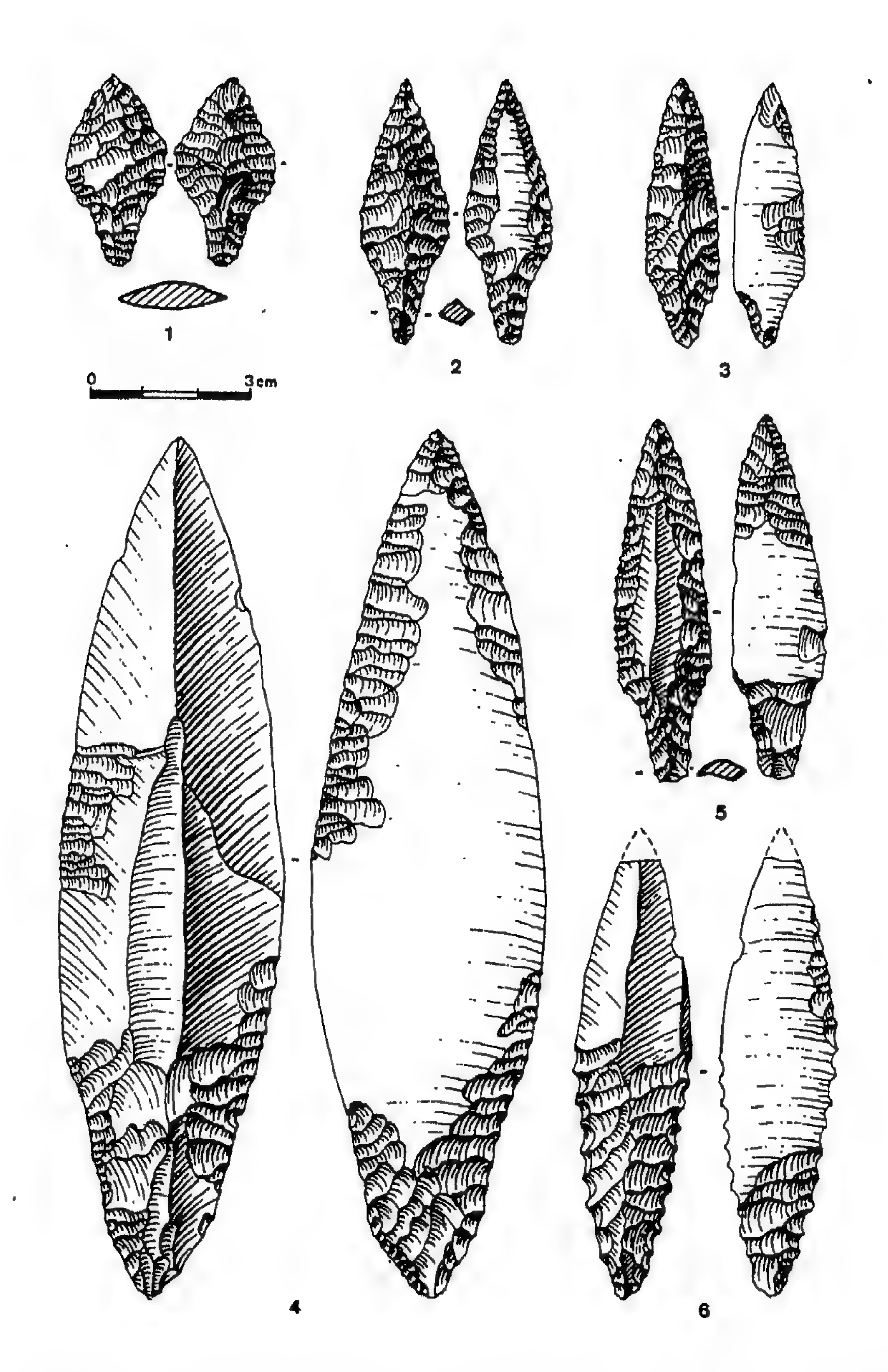
الجنوبي حيث يشهد هذا النوع من المواقع على الوجود الموازي للشعوب المتنقلة التي تفاجئنا، إذا أمكن القول، في الوقت نفسه الذي تنقطع فيه هذه الحركية لفترة طويلة أو وقتياً. وسنعود إلى هذا الجانب من الإستيطان الفلسطيني.

الصناعات

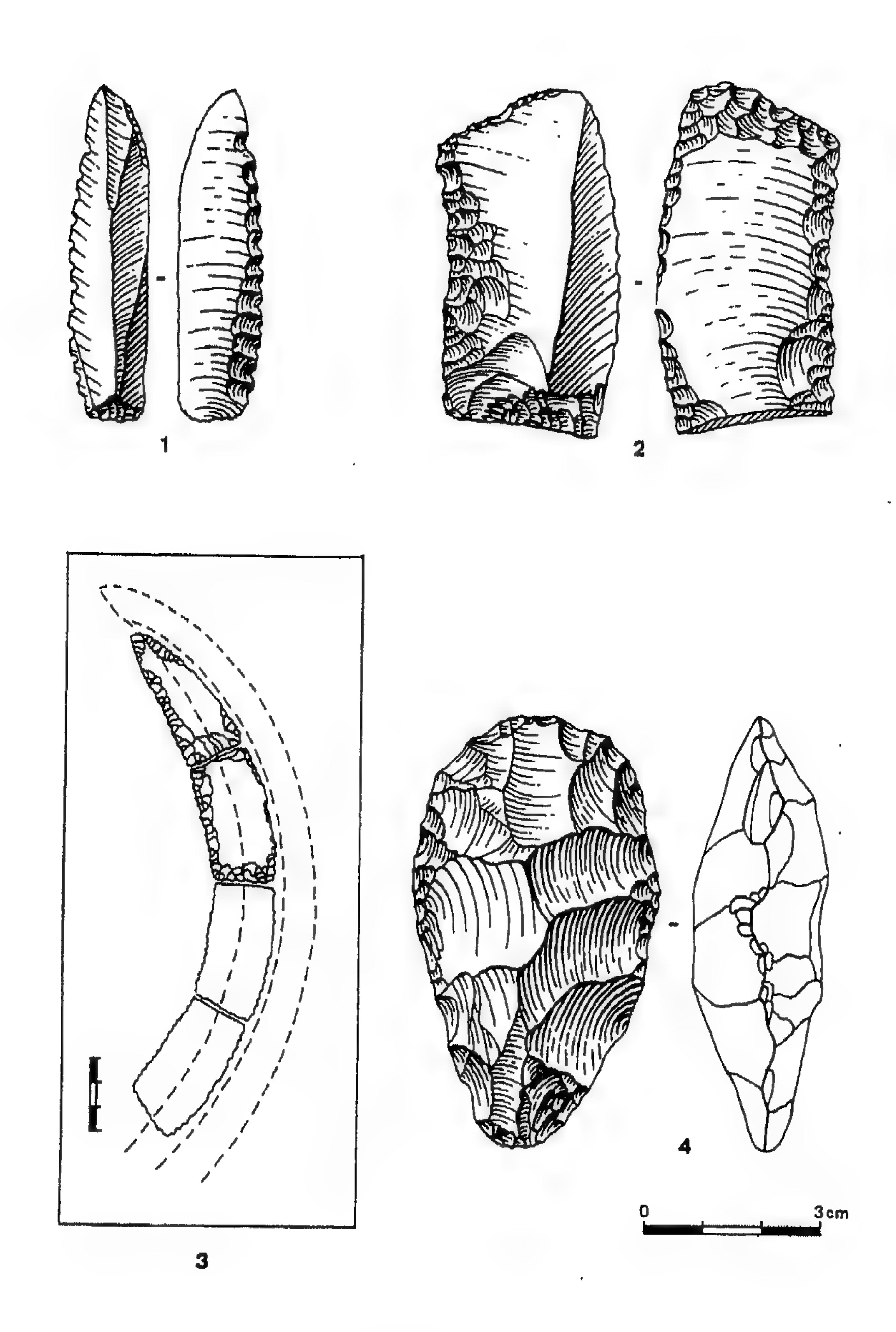
أياً كان نمط المسكن، فإن الأداة الحجرية ظلت هي نفسها. وقد توسع أيضاً بالنسبة للماضي تذوق الأسلحة: فالتشذيب النصلي الذي كان محدوداً بالسويقة أو برأس التسليحات بدأ الآن يغطيها أكثر. والتأثير قبل كل شيء جمالي (الشكل 46). ومن بين رؤوس السهام فإن نمط «رأس العمق»، الموجود في الـ PPNB الأوسط في المشرق المركزي من المنطقة الدمشقية (تل أسود) إلى شمال فلسطين (منهاتا)، نجده الآن في كامل الشرق الأدنى. وقد بقيت أيضاً في تل الرماد رؤوس ذات فرضات استمرت في تمييز المنطقة الدمشقية في موروث الأسودي والـ PPNB الأوسط في تل أسود II.

وثمة تعديل آخر يتعلق بالأداة الثقيلة: فقد حلت الفؤوس المنحوتة من الصوان، ذات القاطع المستقيم أو نصف الدائري الذي يتم الحصول عليه بعمليات اقتطاع مندفعة نحو المركز (الشكل 47: 4) والمصقول غالباً، بـ «مقدات» ذات وجهين من الـ PPNB الأوسط والتي لم يبق منها سوى بعض العينات . وقد صنعت هذه الفؤوس من المنطقة الدمشقية وحتى جنوب البحر الميت، حيث كان ثمة مجموعات فصلية تذهب بخاصة للنحت إلى الموقع المباشر للمصاطب الطبيعية من الصوان[8]. ومع ذلك فإن غالبية الأدوات الحجرية لم تتغير أبداً، في حين أن الصناعة العظمية وصناعة السلال بقيتا مستقرتين تماماً دون أي تغيير.

ثمة تجديد تقني وحيد هام يميز نهاية الـ PPNB الحديث: إنه يشهد على ضبط متنام لـ «فنون النار» طالما أنه بات يتم الآن تشكيل أواني من الكلس تسمى «الآنية البيضاء» تسبق وتحضر لظهور الفخار[9].



الشكل 46. تسليح الـ PPNB الحديث في تل الرماد (سوريا): رؤوس سهام (1 – 3، 5، 6) وخنجر (4). عن M.-C. Cauvin.



الشكل 47. أدوات الـ PPNB الحديث في تل الرماد (سوريا). 1 – 2: أجزاء من منجل. 3: إعادة تركيب لعناصر المنجل. 4: فأس من الصوان المنحوت. عن م. ك. كوفان.

وفي المجال الرمزي أخيراً كانت الإستمرارية مع ما سبق كاملة[10]: وكنا قد سبق ووصفنا عبادة الأسلاف في هذا العصر في تل الرماد. ونشير مع ذلك إلى الطريقة الجديدة في معالجة التماثيل الأنثوية الصغيرة. فقد ظهر في الواقع في تل الرماد حوالي عام 7000 قبل الميلاد نمط أسلوبي مستحدث: عنق متطاول ومطّ قذالي يشد الجمجمة باتجاه الأعلى والخلف (الشكل 48: 2 – 3). والفكرة المحتواة في هذه التشويهات غير واضحة. وسنجدها تحت أشكال مختلفة قليلاً وغير مرتبطة دائماً فيما بينها. بحيث يكون المط القذالي نفسه أحياناً موجوداً إنما على شكل تنكّر بكُعيكة من الشعر أو بعمرة مقرّنة. في الكثير من الثقافات الأخرى اللاحقة في الشرق الأدنى والأوسط[11]. ومن جهة أخرى يتم تثبّت الخيار التصويري الذي يحدد عيني التمثال الصغير: ففي رماد يتم استخدام قرصين من الصلصال متطاولين ومحزوزين، وهي تقنية خاصة تسمى «عين الأفعى» ستستعاد هي أيضاً بشكل متفرق في ثقافات أخرى كثيرة لاحقة على امتداد الشرق الأدنى والأوسط[12]. وفي مناطق أخرى. من الأناضول إلى إيران. أمكن اللجوء إلى طرق أخرى: الرسم وتعشيق القواقع والأوبسيديان والحُمر. والمهم هنا ليس التقنية بل الموضوع الذي تعبر عنه، وهو التأكيد على «النظر»، وهو إشارة محتملة إلى المظهر الساحر للإلهة.

. ولم يكن الفن الحيواني نادراً من جهته، إنما كان يُشكل في غالب الأحيان من الطين بحيث يكون من النادر التعرف عليه. ونجد إنجازاً مهماً منه في تل الرماد من العظم: فثمة استدارة مقطّعة تمثل على الأرجح رأس ماعز (الشكل 48: 1). وهو نوع لسنا معتادين أبداً على العثور عليه في التماثيل الحيوانية النيوليتية.

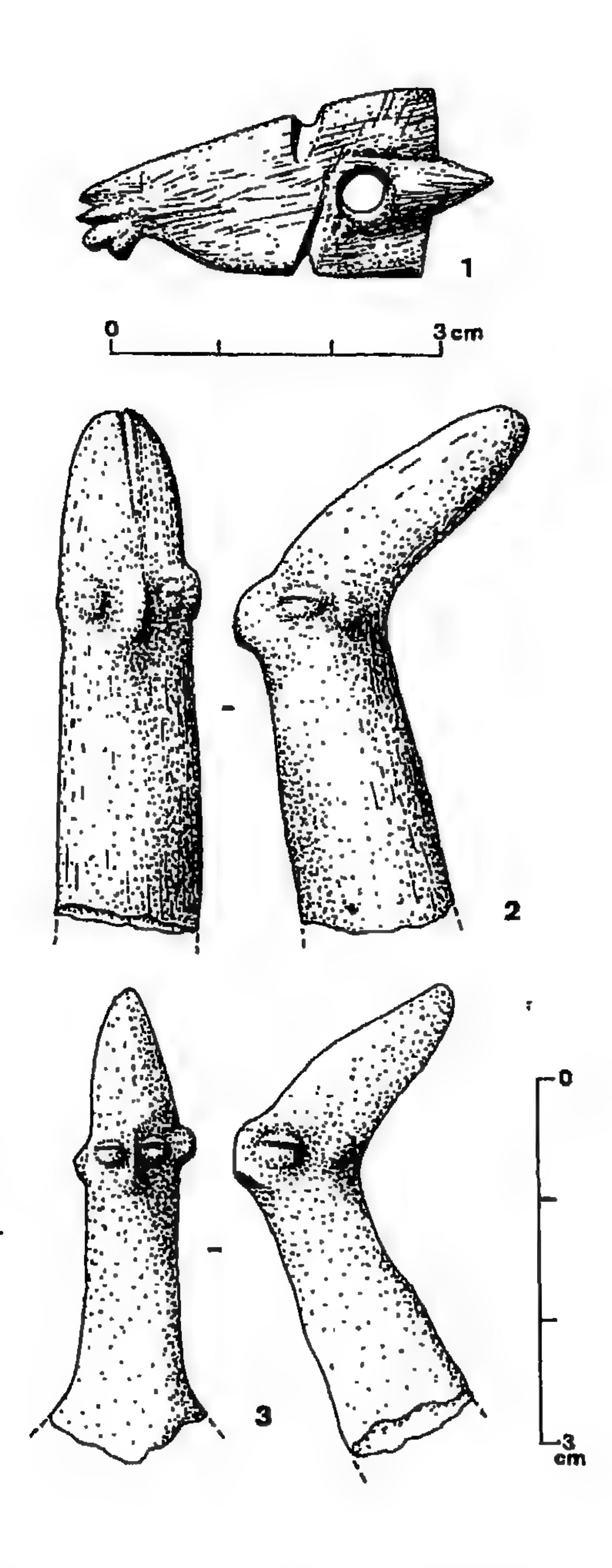
فالـ PPNB الحديث لا يشتمل إذن في السمات الجنوبية من هذه الثقافة على أي خفوت ثقافي أو اقتصادي. وعلى العكس فقد اغتنت الزراعة التقليدية (الشعير وبر القفقاس والقمح النشوي والبقوليات) في تل الرماد بأنواع جديدة (القمح العاري والكتان) وكان يربى خلاله في قرى كثيرة (البسطه والرماد) ليس الماعز فقط بل والخراف[13].

الهجرة

إننا لا نجد في الشرق الجنوبي ولا في المنطقة الدمشقية وثائق جلية حول المرحلة ذات الفخار التي يجب أن تلي الـ PPNB. وبعبارة أخرى. فليس ثمة أثر لتطور للـ PPNB في موضعه باتجاه الثقافات التالية لعام 7000 والتي تُشتق منه في مناطق أخرى. والإستثناء الوحيد الظاهر هو المرحلة الأخيرة في تل الرماد حيث تم الحصول فعلاً على فخار وحيد اللون مُلمَّع مماثل لفخار سهل العمق على الساحل، لكنه يظهر في إطار مخالف تماماً مع ما يسبقه. وذلك في أكواخ في حفر دائرية تغطي وتنقب الأرضيات الكلسية التي من الـ PPNB الحديث. ويشهد هذا الإنقطاع في الموروث المعماري بلا شك على وصول جماعات بدوية تحمل فخار شمال غرب سوريا[14].

وفي الشرق الجنوبي لم يعد هناك أبداً قرى حضرية خلال النصف الأول من الألف السابع[15]. وبالمقابل، تكثر المحطات السطحية غير المؤرخة بدقة بسبب التنقيبات إنما التي يمكن أن تُنسب جزئياً إلى هذه الفترة: إذ تكثر في الإمتدادات من التلال على الساحل الإسرائيلي السهام الصغيرة ذات التشذيب المغطي بالكامل والتي تركتها على الأرجح مجموعات متنقلة تنتمي إلى كامل الألف السابع وما بعده. وقد سمى جان بيرّو هذا الإنقطاع للحياة الحضرية بـ «الفجوة الفلسطينية»، متسائلاً إذا ما كان قد حصل في هذه المناطق الجافة نسبياً من قبل جفاف مناخي، مهما كان ضعيفاً، مما كان كافياً لجعلها غير صالحة للحياة الزراعية[16]. ولكن ليس لدينا أبداً في المشرق وثائق مباشرة على هذا التراجع المناخي. ومن جهة أخرى فإن الهجرة نفسها للحضريين أثرت أيضاً نحو عام 7000 قبل الميلاد بالمشرق المركزي وبالمناطق الأعلى والأكثر رطوبة من المشرق الجنوبي والأكثر ملاءمة للإقامة. فإذا استثنينا منشأة مستمرة في عين غزال وإعادة الإعمار الشاذة التي سبق أن ذكرناها في الرماد من قبل بدو رحل، فإن النصف الجنوبي كله من المشرق يبدو أنه قد فرغ حينها من منشآته الثابتة.

فما الذي حصل لسكانه؟ لقد فهمنا أن تغيراً في نمط الحياة مثل مرور من الحياة الحضرية إلى البداوة كان يكفي لكي يُفلتوا في جزء كبير من الإستكشافات الآثارية، إذ أن البدو لا يتركون في غالب الأحيان آثاراً يمكن التعرف عليها بالتنقيب. ويمكن أن يكونوا قد ذهبوا أيضاً ليؤسسوا قرى في أماكن أخرى. ولهذا فإننا عندما سنخرج بدورنا من النواة المشرقية من أجل تحليل هذه الأطراف سنجدهم وسنحاول عندها تفسير هذا الرحيل.



الشكل 48. فن الـ PPNB الحديث في تل الرماد (سوريا). 1: رأس أحد المعزيات (؟) من العظم. 2 – 3: رأسان أنثويان صغيران من الطين المشوي. عن كونتنسون.

وبالتالي فقد كان الـ PPNB حقاً، بالنسبة للحضارة الزراعية في المشـرق الجنوبـي والمركزي، تتمة ونهاية في آن واحد. وستظهر فيه مجدداً بعض القرى ابتداء من 6300 قبـل الميلاد[17]، ثم المدن بعد فترة لاحقة، لكن هذا البلد كف مذاك لعدة آلاف سنة عن كونه قطباً عالمياً للتطور الإجتماعي والإقتصادي بحيث أنه لن يتلقى من بعد سـوى ردود الفعل الآتيـة من المناطق الأخرى.

المشرق الشمالي في الـ PPNB الحديث: إزدهار

إن الإنطباع الذي يعطيه المشرق الشمالي مغاير تماما، أي الفرات الأوسط والجزيرة السورية التركية (أو الرافدين العليا) وحتى سفوح طوروس الشرقية، هذا لكي نبقى في الجزء المتضمن في النواة المشرقية.

ففي هذه المناطق يبدو أن الإزدهار الأكبر للـ PPNB يقع فعـلا في هـذه المرحلـة: أولا بعدد المواقع (الشكل 45) التي لا زلنا بعيدين عن معرفتها كلها. ونجـد إضافـة إلى أبـو هريرة وحالوله على الفرات، اللتين لم ينقطع إسكانهما، قرى على رافده البليخ (تل أسود). ونجد أيضا إعمارات جديدة على التلال الشـمالية للجزيـرة، في تركيـا (غريتيـل Gritille، حياز[18] Hayaz) في الوقت نفسه الذي ضاعت فيه على الأرجح إعمارات نفـالي تشـوري وإلى الشرق أكثر إعمارات شايونو. وممـا لا شـك فيـه أن هـذه المنـاطق تحفظ اكتشـافات أخـرى كثيرة. إذ أن تحريها كان أقل بكثير من المشرق الجنوبـي وكـان في غـالب الأحيـان بشـكل دقيق جدا بمناسبة أعمال السدود.

العمارة

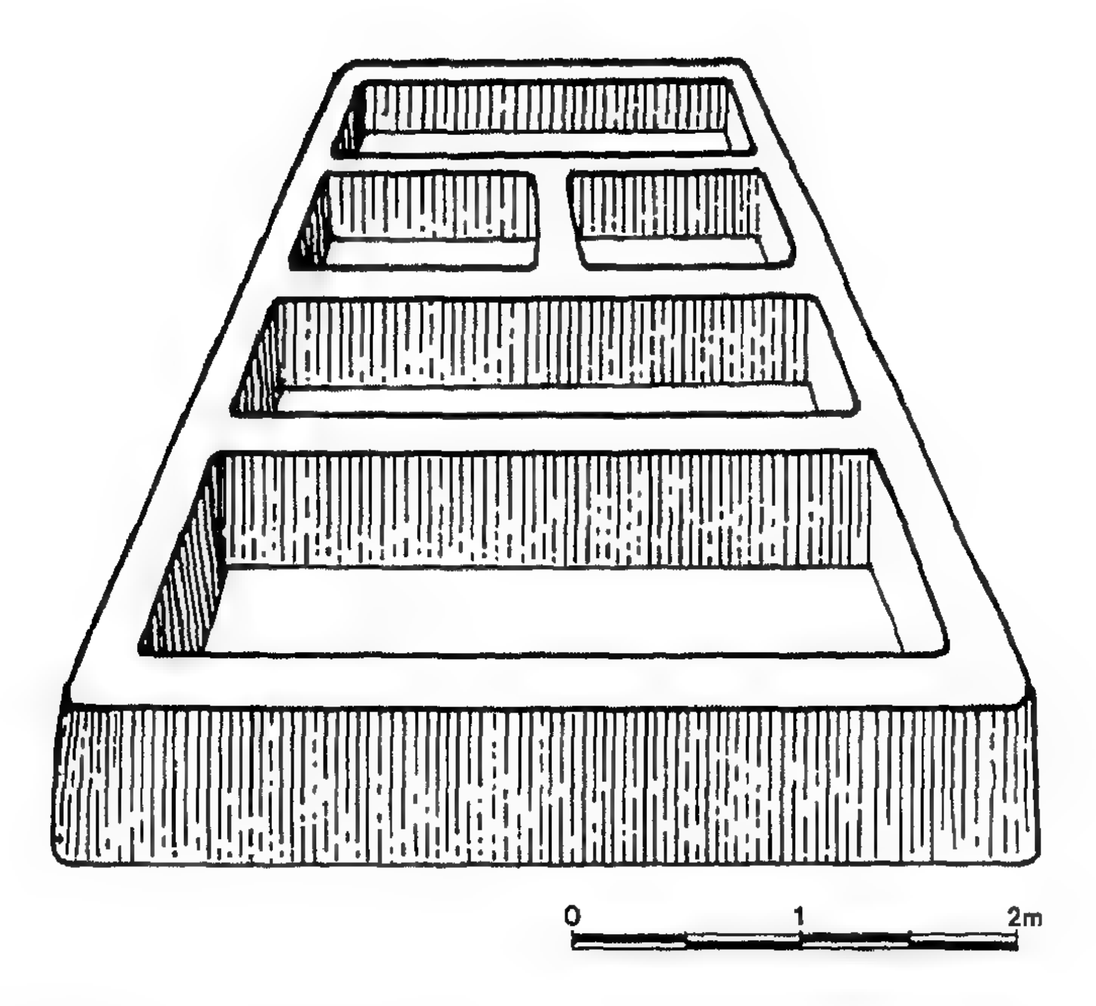
إن التطور الديمغرافي والمعماري لبعض هذه الضواحي مدهش. ففي هذا الوقت إنما بلغ موقع أبو هريرة اتساعا وتعقيدا جديدين[19]. فقد اقتربت مساحته من اثني عشـر هكتـارا وبلغت بالتالي عتبة جديـدة طالـا أن التوسـع الأعظمـي للقرى في الـ PPNA والـ PPNB

الأوسط لم يكن يتجاوز الثلاثة هكتارات. والمسكن كثيف فيه: فثمة بعض الباحات فقط والممرات الضيقة تفصل بين البيوت. وتشتمل هذه الأخيرة ذات الجدران من الآجر المشوي والأرضيات المليسة على خمس حجرات (الشكل 48) أو أكثر، مع فتحات داخلية فيما بينها: إنها تشكل المثال الأول المعروف والذي سيتطور بشكل واسع في كامل بلاد الرافدين للـ «مخطط متعدد الخلايا المعقد» الذي حدده أوليفييه أورنش على أساس هذا الإنتقال الداخلي[20].

الصناعات

ويقدم التسليح، كما في المشرق كله، أنماطاً مماثلة إنما إتقاناً أرفع أحياناً من إتقان الـ PPNB الأوسط. ومع ذلك، وعلى خلاف المشرق الجنوبي والمركزي، فليس ثمة فأس منحوت من الصوان في المشرق الشمالي الذي صنع، وفق موروث الفرات منذ المريبطي، فؤوسه من صخور خضراء وصقلها بالكامل. وثمة حلي هامة موجودة من المادة نفسها أو من الأوبسيديان كما وقواقع بحرية مستوردة نادرة.

والآنية في أبو هريرة هي من الحجر الكلسي أو من الجص gypse المصقول. ولم يُعثر فيها علىّ «آنية بيضاء» باستثناء حاويات كبيرة الحجم من الجص plâtre تستخدم دون شك للتخزين. والطين المشوي معروف فيها لكنه حُفظ لبعض التماثيل الحيوانية الصغيرة. وبالمقابل، فثمة آنية بيضاء أسهل استعمالاً وموجودة بشكل جيد إلى الشمال أكثر[21]، في الوقت نفسه مع الأرضيات الكلسية. وبشكل خاص يشتمل PPNB تل أسود بشكل غزير على الفخار الحقيقي، والذي سيكون أول فخار معروف إذا صدقنا التأريخات التي تم الحصول عليها بالكربون المشع[22]. وهي تبدي أشكالاً بسيطة إنما نوعية تقنية عالية[23]. وسطوحها ملمّعة وذات لون فاتح. وهذا الفخار السابق لعام 7000 قبل الميلاد يكذّب محلياً التسمية «PPNB» التي تشير إلى غيابه. ويبدو أنه أصل ليس فقط الفخاريات التي ستلي في المنطقة نفسها، بل وأيضاً الفخاريات ذات اللون الأغمق وذات الأشكال والتقنية المماثلة التي وصفت منذ فترة طويلة على الساحل الشمالي السوري باسم DFBW[24] أو فخار العمق A الذي سنتحدث عنه لاحقاً.



الشكل 49. *بيت من الـ PPNB الحديث في أبو هريرة (سوريا). عن مور A. Moore.*
الإقتصاد

لم تُزرع الزروع وحدها في أبو هريـرة بـل كـان بينـها القمـح العـاري (Triticum Aestivum/durum) وهو نوع مدجن جديد تعمم في المشرق في الـ PPNB الحديـث[25]. وقـد تمت تربية الماعز والخراف في كل مكان، بشكل أكثف بكثير من الماعز الأولى المدجنة في أبـو هريرة في الـ PPNB الأوسط. وبشكل خـاص فقـد ظهـر للمـرة الأولى (في حيـاز وفي حالولـه) الثور ولحقه بعد فترة وجيزة الخنزير (في كمار تبه Kumar Tepe) المدجنان[26]. وسنرى أن هذين الحيوانين قد ربيا أيضاً إلى الغرب وإلى الشرق من منطقتنـا النوويـة، في منـاطق وصـل إليها الأنتشار النيوليتي حديثاً. وتبطل هذه الإكتشافات الحديثة فرضية تدجين أول للثور في البلقان التي كانت لا تـزال مقبولـة منـذ عشـر سـنوات. فـالثور والخـنزير ينتميـان حقـاً إلى اكتشافات النيوليتي في الشرق الأدنى، وذلك في الوقت نفسه الذي بدأ فيه حركته.

وبالتالي فقد انطلقت في الجزيرة منذ الـ PPNB الحديـث تغـيرات ماديـة هامـة، وذلك في آن واحد في مجالات العمارة والفخار والتدجين. وهذه الثقافة ليست هنـا غايـة بـل انتقالاً باتجاه شيء آخر. ونعلم أيضاً بفضل تحريات جديدة[27] وتنقيبات جارية[28] أن المناطق

المتاخمة للفرات الأوسط وللجزيرة العليا قد قدمت في بداية الألـف السـابع ثقافـة هامـة مـع فخار ملمّع تنتسب إلى ثقافة تل أسود[29]. ونعرف أخيراً أن هذه الثقافة ستولد بدورهـا ثقافـة أخرى نحو عام 6000 قبل الميلاد: وستكون هذه الثقافة الجديدة هي ثقافة حلـف الشـهيرة التي ستنتشر في كامل الشرق الأدنى والأوسط، مـن المتوسط إلى الخليـج العربـي. فلـم تكـف نواتنا المشرقية إذن بشـكل مبكـر- في جزئـها الشـمالي- عـن أن تكـون بـؤرة إبـداع بالنسـبة للنيوليتي الحضري. ولكن منذ الـ PPNB الحديث لا يمكننا إلا أن نقتطعها بشكل مصطنـع من الأطراف الجديدة من الأراضي التي كان يسـتولي عليـها. وهـذا التقـدم التوسـعي والـذي يصبح من الآن فصاعداً مركز اهتمامنا الرئيسي هو الذي يوافق أن نحلله الآن.

الهوامش

1. الفترتان 4 و5 من بيـت المشرق Maison de l'Orient. Hours وآخـرون، 1994.

2. مفهوم «النواة المشرقية» يبدو لنا أكثر ملاءمة هنا من مفهوم «المنطقة النوويـة» (*nuclear zone*) الذي استخدمه بريدوود. فهذا الأخير يستطيع أن يستمر في الإشـارة إلى الشريط المناخي ذي الزروع البرية الممتد من المتوسـط إلى الهضبة الإيرانية لكنـه لا يحمـل أي مغزى شامل بالنسبة لأصل الزراعة الذي لا يتعلق كما رأينا إلا بجزئه الغربي والمشرقي.

3. Contenson، 1967. ويتعلق الأمر بالمرحلة الثانيـة مـن تـل الرمـاد، حيـث تحفظ الأولى البيوت الدائرية التقليدية في المنطقة الدمشقية.

4. Lechevallier، 1978.

5. Gebel وآخرون، 1988.

6. Aurenche et Calley، 1988.

7. Cauvin J.، 1978، ص. 61؛ Aurenche، 1981.

8. في مسعِد مازال Masad Mazzal: Taute، 1981.

9. Balfet وآخرون، 1969؛ Le Mirer et Maréchal، 1985.

10. تم العثور مؤخراً على جمجمة مطلية وملونة بالأحمر في كفر حـا حوريـش في الجليل الأدنى قرب الناصرة (Goring-Morris، 1991). وهذا الموقع من الــ PPNB غـير مؤرخ بشكل دقيق ولكن يجب أن يرجع إلى الـ PPNB الحديث بسبب وجود الفؤوس ذات القواطع المصقولة.

11. Cauvin J.، 1972 a، ص. 100 – 101.

12. كذلك بيبلوس (جبيل في لبنان) والثقافة الفلسطينية في شار حا جولان منهاتا من الألف السابع وثقافة العبيد في الرافديـن الجنوبيـة مـن الألـف السـادس، انظر كوفـان، المرجع نفسه.

13. Helmer، 1992.

14. Le Miere، 1986.

15. الموقع المنقب الوحيد، وهو عسقلان على الساحل، لا توجد فيه مواقد وأهراءات مطمورة وأكواخ من حفر كما وليس فيه فخار، انظر Perrot، 1968، ص. 408.

16. Perrot، المرجع نفسه، ص. 403.

17. الفترة 6 من بيت المشرق. إنها الثقافة المسماة شار حا جولان منهاتا.

18. إذا كانت غريتيل هي حقاً قرية (Volgt، 1985)، فإن حاياز يمكن أن تكون معسكراً للبدو، انظر لاحقاً ص. 256.

19. Moore وآخرون، 1975: إنه *ما قبل الفخاري النيوليتي 2*.

20. Aurenche، 1981، ص. 199.

21. مثلا في تل أسود (كوفان جاك، 1972 b) وفي الـ PPNB الحديث في حالوله (Molist، معلومة مقدمة لي شخصيا).

22. Cauvin J.، 1974؛ انظر لاحقا الهامش 27.

23. Le Miere، 1979.

24. Dark Faced Burnished Ware: Braidwood et Braidwood, 1960.

25. الظهور الأول للقمح العاري على الفرات يرجع مع ذلك في حالوله إلى الـ PPNB الأوسط (Willcox، 1996).

26. Buttenhuis، 1985. إن حياز هو مشغل لنحت الصوان على ضفة الفرات (Roodenberg، 1979/ 1980) ربما كان يزار من قبل شعوب بدوية في الـ PPNB الحديث (انظر لاحقا). وتربية الخنزير محتملة فقط فيه في حين أنها مؤكدة في كومار تبه، وهو موقع أكثر تأخرا بقليل وأبعد قليلا إلى الشمال. وبالنسبة لحالوله انظر Helmer et Sana in Molist (éd.)، 1996.

27. Copeland، 1979؛ Copeland et Moore، 1985.

28. Akkermans، 1979، 1990.

29. مثلا في الدامشلية التي سبرها أكرمانس (1990). فإذا كان تل أسود ودامشلية كما يعتقد أكرمانس متعاصرين، أي لا يرجعان إلى قبل 7000 قبل الميلاد، فإن ذلك يجعلنا نعيد النظر في التأريخات بالكربون 14 الأقدم بوضوح والتي تم الحصول عليها في تل أسود (كوفان جاك، 1974).

الفصل الخامس عشر

وصول المزارعين إلى الساحل وقبرص

سنتناول بالدرجة الأولى هنا بلداً جديداً لم يكن قد ظهر فيه أي شيء من «النيوليتي» حتى الآن. ويتعلق الأمر بالشريط الساحلي من المشرق الشمالي بدءاً من بيروت في لبنان وحتى منطقة أنطاكيا. وهذه المنطقة مفصولة عن سوريا الداخلية بسلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية وبجبل الأنصارية إلى الشمال أكثر. وسنرى أنه بدءاً من عام 7000 قبل الميلاد سيصبح الأمر متعلقاً أيضاً بامتداد هذه المنطقة الساحلية إلى الساحل الكيليكي من شبه الجزيرة الأناضولية.

نحن الآن في مناخ متوسطي بشكل صريح حيث يتجاوز المتوسط السنوي للهطولات 600 ملم وحيث لا تنبت الزروع البرية بشكل تلقائي. إن هذه الواجهة البحرية للمشرق مروية بشكل أفضل بالأمطار التي تحملها رياح الغرب عندما تصطدم بالجبل، فتزيد بذلك التناقض المناخي بين جانبي هذا الحاجز الطبيعي. إن السهل الساحلي ضيق عموماً، لكنه يمتد أحياناً باتجاه الداخل مثل أصابع كفّ ابتداء من مصبي مجريي ماء: نهر الكبير (الإلفثير Eleuthère عند القدماء) الذي يفصل بواسطة «فتحة حمص» الواسعة لبنان عن جبل الأنصارية، والعاصي الذي يقطع واديه في الشمال جبل الأنصارية ويفصله عن سلسلة الأمانوس الأبعد إلى الشمال. وسيكون للسهل الخلفي الرسوبي والسبخي الذي يجتازه نهر العاصي قليلاً قبل مصبه، حوالي بحيرة العمق، أهمية كبيرة بدءاً من الألف السابع، مثلما هي أيضاً أهمية السهل الأعلى على مجراه الأعلى الذي يأخذ منه منبعه، وهو البقاع الذي يشكل خندقاً شمالياً جنوبياً بين سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية.

وكانت هذه المنطقة الساحلية ـ في كل حال جزءها اللبناني المُتحرّى بشكل أفضل ـ قد شُغلت من قبل صيادين ـ قاطفين من العصر الحجري القديم الأخير épipaléolithique وحتى الخيامي ضمناً[1]. ولكن لا يبدو أن شيئاً كان قد خلفهم مباشرة على الرغم من الأبحاث الكثيفة التي نفّذت منذ بداية هذا القرن. والأمر مماثل في البقاع: فقد تم العثور على النطوفي ولكن لا شيء بعد ذلك حتى نهاية الألف الثامن.

إعادة إعمار الساحل في الـ PPNB الحديث

بدأت إعادة إعمار المناطق الساحلية من عام 7500 قبل الميلاد، وبالتالي في الـ PPNB الحديث (الشكل 45). والأمر مُثبّت إنما غير معروف بعد بشكل جيد: فليس ثمة سوى تنقيب واحد طبقاتي في سوريا، في رأس شمرا، حيث لم يُسبَر النيوليتي ما قبل الفخاري (السوية V C) إلا على امتداد ضعيف (37 م^2)، وآخر محدود أيضاً في سهل البقاع، في موقع اللبوة. أما بالنسبة للبقية فيتعلق الأمر بمحطات غير منقّبة.

وتعطي مواقع الساحل اللبناني[2] (الشكل 45)، بنوى ذات شكل سفيني naviformes، الكثير من النصال ـ المناجل وفؤوس منحوتة من الصوان ذات قاطع مصقول وتسليح مؤلف من رؤوس بيبلوس بل وأيضاً من عدد كبير من الرؤوس ذات الفرضات من أنماط معدّة سبق أن رأيناها تميز الموروث النيوليتي في المنطقة الدمشقية. وقد وُجدت الصناعة نفسها في اللبوة[3] مقترنة بعمارات ذات أرضيات مليسة بالكلس وبآنية بيضاء كما في تل الرماد. وليس ثمة شك بأن هذا النيوليتي اللبناني قدم من البلد الداخلي سوريا الذي يتاخم سلسلة جبال لبنان الشرقية من الشرق.

وإلى الشمال أكثر، على الساحل السوري قرب اللاذقية، نعلم الآن أن المدينة الفينيقية الشهيرة أوغاريت (رأس شمرا) كانت قد أسست نحو عام 7500 قبل الميلاد، في الـ PPNB الحديث، بواسطة مزارعين ـ مربين قدموا ليؤسسوا فيها قرية أولى. وبما أن التنقيب[4] محدود، فإننا نعرف أشياء قليلة عن البيوت باستثناء أنها كانت مستطيلة مع أسس جدران حجرية. وتبدو الصناعة فيها مختلفة قليلاً عن صناعة لبنان: وهي تشتمل أيضاً على نوى سفينية الشكل، ومناجل ورؤوس بيبلوس ذات استقامة مثلى، إنما ينقص

فيها السهام ذات الفرضات ومواد شغل الخشب من الصوان. وقد استبدلت هذه الأخيرة بفؤوس وبليطات مصقولة من الصخور الخضراء كما على الفرات. وينقص فيها أيضاً الآنية من الكلس التي لن تظهر إلا فيما بعد في رأس شمرا. وكانت الزروع تزرع منذ البداية كما كان يربى الماعز والخراف. وقد استوطنت تربية الثور والخنزير خلال هذه المرحلة ما قبل الخزفية[5]. في الوقت نفسه تقريباً مع الذي توطنت فيه في طوروس في حياز (انظر سابقاً). فإذا أضفنا إلى ذلك نمطاً من الحلي من الحجر يبدو متوافقاً بشكل جلي مع حلي أبو هريرة[6]، فإننا نقدر أن المجموع ينتسب إلى PPNB الفرات الأوسط أكثر منه إلى PPNB المشرق المركزي. لكن التوثيق يظل ضعيفاً قليلاً لتأكيد هذا الأصل بشكل مؤكد، وذلك بقدر ما تزال المنطقة الواسعة التي تفصل الفرات عن الساحل الشمالي السوري معروفة بشكل سيء جداً ويمكن أن تقدم شاخصات انتقالية في هذا النقل من الشرق إلى الغرب.

الثقافات الأولى مع الخزف على الساحل الفينيقي

ظهر الخزف على الساحل نحو عام 7000 قبل الميلاد، في حين كان الإعمار البشري يتكثف فيه (الشكل 50). وقد بلغ إجمالاً سوية تقنية ممتازة. وهو من جهة أخرى ليس اختراعاً بكل معنى الكلمة: فالطين المشوي كان موجوداً كما رأينا منذ منتصف الألف العاشر قبل الميلاد، مع أولى التماثيل الأنثوية الصغيرة وأيضاً الآنية الصغيرة جداً من المريبطي، وهي تطبيق هامشي ووقتي على آنية لمعالجة الصلصال بالنار، حيث كان غياب مزيل الشحوم لا يزال يمنع شوي أواني أكبر. وبالمقابل، كان خلط القش مع الطين طيلة النيوليتي ما قبل الخزفي في الشرق الأدنى من أجل تعديل لدانته وتأمين ملاءمته للتجفيف عملية شائعة من أجل تحضير التراب المدكوك أو الآجر (المريبط) أو الآجر المشوي (كفر هويوك). وعندما ظهر أول خزف للإستعمال في الجزيرة في نهاية الألف الثامن[7] كانت العجينة تحتوي على مزيل للشحوم معدني أو نباتي؛ وقد ظلت الأشكال بسيطة كما رأينا، لكن الشوي ومعالجة السطوح بالتلميع كانا منذ ذلك الحين ممتازين.

ويمكن لخزف الساحل الفينيقي أن يشتق منه. وهو يُشمل بشكل عام تحت مصطلح «الفخار القاتم المصقول» *Dark Faced Burnished Ware* (DFBW)، وذلك بحسب تعريفات بريدوود[8] بالنسبة لسهل العمق. لكن التسمية غير موافقة ما أن نتقدم باتجاه الجنوب حتى بيبلوس حيث الفخار ليس بلون داكن (*dark*) بل فاتح...

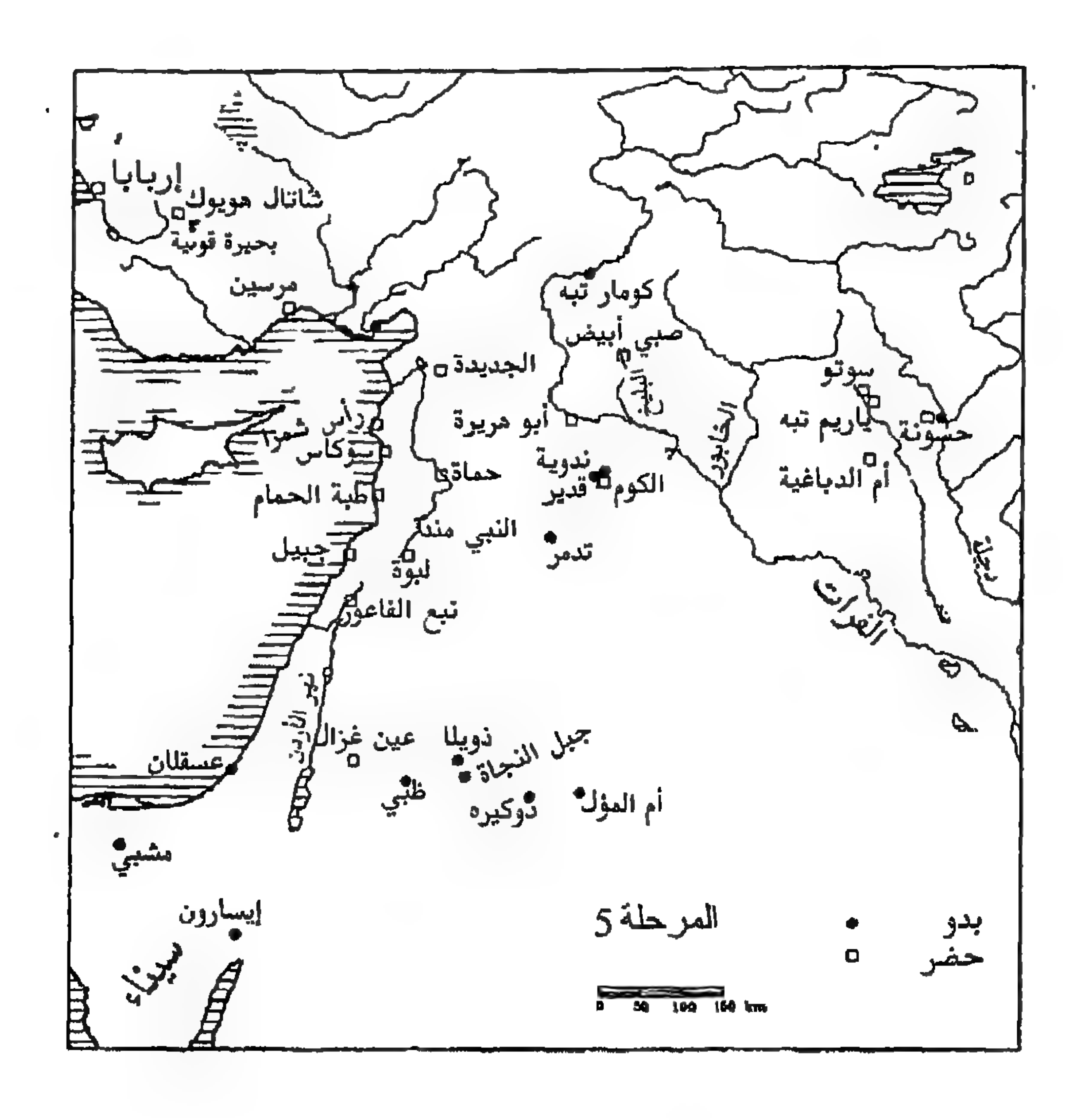
وفي الواقع، إذا كان ثمة مجال تميز فيه كل منطقة، أحياناً على امتداد بسيط، أصالتها الأسلوبية الخاصة فإنه مجال الخزف بحق. وهو في كل مكان ملمع مباشرة على العجينة، دون إضافة دهان خاص للفخار، ومزين بحزات وطبعات وليس بالتلوين بعد. وما يتغير بحسب الأماكن هو أحياناً اللون العام بل وبشكل خاص نمط التزيين. وهكذا يمكن تمييز عدة مجموعات.

فالـ DFBW تحديدا، وهو خزف العمق (تل الجديدة) أسود اللون أو داكن. وهو مزين أكان ملمعا أم لا بحزات أو طبعات بالإظفر أو بأشكال نقطية، بل وحتى بصلصال مضاف (فتائل). وتصل مساحة توسعه إلى الشمال حتى مرسين، على ساحل كيليكيا[9]، وإلى الجنوب حتى رأس شمرا (السوية V B).

وثمة مجموعة ثانية تتعلق إلى الجنوب أكثر بفجوة حمص، منذ فتحتها البحرية[10] وحتى البقاع الشمالي الذي يتصل معها إلى الشرق أكثر[11]. وهذا الخزف غامق أيضا لكن انطباعات من الحبال الصغيرة أو الضفائر هي التي تميزه.

وأخيرا، فإن لخزف بيبلوس «النيوليتي القديم» على الساحل اللبناني لون الأصفر الفاتح وغالبية الطبعات مصنوعة عليه هذه المرة بقواقع «القلوب»[12] (الكارديوم cardium)، وذلك في تلاقي مدهش مع خزفيات أخرى تسمى «القلبية» من الحوض المتوسطي من بداية النيوليتي (ليغوريا Ligurie، بروفانس Provence، الشرق الإسباني).

لقد ساهم الخزف بالتالي في إعطاء مظهر متنوع لهذه الثقافات الساحلية التي لم تعمل فيما يخص الباقي كله إلا على إتقان وإكمال موروث الـ PPNB في مناطق توسعه الحديث: وقد بلغ تسليح بيبلوس من هذا المنظور (الشكل 51 و 52) قمة لا تضاهى[13]، في حين أن العمارة في الموقع نفسه، والتي حررت على مساحة واسعة، مكونة فقط من بيوت مستطيلة ذات جدران حجرية ولا تشتمل إلا على حجرة وحيدة ذات أرضية مليسة بالكلس وفق موروث تل الرماد بشكل واضح.



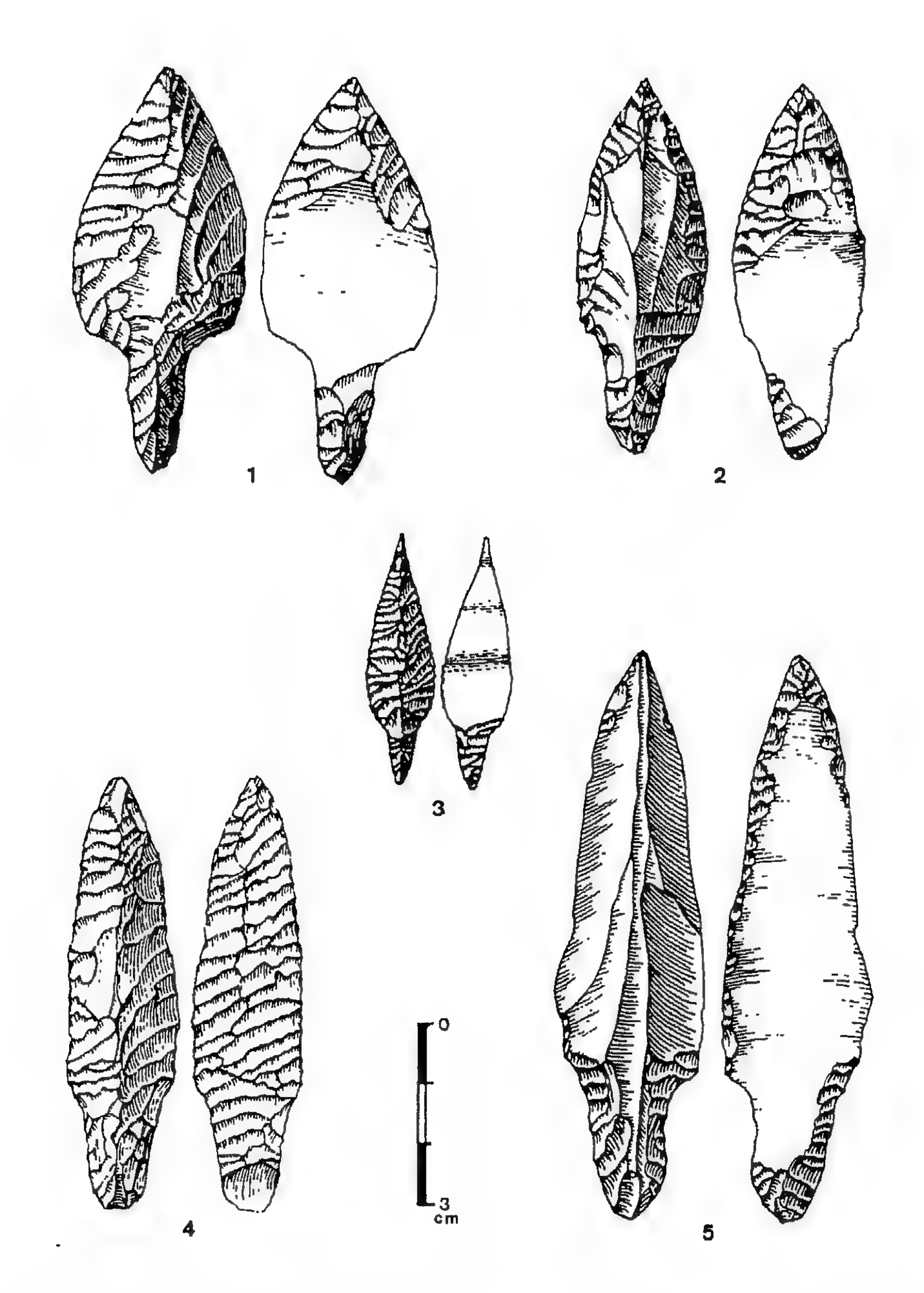
الشكل 50. *خارطة مواقع الـ PPNB الأخير أو مع خزف في الشرق الأدنى (7000 – 6300 قبل الميلاد، 8000 – 7600 قبل الآن) مع إشارة إلى مواقع البدو.*

التطور العقائدي في الألف السابع

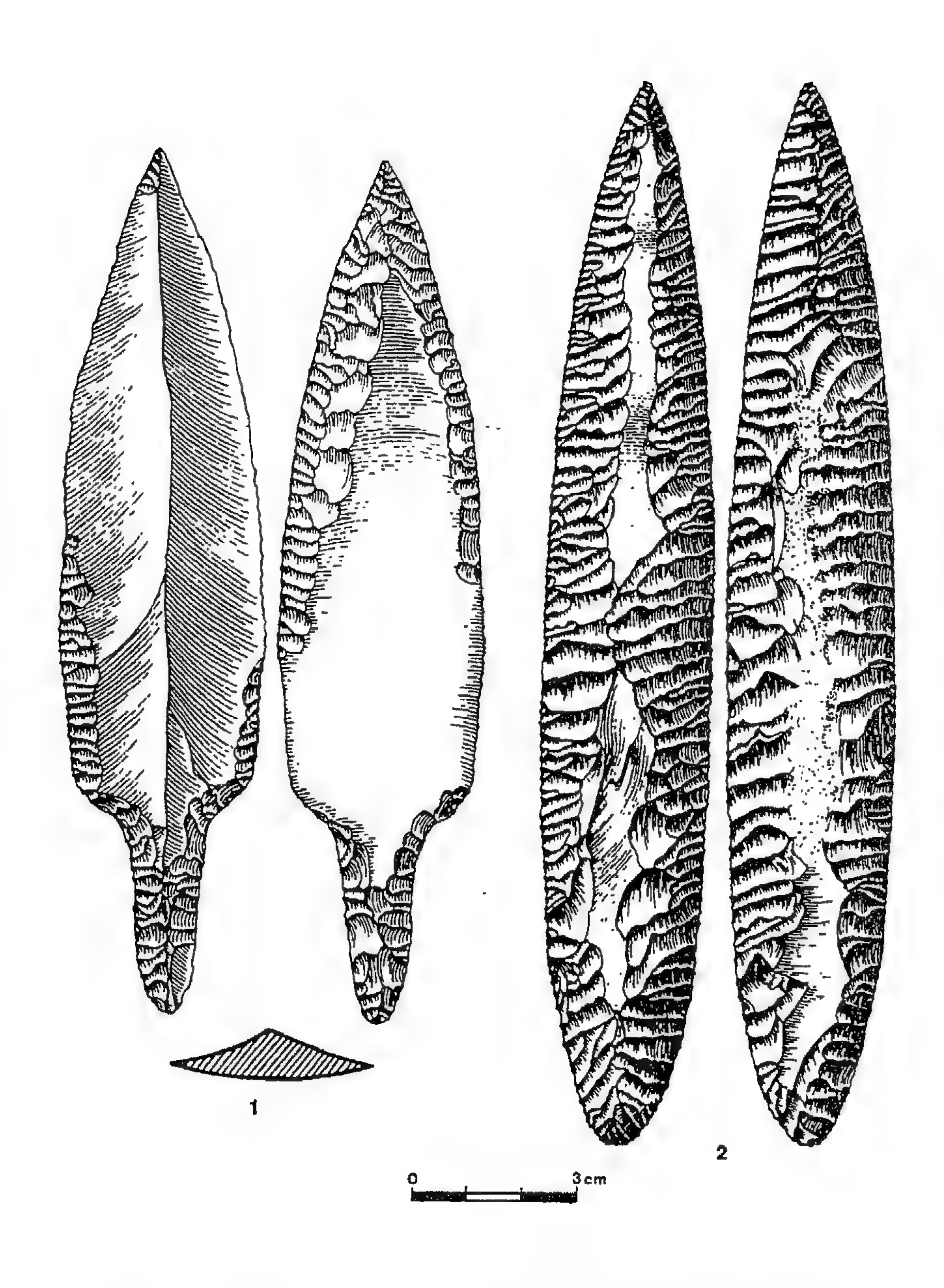
لا شك أن بيبلوس أيضاً، حيث امتد «النيوليتي القديم» على امتداد الألف السابع، هي التي تفيدنا بشكل أفضل في آن واحد حول التجذر العقائدي لهذه الفترة في ماضيها الـ PPNB وحول التحولات الجديدة الجارية. وقد سبق أن ذكرنا البيت ذا المحراب، وهو وحيد من نوعه في بيبلوس، والذي يشير مخططه الخاص، كما ووجود تماثيل صغيرة بشرية الشكل وألواح كتف للثور[14]، كما لو إلى معبد تقليدي في إطار رمزي

مألوف لدينا. ويبدو تركيز خاص من المدافن في محيطه أنه يشدد من قداسة الموقع، على الرغم من أن الأمر لا يتعلق أبداً بـ «مقبرة»: فالقبور الأخرى مبعثرة بانتظام في القرية. لكن المدافن كلها من نمط فردي، وعلى خلاف الـ PPNB، فإن الجمجمة ليست أبداً منزوعة فيها: فـ «عبادة الجماجم» قد انتهت إذن في هذه المنطقة[15]. بالمقابل ثمة لامساواة في المعالجات الجنائزية[16]: فبعض القبور موجودة في مهود من الحجر في حين أن الأخرى قائمة في الأرض مباشرة[17]. والأولى منها فقط وهي أقلية قليلة تشتمل على خزفيات تقدمة وعلى حلي. وقد قدمت لنا هذه القبور أيضاً أجمل «الخناجر» من الصوان (الشكل 52) كما وفأساً منحوتة ومصقولة (الشكل 53) من النمط نفسه لنمط الخليط من فؤوس الصوان إنما مشكلة من مادة نادرة مستوردة (بازلت دقيق) وذات طريقة صنع أرفع من الأخرى، الأمر الذي جعلنا نفسرها على أنها سلاح[18].

كنا قد رأينا أن «علم الآثار الرمزي» كما كان قد تصوره في البداية يان هودّر Ian Hodder يهدف بشكل خاص إلى كشف اللاتساويات الإجتماعية في الشعائر الجنائزية، كما أبحاث جان دانييل فورست[19] Jean-Daniel Forest في الشرق الأوسط بالنسبة لوثائق لا ترجع إلى ما قبل الألف السادس قبل الميلاد. فإذا لم يكن هناك شيء في بيبلوس يشير إلى أي تمايز اجتماعي على مستوى مخطط القرية، المتجانس جداً باستثناء «المعبد»، أفلا يمكن إثبات وجود نوع من النخبة بين أمواتها؟ نحن نعرف أنه لم يكن جميع المتوفين في الـ PPNB يتعرضون إلى قطع الرأس *بعد الموت* ولا يجهزون ويحفظون منفصلين عن جمجمتهم: وهكذا فقد استنتجنا انتخاباً حتى وإن كانت التفردات الشخصية التي كانت قد سمحت بهذا الخيار قد امحت تقريباً في الإغفال النهائي لخازن الجماجم. وعلىالعكس هنا فإن هذه التفردات تظهر في القبر نفسه إذا ما صدقنا التقدمات والأثاث الدال على الإعتبار. ولا شيء يسمح مع ذلك بعد بتأكيد أننا ندرك هنا «حالة مجتمع» حيث كانت هذه التفوقات الفردية تستمر على مدى سلالات مميزة[20] أو تحدد «طبقة اجتماعية» بالأحرى من هيبة شخصية تماماً اكتُسبت خلال الحياة. ويمكننا أن نلاحظ في الأكثر أن الإختلافات تظهر بشكل أفضل الآن في الممارسات الجنائزية. وهي لن تحصل على قيمة «اجتماعية» واضحة إلا مع اقترابات المدينية.

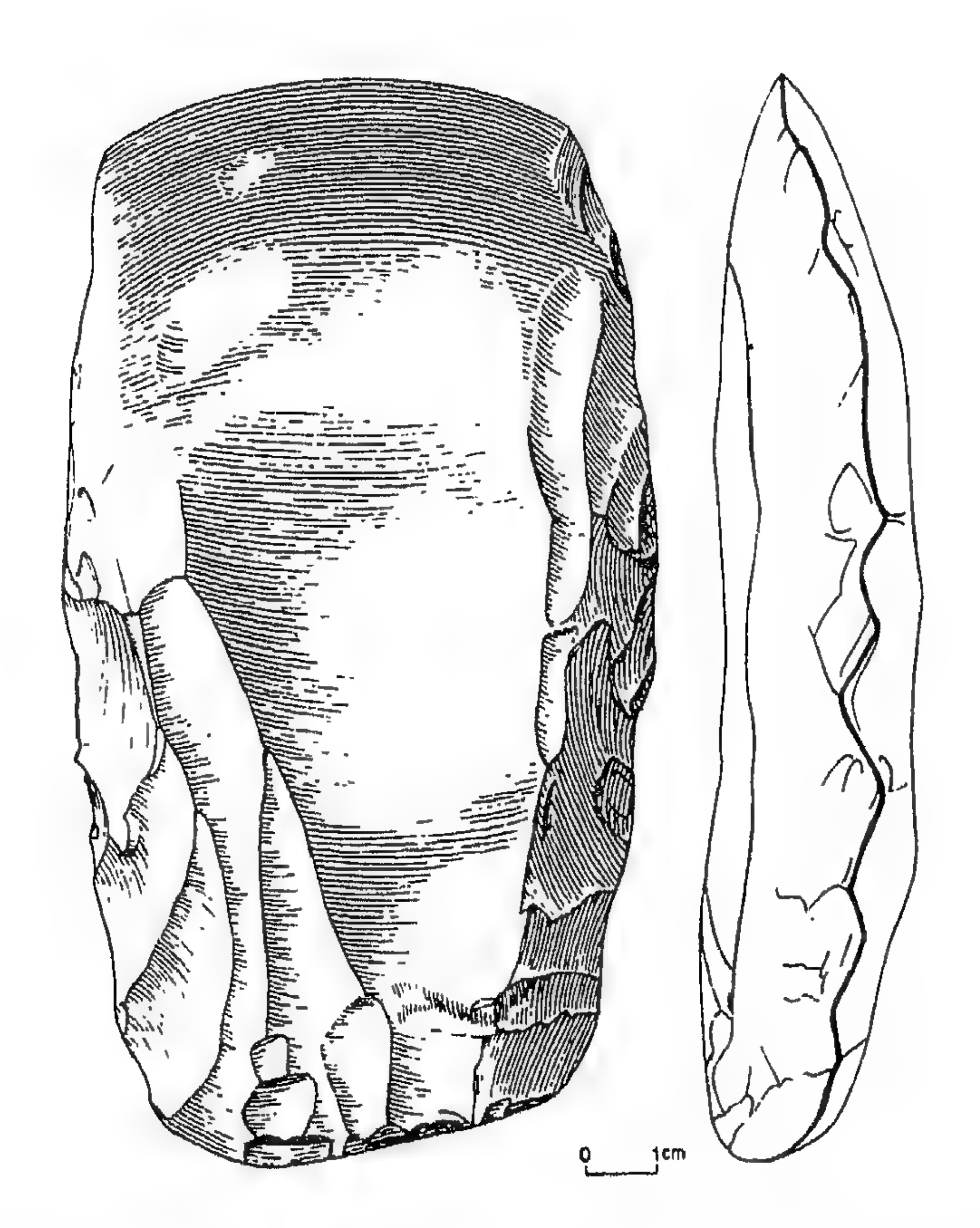


الشكل 51. تسليح «النيوليتي القديم» في بيبلوس (لبنان، الألف السابع قبل الميلاد). 1 – 5: رؤوس سهام.



الشكل 52. *خناجر من الصوان من «النيوليتي القديم» في بيبلوس ـ جبيل (لبنان).*

يبدو إذن أن الإعمارات الأولى للمنطقة الساحلية أدامت حقاً بلا أي انقطاع سوى الإنقطاع الجغرافي إقامة حضرية قروية مجهزة في سوريا الداخلية وامتدت فجأة ابتداء من الـ PPNB الحديث إلى هذه السوية من الأرض. وليس ثمة أي تطور محلي جهزها: فكل شيء أتى من الخارج وهي بالتالي حقاً ظاهرة انتشار من نمط الهجرة بالتأكيد.



الشكل 53. *النيوليتي القديم في بيبلوس (لبنان). فأس للأبهة من البازلت وُجدت في قبر.*

ومثالا رأس شمرا واللبوة وهما الأقدم هامان: فهما يبينـان أن القـادمين الجـدد لم يكونوا منذ وصولهم يزرعون الأرض ويربون القطعان فقط بل وكانوا يعرفون أيضاً البناء بشكل تام. أي أنهم لم يكونوا قد فقدوا خبرتهم في هذا المجال كما هو الحال غالبـاً بالنسبة لبدو

نيوليتيين، الذين نسوا هذه الخبرة العملية على مدى عدة أجيال من الترحل على الرغم من كونهم متحضرين في الأصل. والأفضل من ذلك أن التفاصيل في هذه الثقافة المادية للـ PPNB الحديث الغربي تسمح بأن نرى في كل مرة بدرجة كافية من التحديد مكان أصلها. فالنيوليتي اللبناني لا يمكن أن يأتي من أي مكان سوى من المنطقة الدمشقية بعد أن يجتاز جبال لبنان الشرقية، ثم بالنسبة لنيوليتي الساحل بعد أن يجتاز جبل لبنان نفسه؛ أما نيوليتي رأس شمرا فيشتمل على عناصر أكثر شمالية نفهمها بشكل أفضل عندما نعرف اتساع الأرض التي تفصل الساحل عن الفرات المتوسط.

فهذا الإنتشار يمكن أن ينتسب إذن تماما إلى الإنتشار من النمط «الدانوبي» المحدد في أوروبا: إنهم مزارعون حضريون نجدهم عند الوصول كما عند الرحيل مع نسق محفوظ من السمات الثقافية المميزة للحياة في القرية. ولا يبدو عنصر التحرك الذي تقتضيه كل هجرة أنه تجاوز أبدا بالتالي، في حالة من هذا النوع، مدة السفر من تأسيس إلى آخر...

حالة الأناضول المركزية

لن يمكننا أن نفسر بالطريقة نفسها كثافة الإعمار النيوليتي في الأناضول المركزية ابتداء من 7500 قبل الميلاد: فهو يمكن أن ينجم عن صيرورة أكثر تعقيدا. ففي هذه المرحلة إنما تأسست حول بحيرة قونيا قرية خان حسان III[21] وقرية شاتال هويوك[22] وإلى الغرب أكثر قرية سوبرد[23] Suberde، هذا دون أن نتحدث عن عدد كبير من المواقع المعاصرة على الأرجح وغير المنقبة. وقد سبق ورأينا أنه كان يوجد خلال الفترة السابقة، الموافقة للـ PPNB الأوسط في المشرق والأناضول الشرقية، موقع أسيكلي الكبادوقي الذي كان قد طرح علينا مشكلة: فبعض السمات الثقافية المنتسبة إلى الـ PPNB كانت تتجاور فيه مع صفات أصلية في الصناعة الحجرية من الصعب تفسيرها في الوضع الحالي لمعارفنا. ونشير من جهة أخرى أنه إذا كانت البيوت المستطيلة ذات الأرضيات المليسة في أسيكلي في مكانها جيدا في إطار المشرق في هذا الزمان، فإن تنسيقها العام في نسيج قروي مضغوط جدا (الشكل 54: 1)، شبه محروم من الفسحات التي تفصل بين البيوت، كان يسبق مباشرة «المخطط المتلاصق»[2] المميز لثقافة شاتال هويوك. وينتج هذا الأخير بشكل جلي، في شاتال هويوك

نفسها (الشكل 54: 2) وفي خان حسن III، عن إبداع أناضولي دون إسناد خارجي بل مستمر في بعض القرى التركية الحالية. ولم يكن المرور من بيت إلى آخر فيها عن طريق الأرض بل عبر السطوح: وكان الولوج إلى القرية، كما الدخول إلى كل بيت، يتطلب استخدام السلالم. وربما كان هذا الجهاز العام تأقلماً مع المناخ في الهضبة الأناضولية الأكثر برداً في الشتاء من المشرق.

وكانت هاتان القريتان في نهايةالألف الثامن هذه زراعيتين تماماً، إنما تمدان ربما تأخراً سبق أن لوحظ في الأناضول وفي PPNB طوروس، في حين أن التربية الحيوانية لا تزال غير أكيدة فيهما[25]. بالمقابل كان يمارس فيهما بغزارة صيد للأرخص، وهو مماثل بذلك للطليعيين المريبطيين من الفرات الأوسط. وحدها شاتال هويوك التي استمرت طويلاً خلال الألف السابع (حتى نحو 6400 قبل الميلاد)، ستطور عندها تربية المعزيات الغنمية، في حين نصب الثور، وكان كبيراً كمياً، موضوع آراء متناقضة: إذ ربما كان في طريقه للتدجين.

وتشتمل صناعة الأوبسيديان على تسليح غزير ذي قاعدة من رؤوس بيضوية أو ذات سويقات مغطاة بتشذيب مسطح نصلي، وهو يبدو حقاً ضمن الخط التطوري لسهام الـ PPNB. وكانت تترافق في شاتال هويوك بخناجر رائعة من الأوبسيديان أو الصوان. ويتوافق تسليح الهيبة هذا بسهولة، كما في الـ PPNB مع الأهمية الرمزية والعملية هنا في آن واحد. مع الثور البري ومع وجود إله مذكر بشري الشكل (الشكل 43: 1).

ولن نرجع إلى الأهمية الكبيرة لثقافة شاتال هويوك في الألف السابع، بشكل أساسي في المجال الديني، حيث أفادنا غنى الوثائق مرات كثيرة كدليل من أجل تفسير وثائق أقدم. فشاتال هويوك هي إذن تجمع ضخم مضغوط جداً على نفسه بكثافة بيوته المتلاصقة على مساحة اثني عشر هكتاراً؛ وإضافة إلى ذلك فإن حجرة من اثنتين هي عبارة عن معبد عائلي ليس مزيناً فقط باللوحات الجدارية والنقوش البارزة، بل ومكرّس لدفن الموتى الذين يُدفنون في مصاطب من الصلصال، في حين كانت جماجم مفصولة عن الأجسام تستخدم كما في المشرق كمتاع شعائري. إن الأهمية المدهشة لهذا الجو الديني تتوازى مع الحالة المجهزة من الحرف المختلفة جداً: شغل العظم والخشب والجلد والنحاس الطبيعي. وإضافة إلى ذلك فإن شاتال هويوك مع بقرص أو تل أسود هي أحد المواقع النادرة في الشرق الأدنى التي وجد فيها خزف مبكر بشكل استثنائي. وذلك في سويات أساس سابقة لعام

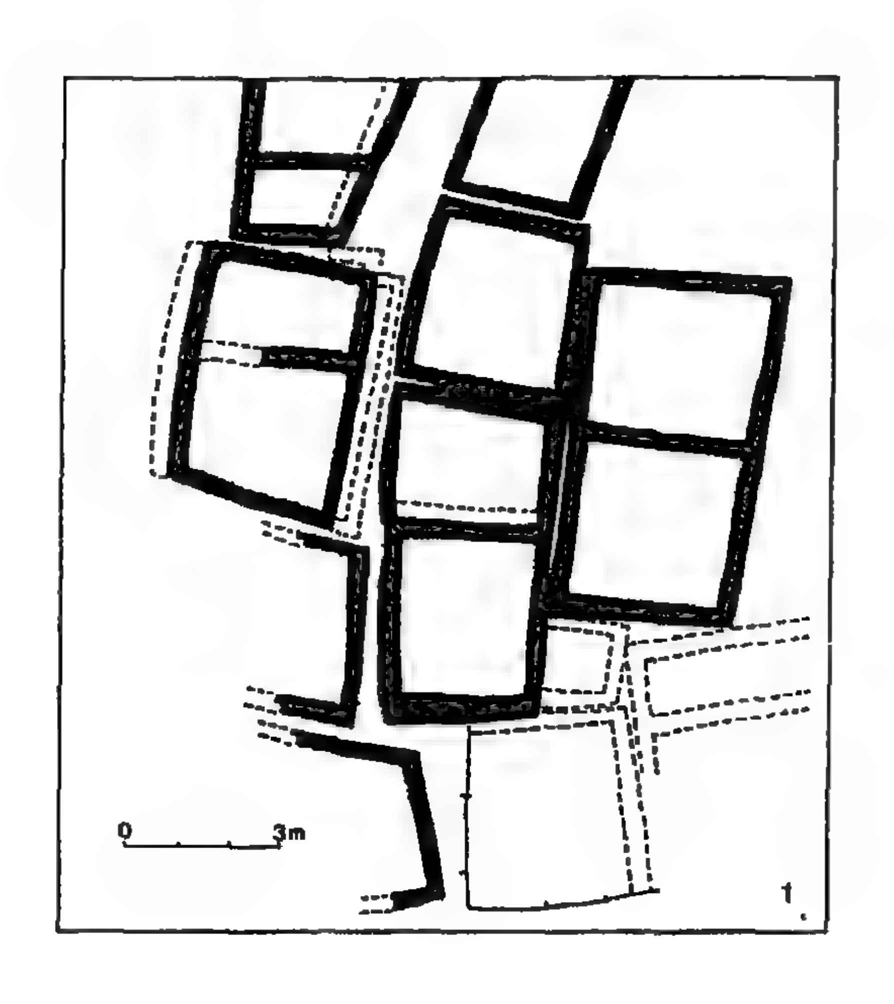
7000 قبل الميلاد: ويتعلق الأمر كما في سوريا الشمالية وعلى الساحل الفينيقي بخزف أحادي اللون ملمع. لكنه فاتح هنا كما في بيبلوس وأشكاله أصيلة تماماً بالنسبة للمشرق.

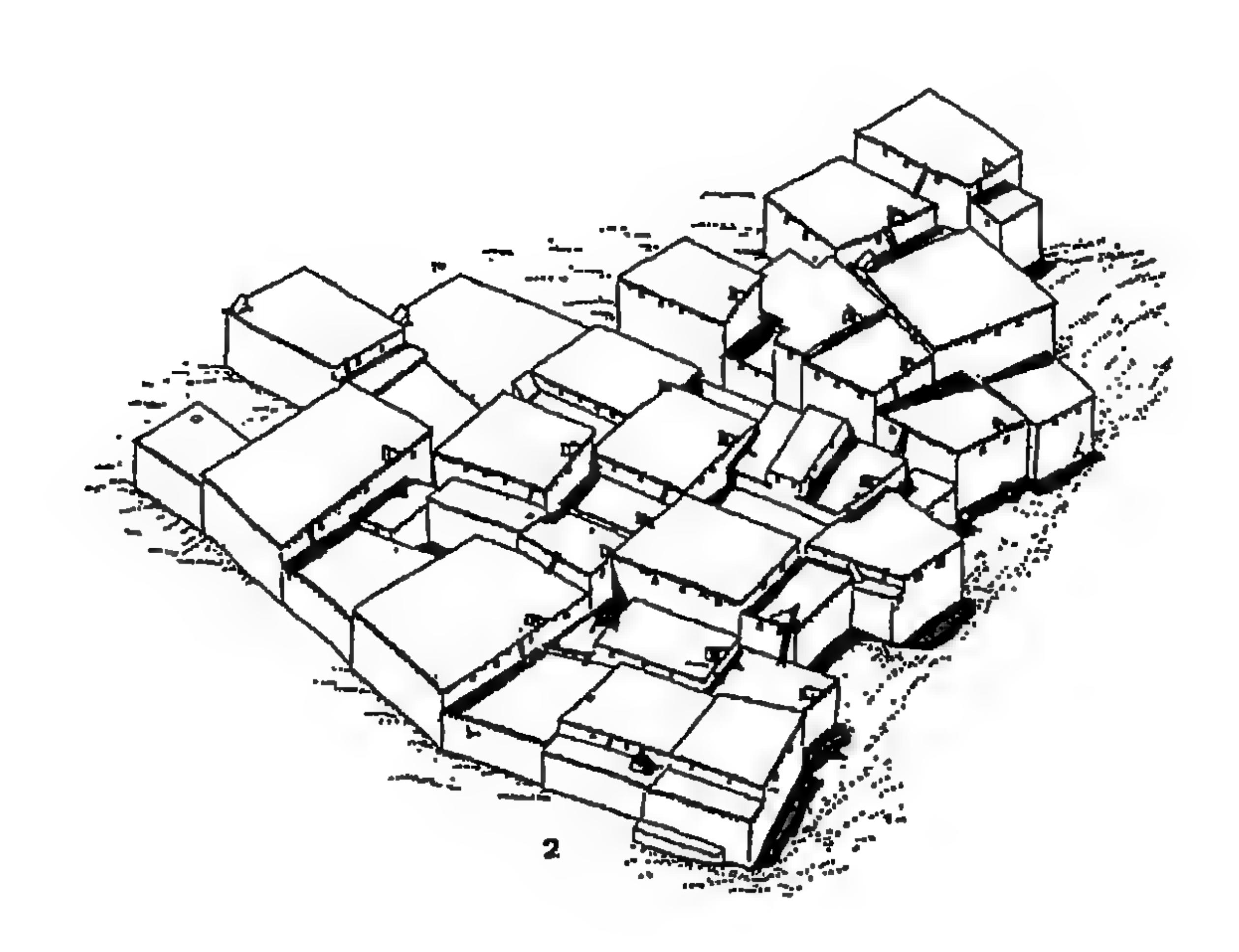
ونميز أخيراً ثلاثة عناصر في هذه الثقافة. إن المدينية القروية التي هي امتداد لمدينية أسيكلي هي بالتالي محلية في الأناضول المركزية. حيث ولدت في وسط غامض قليلاً مع تأثيرات مخففة جداً من الـ PPNB. وبالدرجة الثانية فإن العقيدة كلها تكشف. تحت تعبير كامل. عن أساس مشترك في كامل الشرق الأدنى كان قد انبثق كما رأينا منذ خيامي الفرات الأوسط ليُنقل بعد ذلك في عدة اتجاهات بواطة مهاجرين من الـ PPNB. ومن هذا التيار نفسه. الملحوظ أكثر بكثير على هذا المستوى منه في أسيكلي. إنما اشتُقت عادات قطع الرأس بعد الموت. واشتُق في الصناعة تسليح الحجر[26]. ويشتمل العنصر الثالث أخيراً على نضج تقني واختراعات خاصة حققت في الموقع. ونوعيتها ليست غريبة على شهرة الاكتشاف ولا على الأصالة المميزة بشدة للمجموع. ونتعرف فيها على خلق ثقافة جديدة تمزج وتعيد تأليف التأثيرات الآتية من الخارج في منظومة نوعية.

فإذا كان ثمة إذن حقاً ظاهرة مؤكدة للإنتشار بالنسبة للفترة التي تهمنا. فمن الصعب أمام تعقيد النتائج وبسبب غياب الشاخصات الإنتقالية بين الأناضول المركزية والأناضول الشرقية. بل وحتى بين الأناضول المركزية وسوريا الغربية. أن نحدد أنماطها وحتى أصلها الدقيق. وسنرى واقعاً أكثر يقيناً للإستعمار بدراستنا لجزيرة قبرص.

الهجرة على البحر: قبرص

هل هي مجرد صدفة أن تشهد جزيرة قبرص على بعد مائة كيلومتر في البحر الإعمار البشري الهام الأول في تاريخها، بينما كان يعاد إسكان الساحل السوري الكيليكي؟ لقد كان من السهل جداً اجتياز الذراع البحري الذي يفصل الجزيرة عن الساحل الذي تُرى منه في الطقس الصافي. وكان الإبحار معروفاً منذ زمن طويل. وكان الأوبسيديان الأناضولي موجوداً بشكل مستمر في أولى قرى قبرص، مما يدل على أن الصلات مع القارة لم تكن تطرح مشاكل عملية أكثر أو أقل من مرور المواد عبر الطريق الأرضية. فليس ثمة إذن ما هو غريب في أن تكون جماعات نيوليتية قد بلغت الساحل الفينيقي في اندفاعها باتجاه الغرب ثم أبحرت لتعمر الأرض المرئية في البعيد. ومع ذلك، فإن نولتة قبرص تحفظ جزءاً غامضاً.



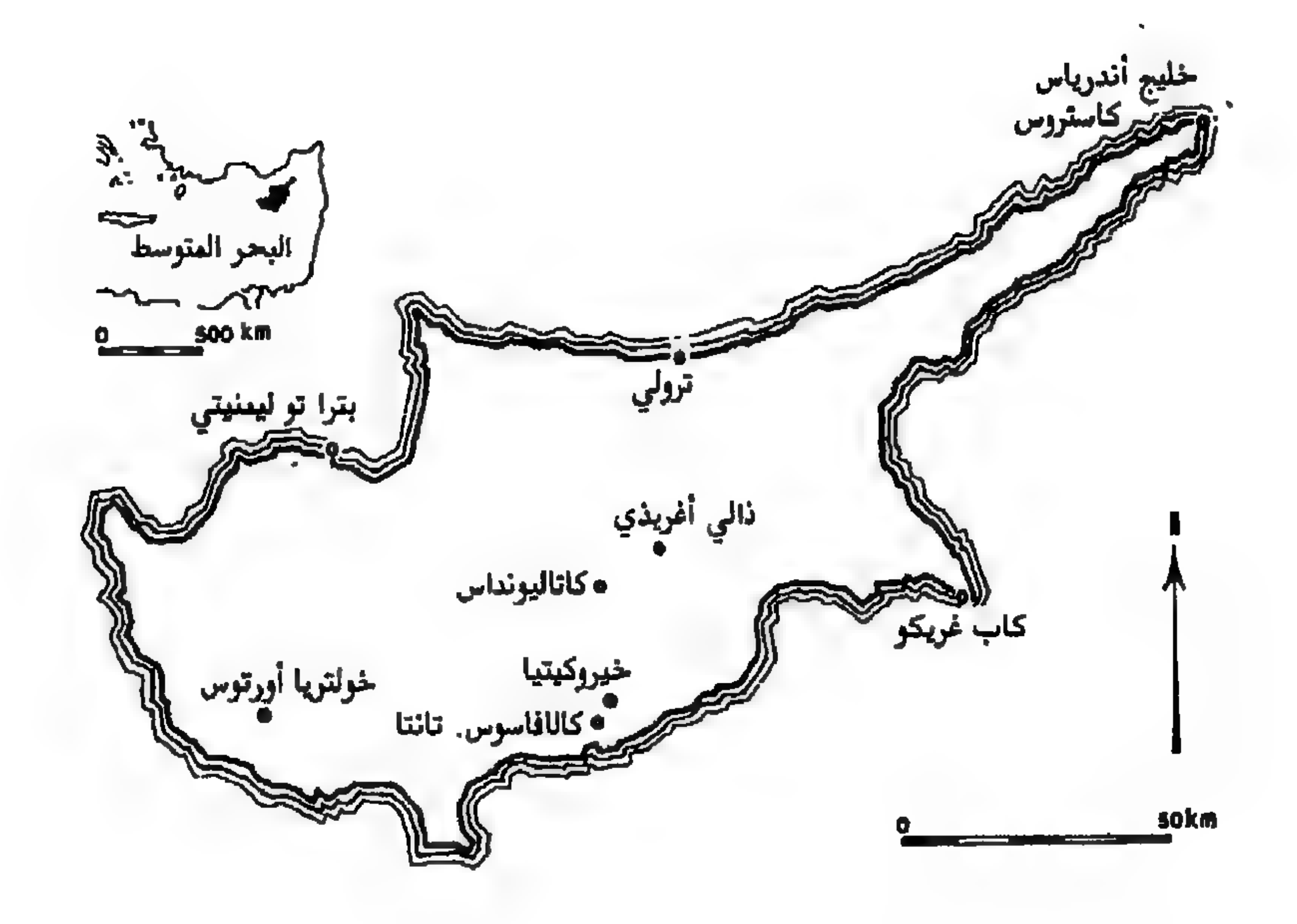


الشكل 54. *أمثلة على العمارة المتلاصقة في الأناضول الوسطى. 1: أسيكلي (نحو 8000 قبل الميلاد). 2: شاتال هويوك (إعادة بناء، نحو الألف السابع قبل الميلاد). عن U. Esin و J. Mellaart.*

فمن جهة. فإننا لا نتعرف بشكل إجمالي في كافة القرى النيوليتية الأولى على السمات الثقافية لـ PPNB سوريا الساحلية التي يُفترض أنها أصل هذه القرى. ومن جهة أخرى فإن إعمار الإنسان للجزيرة التي كانت فارغة خلال الباليوليتي يبدو أنه تم على عدة مراحل. وهي كلها معاصرة للنيوليتي ما قبل الخزفي المشرقي. إنما ليست هي نفسها بالضرورة «نيوليتية»، على الأقل بالنسبة للمرحلة الأولى. في محتواها الإجتماعي - الإقتصادي. وأخيراً. فإن التسلسل الزمني لهذه الإسهامات يطرح هو نفسه بعض المشاكل.

وتظهر المرحلة الأولى عابرة جداً: فنحو عام 9000 قبل الميلاد شغلت مجموعة صغيرة جداً من البشر المزودين بأدوات مرتجلة من الصوان ملجأ تحت صخري في أكروتيري - أكوتوكرمنوس[27] Akrotiri-Acotokremnos. ويبدو هذا الإشغال مرتبطاً ببقايا أفراس نهر قزمة وفيلة قزمة. أي بالحيوانات البرية المحلية الخاصة بالجزر المتوسطية التي انفصلت عن القارة من عصور قديمة جداً. فهي معاصرة إذن للـ PPNA المشرقي إنما دون إسهام نيوليتي من أي نوع. ولا أي مرجعية ثقافية في الأدوات، الخشنة تماماً والمستعملة لكل شيء. وقد أمكن أن يوجد في الجزيرة إشغالات أخرى من النوع نفسه ولكن، كما قيل بالنسبة للإعمار الأول لجزيرة كورسيكا. فإننا نتساءل إذا لم يكن الأمر يتعلق أكثر بغرقى ناجين أكثر منه بمستعمرين. وفي كل حال من المستحيل معرفة من أين قدموا.

وقد أمكن إثبات المرحلة الثانية مؤخرا من خلال التنقيب الجاري في شيلوروكامبوس Shillourokambos على يد جان غيلين Jean Guilaine على الساحل الجنوبي قرب ليماسول[28]. ويتعلق الأمر هنا بإعمار كثيف في الهواء الطلق يغطي عدة هكتارات. ومرحلته الأقدم مؤرخة بنحو عام 7600 إلى 7500 قبل الميلاد، بل وحتى قبل ذلك قليلا[29]. مما يجعلها معاصرة تقريبا لنهاية الـ PPNB الأوسط في المشرق. وليس ثمة بيوت في هذه الفترة إنما تسويرات كبيرة جدا ذات خطوط منحنية إلى حد ما، تظهرها مقاطع مزينة من الأعمدة ولا يقطعها سوى «أبواب»: وهي توحي بحباك قوي ذي قاعدة مطمورة في الأرض. ويعاد أحيانا تقسيم المساحة الداخلية لهذه التسويرات بواسطة حواجز أخرى أو خطوط من الأعمدة تشير أيضا إلى وجود أسيجة من مواد خفيفة. وقد استخدمت هذه المساحات بالتأكيد من أجل زرب الحيوانات، دون استبعاد إعدادات جزئية لاستخدام الإنسان: فبعض القطع التي وجدت من الطلاء الأبيض (كلس؟) والملونة تلوينا خفيفا أحيانا بالمغرة كان قد أمكن لها أن تكسو أرضيات أو جدرانا.



الشكل 55. *خارطة الإنشاءات النيوليتية في جزيرة قبرص في الألف السابع قبل الميلاد.*

وتشتمل الأدوات الحجرية بشكل خاص على أدوات من الشظايا، غير ذات معنى ثقافي كبير، بل وأيضاً على تقصيب أكثر امحاء ثنائي الوجه مخصص للنصال المشغولة ابتداء من النوى المستطيلة قريبة جداً من النوى «سفينية الشكلnaviformes» الـ PPNB في المشرق. وبعض النصال هي عناصر منجل يحمل التلميع الصواني «المنحرف» المميز للمقبض «بشكل السنبلة»، وهو معروف في الـ PPNB الحديث ليس الساحلي بل على الفرات الأوسط في حالوله أو تل أسود في الجزيرة[30]. وثمة أيضاً ظهور محدبة تعطي لهذه النصال شكل فصوص كبيرة، وهي موجودة في مناجم سوريا الشمالية نفسها. وأخيراً فإن رؤوس السهام النادرة هي من قائمة الـ PPNB بوضوح، في حين أن بعض النصيلات موجودة من الأوبسيديان الكبادوقي.

وما هو أقل إدهاشاً ليس الحيوانات التي عثر عليها: فثمة تربية للضأنيات والخنزير، بل وأيضاً بقايا للأيل الأسمر والثور. ولم يمكن إدخال الثور بحسب جان غيلين إلى الجزيرة إلا بشكله المدجن، إذ اختفى بعد ذلك من قبرص حتى عصرالبرونز.

والمرحلة الثالثة، ابتداء من عام 7000 قبل الميلاد، ليست سوى ثقافة خيروكيتيا Khirokitia المتألقة المعروفة جيداً بفضل التنقيبات التي قام بها ديكايوس P. Dikaios ثم

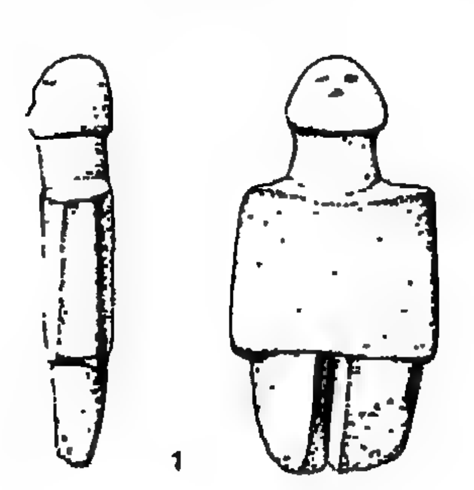
لو برون A. Le Brun في خيروكيتيا نفسها[31] إنما الموجودة أيضاً في نحو عشرة مواقع أخرى (الشكل 54). وكنا نراها سابقاً تتحضر بشكل من الأشكال منذ السويات العليا لشيلوروكامبوس، حيث تظهر أولى البيوت الدائرية ذات الجدران الثخينة[32] التي ستميزها فيما بعد والتهجين الواضح للأدوات الحجرية التي فقدت «إسناداتها» النادرة من الـ PPNB في الوقت نفسه الذي اختفت فيه الثيران المستوردة في البداية.

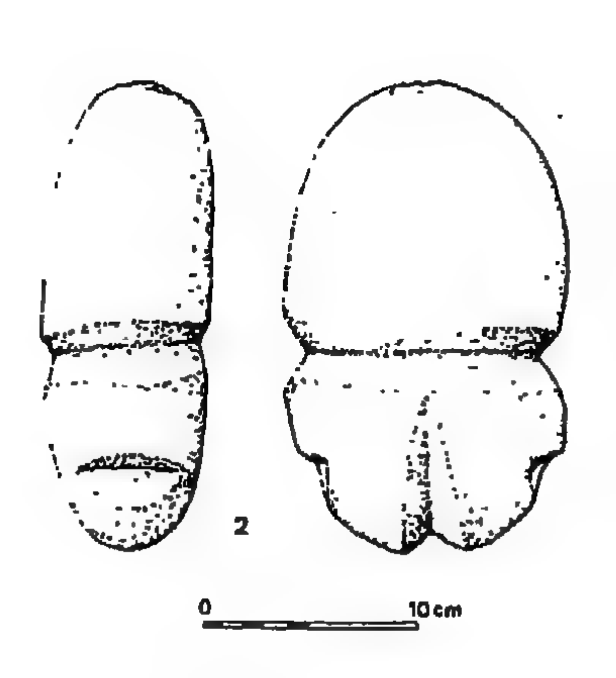
إن قرى ثقافة خيروكيتيا هي قرى زراعية رعوية بشكل كامل: فقد زرع فيها القمح والشعير والعدس؛ وربي فيها الخراف والماعز والخنزير، دون أن ننسى الكلاب والقطط. والأيل الأسمر موجود فيها أيضاً كما في شيلوروكامبوس؛ وربما كان هذا الحيوان قد خضع لمحاولة تدجين غير ناجحة، أو على الأقل لـ «تنظيم مضبوط» لنوع بري يسهل تدجينه وأحضر هو أيضاً من القارة. وتشترك هذه القرى في أنها تجمعات من البيوت المبنية على السطح. إنما الدائرية (اللوحة III) وليس المستطيلة كما في معظم القرى الحضرية المعاصرة في الشرق الأدنى. ومع ذلك فليس ثمة فيها ما هو بدائي. ويمكن لهذه البيوت أن تتجمع بعدد كبير حول باحة، حيث كان المسكن الشامل لعائلة مذاك أكثر تعقيداً من مجرد خلية دائرية. وتبدو تقنيات البناء والتجهيز الداخلي معدّة بشكل متميز، ولكن من المدهش أن الجدار الدائري الذي كان يحيط بالبيوت، حيث تتلاقى أحياناً حلقات متراصفة من الآجر المشوي، من التراب المدكوك أو من الحجارة، كان يبلغ ثخانة تفوق المعتاد، بحيث يمكن أن تصل إلى متر في خيروكيتيا؛ ويمكن أن يتقلص الفراغ الداخلي القابل للسكن إلى ثلثي بل وحتى فقط إلى نصف المحيط الكلي لبعض البيوت.

ونشير إضافة إلى ذلك إلى اختيار مواقع دفاعية بالنسبة لهذه القرى؛ نتوءات صخرية، وجزيرة صغيرة (بترا تو ليميتي Petra Tou Limmiti) أو مدرجات طبيعية (كاب أندرياس كاستروس Cap Andreas Castros). وعندما لم يكن يُنظر إلى هذه الدفاعات الطبيعية على أنها كافية، كان يبنى جدار يكمل العزل للمكان المسكون. وهذا هو الحال في كلفاسوس تانتا Kalavassos Tenta وبخاصة في خيروكيتيا، وهي عبارة عن «نتوء صخري مسدود» فعلاً، حيث كان هذا السور الذي تتراوح ثخانته بين 3,50 و 4 أمتار قد أعيد في مكان أبعد عندما توسعت القرية. وقد تم العثور على مدخل القرية (اللوحة III): وهي عبارة عن ممر متعرج معدّ في نوع من الدعامة الطينية الملبسة على جدار السور، وهو تجهيز معقد يصعب اجتيازه إنما تسهل حراسته. ويطرح سؤال هنا: ضد من كان السكان يدافعون عن أنفسهم؟

إن الأدوات الحجرية تدهش بمظهرها الفظ وقليل التمايز. وهو لا يشتمل على تقصيب ثنائي الوجه للنصال ولا على تشذيب مسطح في المواقع القارية وفي شيلوروكامبوس. وليس ثمة أيضاً رؤوس سهام والتي تشكل في المناطق الأخرى الموضوع الرئيسي لهاتين التقنيتين. والأساسي مصنوع من الشظايا الصوانية المستخدمة في حالتها الخام. غالباً كمناجل. ومن بعض الشظايا ذات الظهر. الأزاميل والمكاشط السيئة والمثاقب. الموجودة في أية صناعة ما قبل تاريخية[33]. أما الأدوات العظمية[34] فمصنوعة بشكل جيد بل وشائعة.

بالمقابل. إذا كان هذا النيوليتي يمثل في مجال ظهور الخزف التأخير نفسه الذي نجده في مواقع الـ PPNB الأخير المشرقي. فإنه يوجد في قبرص قطاع معد بشكل رفيع إن من خلال مهارته التقنية أو من خلال نوعيته الجمالية: إنها الآنية الحجرية المصقولة. وهي أصيلة جداً وتشتمل على آنية دقيقة ومتكلفة. دائرية أو مستطيلة، ومزودة عند الإقتضاء بمناقير للسكب أو بآذان مثقوبة من أجل حملها بل وهي حتى مزينة. ومع ذلك فهي لا تتميز بأية صلة أسلوبية مع إنتاج أولئك الأخصائيين الكبار للآنية الحجرية والذين كانوا كما سنرى المحتلين الجدد لسوريا الصحراوية خلال الفترة نفسها.





الشكل 56. *تماثيل صغيرة بشرية الشكل من الحجر من خيروكيتيا (قبرص). عن لو برون Le Brun.*

ماذا تقول الوثائق الدينية؟ إن الشعائر الجنائزية تشتمل كما في بيبلوس على مدافن بسيطة بشكل حفرة، ولكن بينما كانت قرى المشرق تدفن موتاها، باستثناء بعض الأطفال. خارج بيوتها، فإن قرى خيروكيتيا حفظت كافة قبورها في الداخل. وهذه الممارسة. التي كانت قد وجدت في النطوفي ولم تعد موجودة إلا في الأناضول في تلك المرحلة، هي من طبيعة تشد كثيراً الروابط الرمزية بين مجتمع الأموات ومجتمع

الأحياء[35]. أما بالنسبة للفن، فهو يكاد يكون بشري الأشكال بكامله: ويتعلق الأمر إن بتماثيل تخطيطية ممثلة، بشكل تقليدي جداً في الشرق الأدنى، وقد رفعت أذرعها في لوحة جدارية مرسومة في كلفاسوس تانتا أو على شكل تماثيل صغيرة (أو رؤوس) ذات نمط خاص جداً، على الرغم من أنها هي أيضاً تخطيطية جداً وغير محددة الجنس (الشكل 56). ويجدر الذكر غياب التمثيلات الأنثوية أو الذكرية بشكل واضح.

مسائل ودروس من قبرص

منذ فترة ليست طويلة[36] كان سر قبرص يكمن في الغزو الظاهري، الكثيف والمفاجئ، للثقافة القروية في خيروكيتيا كأول إعمار مفترض للجزيرة. ولم يكن من الممكن لهؤلاء المستعمرين النيوليتيين أن يأتوا إلا من الشرق الأدنى. لكن شيئاً لم يكن يذكر فيهم بشكل من الأشكال بالموروث الثقافي للـ PPNB المشرقي.

وها أن شيلوراكامبوس تظهر وهي أقدم بخمسمائة عام. فأين نحن من لغزنا؟ إن هذا المثال وحيد من نوعه حتى الآن في قبرص: فوصول أوائل المستعمرين النيوليتيين هو بالتالي ليس فقط أقدم بل وأقل حجما مما كان يعتقد. ومن جهة أخرى ليس من الضروري المصادرة بالنسبة للـ «مرحلة الثالثة» من احتلال الجزيرة بوجود موجة جديدة من المستعمرين: فثقافة خيروكيتيا قد تحضرت في مكانها بالتطور الداخلي لما قبل الخزفي في شيلوراكامبوس في إطار توسع ديمغرافي عادي.

أما بالنسبة لأصل الإعمار السابق فهو حاليا أوضح: فبعض عناصر الـ PPNB كما سبق ورأينا حاضرة فعلا في الأدوات البدئية، قبل أن تختفي تماما. لكننا لا نجد في شيلوروكامبوس كما لا نجد في خيروكيتا بيوتا مستطيلة من الـ PPNB القاري. وكان الواصلون الجدد يبدون في البدايات أكثر اهتماما بإيواء الحيوانات فيها من إسكان البشر فيها. إنهم مربون كانوا قد جلبوا من القارة على الأقل العناصر المنتجة لماشيتهم، مما يستتبع وسائل ملاحة ثقيلة نسبيا: فالثران وحتى الصغيرة منها أكثر إرباكا من الأنواع الأخرى.

وعندما ظهرت في النهاية أولى البيوت المبنية كانت من النمط الدائري القديم، على صورة النموذج الذي نجده في المشرق عندما كان الرعاة البدو يتحضرون (انظر سابقاً ص. 198). ولكن في حين كان هؤلاء الحضر الجدد يكتشفون عموماً بسرعة المخطط المستطيل المعتاد لقرى الـ PPNB. فقد تم انتظار عصر البرونز في قبرص من أجل اعتماد مثل هذا المخطط. ولا ننسين من جهة أخرى أن العناصر من الـ PPNB التي تسهل معرفتها في بداية ما قبل الخزفي في قبرص بدت لنا أنها لا تعيدنا إلى الساحل الفينيقي القريب، بل إلى سمة أكثر شرقية وشمالية من الـ PPNB الحديث، هي سمة الفرات الأوسط. فإذا كان من الممكن تصور أن شعوباً نيوليتية محبة للهجرة اتخذت طريق البحر للوصول إلى الجزيرة المرئية في البعيد. فلا يمكننا استبعاد فرضية أنه تم من خلال نوع من «الترحل البحري»، ناقلاً صفات نلح بأن أصلها من سوريا الداخلية بالأحرى منها إنشاءات حضرية ساحلية[37].

تبقى مسألة زمنية: فحتى الآن لا يبدو إعمار الساحل الفينيقي كما ولا تربية الثور والخنزير على القارة سابقين للـ PPNB الحديث أو النهائي[38]. والحال أنه لم يمكن لحيوانات التسمين القبرصية أن تدجَّن في مكانها بسبب عدم وجود أصول برية محلية لها. فإذا كان حقاً إعمار الجزيرة هو امتداد في البحر لظاهرة هجرة سبق تحليلها وإذا كان الثور المجلوب إليها مدجناً فعلاً. فمن الصعب جداً. ضمن الوضع الراهن لمعارفنا، إرجاع ذلك كله إلى ما قبل الـ PPNB الحديث. أي إلى ما قبل 7500 قبل الميلاد. وهكذا سيكون علينا أن نرفض جزءاً من التأريخات بالكربون 14 في شيلوروكامبوس على أنها قديمة جداً، هذا على الأقل طالما أن اكتشافات جديدة على الساحل الآسيوي لم ترجع بالزمن بضعة قرون أكثر الهجرة باتجاه الغرب وتدجين بعض الأنواع في الوقت نفسه: وليس ثمة هنا أيضاً ما هو مستحيل.

وإلى ما وراء هذه الشكوك. فإن نولتة قبرص ذات أهمية كبيرة جداً من أجل فهم آلية الإنتشار النيوليتي. والأصالة التي تشهد عليها منذ البداية هي ربما أقل إدهاشاً مما يقال. فندرة بل وحتى الغياب الكامل لمعالم أسلوبية تشير على مستوى الأمور الصنعية إلى المكان الأصلي الذي انطلقت منه الشعوب المهاجرة قد دفع غالباً بالباحثين إلى الشك بوجود فجوة نظرية ما في طريقة طرح المسائل نفسها. فالواقع البسيط في إدخال تقنيات جديدة جوهرية جداً كإنتاج المعيشة أو في الحالة الحالية، فن صقل الحجر، إلى وسط جديد ليس إسهاماً ثقافياً لا قيمة له. حتى وإن كنا نتوقع أن نجد تحت هذه التسمية صفات أكثر وضوحاً وأكثر دقة. وبالتالي يمكن التعرف عليها بشكل أسهل.

ونحن لا نزال نجهل الأسباب التي تجعل مجموعة بشرية تستقر في إطار جديد تعدل كثيراً أو قليلاً في القائمة الأسلوبية لمنتجاتها الأصلية، بل وحتى تخترع بعض التقنيات لكي «تنسى» غيرها. لكن هذا التجديد نستنتجه بدرجة لا تقل جزماً في مناطق أخرى: وسنراه عندما نعرض لتوسع النيوليتي باتجاه الشرق. وعندما يتعلق الأمر بمسارات أرضية يمكننا أن نشك بدور البداوة الرعوية التي يعود انبثاقها إلى هذه الفترة والتي أمكن لتأثيرها أن يُنسيَ خلال بضعة أجيال من التنقل جزءاً كبيراً من المركبات المصطنعة لرفاه حضري مهجور. وهكذا كان على هذه المجموعات أن تعود مع رجوعها إلى التحضر من جديد إلى تنشيط معرفتها التقنية الكامنة في إنتاجات جديدة تماماً[39]. وقد رأينا أن الحال لم يكن كذلك في المشرق بالنسبة لأساسات رأس شمرا أو بيبلوس، واللتين لم يكن ثمة حاجة قبلهما لطرح فترات من الترحل، لكنه من الممكن أن المحتلين الأوائل النيوليتيين لقبرص قد شاركوا في ظاهرة ضياع ثقافي من النوع نفسه إذا لم يكن أصلهم القاري حضرياً.

يبقى أن نفسر تاريخ العمارة الخاصة جداً للنيوليتي القبرصي. فما أن ظهرت بيوت من الحجر، في شيلوروكامبوس، كان الأمر يتعلق ببيوت دائرية، الأمر الذي لا يدهش إذا أخذنا بفرضيتنا. وما يدهش أكثر هو أن هذا النمط من المسكن سيتجمد بعد ذلك طيلة آلاف السنين عبر حياة حضرية طويلة لم تُنتج التطورات المعتادة في المشرق. ومع ذلك فإن قرى ثقافة خيروكيتيا لم يعد لها على المستوى الإجتماعي الإقتصادي شيء من «البدائية» بقدر ما أن البنائين فيها لم يعودوا بلا خبرة. ولا يتردد لو برون في وصف هذه الشذوذات بعبارات نفسانية ـ عاطفية وبنسبها إلى نوعية ذات طبيعة غير مادية للأوساط الجزيرية[40] يساهم في ذلك سمات أخرى لا تقل شذوذاً في مجالاتها الخاصة إنما ترجع كلها إذا ما قاربناها إلى البنية العقلية نفسها: فإلى «الإندفاع إلى البناء الكبير الحجم» الذي يشير إليه لو برون، ذو جدران البيوت الأكثر ثخانة بكثير مما تتطلبه وظيفتها الطبيعية، وإلى مضاعفة الجدران والمنظومات الدفاعية، يضاف هذا الإهتمام، الذي تم تجاوزه في الخارج، بجمع الموتى والأحياء في الخلية الحامية للمسكن «الأصلي». ويهدف ذلك كله إلى ثني وشد الجماعات البشرية بمواجهة الأخطار التي يصعب علينا إدراك طبيعتها[41].

وحتى إذا افترضنا أن الجماعات القروية في قبرص، وكانت كثيرة بدرجة كافية أثناء مرحلة خيروكيتيا، كانت مضطربة وميالة إلى مهاجمة بعضها بعضاً، فإننا سندهش بدرجة أكبر من غياب أي تسليح في صناعاتها، وبشكل متعارض هنا أيضاً مع التسليحات

الغنية المعاصرة في القارة. ونذكّر مع ذلك بأن تهديدات أخرى كانت موجودة أو أمكن الشعور بها على أنها كذلك.

وكان العالم الهوميروسي الأقرب منا من الأزمنة التي نصفها يعتبر الجزيرة، التي كان البحر يحاصرها من كل جهة، على أنها المكان السحري لكافة الأخطار. ولا يهم أخيراً أن تكون السيكلوب* Cyclopes أو اللستريجون Lestrygons أو كاليبسو Calypso الساحرة قد وجودوا أم لا: فالبحارة الذين تصفهم الأوذيسا آمنوا بهم وقد وُجدوا بالنسبة لهم. ويمكن للتقنية البشرية أن تظهر أيضاً حاذقة لكي تحمي نفسها ضد المهالك «الخرافية»، التي لا تستطيع رؤوس السهام شيئاً ضدها، كما وبالقدر نفسه ضد قرية معادية أو بحارة عدوانيين. وكان جون إيفانز John Evans قد لاحظ ميل الحضارات الجزيرية أو البحرية من عصر ما قبل التاريخ الإنتقالي إلى الإنغلاق في أبنية ثقيلة والمغالاة في البناء بالحجارة الضخمة، أكان ذلك بالنسبة لأحيائهم أم بالنسبة لأمواتهم. ونتذكر هنا معابد مالطا من عصر البرونز، والجدران السيكلوبية (الضخمة) في ميكينا، والتماثيل ـ المنهيرات** في كورسيكا، بل وحتى التماثيل الحجرية الجبارة في جزيرة الفصح في قلب المحيط الهادئ. وسيكون من المؤسف هنا أيضاً أن تُفقد مقاربةٌ منفعية الباحثَ، وذلك بتشويش المعايير، ما يميز ثقافة ما أكثر من غيرها. وتحمل بعض الشذوذات، وبشكل خاص عندما تُجمع في حزم كبيرة، شهادة على نفسانية جماعية، وعلى خياراتها الخاصة وعلى مغالاتها المحتملة. ويشكل هذا أيضاً مادة للتاريخ كما يعرف المؤرخون ذلك منذ زمن طويل.

---

* السيكلوب عمالقة أسطوريون بعين واحدة تنسب لهم قدرة هائلة، م.

** المنهيرات نصب حجرية أحادية عملاقة قد يبلغ ارتفاع بعضها أكثر من خمسة وعشرين متراً، م.

الهوامش

1. حول «رمال» بيروت: مجموعة جامعة القديس يوسف، بيروت. وبالنسبة لجدول المواقع النطوفية في لبنان انظر Copeland، 1991.

2. انظر: «التل ذي المسننات» قرب بيروت وديك المهدي .Cauvin J، 1968، ص. 219 – 229).

3. Kirkbride، 1969. انظر أيضا، دائما في البقاع، محطة صبيده (Hours، 1969).

4. Contenson، 1992.

5. Helmer، 1989. 1992.

6. قارن مع كونتنسون، المرجع السابق، الشكل 125: 12 مع مور وآخرين، 1975، الشكل 9: 14، 17.

7. تل أسود، انظر أدناه ص. 204.

8. على سوية «العمق A» في تل الجديدة: Braidwood et Braidwood، 1960.

9. السويات 33 – 28. Garstang، 1953.

10. Tabbat el Hamman، Hole، 1959.

11. السوية العليا من موقع لبوة (Kirkbride، 1969) ونبع فاعور في البقاع (Copeland، 1969) والنبي مند في فجوة حمص نفسها (Parr، 1983).

12. Dunand، 1973.

13. Cauvin J.، 1968.

14. Dunand، المرجع السابق، ص. 24 – 25.

15. الشاهد الوحيد الذي نجده على ذلك في بيبلوس (جبيل) أكثر قدما: فهو يميز نهاية النيوليتي القديم، عندما وصلت نحو عام 5800 قبل الميلاد جماعة جديدة من الشرق إلى الموقع، وقد حفظت هذا النمط من الممارسة: انظر «بيت الأموات» في النيوليتي الأوسط، جاك كوفان، 1972 a، ص. 95 – 96.

16. Dunand، المرجع السابق، ص. 29 – 32.

17. ثمة نمط ثالث من الدفن في جرار من الطين المشوي لا تخص سوى الأطفال الصغار جدا وهي محفوظة داخل البيوت.

18. جاك كوفان، المرجع السابق، ص. 83.

19. Forest، 1983.

20. كما هو الحال ربما، على سبيل المثال، عندما تزين بشكل غني بعض قبور الأطفال على الرغم من أنهم لم يحصلوا على الوقت لاكتساب الإستحقاقات (Forest، المصدر نفسه). ولا يجب أن ننسى أنه كانت توجد مدافن فردية، مزينة بدرجات مختلفة، في المجتمعات غير ذات الطبقات من العصر الباليوليتي الإنتقالي في الشرق الأدنى. وبالمثل انظر حول الرمزية الجنائزية النيوليتية في الألفين الثامن والسابع في الباكستان Barthélémy De Saizieu، 1989، 1991.

21. French وآخرون، 1972.

22. Mellaart، 1967.

23. Bordaz، 1970.

24. Aurenche، 1981.

25. على خلاف سوبرد Suberde، حيث كانت الغنميات، وبخاصة الخراف منها، تبدو أنها كانت تربى مذاك بشكل كثيف.

26. سبق أن ذكرنا الإبر العظمية ذات العين المحزوزة والتي كان وجودها قد اكتشف في خان حسن (Stordeur، معلومة مقدمة لي شخصيا).

27. Simmons، 1989.

28. Guilaine وآخرون، 1995.

29. بحسب غيلين (معلومة مقدمة لي شخصيا، 1996) هناك أربعة تواريخ في 8800 / 8600 قبل الآن وتاريخ واحد سابق لـ 9000 قبل الآن.

30. بالنسبة لحالوله انظر Molist، 1996؛ وبالنسبة لتل أسود في الجزيرة انظر M.-C. Cauvin، 1972.

31. Dikaios، 1953؛ Le Brun، 1953، 1989، 1995.

32. Guilaine وآخرون، المرجع السابق ذكره، الشكل 6.

33. Cauvin M.-C. في Le Brun، 1984، Coqueugniot، المرجع السابق.

34. Stordeur، المرجع السابق، 1984.

35. Le Brun، 1987، ص. 294.

36. Le Brun، في مواضع مختلفة، وأيضا جاك كوفان، الطبعة الأولى (عام 1994) من المؤلف الحالي.

37. لا يمكننا أن نستبعد من جهة أخرى إبحارا من ساحل كيليكيا، وهو الأقرب أيضا إلى قبرص من ساحل سوريا. وأيا كان الأمر فإن السهل الساحلي الضيق السوري الكيليكي كان يتصل بسهولة أكبر بكثير مع شمال سوريا منه ومع الهضبة الأناضولية نفسها. إن دراسة سويات القاعدة في مرسين، قرب أضنة، والجاري تنقيبها على يد كانكفا I.Caneva، ستكون من هذا المنظور هامة.

38. Cauvin J.، 1992، Helmer، المصدر السابق.

39. كان يمكن لذلك أن يكون حالة النولتة في الشرق الأدنى ابتداء من المشرق.

40. Le Brun، 1986، ص. 7.

41. لا يتردد أبراهام رونن Abraham Ronen في التحدث عن «ملة» لنعت الموقف المجمد وشبه الإنكفائي للعقيدة القبرصية في تلك المرحلة (Ronen، 1995). ويتعلق الأمر فعلا في كل حال بنوع من الإنعزال الثقافي ذي تطور متباطئ، وذلك ربما كان بسبب نقص الإتصالات الأكثر تواترا مع المحيط الإنساني الأكثر ديناميكية في المشرق.

الفصل السادس عشر

اندفاع الحضريين باتجاه الشرق: الجزيرة الشرقية والصحراء السورية

لم يوقف البحر تقدم النيوليتي باتجاه الغرب. وقد رأينا أنه استطاع أيضاً الإبحار وتأسيس مستعمرات بحرية حقيقية في المتوسط. وبالمقابل فإن الشرق هو آسيا القارية كلها حيث ليس الشرق الأدنى سوى واجهتها المتوسطية. وبالدرجة الأولى فإنه بالنسبة لنا في آن واحد القوس الشمالي للسهول الشمالية العليا في بلاد الرافدين وسفوح زاغروس العراقية، الملائمة للزراعة الجافة[1] بقدر ملاءمة النواة المشرقية، والسهوب شبه الجافة التي يزداد قحلها كلما نزلنا باتجاه الجنوب. ويشكل هذا الجفاف عندها حاجزاً أعظمياً أمام الحياة الحضرية، باستثناء الأمكنة التي خلقت فيها مياه الأنهار والينابيع الواحات بشكل محلي أعشاشاً بيئية موافقة للزراعة على الرغم من قلة معرفة استخدامها.

وضمن الوضع الراهن لمعارفنا يمكننا القول إن هاتين المنطقتين الطبيعيتين، إحداهما المروية بشكل جيد نسبياً، والأخرى الجافة، كانتا في وقت متزامن موضع انتشار الإقتصاد النيوليتي من الغرب إلى الشرق: إن وثائقنا حول هذا الإنتشار تتعلق كثيراً من جهة أخرى بالفترة التي تهمنا في هذه اللحظة (7500 – 6300 قبل الميلاد).

إن اختلاف الشروط المناخية من منطقة لأخرى يترافق بسلوك تأقلمي مختلف: وهكذا فسنجد في هذه المنطقة حضريين كما ورعاة رحّل. وبالمثل، بما أن هذا الإنتشار لم يكن يتم في مكان خال، على الأقل في المنطقة الرطبة، فسيكون علينا أن نحدد في آن واحد،

إذا كان ذلك ممكناً. العامل البشري المسؤول عن هذه الإسهامات والطريقة التي تم تلقيها بها. وسنعالج هنا في البداية توسع الإقتصاد النيوليتي حصراً بشكله القروي والحضري باتجاه الشرق.

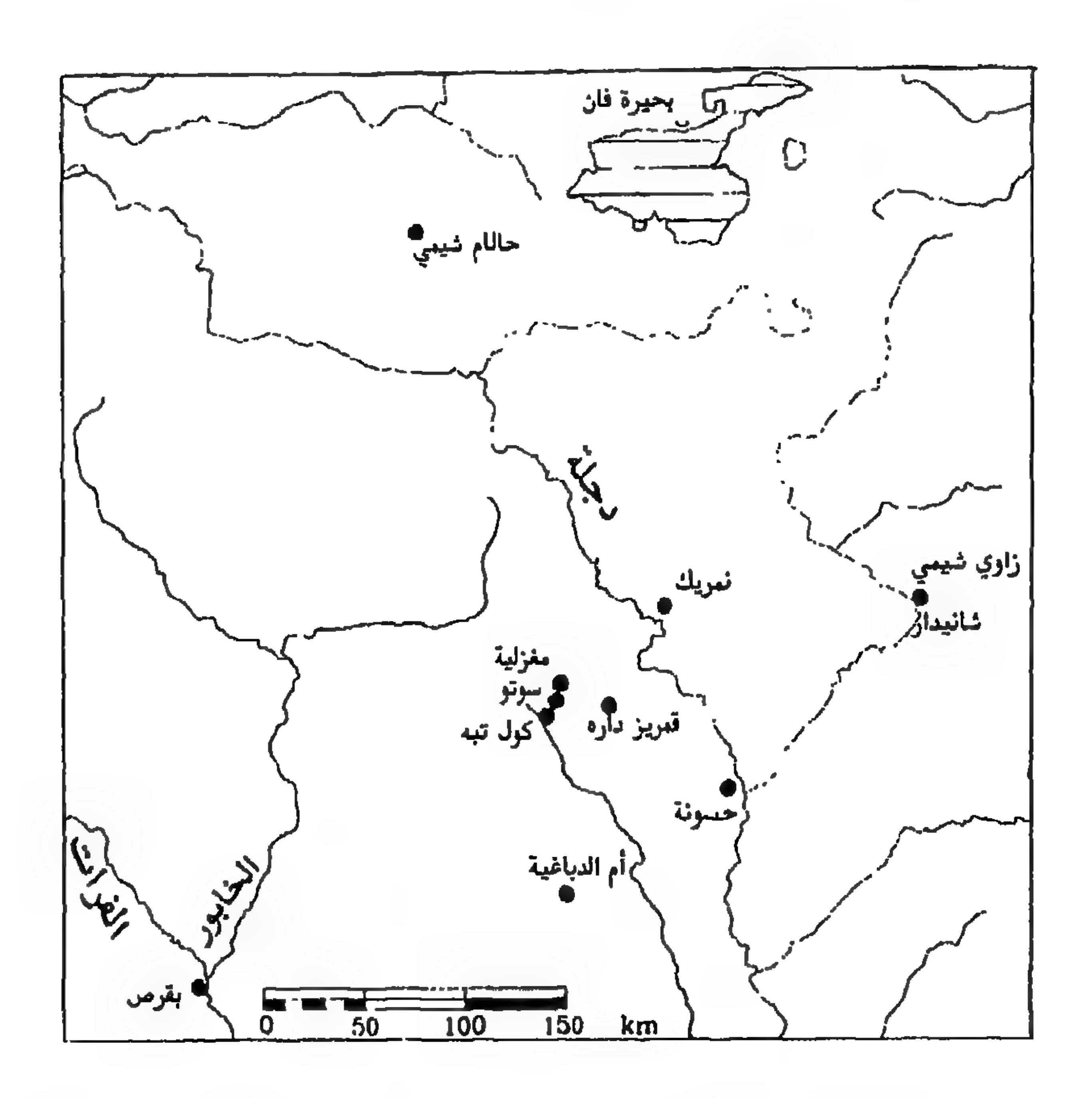
الجزيرة الشرقية: موروث ثقافي مستقل

تمتد بلاد الرافدين العليا، المسماة الجزيرة، على طرفي الحدود الحالية السورية العراقية التي تفصل أيضاً، اتفاقاً، الشرق الأدنى عن الشرق الأوسط. وقد رأينا أن جزءها السوري، على الأقل إلى غرب الخابور، كان متضمنا كلية في آن واحد في الموروث الثقافي المشرقي وفي النواة البدئية للنولتة. وليس ثمة أي شيء من هذا القبيل في الشرق، حيث تبدأ منطقة سنجار (الشكل 56) بأن تصبح معروفة بشكل جيد من خلال تنقيبات حديثة بل وتجبرنا على العودة إلى الوراء. فههنا وُجد موروث ثقافي مختلف تماماً عن موروث المشرق، ولا شك أنه يجب البحث عن مصدره البعيد في الباليوليتي الأعلى الشرقي، المسمى الزارزي Zarzien، والذي سبق التعرف عليه في زاغروس. فقد تركت لنا مواقع أحدث، من الألف الثاني عشر إلى الألف التاسع قبل الميلاد، أن نستشف الأثر الباليوليتي الإنتقالي للزارزي منذ فترة طويلة في جبال الزاغروس الغربية[2] أو في منطقة دجلة العليا[3].

وحالياً فقد كشف مؤخراً السهل العالي المحيط بجبل سنجار، بشكل أكثر وضوحاً أيضاً في قرميز داره[4] Qermez Dere وفي نمريك[5] Nemrik، عن موروث باليوليتي انتقالي مشابه معاصر لنطوفي المشرق إنما مختلف ومستمر مع بعض التغيرات الطفيفة بين 9500 و 7600 قبل الميلاد، أي على كامل الفترة التي يتقاسمها في المشرق الـ PPNA والـ PPNB القديم والأوسط، وهما نيوليتيان بالكامل.

وكما في المشرق، فإن صيادين قاطفين حضريين منذ الألف الحادي عشر كانوا يعيشون في قرى إنما كانوا أصحاب كفاءات معمارية أعلى بشكل أوضح من كفاءات النطوفيين. ويشتمل هنا البيت الدائري القائم في حفرة دائرية ليس فقط على أعمدة من الخشب بل وعلى اثنتين أو أربع دعامات داخلية كبيرة[6]، بحيث يتألف كل منها من نصب حجري واقف مغلف بالصلصال ثم مليس بالكلس، وحتى مقولب أحياناً بإيجاز (في

قرميز داره) وفق نموذج بشري الشكل. وكانت هذه الأعمدة والدعائم تحمل سقفاً من التراب المردوم. وكانت الأرضيات أيضاً مغطاة بطلاء من الكلس غالباً ما يعاد شغله. وهكذا يبدو استخدام هذه المادة أبكر بكثير منه في المشرق[7]. كذلك في مجال الصناعة الحجرية فإن التقصيب النصلي للصوان بالضغط كما وصقل الحجر[8] أبكر منهما في المشرق.



الشكل 57. *خارطة للمواقع المذكورة في سنجار وفي بلاد الرافدين العليا.*

وقد حصل أنه خلال أكثر من ألفي سنة امتد عليهما هذا الموروث الثقافي ظلت تغيراته الحاصلة منفصلة بشكل مدهش: فنحو عام 9500 قبل الميلاد اغتنت الصناعة القرميزية برؤوس سهام من نمط الخيام، وهو تأثير سوري واضح إنما في إطار مختلف تماماً عن الخيامي. ثم في المرحلة الأخيرة من الثقافة «النمريكية» ظهرت رؤوس بشكل معينات

تسمى رؤوس نمريك وكانت هي نفسها أصيلة جداً. وبالمقابل ظلت الصناعة الأساسية مستقرة تماماً.

وبشكل خاص لا يبدو أنه كان ثمة خلال هذه المتتالية كلها أي أثر لاقتصاد زراعي أو رعوي[9]. حيث ظل اقتصاد قنصي واسع الطيف هو القاعدة: وكان يتم بشكل خاص صيد الغزلان والقواع البري والثعالب. وكذلك بعض الثيران والخيليات والضأنيات والخنازير. وكان القمح والشعير والعدس والجلبان والبيقة يشكلون جزءاً من البيئة النباتية البرية المحلية وكانوا يُقطفون كثيراً إنما دون أثر للتدجين. وليس ثمة حتى رجحان صنعي للزروع على الأنواع الأخرى يمكن أن يوحي بزراعة ما قبل تدجينية. كما هو الحال على الفرات الأوسط النيوليتي. وباختصار. فإن مواقع سنجار[10] ليست نيوليتية حتى وإن كانت حضرية إلا إذا أعدنا بشكل كامل. كما يقترح ذلك تريفور وتكينز Trevor Watkins، تعريف النيوليتي باعتبار إنتاج المعيشة ثانوياً لصالح العمارة المنجزة وإيديولوجيا البيت وهما ما تشهد عليهما بشكل مبكر مواقع سنجار.

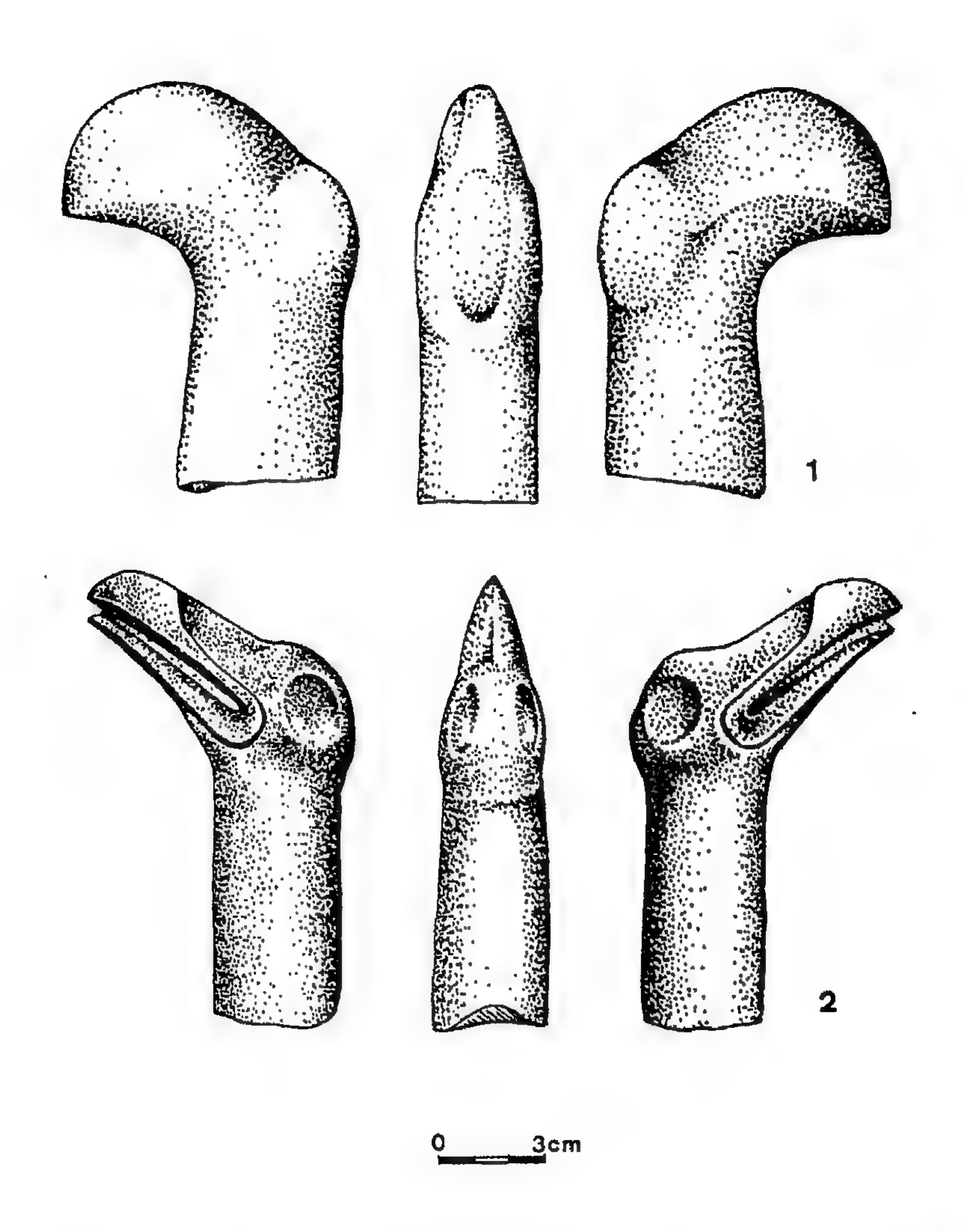
ونجد أيضاً فيها موروثاً رمزياً تعبيرياً جداً. وليس ثمة أية إلهة أو ثور. وعوضاً عنهما ثمة رمزية طيرية[11] متطورة: فالتمثيلات الجميلة للجوارح الليلية من الحجر المصقول في نمريك (الشكل 58) تعيدنا بشكل مدهش إلى مخزن عظام الجوارح الذي عثر عليه في زاوي شمي شانيدار[12] Zawi Chemi Shanidar وهي بمعظمها من العظام الجناحية: وقد استنتج سوليكي Solecki من ذلك فرضية استخدام طقسي لأجنحة (أو لريش) الجوارح كزينات للملبس أو للعمرة. كذلك فإن بعض الحيوانات الأخرى قولبت من الطين أو نُقشت على الآنية الحجرية: الخنازير والأسد والثعبان في نمريك. وقبل ذلك بكثير أحد اللواحم (الثعلب؟) في حلان سمي Hallan Cemi. وأخيراً، كان يوجد مع مخزن طيور زاوي شمي شانيدار نحو خمس عشرة جمجمة لماعز بري: وتجعلنا هذه الإصطفائية من الهيكل العظمي نستشف. كما بالنسبة للطيور. قصداً رمزياً. وضمن الوضع الحالي للتوثيق لا يبدو أبداً أن الثيران البرية كانت تهم الفنانين[13]. على الرغم من أنها كانت موجودة وتصاد اتفاقاً.

فهل من الصدفة إذا كان يبدو أن الزراعة وتربية الحيوانات والعقيدة الخاصة التي ترافقهما في الغرب غائبة عن ثقافات ما وراء الخابور؟ أما غياب التماثيل الصغيرة الإلهية المشرقية فما كان ليكون مؤكداً فيها أبداً لو لم يكن ثمة فن فيها، إلا أن هذا الفن موجود وتبدو مواضيعه الرئيسية حتى الآن منفصلة.

ثمة واقع أكيد: وهو عندما ظهر أخيراً بعد عام 7500 قبل الميلاد مزارعون - مربون في بلاد الرافدين العليا العراقية. مما أعادنا إلى بلد نعرفه. إذ في مجال التقنيات كما وفي مجال العقيدة فإن التسلسل الثقافي الـ PPNB هو الذي سنكتشفه وقد تغير بدرجة متفاوتة إنما ظل ملحوظاً بشكل جلي. وبعبارة أخرى، في هذه المناطق التي كانت تبدو لنا حتى الآن لا تنتمي بشيء إلى التبعية الثقافية الغربية. إذا بهذه الأخيرة تنتشر في الوقت نفسه كاقتصاد إنتاج. إضافة إلى ذلك. كما بالنسبة لـ إحتلال الساحل فسيكون من الممكن أحياناً تحديد بأية سمة من الـ PPNB يتعلق الأمر. أي الأصل الجغرافي الدقيق لهذه الإسهامات.

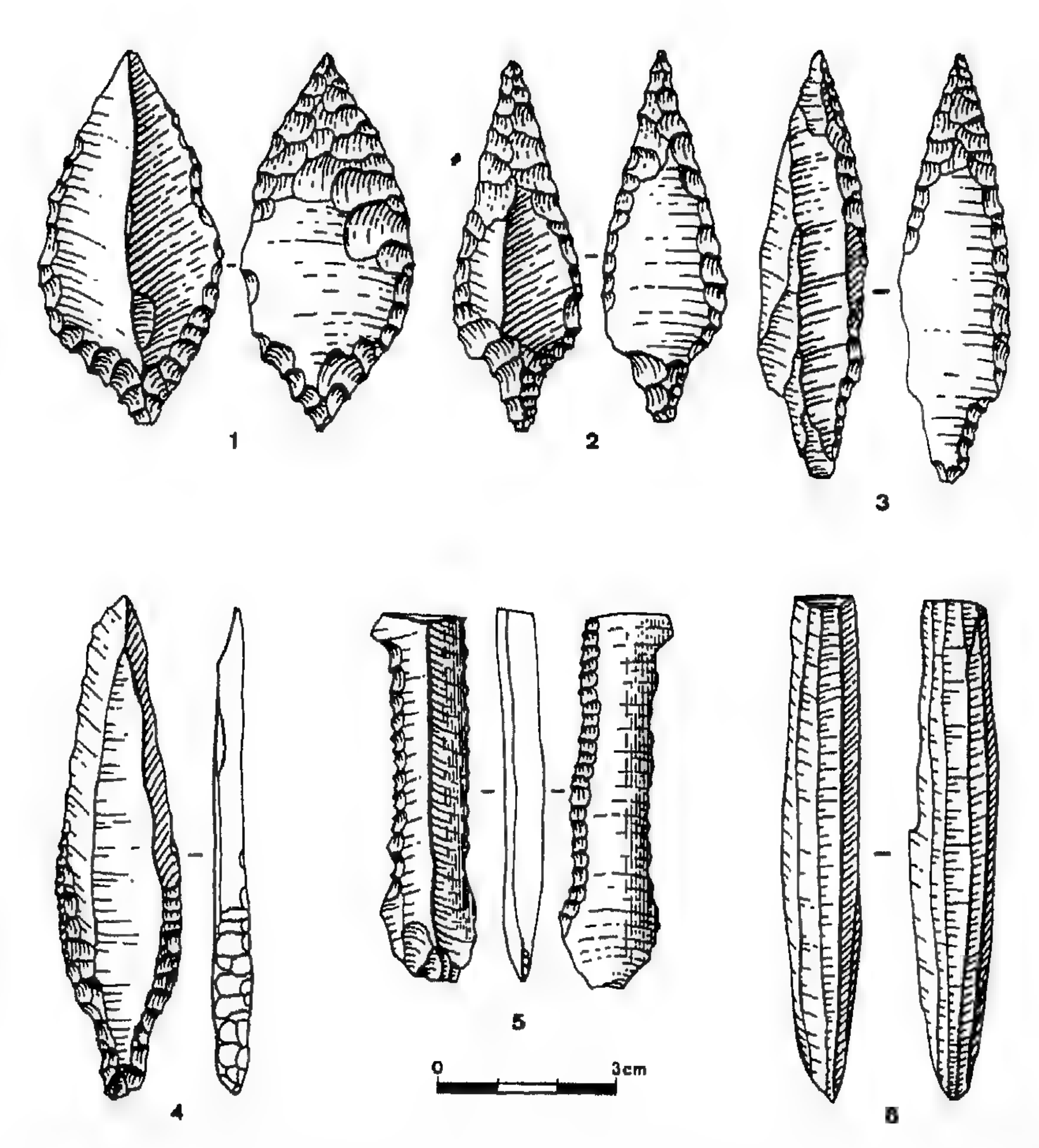
وأحد المواقع المفاتيح هو مغزلية. على السفح الجنوبي لجبل سنجار[14]. ونجد هنا الـ PPNB حقاً إنما تحت سمة طوروس. من نمط كفر هويوك أو تشايونو، والذي نراه هنا يعيد نزول الجبل حيث كنا قد رأيناه يرجع إلى الـــ PPNB القديم. وليس تسليح رؤوس سهام بيبلوس الذي هو العلامة العامة للـ PPNB (الشكل 59: 2 – 4) هو النموذجي فقط، بل وبشكل خاص الصفات الخاصة بسمة طوروس: أهمية الأوبسيديان[15]، على الرغم من وجود الموقع على بعد 300 كلم من مصادره الطبيعية. وتقصيب هذه المادة بالضغط (الشكل 59: 6). وأدوات تشايونو (الشكل 59: 5) التي كانت الإختراع الخاص بـــ PPNB طوروس، والأساور الرخامية[16].

ونجد أيضاً في الصناعة العظمية إبراً ذات عين محزوزة، كانت قد وصلت سابقاً إلى الأناضول الشرقية من الفرات الأوسط السوري وعُثر عليها هنا أبعد إلى الشرق وأبعد إلى الجنوب وعلى ارتفاع أكثر انخفاضاً، في حين كانت قد اختفت تماماً من منطقة مصدرها الأصلي. وأخيراً فإننا نجد في العمارات مخططاً ذا حجرات طويلة عرضانية مبنية كما في طوروس على مصطبة محصاة كما وبالقدر نفسه مخططات ذات خلايا صغيرة. والفرق الوحيد أن الأمر لم يعد يتعلق هنا بالـ PPNB القديم والأوسط كما في كفر هويوك، بل بـــ PPNB حديث مؤرخ بشكل جيد. وفي حين كانت قرى كفر هويوك وتشايونو تؤوي مزارعين لا يزالون يجهلون تربية الحيوانات، لم يكن يتم فقط في مغزلية زراعة الزروع بل وتربية الماعز والخراف[17]. ومن جهة أخرى، في حين كانت القرية لا تزال ما قبل خزفية، فإن وجود الآنية الجصية هو أحد الصفات النادرة المشتركة مع الجزيرة كلها والصحراء السورية: فهو لا يرجع إلى الأصل الجبلي لسكان مغزلية.



الشكل 58. *رؤوس لجوارح من الحجر من نمريك (سنجار، العراق). عن كوزلووسكي J. Kozlowski.*

لقد تمت إذن نولتة منطقة سنجار في الـ PPNB الحديث ليس ببساطة من الغرب إلى الشرق، انطلاقاً من الجزيرة الغربية المجاورة، بل انطلاقاً من الأناضول الشرقية، كما لو أن هذه الثقافة الجوهرية المشرقية التي هي الـ PPNB لم تكن قد بلغت الجزيرة الغربية إلا بعد انعطاف من خلال فرعها الشمالي والجبلي، والذي كان قد تم تعديله بشكل مقبول في الألف العاشر من خلال اتصالات مبكرة مع الموروث الميزوليتي المحلي.



الشكل 59. *صناعة حجرية من مغزلية (سنجار، الـ PPNB الحديث). 2 – 4: رؤوس بيبلوس من الصوان. 5: أداة تشايونو من الأوبسيديان. 6: نواة أوبسيديان من نمط الـ bullet core. عن منشاييف R. Munchaev ومربرت N. Merpert وبدر N. Bader.*

وفي منطقة سنجار نفسها، وقريباً جداً من مغزلية ويليها مباشرة، يأتي موقعان، سوتو Sotto وكول تبه Kul Tepe، وهما أصل الثقافة العراقية المسماة حسونة ويليان مباشرة عام 7000 قبل الميلاد[18]. ويمكن أن نقرن بهما قرية أم الدباغية الواقعة إلى الجنوب أكثر، وهي بموجودة أصلاً في منطقة جافة[19]. ويشكل مجموع هذه المواقع الثقافة المسماة أم الدباغية ـ سوتو حيث كان الخزف موجوداً منذ ذلك الحين كما في الشرق الأدنى كله أو يكاد. وهذا الخزف كان إجمالاً أصيلاً كما كنا نستطيع أن نتوقع: فخار ملون بالأحمر بشكل كامل أو فقط مع بعض الخطوط المرسومة قرب الحافة.وتنتج التزيينات الأخرى كلها

من بروز للعجينة (الشكل 64). وبخلاف الساحل ليس ثمة تزيينات مطبوعة ولا محزوزة على هذا المستوى البدئي. أما بالنسبة للبقية فإن القرابات الأناضولية في مغزلية تبدو وكأنها ممحوة هنا. ويتعلق الأمر أيضاً بموروث الـ PPNB حقاً لكن التشابهات تبدو أقوى مع الـ PPNB الحديث في الجزيرة الغربية ومع القرى الحضرية في الـ PPNB الأخير في سوريا الصحراوية[20]. إن الإستخدام الكبير للجص في العمارة. وبعض رؤوس بيبلوس في التسليح[21]. وغياب التقصيب بالضغط في حين كان الأوبسيديان. الموجود إنما بشكل أندر منه في مغزلية. الذي يبدو أنه يصل كثيراً إلى سنجار في حالة منتجات منتهية وليس مقطعاً في الموضع نفسه. وأخيراً تربية الثور والخنزير التي أضيفت في سوتو إلى تربية الخراف والماعز[22]. إن كافة هذه العناصر تبدو أنها تعيدنا إلى قرى سوريا الشمالية والشرقية. وسنفصل إعداد ذلك في قلب المنطقة الجافة في الـ PPNB الحديث في بقرص. ومن الممكن في كل حال أن تنتج ثقافة أم الدباغية ـ سوتو عن تلاقي عمق مغزلي مع إسهامات جديدة وكبيرة وصلت مباشرة من الغرب[23]. وتأتي معايرة هذه العناصر المختلفة والتفسير الأدق الذي يمكن أن ينجم عن ذلك من التعميق الجاري لدراسة المواد.

القرى الحضرية في الصحراء السورية

كانت الأراضي الجافة حيث يسقط أقل من 200 ملم من الماء في العام مهجورة عملياً منذ نهاية النطوفي. وقد رأينا أن سكان الشرق كانوا بعد أن تأقلموا بشكل جيد جداً مع بيئات جافة خلال الباليوليتي الأخير قد تركوها في نهاية النطوفي لكي ينسحبوا باتجاه السهوب الأكثر رطوبة وذات الغابة المتناثرة حيث كانت تنمو الزروع البرية، واخترعوا هناك الزراعة وتربية الحيوانات. وبدءاً من الـ PPNB الحديث فقط إنما جعلتهم حركة معاكسة ومركزية يشغلون الساحل والجزيرة الشرقية في آن واحد. وهي ستدفع أيضاً المزارعين الحضريين لإعادة اجتياح السهوب نصف الصحراوية. أو على الأقل الواحات أو ضفاف الأنهار حيث يبقى الماء متوفراً على الرغم من المناخ.

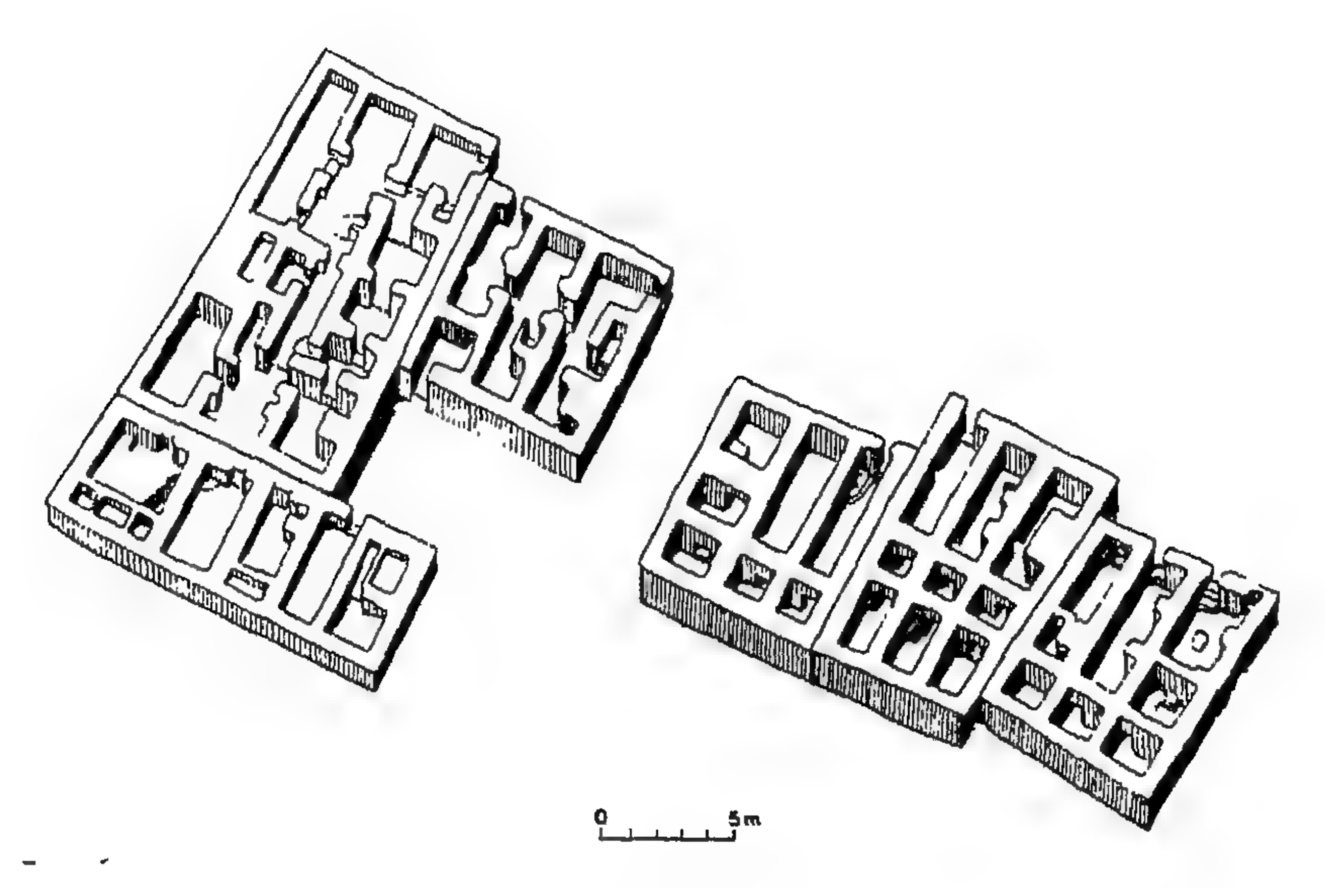
وثمة موقعان هامان بشكل خاص. أحدهما بقرص ويقع على الضفة اليمنى من النهر في الـ PPNB الحديث. والآخر هو الكوم ويشغل منخفضاً مع مصادر إرتوازية لمنطقة تدمر. وهو ينتمي إلى الـ PPNB الأخير، أي إلى المرحلة الأحدث من هذه الثقافة التي

استمرت جاهلة بالخزف في حين أن معظم مواقع الشرق الأدنى والشـرق الأوسـط دمجتـه في متاعها (الشكل 50).

بقرص

لا توجد الخضرة على خط عرض بقرص إلا على السهل الضيق المعرض للفيضان والذي يحف بالنهر على ضفتيه. أما السهوب التي إلى ما وراء ذلك فتتلقى أقل من 150 ملم من المطر ولم يوجد عليها أبداً شجرة. وتبلغ مساحة القرية ما قبل التاريخية[24] الجاثمة على منحدر يحف بالسهل نحو ثلاثة هكتارات. وعمارتها كثيفة ومعدَّة: فـالبيوت متلاصقـة مـع بعضها بعضاً حيث أن جدرانها شبه متلاصقة. والأحياء متمركزة حول سـاحات أو منفصلة بواسطة شوارع، وهو تقدم مؤكد للمدنية القرويـة. وللبيـوت (الشـكل 60) حجـرات متعـددة أكانت متطاولة أو على شكل خلايا مربعة يمكن أن تتصل فيما بينها بواسطة أبواب خفيضة كما في أبو هريرة خلال الفترة نفسها. لكنها تختلف مع أبو هريرة إذ أن الحجرات الطويلـة مثل تراصفات الخلايا تبدو بالأحرى موجهة مع المحـور الطولانـي للبيـت أكـثر منـها مـع المحور العرضاني. وهي سمة سنجدها بعد فترة لاحقة قصيرة في الكـوم. واسـتخدام الجـص من أجل تلبيـس الأرضيـات والجـدران كـان كثيفاً وكـانت هـذه التلبيسـات تعـاد كثيراً. والجدران الداخلية يمكن أن تكون ملونة بـالأحمر. وأحيانـاً حتـى مزينـة بنقـوش بـارزة أو بلوحات جدارية تصويرية.

ويُستخدم الجص أيضاً من أجل تشكيل آنية غزيرة بيضاء بل إن بقرص، مـع تـل أسود، هي إضافة إلى ذلك أحد المواقع النادرة في الشرق الأدنى التي نجـد فيـها القليـل مـن الفخار قبل 7000 قبل الميـلاد[25]. وأشـكالها بسـيطة، وهـي غالبـاً مسـتديرة ولكـن أحيانـاً إنسيابية منذ ذلك الوقت كما ستكون بعد فترة قصيرة في أم الدباغية أو سوتو. وكما في هذين الموقعين أيضاً يوجد حالات غطاء أحمر شامل أو تزيينات خطية ملونة باللون نفسـه. ويبـدو حقاً أننا هنا عند أصل موروث للخزف الملون الـذي سيميز، في الحـال، ليـس فقـط الثقافـة العراقية في أم الدباغية ـ سوتو، بل ومجمل الخزفيات النيوليتية في الشرق الأوسط. ومـذاك فإن هذا التقليد الخزفي الشرقي، الذي يتميز بشكل واضح جداً عـن تقليـد الجزيـرة الغربيـة والساحل المتوسطي الأحـادي اللون، يكـون قـد ظـهر مثلـه في المشـرق في أوج إنطلاقـة الـ PPNB . وعندها إنما يبدو الخابور أنه يشكل الحدود بين هذين الأسـلوبين في الإخـتراع في مجال الخزف.

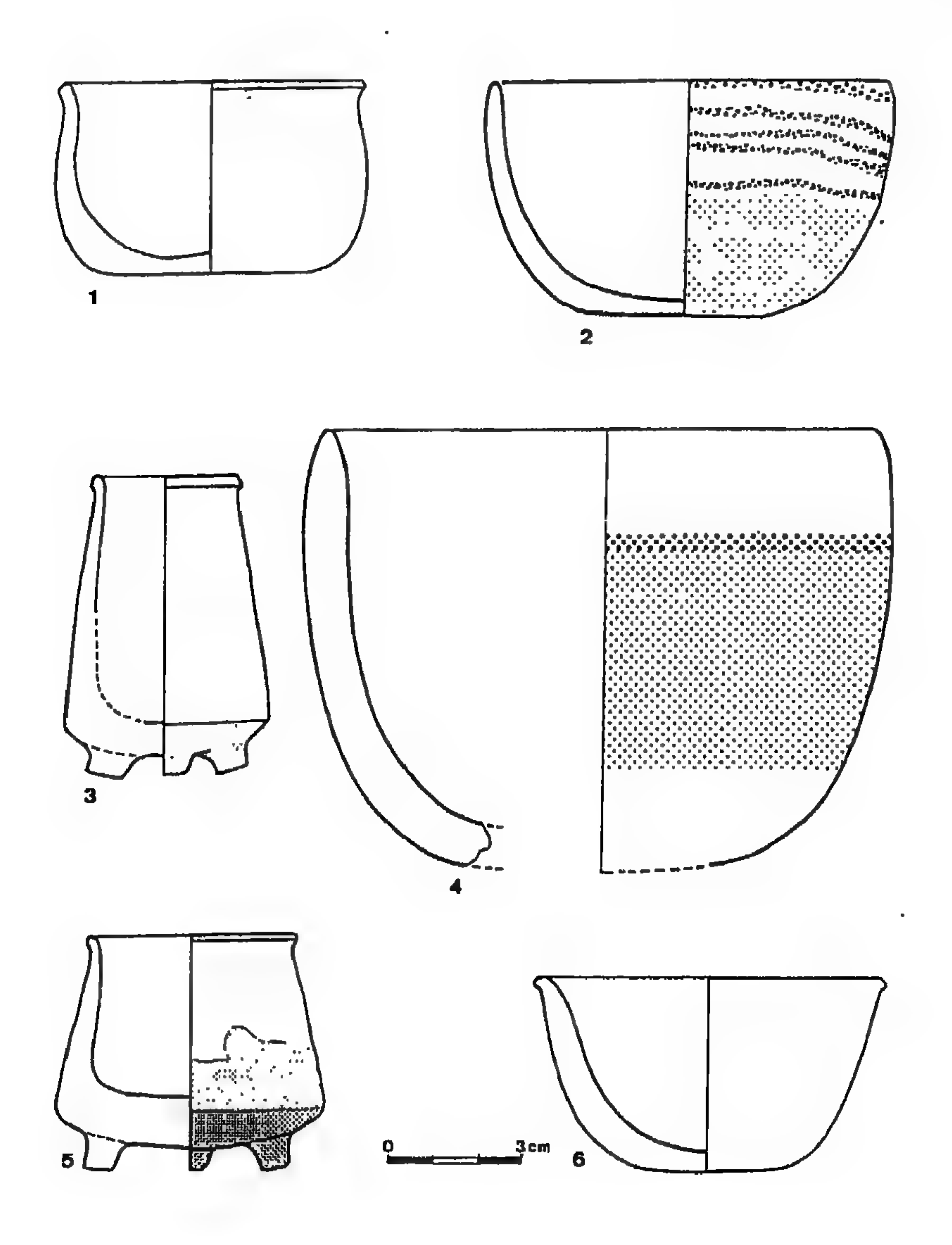


الشكل 60. *بيتان من الـ PPNB الحديث في بقرص (سوريا): منظور تفصيلي. عن أكرمانس وآخرين.*

فليس ثمة مجال للشك في كل حال أن الأمر يتعلق بخلفية الـ PPNB في سمته من الفرات الأوسط. فالمخططات المعمارية ليست وحدها على الرغم من تعقيدها التي تندرج في خط مخططات المريبط IV وأبو هريرة. بل إن الأدوات الحجرية[26] تظهر تقصيباً نصلياً على نوى سفينية الشكل كما والتشكيلة الكاملة من تسليحات السهام النموذجية للـ PPNB والأدوات الخشبية (فؤوس. بليطات. مقصات) مصقولة من صخور خضراء خاصة بسمته الشمالية. وتظهر صلات مع الأناضول لا شك أنها تجارية بشكل خاص من خلال وصول للأوبسيديان بكميات كبيرة نسبياً، بما في ذلك بعض النوى المسماة بشكل طلقة البندقية (*bullet cores*) والتي كانت تستخرج منها النصيلات في مكانها بالضغط، ومن بين الأدوات الدقيقة بعض أدوات تشايونو[27] التي رأينا أنها كانت أحد التصديرات الرئيسية لطوروس بعد 7500 قبل الميلاد. طالما أننا سنجدها في جبال زاغروس كلها[28].

ويكمن إنجاز آخر مميز للحرفية المحلية للحجر في بقرص، وبخاصة مع نهاية الإقامة. في العدد الكبير من الآنية المصقولة من الجير والرخام والجص (المرمر) أو الصخور القاسية: وكانت في البداية أقداح صغيرة (الشكل 61: 1 – 2) ثم أيضاً أشكال أكثر انغلاقاً ورباعية الزوايا (الشكل 61: 3 – 5)؛ وكانت هذه القطع المميزة بتقنيتها وبصغرها تصنع في مكانها. ويلاحظ ياكوبوس رودنبرغ Jacobus Roodenberg أنها كانت تتطلب مذاك من أجل حفرها استعمال مثقاب وليس مجرد تغريز بسيط. وتوجد آنية من الحجر المصقول إنما نادرة في معظم المواقع النيوليتية في الشرق الأدنى؛ وهي أكثر عدداً في الباليوليتي الأخير

القرمزي في PPNB طوروس وبخاصة قبرص، إنما بأنماط مختلفة. أما آنية بقرص فهي لم تتجاوز بغزارتها وإتقانها الدقيق وأسلوبها مساحة جغرافية محددة تشتمل فقط على الجزيرة وسهوب الصحراء السورية[29].



الشكل 61. *آنية من الحجر المصقول من الـ PPNB الحديث والأخير في البادية السورية. 1 – 3، 5: بقرص. 4: القدير. 6: الكوم 2. عن رودنبرغ وستوردور (4 و 6).*

وكـان سـكان بقـرص يزرعـون الأرض في المصطبـة الخفيضـة الـتي يفيـض عليــها الفرات: وقد تم التعرف على العديد من أنواع الزروع المدجنة[30] كما وعلـى عـدس وجلبـان، هذا دون أن تبدو هذه الزراعة المتنوعة قد لعبت مع ذلك دوراً هاماً جـداً في إقتصـاد القريـة. فهؤلاء الحضريون هم بالدرجة الأولى مربون بل وحتى رواد في هذا المجـال، طالمـا أنـه كـان هناك إضافة إلى الماعز والخراف المسيطرة، وبشكل مبكر كما في رأس شمـرا، بعـض الثـيران المدجنة والخنازير أيضاً دون شك[31]. وقد بقي الصيد في النهاية هاماً.

إن البيئة الجافة لم تكبح إذن بشيء، بل على العكس. الحياة في القريـة والثقافـة المادية لسكانها. والتي بلغت حد الكمال بشكل خاص على المستوى الثلاثي للمساكن والمتاع البيتي واستراتيجيات المعيشة. وذلك بسبب الإقتصاد المساعد نسبياً على ضفتي النهر.

الكوم

تقع الكوم في البادية شبه الصحراوية بين الفـرات وتدمـر، لكـن البـؤرة البيئيـة لا تتأتى هنا من وجـود النـهر بـل مـن نحـو ثلاثـين ينبوعـاً إرتوازيـاً أدت إلى خلـق واحـة في الموقع[32]. وقد جذبت غزارة المياه هذه في مناخ هي نادرة فيه الإنسان بشكل مبكر جداً، منـذ الباليوليتي القديم حتى النطوفي. وبعد هجرة للموقع نحو 11000 قبـل الميـلاد عـاد الإعمـار للموقع نحو عام 7000. وقد أقيمت قرية حضرية كبيرة علـى مسـاحة ثلاثـة هكتـارات مـن على طرفي نبع. مما ولد تلين نيوليتيين متجـاورين لم يكونـا سـوى قريـة واحـدة، الكـوم 1 والكوم 2. ولم تخضع الكوم 1 سوى إلى عملية سبر[33]، في حين أن معلوماتنا الأساسية تـأتي من الكوم 2 التي نقبتها دانييل ستوردور[34].

وكانت الكوم قد شُغلت إذن خـلال النصـف الأول مـن الألـف السـابع. ويتوافـق إشغالها مع المرحلة الأخيرة من إشغال بقرص. إن غياب الخزف، وهو ظاهرة غريبة في هذه المرحلة، والذي نعود فنجده في المنطقة الصحراوية من المشرق الجنوبي، هو الذي ينسبها إلى الـ PPNB الأخير. لكن هذا الغياب ليس في شيء إشارة إلى تخلف ثقافي: فكما في بقرص، نجد أن الثقافة المادية متقنة فيها بل وحتى متقدمة على زمنـها في بعـض المجـالات. وهـذا صحيح بشكل خاص بالنسبة للعمـارة. حيـث أن إتقـان البنـائين يظـهر فيـها أولاً في إدارة

وتحضير مساحات البناء: فثمة مصاطب كبيرة مردومة كانت تبنى مقدماً ليس لإقامة بيت عليها بل عدة بيوت. وبعد ذلك نجد استخداماً مكثفاً ومتمايزاً للجص ساعد عليه أن البيئة المحيطة كلسية جداً. وهو لا يغطي فقط بتلييساته الأرضيات والجدران من الآجر المشوي. بل ويُستخدم لصناعة آنية بيضاء غزيرة جداً[35] وترتيبات بيتية عديدة: أحواض أو خزانات مستطيلة الشكل وثابتة مغطاة بصفيحة قابلة للحركة ذات حلقة. وهناك أخيراً المخططات نفسها وتجهيزاتها المستحدثة أو المعقدة: فثمة من جهة بيوت ذات حجرات صغيرة مستطيلة الشكل بدرجات مختلفة ومتصلة فيما بينها. حيث نلحظ للمرة الأولى بالنسبة للشرق الأدنى تجهيزات بيتية لسيلان المياه: أقنية في الجص من أجل اجتياز حجرة أو عتبة. ثقوب تصريف تخترق الجدران بل وحتى أقنية حقيقية مغلقة تمر تحت جص الأرضيات[36]. ومن جهة أخرى ثمة مبنى كبير مستطيل الشكل مؤلف من حجرة طويلة على شكل حرف T تحف بنهايتها من على الطرفين خلايا أصغر (الشكل 61). وقد ألحق به لفترة ما ملحق هو شبه نسخة مطابقة للمخطط السابق. أي حجرة متطاولة بشكل حرف L (أو نصف T) مع خلايا من جانب واحد هذه المرة. ونجد في كل من الحجرتين المتطاولتين المحوريتين المجموعة المعقدة نفسها من التشكيلات المتراصفة الثلاثة: فرن مبني ومشكاة - موقد في الجدار وموقد دائري صغير. إن الوظيفة الدقيقة لهذا النمط من البناء. المتعارض مع الأنماط الأخرى، ليس واضحاً بعد. لكن دانييل ستوردور أكدت على الطابع الجديد تماماً لمخططه[37]. وحتى الآن تنتظم الحجرات الطويلة أو التتاليات من الخلايا بشكل عرضاني بالنسبة للجانب الطويل من المستطيل. محافظة بذلك على التصور البدئي لنمط البيت ذي الدعامة *pier-house* في الـ PPNB . ونجد في مغزلية مخططات أكثر تعقيداً إنما مستلهمة من التشكيل نفسه. ويوجد في الكوم. وربما أيضاً في بقرص. تقسيم ثلاثي أيضاً إنما طولاني. الأمر الذي يعيدنا بالأحرى إلى أبنية حضارة بلاد الرافدين في عصر العبيد في الألف السادس قبل الميلاد[38]. البعيدة جداً بالتالي في المكان والزمان بحيث لا نستطيع اقتراح صلة محتملة منذ الآن. وفي كل حال فقد تحول هذا المخطط فعلياً بالنسبة للمخططات المعيارية PPNB ، في حين أن طرق البناء ظلت قريبة جداً من طرق بقرص.

وهناك أيضاً عناصر ثقافية أخرى تغيرت وحفظت مع ذلك الآثار الواضحة لأصلها. لقد تطورت الأدوات الحجرية الـ PPNB هنا في آن واحد باتجاه إفقار نموذجي وانحطاط جمالي[39]: برؤوس بيبلوس موجودة إنما نادرة وذات طريقة صنع قليلة العناية.

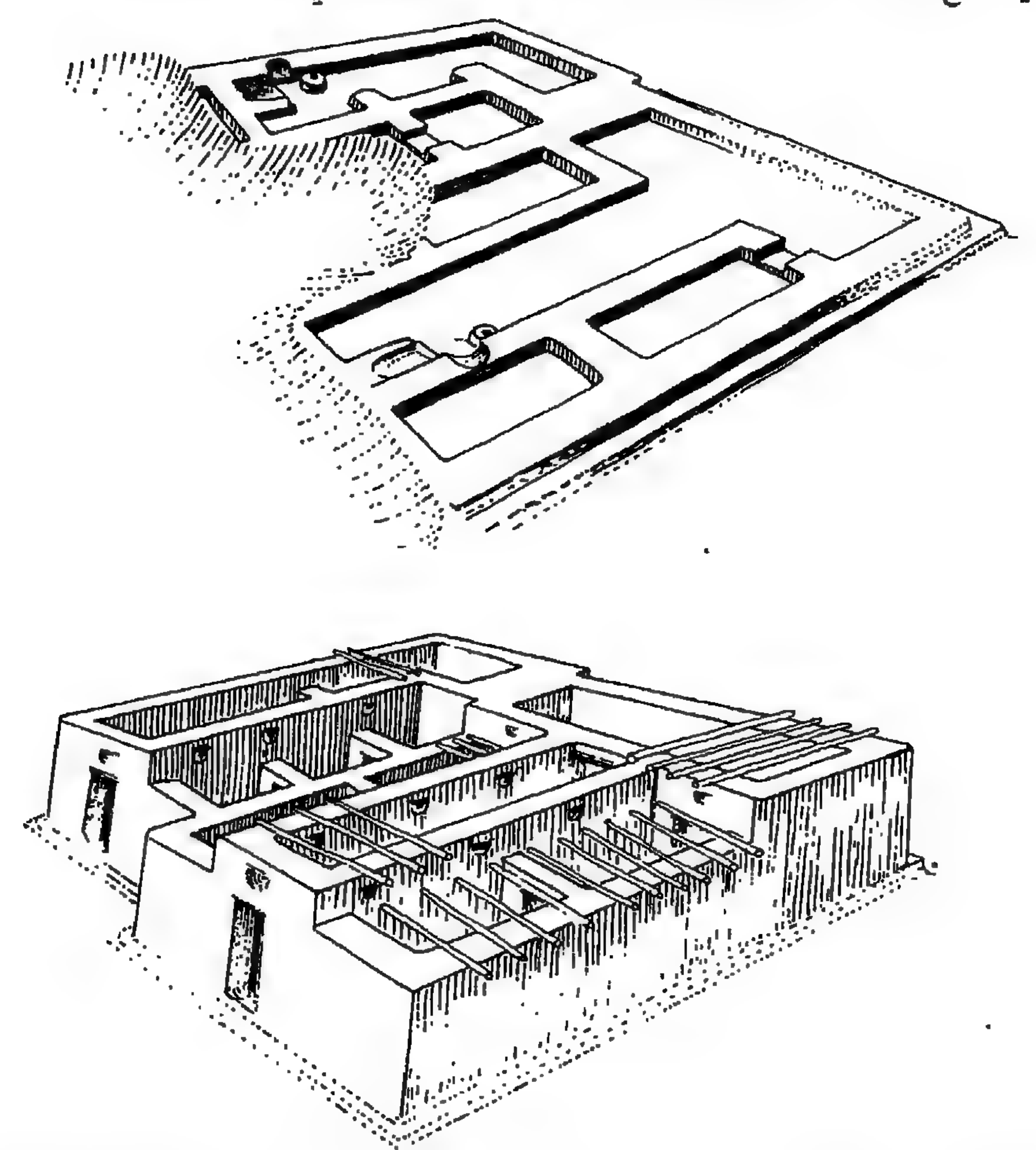
وتشتمل الغالبية الكبيرة من الأدوات على أزاميل من نصال أو شظايا وعلى بعض المكاشط، وهي مجموعة بسيطة الأسلوب ومتواضعة المظهر. وتعطي الصناعة العظمية الإنطباع نفسه[40]. ونعيد القول هنا إن أداة من الحجر أو من العظم يمكن ألا تكون «جميلة» وتقوم مع ذلك بشكل فعال بالمهام التي تطلب منها. وبالنسبة لعالم ما قبل تاريخ معتاد على الشرق الأدنى تبدو الأدوات الحجرية من الشرق الأوسط النيوليتي هكذا ذات تفاهة مكربة، كما هي باتجاه الغرب الأدوات الحجرية في قبرص أو اليونان. ولم يكن ذلك لينمعها من القيام بوظائفها الأساسية: القطع والثقب والكشط. إلخ. ويجب أن نفصل بشكل كاف فعالية أداة عن صفاتها الجمالية: فهذه الأخيرة تظهر استثمارا أكثر ثقافية منه نفعية والذي كان التسليح المعتاد للـ PPNB قد زودنا بمثال جيد عنه. كما فعلت ذلك قبلا الأسلحة ثنائية الوجه الرائعة من السولوتري Solutréen الأوروبي. فالـ «إفقار» عندها هو علامة على بطلان نسبي بالنسبة للخاصية الشكلية للشيء: فهو ليس متعارضا لا مع استقرارية حقيقية للمعرفة التقنية ولا حتى مع تطورات في هذا المجال[41].

وعلى العكس فإن قطاعا قيما في الكوم هو قطاع الأكواب والآنية الصغيرة من الرخام ذات النوعية العالية (الشكل 61: 6). لكنه ليس حرفة محلية هنا. وهي يمكن أن تكون قد أتت من بقرص عبر طريق التبادل إذ تشبه آنية بقرص.

أما تقنيات الإنتاج الغذائي فهي متقنة: فثمة أربعة أنواع مختلفة من القمح المزروع ونوعان من الشعير تمت زراعتها. وبسبب جفاف الطقس وصعوبة تأمين مواسم منتظمة فيه باستثناء السنة المطيرة جدا فإن شكلا بدائيا للسقاية انطلاقا من الينابيع محتمل جدا[42]. وقد ربي فيها أخيرا الماعز وبخاصة الخراف وربما أيضا بعض الثيران[43]، في حين أن الصيد، وبخاصة صيد الغزلان، كان يلعب دورا غذائيا أهم بكثير منه في القرى المعاصرة في المناطق الأقل جفافا. وربما كان أيضا هذا الدور المتزايد، كما في بقرص، للغذاء اللاحم تأمينا ضد الإحتمالات السنوية للمواسم.

ينتج عن ذلك أن هذا الموقع في قلب الصحراء لا يظهر. ليس أكثر من بقرص، كقرية فقيرة. فهو لا يجهل الخزف إلا لأنه تم تطوير تقنيات الجص فيه أكثر من الأماكن الأخرى. والتفاهة الظاهرة لأدواته ترجع أكثر إلى تحرر من الجماليات أكثر منها إلى عدم كفاية تقنية: وبهذا فإن الكوم تعبر بشكل جيد عن الشرق الأوسط. وتعيد التقنيات المعيشية استثمار كامل المعرفة المكتسبة في نيوليتي المشرق بتنويعها أكثر. وأخيرا فإن العمارة تدهشنا

بتجديداتها: فهل كانت الإنشاءات المخصصة لإيصال المياه في المسكن، وربما أيضاً في الزراعات، هي كما كان يقول أرنولد توينبي Arnold Toynbee نوع من الرد السريع على تحدي المناخ الجاف، الأكثر تحريضاً منه سحقاً بالنسبة لحضريي الصحراء هؤلاء؟



الشكل 62. *رؤية تفصيلية وإعادة بناء لمسكن من الـ PPNB الأخير الحضري في الكوم (البادية السورية). سلم المخطط 1/ 100. عن ستوردور.*

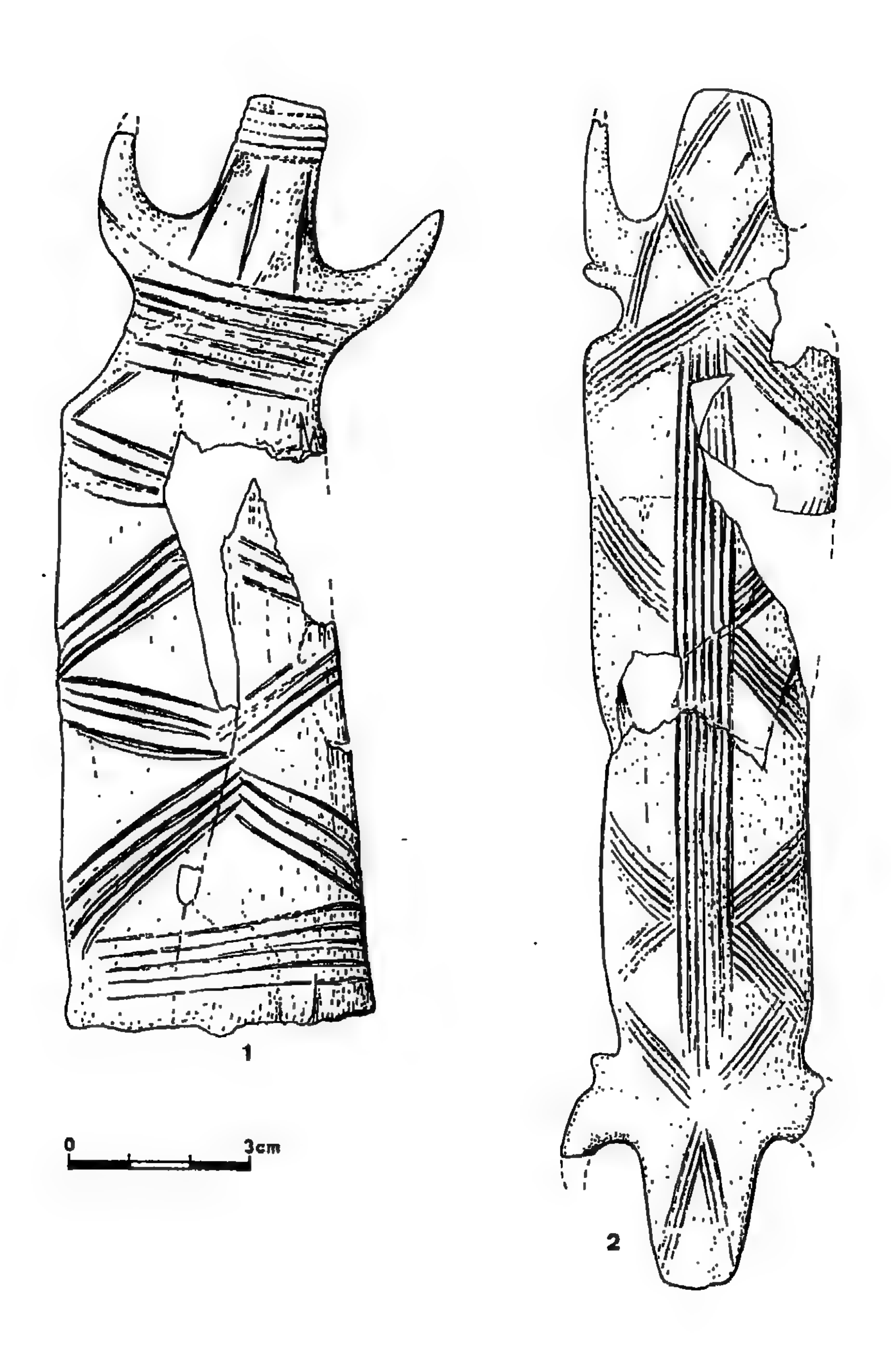
عقيدة الصحراء

إن الإنطباع بازدهار ثقافي يتوسع عندما نأتي إلى المجال الرمزي، أكان في بقرص أو أكثر إلى الشرق وبعده قليلاً في أم الدباغية أو سوتو. إن الشكل الفني الذي اتخذه هذا

الإزدهار يمثل غنى ونوعية نادرين. فهناك أولاً المواضيع، إذا جاز القول، الكلاسيكية في النيوليتي المشرقي، والمعبر عنها في بقرص كما وخارجها عبر تماثيل صغيرة أنثوية وحيوانية (مع أغلبية للبقريات)، بل ورؤوس صغيرة بسيطة بشرية من الطين المشوي، بل وأيضاً في حرفية من العظم المجهز: دبابيس ذات رأس منحوت بشكل تخطيطي على شكل بشري أو حيواني وقطعتان مدهشتان من العظم الأنبوبي الشكل مزينتان بحزات (الشكل 63) وتنتهيان إحداهما بطرف واحد منها والأخرى بالطرفين الأمر الذي فسره مستكشفو الموقع على أنه رأس وذراعي شخصية بشرية في وضعية العبادة، إنما الذي يمكننا أن نرى فيه بالأحرى برأيي مقدمتي الثور[44]. وفي أم الدباغية أو سوتو فبنقوش بارزة على الآنية إنما يظهر موضوع الإلهة (الشكل 64: 3). وفي الكوم نجد تصويراً ذكرياً تخطيطياً بذراعين مرفوعين محزوزاً على إناء من الجص (الشكل 65: 2). ويبدو أن تمثيلاً مماثلاً قد وُجد أيضاً، وقد دُمِّر نصفه الآن، على رسم جداري في أم الدباغية[45].

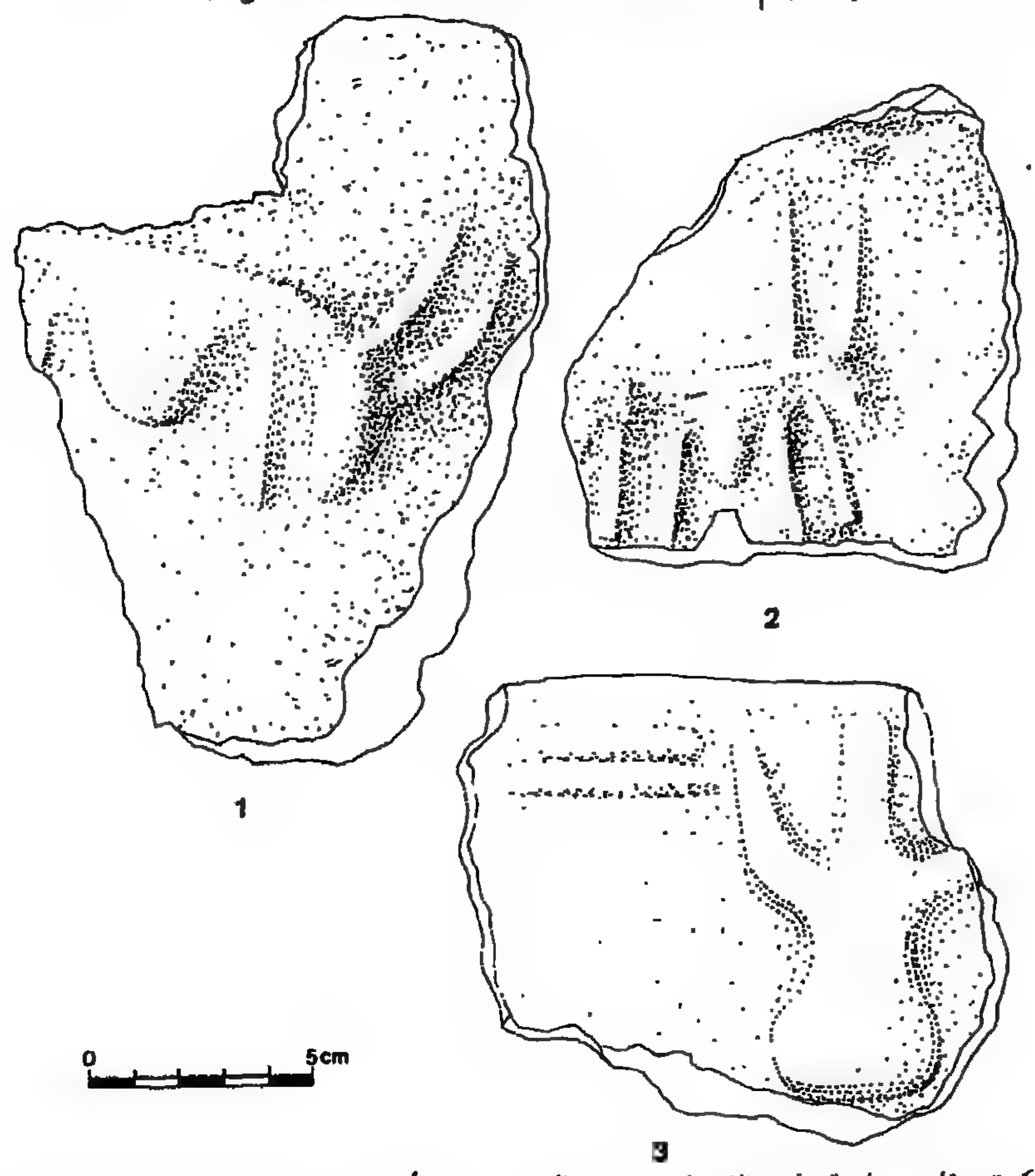
ونجد أيضاً في الواقع فناً للوحات الجدارية في هذه القرى في الصحراء. وربما كان هذا النمط من الفن أقل استثنائية مما نعتقد في الشرق الأدنى النيوليتي، إذ أن معرفتنا غير الكاملة تتعلق بحالة حفظ الجدران نفسها. ولا شك أن شاتال هويوك لم تكتسب قيمتها الوثائقية الإستثنائية في مجال الفن الديني إلا مع الحفظ الخاص لعمارتها. ومع ذلك فقد رأينا أن آثاراً للوحات جدارية ملونة هندسية كانت توجد قبل ذلك بنحو ألفين إلى ثلاثة آلاف سنة في البيوت الدائرية في المريبطي. وفي مواضع أخرى أشير بشكل متفرق إلى عادة تكليس الجدران والأرضيات بالمغرة في كامل المشرق الـ PPNB ، من البيضا إلى أبو هريرة، وبخاصة عندما يكون الطلاء التهيئة من الكلس أو الجص قد انحفظ بشكل جيد ليكشف لنا عن آثاره. وهذا هو الحال أيضاً في بقرص، لكن هذا الموقع يقدم إضافة إلى ذلك على أحد الجدران بروزاً من الجص الملون بالأحمر ويمثل رأساً بشرياً. مع العينين المميزتين بقطع معشقة من الأوبسيديان[46]. وقد وجدنا من جهة أخرى فيه لوحة جدارية حيوانية تمثل كراكي ، في حين أن رسماً جدارياً في أم الدباغية يمثل حمير الوحش[47] (الشكل 65). فلم يكن ثمة محاولة إذن لتلوين الجدران بل كانت تزين بمواضيع تصويرية. والفن الحيواني الذي نجده في هذه التزيينات يخص حيوانات السهوب المفضلة بشكل واضح هنا على البقريات وعلى الضأنيات التي كانت هي الأنواع الأكثر تواتراً حتى الآن في النيوليتي.

الكُركيّ جنس من طيور النعام من رتبة طوال الساق، م.



الشكل 63. تمثيلان لثورين من العظم في بقرص (الـ PPNB الحديث، سوريا). عن أكرمانس وآخرين.

وهذا العرض الحيواني الخاص هو أيضاً موضوع منحوتـات حجريـة مصقولـة ذات دقة كبيرة (الشكل 66) حيث نجد الإتقـان التقـني الـذي كـانت الآنيـة قـد كشـفت عنـه: خيليات. قواع بري وقنافذ في بقرص (اللوحة VIII) وقارض صغير وغزال (؟) في الكـوم وإلى الشمال أبعد قليلاً، على حدود المنطقتين المناخيتين، تُظهر قطع كثيرة من أبو هريـرة في الـ PPNB الحديث الإستلهام نفسه من خلال تمثيلات تخطيطية للغزلان.



الشكل 64. *تزيينات بـارزة على الفخـار من شمـال العراق (الألف السـابع قبـل الميلاد). 1 – 2: أم الدباغية (عن كيركبريد). 3: سوتو (عن بادر).*

واللوحات الجدارية المحفوظة نادرة جداً أيضاً والحيوانات الحجرية، مثـل قطـع متاع كثيرة، محرومة كثيراً من الروابط التي توضح إدراجها الدقيـق في منظومـة فكريـة لكـي نستطيع أن نتصور هذه الأخيرة. ونلاحظ فقط أن الإلحاحين الرمزيين في النيوليتي المشرقي،

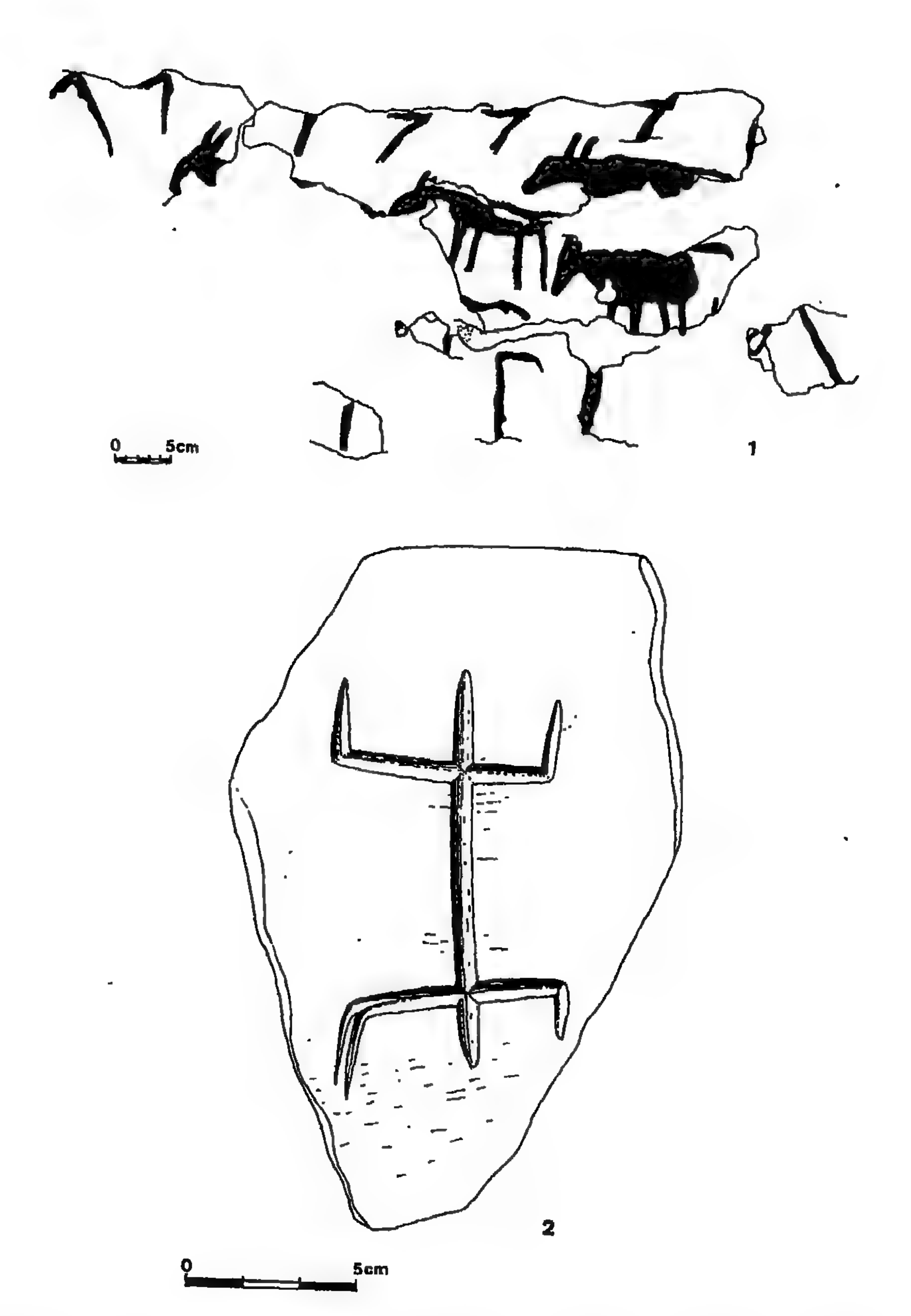
المرأة والثور. موجودان حقاً لكن حساسية جديدة تدمج في الفن حيوانات غائبة أو أكثر حظوة في مواقع أخرى. ويمكننا أن نرى فيه أيضاً إنتباهاً مستحدثاً إلى الأنواع السريعة في السهوب وبعض الميثولوجيا التي تستند إليها. كما وبالقدر نفسه. على مستوى التقنيات. إلى تأثير للموروث النمريكي من ما وراء الخابور الذي يركز كثيراً كما رأينا على شغل الحجر المصقول.

خلاصة

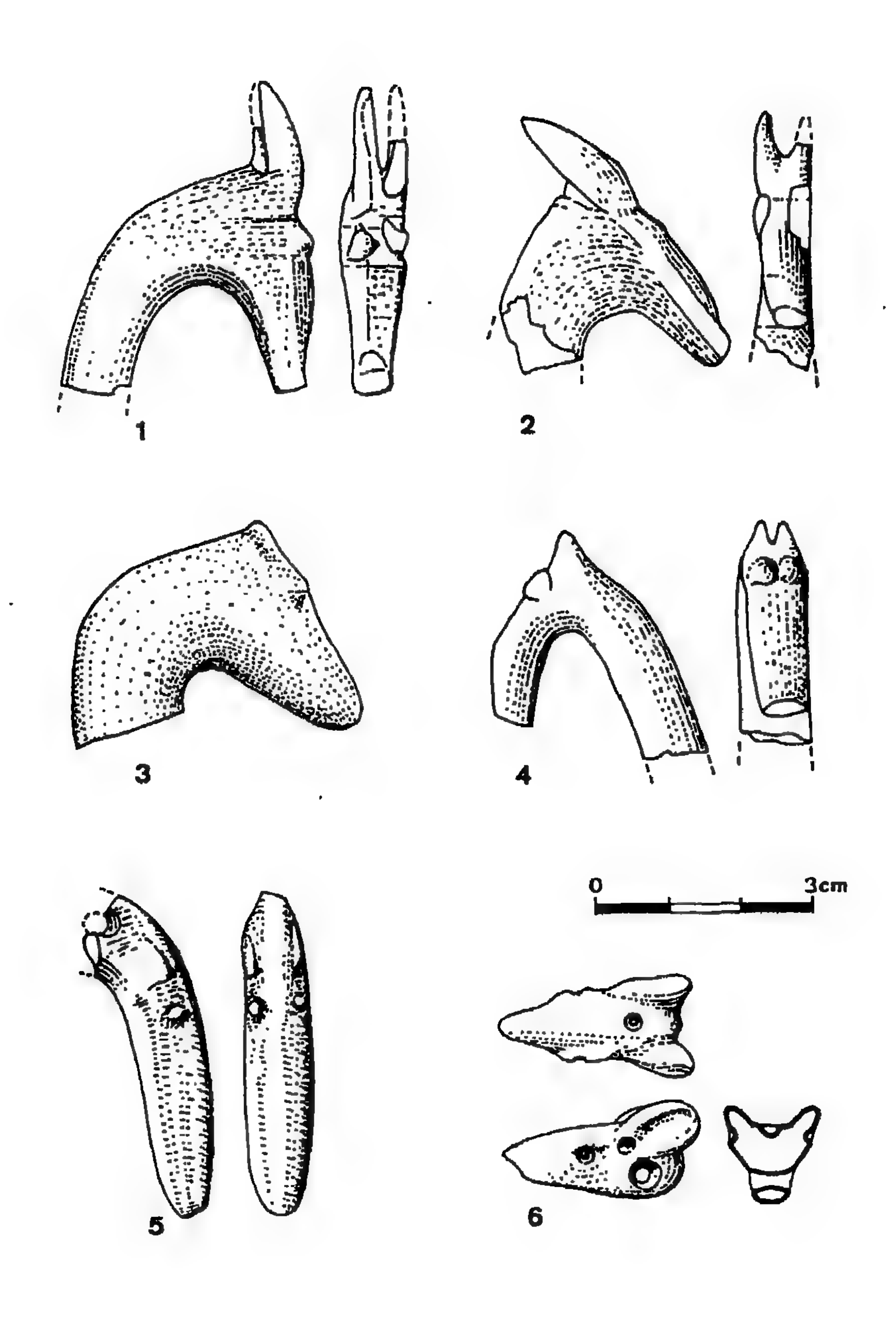
لا تختلف النولتة القروية للجزيرة الشرقية ولسوريا الصحراوية بالتالي بشكل جوهري. ففي الحالتين يتعلق الأمر بتوسع باتجاه الشرق ابتداء من عام 7500 قبل الميلاد لمزارعين حضريين خرجوا في الأصل من الفرات الأوسط. وإن كنا قد عالجناهما بشكل منفصل، فذلك أن الماضي الخاص لهاتين المنطقتين لم يكن متطابقاً. ففي الجزيرة الشرقية كان موروث مستقل يوحّد سنجار وزاغروس لكن التطور الثقافي المميز السابق لعام 7500 لم يكن قد ترافق فيه كما يظهر مع أية صيرورة نولتة للإقتصاد. ومنذ بضع سنوات، لم يعد من الممكن نسب غياب نيوليتي حقيقي سابق في مغزلية إلى فجوة في معارفنا. ومن جهتها كانت سوريا الصحراوية خالية.

فظاهرة التوسع إذن واضحة في الحالتين. ويشهد حقاً الإنقطاع الكامل، الثقافي والإقتصادي، بين مواقع الموروث النمريكي وموروث مغزلية، على الرغم من تجاورهما في المكان، على وصول جماعة غريبة كما وبالقدر نفسه على الإشغال الجديد إلى الجنوب أكثر للصحراء المهجورة من السكان. إن انتقالات السكان هذه، الذين حملوا معهم عمارة مجهزة، هي من عمل حضريين مؤكدين نقلوا قراهم إلى أراضي جديدة: وهم لا يختلفون في ذلك عن المحتلين الجدد للساحل المشرقي. وكما على الساحل أيضاً، فهم يمثلون إذا ما أدرجناهم على الخارطة ظاهرة توجّه وحيدة (هنا باتجاه الجنوب الشرقي)، إنما معقدة ومتدرجة إذا ما تأملنا بدقة أكبر نقاط الإنطلاق. وكان مؤسسو مغزلية قد أتوا من طوروس، أما مؤسسو بقرص القريبون ثقافياً من أبو هريرة فلم يكن عليهم سوى النزول على الفرات. وخلال العصر التالي تسلمت المواقع ذات الخزف في سنجار دون شك موروث مغزلية بشكل جزئي[48]، لكن

إسهاماً جديداً قادماً مباشرة من الغرب يبدو محتملاً جداً. وبها تأسس بـدوره فـرع *phylum* ثقافي خاص بالشرق الأوسط سيشمل. دائماً إلى الشرق أكثر. حضارتي سامراء وعبيد. إن هذا التوسع إلى الشرق أكثر. وهو والحق يقال غير محدد بشكل جيد لأنه لم يدرس أبداً على أنه كذلك. يخرج عن حقل دراستنا الحالي. وما يهم الآن هو أن نكمل آليـة انتشـار الحضريـين هذه باسم آخر أقل أهمية: إنه الترحل الرعوي.



الشكل 65. فن الألف السابع قبل الميلاد في المنطقة الجافة. 1: لوحة جدارية ملونة من الخيليات (أم الدباغية ، العراق). 2: تمثيل ذكري تخطيطي على آنية من الجص (الكوم، سوريا). عن كيركبريد وستوردور.



الشكل 66. الفن الحيواني من الحجر المصقول في البادية السورية. 1 – 2، 4: PPNB حديث بقرص. 3: أبو هريرة. 5 – 6: PPNB أخير في الكوم. عن أكرمانس وآخرين، وعن مور وستوردور.

الهوامش

1. بما في ذلك من خلال وجود الزروع البرية في كامل «المنطقة النووية» بحسب روبرت بريدوود. أي الشريط الناخي ذو الغابة المتناثرة الذي يتراوح معدل أمطاره السنوي بين 250 و 600 ملم.

2. في كريم شاهير أو معلفات (Howe، 1983).

3. في زاوي شمي شانيدار (Solecki، 1981). حاليا في حالان سمي تبسي (Rosenberg et Davis، 1992).

4. Watkins، 1990. وتقع قرميز ديره (وحتماوردت) في السهل إلى الجنوب من جبل سنجار.

5. Kozlowski، 1990 a، 1990 b؛ Kempisty et Kozlowski، 1990. وتقع نمريك بين جبل سنجار وزاغروس الغربية على أحد روافد دجلة.

6. منذ البداية في قرميز ديره وفي المرحلة الأخيرة فقط في نمريك.

7. على الأقل بهذا الشكل المجهز. لأنه ليس من المؤكد أنه في نطوفي عين ملاحة، منذ الألف الثاني عشر. لم تكن آثار طلاء أبيض كشفها جان برو إنما لم تحلل من الكلس موجودة منذ ذلك الوقت. أي قبل وقت طويل من PPNB المشرقي الذي تطورت فيه هذه المادة (Maréchal، 1980).

8. وهذا هو الحال أيضا بالنسبة لمواقع زاغروس الغربية (انظر زاوي شيمي شانيدار. كريم شاهير). وتوجد في حالان تسمي تبسي آنية من الحجر المصقول منذ الألف الثاني عشر (Rosenberg et Davis، المصدر السابق). ومن جهة أخرى فإن وجود أساور من الحجر المصقول، في كريم شاهير كما في نمريك، يدل على أن الأمر يتعلق فعلا هنا بـ «الموروث المحلي» نفسه الذي مثل في طوروس وافترض أنه «تلقى» الـ PPNB .

9. بالنسبة لنمريك، فإن وجود خنزير مدجن، تم الإستدلال عليه من تمثال صغير من الصلصال ومن قطعة واحدة من العظم (Koslowdki، 1990 a) يحتاج إلى إضافة كبيرة للبرهان...

10. Watkins؛ انظر لاحقاً ص. 277.

11. موجود أيضاً إنما بشكل خفي جداً في المشرق (جيلجال، المريبط).

12. Solecki، 1977.

13. نعلم (انظر سابقاً ص. 46)، وبشكل خاص منذ اكتشاف جرف الأحمر، أن هذه المجموعة الحيوانية الشرقية (الجوارح والثعابين) لم تكن غائبة عن مريبطي الفرات الأوسط. ومع الغزارة غير العادية، كما في زاوي شمي شانيدار، لعظام الجوارح في بعض مراحل المريبط (Pichon، 1985 a)، يمكن لذلك أن يثبت خلفية مشتركة ما قبيل نيوليتية على كامل بلاد الرافدين العليا.

14. Bader، 1989.

15. الذي تصل نسبته إلى ثلاثة أرباع الصناعة الحجرية في بداية الإعمار إنما الذي تناقص بعد ذلك حتى أصبح أقلياً (Bader، المرجع السابق، ص. 350)، وذلك في حركة معاكسة للتي كشفنا عنها في كفر وفي تشايونو، حيث كان الأوبسيديان يحل شيئاً فشيئاً محل الصوان. ويبدو أن الأمر يتعلق في كل مرة، بالنسبة لشعوب جديدة، ببطلان تدريجي للمادة المعتادة في منطقتهم الأصلية، وذلك تحت تأثير بيئة جديدة.

16. Bader، المصدر نفسه، اللوحة XXXIX.

17. Helmer، معلومة شخصية. وهذا هو الحال من جهة أخرى في السويات العليا من تشايونو التي تنتمي بلا شك إلى الـ PPNB الحديث أيضاً إنما الذي لا يزال إطارها غير منشور بعد.

18. Merpert وآخرون، 1978؛ Bader، 1989.

19. Kirkbride، 1973، 1975.

20. انظر فيما يلي.

21. حيث توجد أيضاً بالنسبة للمرة الأولى (في أم الدباغية) كرات مقلاع ذات شكل مخروطي مزدوج من الصلصال، والتي سنجدها أيضاً في كافة الثقافات ما قبل التاريخية القادمة في بلاد الرافدين.

22. Helmer، معلومة شخصية.

23. هذا لا يخص سوى الجزيرة الشرقية في جنوب جبل سنجار. وفي الشمال يحفظ أيضاً موقع جينيغ Ginnig مع الخزف الذي يرجع إلى الفترة نفسها (Campbell et Baird، 1991) صناعة حجرية من الموروث النمريكي. ومع ذلك يظهر فيه تأثير PPNB

مخفّف من خلال المظهر المستطيل (غير المنتظم) للمساكن شبه المطمورة ومن خلال وجود جمجميات للأرخُص (نوع من الثور البري).

24. Akkermans وآخرون، 1983. لقد دامت بقرص نحو ما بين 7400 و 6800 قبل الميلاد.

25. Le Miere in Akkermans et al.، المرجع السابق.

26. Roodenberg، 1986.

27. Roodenberg، المرجع السابق، الشكل 43: 2 – 6.

28. Cauvin M.-C.، 1988.

29. انظر الكوم فيما يلي.

30. قمح نشوي وبر القفقاس وقمح قاسي وشعير ذو صفين وشعير عريان. انظر Van Zeist in Akkermans et al., op. cit.

31. Clason in Akkermans et al., ibid.

32. Besancon et Sanlaville، 1991.

33. Dorneman، 1986.

34. Stordeur، 1989 b؛ Stordeur وآخرون، 1991.

35. Maréchal، 1982.

36. في بقرص إنما أشيْر للمرة الأولى إلى وجود أقنية داخل البيت (Contenson et Van Liere، 1966 ـ ص. 184).

37. Stordeur، 1989 b، ص. 104.

38. تشابه لاحظه ستوردور، المرجع السابق، ص. 104.

39. Cauvin M.-C.، معلومة شخصية.

40. Stordeur، معلومة شخصية.

41. يمكن لهذه الأخيرة أن تظهر ليس على مستوى المادة الصوانية نفسها، بل على مستوى دمجها في تركيباتها التقنية الأكثر براعة دائماً. والتي يصعب أحياناً إعادة تشكيلها بالنسبة لعالم الآثار. وهكذا فقد جدد تقبيض «مكاشط» المريبط بشكل بليطات (انظر سابقاً ص. 66) بشكل كامل وظيفتها التقليدية دون أن يغير مع ذلك كثيراً ابتذالها النمطي.

42. Van Zeist in Dornemann، 1986، ص. 6 – 7. وإذا كان ثمة من جهة أخرى مكان يمكن أن تكون السقاية قد اختُرعت فيه فإنه بحق واحة الكوم: فالينابيع الإرتوازية لا تنثبق فيه في الوهدات بل على قمم الأكمات الطبيعية بحيث كان يمكن أن يصل الماء من هذه الأماكن إلى السهل بواسطة الجاذبية بحيث لا يكلف ذلك سوى بعض التجهيزات البسيطة (Besancon et Sanlaville، المصدر السابق ذكره).

43. Helmer، 1992، ص. 144.

44. انظر حول الرقم 2 الإشارة إلى آذان محتملة للثور في بروزات صعبة التفسير جداً إذا ما جعلناها عند إبطي الشخصيات البشرية...

45. Kirkbride، 1975، اللوحة، aVIII.

46. Akkermans وآخرون، المرجع السابق الذكر. ص. 346.

47. Kirkbride. المرجع السابق، اللوحة a VII.

48. الإستلهام الأناضولي بشكل واضح جداً لتمثال صغير من سوتو يمكن أن يقود إلى التفكير بذلك. قارن مع J. Cauvin، 1989، الشكل 3 مع Bader، 1989، اللوحة LXXIII – 1.

الفصل السابع عشر

الترحـل الرعـوي

يُنسب نمط حياة مترحلة، إلا في حالـة الإستثناء، إلى المجتمعـات الصغـيرة مـن الصيادين ـ القاطفين في العصر الحجري القديم (الباليوليتي). وقـد استمر نمط الحيـاة هـذا خلال الباليوليتي الأخـير في المشرق في الوقت نفسه الـذي كـانت قـد وجـدت فيـه ضيـع حضرية، وذلك في المناطق الجافة حيث كان الصيـد يلعب دوراً أكـثر أهميـة مـن الإلتقـاط. وبالمقابل ليس لدينا أيـة آثـار لبـداوة عندمـا تطـورت الزراعـة أولاً ثـم تربيـة الحيوانـات في الأوساط القروية.

إن البداوة المقصودة هنا مختلفة وليس لها تقليد قديم. فهي اختيار متعمـد لبعـض المجتمعات المنتجة في ذلك الوقت مفضلة مجدداً الحركة في نمط حياتـها. والبـداوة الرعويـة هي من صنع شعوب عاشت، مثل البدو الحاليين، في قرى دائمة في مرحلة سابقة لتاريخها ثم غيرت في أحد الأيام هذا النمط. ومن جهة أخرى فإن إنتاج المعيشة لم يكن يُحـد عندهـا بالضرورة بتربية الحيوانات، حيث كان يمكن للزراعة أن توجد على شكل آخر غير الشكل الحضري. وسنصف حالات اقتصاد مختلطة مثبتة تماماً وإن كان ذلك في إطار ترحلي.

ولما كانت كل زراعة تتطلب مع ذلك توقفاً واستقراراً، في الموضـع نفسـه، بحيـث يمتد بدرجة كافية لكي تدور فيه الدورة النباتية الكاملة حتى الحصاد، فـإن بعـض المؤلفـين مثل خازانوف A. M. Khazanov يفضلون التحـدث في هـذه الحالـة عـن «شبه بـداوة»، بحيـث يحفـظ عندهـا مصطلـح «البـداوة الرعويـة» للحـالات الأكـثر تخصصـاً مـن الرعويـة «البحتة». أما نحن فنستند هنا إلى تعريف أكثر عمومية للبداوة الرعوية يأخذ بعين الإعتبـار

المعيار المزدوج للأهمية الغالبة، إنما غير الحصرية، لتربية الحيوانات ولغياب المسكن الدائم لمجمل الجماعة[1].

والحق يقال، فإن دراسة البداوة النيوليتية تبدأ الآن أو تكاد. وهي صعبة لأن الجماعة المترحلة تترك بالتعريف القليل من الآثار: فهي لا تبني أبداً بناء صلباً ولا تترك في غالب الأحيان خلفها، بعد محطات وقتية، سوى بعض القطع النادرة الضائعة ورماد مواقدها الذي سرعان ما تبدده الريح. وفي الشرق الأدنى كما في الأماكن الأخرى، لم يمكن التأكد لفترة طويلة من وجود رعاة مترحلين إلا عندما أشارت إليهم نصوص، وبالتالي ليس قبل الكتابة والعصر البرونزي. وهكذا تحدثنا وثائق أرشيف ماري عن حملات ملكية للوقاية منهم. وفي آسيا الوسطى، وهي الأرض المميزة للبداوة الرعوية، لا ترجع التأليفات الحديثة التي تصفها وتحاول تفسيرها إلى أبعد من العصر البرونزي[2]، حتى وإن كان خازانوف يقحم أصلاً أقدم.

وقد سبق لبعضهم دون شك التفكير بالبداوة بالنسبة لبعض الجماعات النيوليتية في الشرق الأدنى. فقد ذكرها غوردون شايلد منذ خمسين سنة إنما كان ذلك مقاربة نظرية بحتة مؤسسة علاوة على ذلك على فكرة خاطئة: وهي الفكرة التي كانت منتشرة في حينه في كل مكان أن تربية الحيوانات كانت أصلاً من اختراع البدو، وهم الورثة المباشرون للصيادين ـ القاطفين المترحلين في الباليوليتي. ونعلم الآن أن تربية الحيوانات بدأت فعلياً في وسط حضري وأن البداوة الرعوية هي ظاهرة حديثة نسبياً، وتالية جداً في كل حال لبدايات إنتاج المعيشة. إن الإشارات الأحدث التي نجدها هنا وهنالك لاحتمال نيوليتي بدوي تهدف أكثر إلى تبرير فقر بعض الوثائق (محطة سطحية صغيرة مثلاً ليس لها شكل التل، أو سبر لا يكشف عن جدران) منها لوصف وشرح الشيء نفسه. وهذه الحجة «الغيابية» غير كافية. فعندما تعممت تربية الحيوانات في القرى، لم تكن الخراف والماعز تعيش فيها بالتأكيد بشكل مستمر كما هو الحال بالنسبة للرعاة أنفسهم. فشرودهم اليومي بالماشية، بل وحتى الإنتجاعات الموسمية من مرعى إلى مرعى، لم يترك سوى بعض الصوانيات المنحوتة على السطح، وهم لا يشكلون لذلك مجتمعات بدوية.

ومنذ نحو عشر سنوات أصبحت الوثائق أكثر تحديداً. وبمساعدة علم الآثار السلالي Ethno - Archéologie، الذي يسمح أحياناً من خلال دراسة البدو الحاليين بفهم سلوك الماضي بشكل أفضل[3]، تتراكم المعطيات ويتقدم تفسيرها. ويأتي أكثرها تعبيرية والذي

يخص المنطقة القاحلة في المشرق الجنوبي من سيناء والصحراء الأردنية السوداء. وفي المشرق الشمالي من منطقة تدمر وبخاصة من حوضة الكوم (الشكل 50). وفي كافة هذه الحالات يجب أن توجد شروط بيئية خاصة لكي يكون إشغال المواقع قد ترك مهما كان انتقالياً بقايا كافية لتغذي دراسة آثارية. وتقدم المناطق الجافة هنا الورقة الرابحة المثلة برياحها الرملية، حيث يمكن للمناجم الريحية التي تنتج عنها أن تختم بسرعة كبيرة على فحم المواقد وبقايا المطبخ التي يتركها البدوي خلفه. إذ قلما توجد عوائق تمنعها، مما يؤدي إلى تشكل مناجم. ونجد حالتين للوضع عندها: في الأراضي الحصباء لا يحاول البدو، كما نرى ذلك في أمثلة حالية[4]، نصب خيامهم أو ملاجئهم الخفيفة: فجدار خفيض مستدير مبني من الحجارة الجافة يحميهم غالباً من الريح (الشكل 67: 1). ويمكن لمجمل هذه الدوائر المتجاورة نسبياً من الحجارة أن تشكل عندها بعد رحيلهم ضيعة أشباح على شكل عش نحل يجتاحها رمل الرياح بسرعة، مثبتاً بقايا أكثر دلالة بقدر ما أن الجولات البدوية دورية، بحيث أن الموقع نفسه يعاد إسكانه عموماً عدة مرات. ويبدو أن هذا هو الحال الذي كان بالنسبة للإعمارات البدوية ما قبل التاريخية في المشرق الجنوبي. وثمة حالة أخرى للوضع حيث لا توجد هذه البنى الحجرية وتمثله واحة الكوم السورية. فهناك كان كافياً أن تتلاقى ريح شديدة جداً مع وجود نباتات خفيضة توقف الرمال على محيط المنابع الإرتوازية، لتتشكل «أراضي منابع»، وهي نوع من الروابي الطبيعية تماما بارتفاع عدة أمتار[5]: وفي هذه الروابي حفظت الأراضي المحتملة للإعمارات البشرية الأقل ديمومة بشكل كامل وبطبقات منتظمة، بما فيها البقايا العضوية التي تسمح بتحليل منطقي لأنماط الحياة الموافقة. ويمكن ابتداء من هذه العظام وهذه القطع الفحمية الحصول على إشارات لصالح الصيد أو التربية، والقطاف أو الزراعة.

ولا يجب أن ننسى مع ذلك أن إحدى فضائل نمط حياة مترحل هو أنه يسمح بأنماط متعاقبة مختلفة لاستثمار الوسط. أما الإقامة بهدف زراعي فلن تتعلق بالتالي إلا بأحد نقاط المسار السنوي. فمحطات الصيد في موقع كثير الطرائد لا تستبعد بالضرورة تربية مستمرة للحيوانات دون أثر ظاهر في هذا الموضع. وهكذا إنما كانت أولى التنقيبات في «البنى الدائرية» النيوليتية في الصحراء السوداء في الأردن[6] قد أوحت بـ PPNB في أوج تراجعه الإقتصادي، وذلك لأنه لم توجد فيه سوى حيوانات برية. أما الأبحاث الحديثة فتتوصل إلى لوحات أكثر دقة ولكن بما أن المجموعة بشرية نفسها كان يمكن لها منذ ذلك الحين

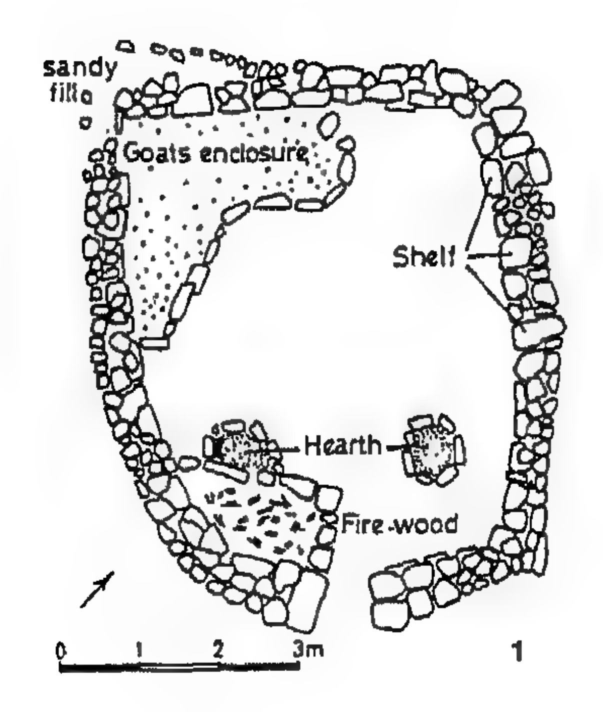
فصاعداً من خلال حركتها أن تكون أصل عدة مناجم غير متجانسة. إذ لم تكن تُنجَز فيها المهام نفسها. فيبقى الكثير من العمل لإنجازه ومن المعطيات لجمعها للتوصل إلى رؤى تأليفية حقاً حول المسارات الكاملة لهذه المجموعات. وبشكل خاص إذا كان قد أصبح وجود الجماعات البدوية منذ عام 7500 قبل الميلاد أمراً أكيداً في المشرق الجاف. فلا زلنا لا نستطيع التأكيد بأن الأمر يتعلق ببداوة رعوية في كل مكان.

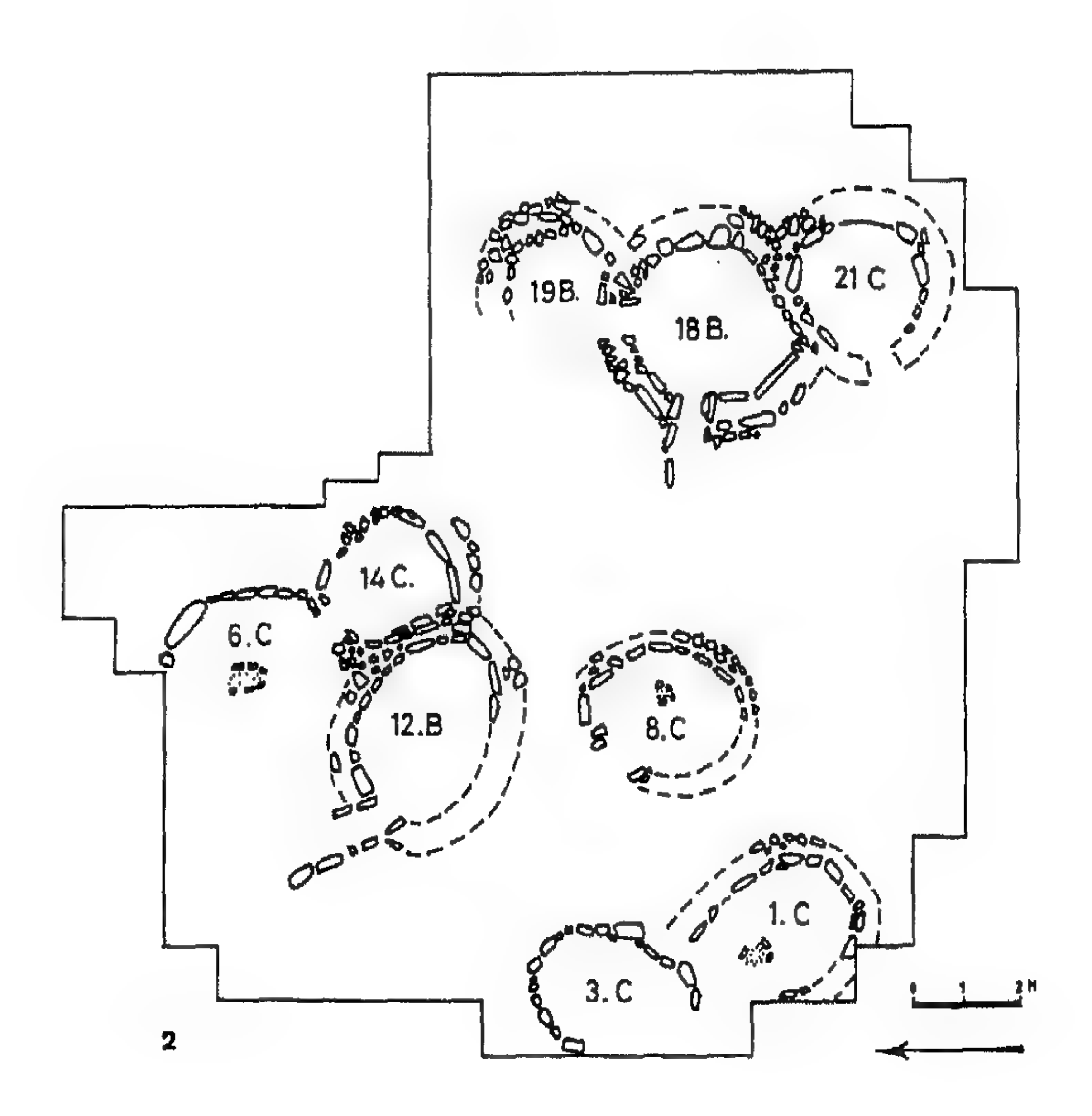
البداوة في المنطقة الجافة في المشرق الجنوبي

لقد رأينا أن الإفقار الكبير لغور الأردن في المواقع الحضرية. ابتداء من عام 7500 قبل الميلاد. كان يمكن أن يعني أن جزءاً من السكان كانوا قد انقلبوا إلى الحياة البدوية. وكانت الوثائق المتوفرة فقيرة جداً مع ذلك من أجل تقدير المدى الدقيق للظاهرة. وهذه المواقع أكثر عدداً بكثير في المحيط الجاف لهذه المنطقة التي أصبحت منذ عهد قريب شبه خاوية. فهنا أيضاً ثمة شكل صريح من الهجرة.

وقد كشفت سيناء أيضاً عن نحو عشرين موقعاً. عُرفت في غالب الأحيان من خلال التقاطات بسيطة عن السطح إنما نقبت أحياناً. وبعضها إلى الشمال في جبل المغارة. والأخرى إلى الجنوب في الجبل أو على ساحل خليج السويس. وتنقسم هذه المواقع ثقافياً بين الـ PPNB الحديث والأخير. بحيث نجد في كل المواقع السلاح المتنوع لهذه الثقافة. بما فيها رؤوس أريحا الخاصة بسمتها في المشرق الجنوبي. وتشتمل مواقع الـ PPNB الأخير بالإضافة إلى ذلك على «أزاميل الصحراء» وهو نمط خاص بالمناطق الجافة في ذلك العصر نجده في *مواقع الأزاميل burin sites* في سوريا والأردن[7].

ويقترح أوفر بار يوسف Ofer Bar Yosef في الجنوب السينائي[8] تناوباً فصلياً من الإعمار بين الجبل (وادي تبيك واجرة المهد) والساحل. تناوب شبيه بالذي يمارسه البدو الحاليون: فهؤلاء يبنون تحت خيامهم. لكي يحموا أنفسهم من الرياح والبرد. التشكيلات الحجرية المستديرة نفسها التي تم تحريرها بالنسبة للنيوليتي (الشكل 67). ويجب أن نشير أنه توجد آثار زراعة «زروع» في اجرة المهد[9]، في حين أن الحيوانات تشتمل في كل المواقع وبغزارة على العنز البري (*Capra ibex*) مما يوحي بالصيد وليس بشيء آخر. لكن أوفر بار يوسف يذكر بأن عظام العنز البري لا تتميز بوضوح بالتحليل عن عظام الماعز[10] بحيث أن الرعوية لا تُستبعد تماماً.





الشكل 67. *حدود خيمة البدو الحاليين في جنوب سيناء (1). تشكيلات حجرية من النيوليتي البدوي في وادي تبيك (2). عن بار يوسف.*

وفي سيناء الشمالية تبدو المواقع النيوليتية في جبل المغارة، وبخاصة في منطقة مشابي[11] أنها تعود إلى الـ PPNB الأخير. وهي عبارة عن محطات سطحية غير منقبة، وبالتالي غير ذات دلالة على نمط الحياة. ولكن إلى الشرق تماماً من سيناء، وعلى انخفاض أكبر على ضفة انهدام وادي عربة. تم تنقيب موقع ناحال إيسارون[12] Nahal Issaron من الـ PPNB الحديث. وهو ذو بنى مستديرة بشكل خلايا النحل تشتمل على الماعز المدجن ويبدو أنه فعلاً محطة لرعاة.

تبدو إذن البداوة النيوليتية في سنياء مثبتة بشكل جيد، لكن بنيتها الإقتصادية الإجمالية ليست واضحة بعد. ويوجد فيها إنتاج المعيشة: الزراعة في اجرة المهد، والرعي في ناحال إيسارون. هل تشير مواقع الصيد إلى عودة كاملة لبعض المجموعات إلى ستراتيجيات غذائية قنصية أو فقط إلى فترات وقتية وموضعية لدور سنوي أكثر تنوعاً؟ إننا نميل إلى الفرضية الثانية دون أن نستطيع استبعاد الأولى في الوقت الحالي.

الصحراء السوداء وواحة الأزرق

يتعلق الأمر في الأردن الشرقي بمجموعة متممة تشتمل على الإمتدادات البازلتية للصحراء السوداء ولواحة الأزرق. وتُظهر مواقع الـ PPNB فيها في الجانبين البنى المستديرة نفسها من الحجر التي نجدها في سيناء وهي ترجع أيضاً إلى ما بين 7500 و 6300 قبل الميلاد. وكما في سناء يتعلق الأمر بـ PPNB ذي سمة فلسطينية مع رؤوس من أريحا: فأصله الجغرافي واضح جداً إذن. وكانت هذه الصناعات في بداية الألف السابع تشتمل إضافة إلى ذلك على عدد كبير من «أزاميل الصحراء»، التي تسيطر أحياناً على الباقي كله[13]: وتشير هذه الأزاميل بالضرورة إلى نشاط متميز مرتبط بهذه المحطات التي لا تزال غير محددة بشكل جيد مع الأسف. فالمسائل المطروحة والنتائج هي نفسها التي في سيناء: فالبداوة الرعوية موجودة مع الضأنيات ـ المعزيات المدجنة. وقد تم العثور على حيوانات برية حصرا (الغزلان) في موقعين كما نجد آثار زراعة في الواحة[14]. ويطرح جمع هذه العناصر المختلفة مشكلة. وذلك بقدر ما تزال المواقع المنقبة أو المسبورة نادرة جدا بالنسبة لحجم المحطات المستكشفة. وهكذا فإننا نبدي الإقتراحات والتحفظات نفسها التي بالنسبة لسيناء.

واحة الكوم ومنطقة تدمر

كانت السهوب التي تفصل المنطقة الساحلية للمشرق المركزي والشمالي عن الفرات الأوسط. وذلك تقريباً بقدر ما يرجع التاريخ المكتوب. أرض تنقلات بالنسبة لقبائل «البدو». وكانت بداوة جمال واسعة قد سبق أن اجتازتها خلال العصر الكلاسيكي. بل وربما خلال العصر البرونزي[15]. مع وجود المدينة الواحة تدمر كمحطة للقوافل. أما بالنسبة للواحات الأصغر (السخنة. الطيبة. الكوم) التي تعلّم خط السير الذي يمتد بين تدمر والرقة حالياً. على الفرات الأوسط. فيبدو أنها كانت دائماً أماكن إقامة وقتية لـ «بدواة صغيرة» غنمية يمكنها أن تجتاز أراضي واسعة، من الساحل إلى طوروس. بالقدر نفسه الذي تنتقل فيه بشكل أقصر بين البلد المسطح السهوبي والمرتفعات الأكثر رطوبة وشجرية من السلسلة الجبلية التي تقطع السهوب من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي (جبل المقيبرة وجبل بشري).

أما أن هذه البداوة ترجع في الواقع إلى النيوليتي فهذا اكتشاف حديث[16]. فبفضل «روابي الينابيع» والمحطات الكثيرة التي تم تحرّيها في وحول واحة الكوم، فقد أمكن عزل سمة خاصة من الـ PPNB الأخير هي السمة البدوية المسماة «القديرـ»، وهي تختلف عن «سمة الكوم» المجاورة إنما الحضرية. ومختلفة أيضاً عن الـ PPNB البدوي في المشرق الجنوبي لأنه من الأكيد أنه ليس له الأصول نفسها ولا يصف المسارات نفسها.

والموقع الذي أطلق اسمه على السمة، وهو تلة القدير 1. كشف طبقة إثر طبقة عن معسكرات بدو بلا عمارة، حيث كانت عمليات تنظيف دقيقة قد سمحت بوصف مساحات متلاصقة لسكن خفيف ومشاغل لنحت الصوان[17]. وكان هؤلاء المربون، بخاصة للخراف ولبعض الماعز والثيران[18]، صيادين كباراً أيضاً يلاحقون الغزلان وبعض الحيوانات الأخرى من السهوب إنما يزرعون أيضاً خلال إقامتهم الزروع كما تثبت ذلك الحبوب المتفحمة النادرة المحفوظة كما والتسجيلات المميزة على النصال المناجل[19].

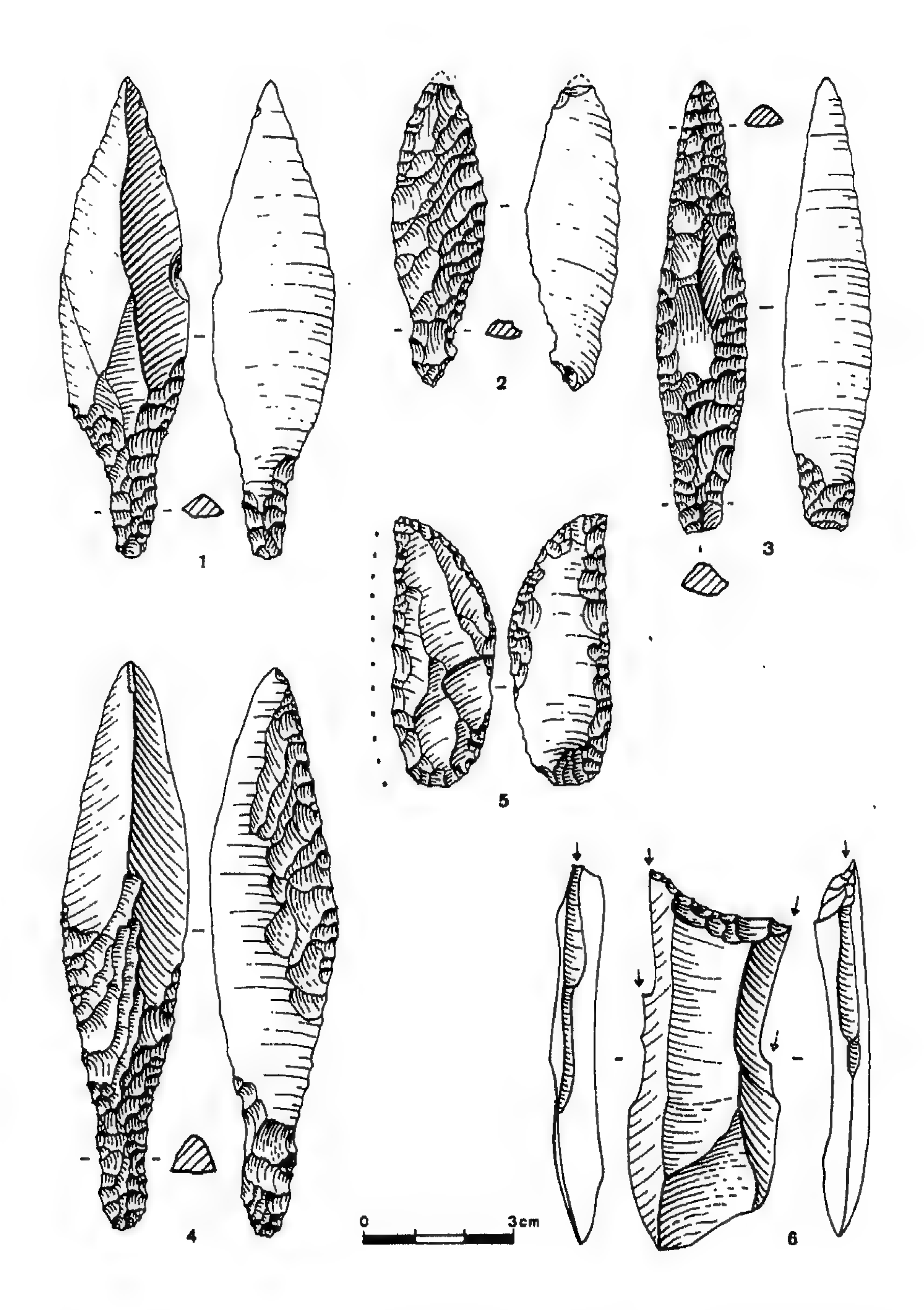
وما يميزهم إضافة إلى ذلك نشاط حرفي كثيف، وذلك في نحت الصوان ابتداء من مادة خام توجد مناجمها على بعد أقل من 2 كيلومتر عن المعسكر. وهم يصنعون بعدد قليل اللائحة الكاملة من الأدوات الضرورية لحياتهم اليومية (المثاقب والمكاشط والنصال المناجل، إلخ.) بل وأيضاً وبعدد أكبر «أزاميل الصحراء» الشهيرة (الشكل 67: 6) التي سبق أن

صادفناها من سيناء إلى الصحراء السوداء[20]. بالمقابل يبدو أن الهدف الرئيسي من التقصيب الكثيف لنصال الصوان المجهزة ابتداء من نوى ثنائية القطب وسفينية الشكل أو منتسبة لها[21] كان تصنيع الأسلحة[22]. رؤوس سهام الـ PPNB هذه ذات الأهمية المزدوجة هنا: فمن جهة لا تشتمل نموذجيتها المتنوعة (الشكل 68: 1 – 4) على رؤوس أريحا من المشرق الجنوبي. مما يشير هكذا إلى أصل مختلف إلى الشمال أكثر لهذا التيار البدوي، ومن جهة أخرى فإن طريقة تصنيعها المتكلفة تظل متجانسة مع ماضي الـ PPNB كله، في حين أنه في بداية هذا الألف السابع كانت وحدها الثقافات ذات الخزف الساحلي (بيبلوس، العمق، إلخ.) تبدو أنها حفظت نوعية الأسلحة عند هذه الدرجة. وبهذا المعنى فإن قدير 1 تقع عند نقيض الـ PPNB الأخير الحضري. القريب مع ذلك في المكان. في الكوم 1، حيث يبدو أن تأثير الأدوات والعقيدة قد استنفذ بشكل أبكر.

وتنتمي كافة المحطات الكثيرة التي عثر عليها داخل الواحة وعلى الجبال المحيطة إلى السمات الثقافية للقدير[23]. ولكن بالمقابل فإننا نجد تنوعاً كبيراً فيها للتناسبات المتعلقة بالأدوات التي تعد بغياب التنقيبات[24] المؤشرات الأفضل على النشاطات الخاصة بكل موقع. وإضافة إلى معسكرين أساسيين آخرين من نمط القدير 1، مع قائمة موازية بكمالها من النشاطات الغذائية والحرفية، هناك «محطات صيد» حيث تسود بكثرة السهام. و«مواقع ذات أزاميل» حيث تغيب على العكس. أو أيضاً مشاغل في مواقع المناجم الصوانية يتم فيها تصغير أولي لحجم هذه المادة بحيث لا تنتج سوى النوى[25]. فمن الممكن إذن أن جماعات بدوية كثيرة كانت قد تنقلت داخل هذا المحيط، وأن كلاً منها كان قد ترك عدة محطات من أنماط مختلفة[26].

لماذا البداوة الرعوية؟

إن شروط الصحراء كما نعلم شروط خاصة. فتقنيات الحياة والإستمرار الخاصة بالمناطق الأكثر اعتدالاً تصل سريعاً فيها إلى حدودها. وحتى عندما يكون ثمة فيها مياه محلية ـ وهذا هو حال الواحات ـ فإنه يظل من المشكوك فيه القيام بالزراعة بلا سقاية: وستلجأ إليها لاحقاً حضارات بلاد الرافدين المنخفضة وربما كان النيوليتيون الحضريون في الكوم قد سبقوهم. ولكن لماذا تُترك الحقول الخصبة والمراعي الدسمة في «النواة المشرقية» من أجل مواجهة مناطق جافة لم يكن قد تم التحضير لها وحيث كل شيء أصعب بكثير؟



الشكل 68. *تسليح وأدوات من الـ PPNB الأخير البدوي في القدير (سوريا). 1 – 4: رؤوس سهام. 5: جزء من منجل. 6: إزميل الصحراء. عن أورنش وم. ك. كوفان.*

من الصحيح أن البداوة الرعوية، وبخاصة عندما ترتكز على تربية الخراف، وهو نوع قطيعي جداً يمكن ضبط تحركاته بشكل أسهل بكثير من تحركات الماعز، هي ما يسمح كما السقاية بالنسبة للحضر بإخفاء هذه الصعوبة بشكل جزئي: فالسهوب المعنية التي تتلقى بين 200 و 50 ملم من الأمطار سنوياً ليست صحراء مطلقة. فهي خضراء في الربيع ويمكنها عندها تغذية القطعان؛ بالإضافة إلى ذلك، يمكن الإفادة من تحركِ المخزون الغذائي الجديد واللعب كما في سيناء على تناوب الجبل والأراضي المنخفضة، بل وحتى التقدم بدخول صيفي باتجاه المناطق المعتدلة المحيطة كما يفعل بدويو اليوم.

وفي كل حال، فإن البدوي هو الذي يعمر الصحراء قبل كل شيء أكان في أفريقيا ما تحت الصحراوية أم في الشرق الأدنى أم في آسيا الوسطى، وذلك لأنه الأكفأ على مواجهة المناخ الجاف فيها. ومن هنا الإعتبار بأن البداوة كانت قد «اختُرعت» في كل مكان لهذا الهدف، والخطوة لذلك سهلة الإجتياز وكانت كذلك دائماً، في حين أن الجهد الجديد المكتسَب من خلال هذا التأقلم المستحدَث لم يبد أنه يمكن أن يتبرر سوى من خلال ضرورة قاسرة. ولهذا كان لاتيمور O. Lattimore يفسر أصل البداوة الآسيوية بترحيل مجموعات بشرية معينة باتجاه محيط المناطق الخصبة، أكان لهذا الترحيل أسباباً ديمغرافية أو سياسية بالنسبة للعصور الأحدث[27]. وقد استخدمت حجة الضغط الديمغرافي بالمثل في الشرق الأوسط لتفسير ظهور ثقافة سامراء الرافدية في الألف السابع وزراعتها المسقية في مناطق جافة ولم تكن مسكونة قبل ذلك[28]. وبالنسبة للشرق الأدنى فقد تبعنا النموذج نفسه من أجل أن نفسر معاً السقاية الزراعية والبداوة الرعوية.

وترتكز هذه التفسيرات على أفكار منطقية مؤكدة تتأسس هي نفسها على افتراضات تبدو أنها منطلقة من نفسها إلى حد أنها لا تُناقش. إن هذه المحاور البدئية المفتاح لكل شيء، داخل مجتمع علمي يستقبلها على مقاعد الكليات الجامعية مع المنهج نفسه، هي ما يسميه توماس كون[29] Thomas Kuhn «النماذج paradigmes» التي تشكل على فترات طويلة الأفق الذي لا يمكن تجاوزه في أي بحث. فألا يمكن اختراع الزراعة وتربية الحيوانات إلا عندما أصبح الصيد والقطاف غير كافيين لتغذية العالم كان كما رأينا أحد هذه اليقينيات المزعومة. وألا تستطيع مجموعات بشرية ترك أرض النعيم لتواجه الصحراء إلا بسبب أن آخرين كانوا قد طردوهم يشكل يقيناً آخر. وهنا أيضاً، فإن للجوء إلى الضغط الديمغرافي كنتيجة أن يطبق بشكل كامل ظاهرة التوسع الأرضي على ظاهرة تكاثر الأنواع الأبسط، وسلوك التنافس الناجم عنها والذي يصفه لنا السلوك الحيواني. ومما لا

شك فيه أن هذا السلوك موجود بمقتضى التجذر البيولوجي للإنسان في الحيوانية ومفهوم الفضاء الحيوي (*اللبنسروم Lebensraum*) مألوف لدينا بشكل مؤسف؛ ومع ذلك فإن هذا لا يشكل علاجاً قابلاً للإستخدام في كافة الظروف.

وضمن الحالة الراهنة، ربما كان لا يكفي أن نشك كما فعلنا عدة مرات بالإشباع الديمغرافي في الشرق الأدنى النيوليتي. ومن المؤكد أن عدد السكان الكلي في النواة المشرقية قد ازداد بشدة ابتداء من عام 7500 قبل الميلاد، ونحن لا نعرف بشكل جيد انطلاقاً من أية لحظة يمكن للنمو العددي للمجتمعات البشرية أن يُلحظ من قبل الجميع كأمر مزعج، وذلك في منظومات اجتماعية وعقائدية مختلفة عن مجتمعاتنا. وإنما سنكشف على مستوى الوقائع الآثارية نفسها، المتنوعة باستمرار لحسن الحظ، عن الشذوذات التي تنقض التفسير الشائع.

ويبدو في البداية أنه من المشكوك فيه جداً أن البداوة الرعوية، كما يمكن أن تكون من جهة أخرى السقاية، قد رأت النور كما يقال في المناطق الجافة. فالندرة الكبيرة جداً للمواقع التي يمكن أن تُنسب لها في المناطق المعتدلة ترجع أولاً إلى الصعوبة الآثارية في العثور عليها. ومع ذلك، ودون أن نتكلم عن فرضياتنا حول قبرص، كنا قد سبق وأشرنا[30] في قلب النواة المشرقية إلى موقع حيازا من الـ PPNB الحديث في سفوح جبال طوروس التركية. وكان المنقب قد دهش[31] أنه لم يعثر على الرغم من اتساع مساحة تنقيباته على أية بنية مبنية، في حين كانت تكثر في القدير 1 بقايا مشاغل لنحت الصوان مع كافة الإشارات على وجود تربية كثيفة للحيوانات: وتشكل حيازا الصورة نفسها في هذا المجال للجماعة الرائدة، طالما أنها إضافة إلى الخراف والماعز تشكل أحد أقدم المواقع الذي كشف عن ثيران مدجنة[32]. وقد رأينا أيضاً في منطقة دمشق بدواً يحفرون خنادقهم في تل رماد من الـ PPNB، في حين أنهم كانوا قد ترددوا ليس فقط على الصحراء بل وأيضاً على الساحل، طالما أنهم جلبوا من هناك خزف المنطقة المميز.

وتوحي هذه الأمثلة وأخرى كانت قد ذكرت بالنسبة لفلسطين بدرجة كافية من القوة أن البداوة النيوليتية لم تنشأ في المناطق الجافة ولا يمكن بالتالي أن ترجع أصالتها إلى ضرورة التأقلم معها فقط. وهي تسمح بالتأكيد بمد الوجود البشري إلى أراضي يصعب بلوغها بشكل آخر لمنتجين للمعيشة، ولكن إذا كانت البداوة الرعوية موجودة منذ البداية في كافة أنواع الأوساط الطبيعية، فإن ذلك يبين في آن واحد أن كل بدوي لم يكن مهاجرا أو مبعدا

لفظة ألمانية تعني المكان أو الفضاء الحيوي، م.

وأن الشروط البيئية لم تلعب دوراً حاسماً إلى هـذا الحـد كمـا يقـال في ولادة هـذا النمط مـن الحياة.

ولا يزال البدو أو الغجر في أيامنا هذه بعيدين جداً عن أن ينسبوا لأنفسـهم وضعـاً أدنى من حالة الحضر الذين يجاورونهم، حتى وإن كان هؤلاء الأخيرون يخشونهم في غالب الأحيان وينبذونهم. فهذا النبذ هو نبذ متبادل تماماً: فالبدوي، الأفقر بالخيرات المادية من القروي أو المدني الذي يحتقر رفاهه المُضعف، يعتز بقـوة بحريـة حركتـه وسيادته علـى المكان. وهما قيمتان في غاية الإيجابية أمكن لهما هما أيضاً أن تكونا موضوع اختيار.

وحتى إن كان من المستحيل أن نعيد بنـاء عقيـدة البـدو الأوائـل، فـإن نتيجتـين هامتين تنتجان بالتالي عن التحليلات السابقة. فمن جهة لم يغط الإنقسام الثنائي الحضري - البدوي في النيوليتي فصلاً واضحاً بين مزارعين ومربين للحيوانات؛ فالبداوة الرعوية البحتـة يمكن أن تكون فعلاً تخصصاً متأخراً. ومن جهة أخرى كانت المصادر المسـتثمرة أقـل أهميـة من الحركية نفسها التي كانت تستطيع أن تجعلها متعاقبة في الزمان. فالفصل البيئي الـذي ندخله بين الأصقاع الجافة والأخرى ليس ذا مدى تحديدي إلا بالنسـبة لحضـري مخصـص بمسكن ذي أرض محددة. ومنذ فترة قريبة كان البدو ينصبون في كـل صيـف خيامـهم علـى أبواب بـيروت ولا يرجعـون إلى السـهوب إلا في فصـل الأمطـار. فـالبدوي إذن أقـل اتصافـاً بإشغاله لمنطقة مناخية خاصة بقدر ما يتميز بقدرتـه علـى الذهـاب والإيـاب مـن منطقـة إلى أخرى وفقاً لإيقاعات الفصول. ويعزى إليه لهذا السبب دور تاريخي لا يضاهى في التبادلات بين المجتمعات القروية التي كـان يصلـها بواسـطة انتقالاتـه، كمـا وفي التشـكل التدريجـي لوحدات من الأراضي المتكافلة التي ستصبح في الألف الرابع أولى الدول في العصر المديني[33].

والبدوي بما هو أقـل خضوعـاً مـن الحضـري لوسـط نوعـي فإنـه يمتلـك إمكانيـة استكشاف أراضي جديدة. إن هذه البـداوة ذات الإقتصـاد المختلـط، الرعـوي إنمـا الزراعـي أيضاً، والتي أتينا على وصفها، قد لعبت بالتأكيد دوراً كبيراً[34] بالنسـبة لظـاهرات الإنتشـار هذه باتجاه البلاد المتاخمة للنواة المشرقية، التي تهمنا هنا، كمـا وبالنسـبة للظـاهرات الـتي نشرت على مستوى أوسع منذ عام 7000 قبل الميلاد الإقتصـاد والديانـة النيوليتيـة باتجـاه البلقان والشرق الأوسط كما وبلا شك شمال أفريقيا. وقد فهمنا أن «اجتياح الصحـراء» ليـس سـوى اتجاهاً ممكناً بين اتجاهات أخرى لهذا الإسـتكشاف. ويمكننـا أن نتسـاءل الآن حـول أي نمط من التزعزع، الطبيعي أو الثقافي، أمكن أن يكون أصل هذه الإنطلاقات كلها.

الهوامش

1. هذا هو بشكل خاص تفضيل ديغار Digard، 1981.
2. Khazanov، 1984؛ Francfort (éd.)، 1990.
3. انظر هول Hole، 1979، Digard، المرجع السابق؛ Aurenche، 1984؛ Francfort (éd.)، المصدر نفسه.
4. عند بدو جبلية في سيناء (بار يوسف، 1981) أو باكستياري في زاغروس (ديغار، المرجع السابق).
5. Besançon et Sanlaville، 1991؛ Cauvin J.، 1990.
6. في وادي ذبي، Waechter et Setton-Williams، 1938.
7. انظر الصفحتين 257 – 258. ويتعلق الأمر تقنياً بأزاميل زاوية على وجه محدب (انظر الشكل 68: 6).
8. Bar Yosef، 1991.
9. مؤرخ جيداً بنحو 7200 قبل الميلاد، وبالتالي من الـ PPNB الحديث. ويوجد أيضاً على هذا الموقع مخازن مطمورة على شكل الجرس كما في عسقلان (انظر أعلاه ص. 207، الهامش 15). ووجود هذه المخازن التي يسهل إخفاؤها في حال الغياب ليس إشارة على التحضر بل ببساطة على العودات الدورية إلى الموقع حيث تتم الزراعات.
10. لا يمكن تمييزها إلا من قرونها. لكن حيوانات وادي تبيك التي درسها تشرنوف E. Tchernov لا تحتوي على مثيل لها، بخلاف الحيوانات في اجرة المهد حيث يتعلق الأمر فعلاً بعنز بري (Tchernov et Bar Yosef، 1982).
11. Bar Yosef، 1981.
12. Goring-Morris et Gopher، 1983.
13. سميت المحطات عندها «مواقع الأزاميل» على يد بتس A. Betts (1984، ص. 27). ويمكن أن تكون السهام غائبة تماماً.
14. في أزرق 31: Garrard وآخرون، 1987.
15. Bounni et Al Assad، 1987.
16. Aurenche et Cauvin M.-C.، 1992؛ Cauvin J.، 1990.

17. Stordeur et Taha. سيصدر لاحقاً؛ Stordeur. معلومة شخصية.

18. Helmer. 1992. ص. 143؛ ومعلومة شخصية منه.

19. فضلات استعمال مجهرية لاحظها أندرسون P. Anderson (معلومة شخصية).

20. نجدها في سوريا نفسها في موقع أزاميل في واحة تدمر (Locality 79, Hanihara et Sakaguchi. 1978) وحتى شمال الجزيرة العربية (Field. 1960).

21. Calley، 1986 b.

22. ليس من المستحيل أن يكون هذا الإنتاج الكثيف للأسلحة، في جوار المناجم التي تنتج صواناً ممتازاً، قد تجاوز الحاجات الخاصة بالجماعة وأن تكون هذه الأخيرة قد نشرت إنتاجها جزئياً بين جماعات أخرى. وليس ثمة حالياً ما يشير إلى ذلك تحديداً. حيث أن الوظيفة «التجارية» للمشاغل ليست محتملة في هذا العصر إلا بالنسبة للأوبسيديان (Cauvin M.-C.، معلومة شخصية)، كما ودون شك بالنسبة لآنية الرخام المصقول التي كانت تصنع حينها على الفرات (Stordeur، سيظهر لاحقاً).

23. في حين أنه لم يُعثر على سمة الكوم إلا في الكوم نفسها.

24. فليكن لأنه يبقى تنقيب التلة الموافقة. وليكن لأن محطات البدو لم تتوافق، بسبب عدم توفر شروط بيئية مناسبة، مع تشكل تلة منبع.

25. انظر Cauvin J. في Cahiers de l'Euphrate, 3, 1982, pp. 79 - 92; 5 - 6, 1991, pp. 47 - 53.

26. تبدو أيضاً هذه البداوة السورية التي دُرست بشكل خاص داخل وحول واحة الكوم، حيث تحمل كل حملة تحري حصتها من المحطات الجديدة، حاضرة داخل وحول واحة تدمر: انظر Hanihara et Sakaguchi، المرجع السابق؛ Cauvin J.، 1990.

27. Lattimore، 1967. بالنسبة للشرق الأدنى انظر Lees et Bates، 1974.

28. Oates et Oates، 1976. انظر حول هذا الموضوع Cauvin J.، 1981.

29. Kühn، 1990. ص. 393.

30. انظر أعلاه ص. 205.

31. Roodenberg، 1979/ 1980، ص. 8.

32. عن بويتويس Buitenhuis: انظر Helmer، المرجع السابق، ص. 95.

33. Cauvin J., in: Lichardus et al., 1985.

34. Cauvin J.، 1992 b.

الفصل الثامن عشر

فرضيات من أجل بداية

كانت الفترة الممتدة بين عامي 8000 بل وبشكل خاص 7500 و 6300 قبل الميلاد أساسية بالنسبة لنولتة المناطق المحيطية في المشرق ومناطق أبعد أيضاً دون شك: فباتجاه الشرق يبدو أن نولتة زاغروس الوسطى تمت منذ 7500 أي في الوقت نفسه بالتالي الذي تمت فيه في سنجار، في حين أن الوثائق المتوفرة في زاغروس الشرقية وسهل ده لوران Deh Luran الذي يحف بها ترجع إلى فترة أقدم بقليل: ويمكن أن يرجع أول نيوليتي ما قبل خزفي فيها إلى نحو عام 7800 قبل الميلاد[1] تماماً كما هو ربما إلى الشرق أكثر النيوليتي ما قبل الخزفي في الباكستان[2]. وبالمقابل فقد وصلت النولتة إلى البلقان والمتوسط وإلى الشمال أكثر عبر القوقاز وتركمنستان في الألف السابع[3].

وكافة هذه الصيرورات تالية في كل حال للثورة النيوليتية في المشرق. وربما كان من المبكر جداً تفسيرها كلها بعبارات التوسع، لكن التسلسل الزمني لا يعارض ذلك أبداً والتفنيدات التي يمكن تأسيسها على أصالاتها الثقافية الخاصة بكل منها تفقد كثيراً من قوتها أمام ما علمنا إياه الشرق الأدنى نفسه ومحيطه المباشر. والأمر الأكثر صعوبة في كل مرة هو تحديد طبيعة هذا الإنتشار الذي سبق أن رأيناه يتخذ أشكالاً متنوعة جداً. ويجب أن نأخذ أيضاً بعين الإعتبار واقع أن عدداً كبيراً من المواقع الحضرية في الشرق الأوسط (حسونة، غانج داره، تبه غوران، عبد الحسين...) قد بدأ بمرحلة بلا عمارة مبنية منسوبة في كافة المواقع لوصول بدو...

ولكي نظل ضمن المساحة المدروسة هنا، فإن فكرة «الهجرة» تتضمن الفكرة الناتجة بشكل طبيعي لتحريك مجموعات اجتماعية والتي يجب تقدير سعاتها الحقيقية

حالة حالة. حيث أن إعمار الأراضي البكر ليس سوى حالة حدية نادرة نسبياً. وعلى الرغم من أن هذه الإنطلاقات قد تمت بشكل مؤكد عبر موجات متلاحقة، ممتدة على نحو ألف سنة، فإن مجموعها يمثل مع ذلك إذا ما نظرنا إليها برجوع كاف في الزمن ظاهرة وحيدة ومتجانسة. ونحن نعلم أنها ليست ظاهرة وحيدة من نوعها في التاريخ البشري[4] وأيضاً أن الإشكاليات الخاصة بعلوم أخرى مثل اللسانيات التاريخية وعلم مورثات الشعوب تتوصل بالمثل إلى النظر فيها على مسافات طويلة جداً. والحال أنه ليس ثمة انطلاق بلا سبب. وسنلخص هنا الفرضيات الممكنة لتفسيره.

الفرضية المناخية

كانت هذه الفرضية هي الوحيدة لفترة طويلة: إذ أمكن لجفاف حتى وإن كان خفيفاً للمناخ نحو عام 7500 قبل الميلاد أن يضع نهاية بشكل وقتي لمشاريع الزراعة في المشرق الجنوبي، على الأقل في الإرتفاع المنخفض، مسوغاً بالمقابل الإعمار المتزايد لمحيطه الجبلي. ولا تشير الدراسات المناخية مع ذلك إلى أي شيء واضح بهذا الصدد[5]. ولا يمكن كذلك لخلو السكان النسبي للمشرق المركزي ابتداء من عام 7000 قبل الميلاد أن يُفسَّر بهذه الفرضية. وأخيراً فإن إعمار مناطق جديدة ابتداء من سوريا الشمالية وطوروس الشرقية، وهي مناطق ظلت هي نفسها مسكونة وأفلتت أصلاً من هذا النوع من الضغوط المناخية، لا يمكن أن يُفسَّر بهذه الضغوط، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بإعمار لمناطق صحراوية كانت التأثيرات المناخية أكثر شدة عليها من المناطق الأخرى. ويمكننا أن نتصور أن مزارعين من الجزيرة العليا قد فتشوا عن الأراضي المسقية بشكل أفضل على الساحل، وليس لأنهم واجهوا الصحراء لأسباب مشابهة. إن شمولية الهجرة تضيع في هذا التفسير الجزئي جداً.

الفرضية الديمغرافية

إن تفسير الإنتشار النيوليتي بواسطة ضغط ديمغرافي في منطقته الأصلية هو السائد حالياً. وقد رأينا أنه نحو 7500 قبل الميلاد كان ثمة حقاً في المشرق الشمالي، وفي المشرق

الشمالي وحده. زيادة واضحة في الإعمار الحضري. الأمر الذي كشفت عنه في آن واحد كثافة القرى والأبعاد المتزايدة لبعض منها. وحتى الباحثين الذي يقبلون بـهجرات نيوليتية واسعة المدى تصل إلى الأطلسي. مثل كولن رينفرو. لم يقترحوا تفسيراً آخر لانطلاقتها من الشرق سوى مثل هذا الفائض من السكان. وإضافة إلى صعوبة تقدير انطلاقاً من أية عتبة يمكن لهذا النمو أن يعني إشباعاً وهجرة (يبدو أننا نظل عندها بعيدين عنه)، يمكننا أن نتساءل[6] ما الذي كان يجبر الفائض الديمغرافي على الإنطلاق بعيداً جداً. إن هجرات المجموعات العرقية هي واقع دوري غالباً ما يتكرر في التاريخ، لكن المستشرقين المتأسلمين، على سبيل المثال، لا يقبلون أبداً ألا ننسب وصول العرب إلى إسبانيا إلا إلى زيادة في سكان شبه الجزيرة العربية. فهذا سيعني تناسي الديناميكية الفاتحة للإسلام، أي ما هو جوهري...

الفرضية التكتونية

نادراً ما يتم التفكير بهذه الفرضية. لكنها تستحق أن نتأمل فيها. فآسيا الغربية هي إحدى مناطق العالم الأكثر عرضة للحركات التكتونية: فثمة «صدع مغيِّر» كبير يجتازها في الواقع من البحر الأحمر إلى الأناضول. وتنتقل الصفيحة العربية على امتداده باتجاه الشمال الغربي بالنسبة للصفيحة الأفريقية. فالهزات الأرضية هي بالتالي أحداث متواترة جداً في التاريخ الإقليمي. وهي مع ذلك محلية جداً فيها في كل مرة بحيث لا يمكن أن نأمل أن نؤسس عليها. كما جرت بشكل مدهش محاولة ذلك عبر مقابلة طبقات الدمار في مدن عصر البرونز[7]. تسلسلاً زمنياً عاماً للزلازل الأرضية. ومن باب أولى فإنه من الأبسط البحث في الماضي. حتى المستوى الإقليمي، عن آثار بعض الكوارث الكبرى العامة بدرجة كافية يمكن أن تكون قد حرضت هرب الناجين.

ومع ذلك فإن علم الزلازل التاريخي هو علم في أوج تطوره[8]: ونحن نعرف من خلاله أنه كان ثمة في الماضي فترات اهتزت فيها الأرض أكثر من الفترات الأخرى، إلى حد أنها خلقت ربما جواً من عدم الأمان كان ملائماً للهجرات الكبيرة. ومع الأسف فإن الكشف عن الزلازل أقل سهولة في القرى النيوليتية منه في الأمثلة المدينية الأكثر تأخراً، والتي يبلغ

الدمار فيها شكلاً أكثر عظمة ونموذجية. ودون أن نستبعد بالنسبة للمستقبل الأبحاث الأكثر تيقظاً فليس ثمة ما يوجد بهذا الصدد في الأدب الآثاري يخص الشرق الأدنى النيوليتي.

ولنذكّر مع ذلك ببعض الوقائع المتناثرة التي تفترضها مناهج أخرى للعلوم الطبيعية. وبخاصة في علم المحيطات. فبعد ذروة عصر الجليد لم تتوقف السوية العامة للبحر عن الإرتفاع. وأحياناً بسرعة كبيرة. لتصل إلى المستوى الحالي حول عام 7000 قبل الميلاد. وكان قد أمكن لنا أن ننسب لهذا التجاوز البحري واقع أن الخليج العربي. الذي كان قد انكشف تماماً خلال التراجع السابق للماء. قد عادت إليه مياهه عندها التي دخلت حتى لوقت ما إلى بلاد الرافدين إلى الشمال أكثر بشكل واضح من الخط الساحلي الحالي[9]. ويمكننا أن ننسب إليه أيضاً كما رأينا البطء النسبي الذي أمكن لسهول الشرق الأوسط معه أن تبلغ شروطاً مناخية ملائمة للحياة الزراعية بقدر ملاءمتها في الشرق الأدنى[10]. وقد تم تحديد مختلف مراحل صعود المياه هذا في العالم كله من خلال دراسة المرجانيات التي يمكن أن توجد في أيامنا هذه على أعماق كبيرة في حين أنها لم يمكن أن تتشكل إلا قريباً جداً من السطح[11]. ويمكننا أن نقرن به سلسلة من الأحداث الأكثر قرباً إلينا، التدريجية أو المفاجئة. التي أمكن لها أن تؤثر على الإتصال من خلال المضائق بين البحر الأسود، الذي كان في البداية بحيرة من المياه العذبة التي كبرت بمياه ذوبان الجليديات، والمتوسط الذي ظل لفترة طويلة في مستوى أدنى من الأول وبالتالي على تلقي الفائض منه[12]. وإلى الغرب أكثر، في تساليا. يبدو حقاً أن المحتلين النيوليتيين الأوائل كانوا قد استقروا ابتداء من عام 7000 قبل الميلاد في سهل كانت قد تركته حديثاً جداً مياه بحيرة أفلتت باتجاه البحر إثر حدث زلزالي. وتتآزر تماماً هنا لتأكيد ذلك تحليلات علماء التشكيلات الأرضية وتطورها مع دراسة الأساطير اليونانية القديمة[13]. وثمة أخيراً في الأناضول فترات بركانية كثيفة حديثة نسبياً يمكن لبعضها أن يتعلق بفترتنا التي ندرسها. لكن أبحاث علماء البراكين لا تزال جارية لتأريخها.

إن ذلك كله لا يجيب أبداً على سؤالنا طالما أنه تنقصنا معطيات تتعلق بالمشرق نفسه وبخاصة بوادي الأردن، والذي نعرف أنه عرضة كثيراً للهزات التكتونية. بالمقابل، فإن الفراغ البشري الذي نعتقد أننا نستنتجه بين 7500 و 6300 قبل الميلاد بالنسبة لمنطقة ملاطيا Malatya في طوروس الشرقية التي تهتز كثيراً هي أيضاً، والإنتشار المعاصر له باتجاه سنجار يمكن أن يُنسبا لها كثيراً إنما دون أي برهان حتى الآن.

وما يشجع على إبقاء هذا النوع من الفرضية في ذهننا بانتظار معلومات أكمل. هو ربما وجود نوع من الكارثية في الموروث الأسطوري للشرق الأدنى والمتوسط الشرقي. حيث تمَّ إثبات وجود صلة لتحولات هامة في الثقافة البشرية مع حوادث تدمير طبيعي (مثلاً «طوافانات» نوح أو دوكاليون). فثمةهنا مادة رهيفة بالنسبة للمؤرخ. بقدر ما هي تثير بشكل خطير الخيال وتغذي بذلك أدباً متخصصاً كاملاً مشكوك بقيمته. وسنرى أن ذلك ليس سبباً كافياً لإبعاد هذه الفرضية تماماً.

هل يمكن العودة إلى الأساطير

وهكذا فقد خطرت في بال أندريه André ودنيز كابار[14] Denise Capart فكرة مقاربة عدد معين من الإشارات التي تقدمها علوم الأرض وما قبل التاريخ النيوليتي في الشرق الأدنى مع الخلفيات الأسطورية الواقعة في أساس الثقافة اليهودية ـ المسيحية. أي سرد طوفان نوح في سفر التكوين.

إن المسارات المشابهة. والتي كثيراً ما تم التطرف فيها خلال مشاريع موجهة عقائدياً من نمط «لقد صح ما جاء في التوراة...». لا يجب مع ذلك إلغاؤها قبل التحقق منها على الرغم من قلة تناولها بالدراسة. وذلك من أجل تجنب أي خلط بين الأنواع. كعالم في الإناسة* أو كـ«مؤرخ للعقليات». وربما أيضاً كمؤرخ لا أكثر، إذا قبلنا كفرضية انطلاق أن بعض «الأساطير الأصل». التي دُمجت في النصوص المقدسة المؤسِّسة للحضارات المدنية، قد أمكن لها أن توصل معطيات تاريخية أقدم منها بكثير. انتقلت عن طريق شفهي عبر القرون بلا كتابة ولهذا السبب جُبلت كثيراً وغُيِّرت من خلال الخيال البشري تماما كما من خلال القصد الأخلاقي والميتافيزيائي الذي احتواها فيما نسميه «آداب الحكمة والأمثال»**.

---

* الإناسة ترجمة للكلمة المعربة أنثروبولوجيا anthropologie، وهو علم يبحث في أصول الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته عبر التاريخ والمجتمعات، م.

** هذا الأدب كان سائداً خلال القرون القليلة السابقة للميلاد، ومثاله أدب أسفار الجامعة والأمثال والحكم في العهد القديم، كما نجد عليه أمثلة كثيرة في مخطوطات الأسينيين التي وُجدت قرب البحر الميت أو في الأدب التوراتي المنحول، المترجم.

فلنتأمل بالمشاكل التي واجهها المؤرخون الهلينستيون ما أن غاصوا في القرون المظلمة للعالم اليوناني، باذلين جهودهم ليستخرجوا منها مادة لتاريخ الملاحم الهوميرية من خلال صلتها مع علم آثار طروادة، أو أيضاً من أجل استخراج شخصية مينوس من فيض الأساطير المحيط بها، وهو الملك الكريتي من العصر البرونزي، مع أخذ اكتشافات كنوسوس هذه المرة ومواقع مينوية أخرى بعين الإعتبار.

وفيما يخص كتاب التكوين، وهو أسطورة مؤسِّسة حقيقية لحضارتنا، فقد فوجئنا نحن أنفسنا[15] للتشابه الذي استنتجناه بين الصيرورة التي توحي بها الأبحاث الحديثة بالنسبة لبدايات إنتاج المعيشة، حيث يبدو أن حدثاً ذا صفة نفسانية ثقافية قد استبق نمطاً جديداً من استثمار الوسط، والسيناريو التوراتي حيث أن حدثاً نفسانياً هو أيضاً بجوهره، هو الخطيئة، قد ولّد سلسلة من النتائج حيث نعتقد أننا نستشف كل ما أوحت لنا به دراسة الفن والتقنيات وقد توشى بلغة رمزية شفافة: فثمة شعور بمحدودية بشرية («العري») يقابل ابتعاداً عن «الإلهي» الذي بات يُدرك مذاك على أنه لا يمكن الوصول إليه، وبالنتيجة نهاية سهولة فردوسية معينة في الحصول على المعيشة[16] وبداية العمل «بعرق الجبين» الذي يشير حصراً في النص إلى بدايات الزراعة أولاً (قايين) ثمة التدجين الحيواني (هابيل الثاني للبكر). إن هذه السمات كلها تميز حصراً الثورة النيوليتية، بحيث يصعب ألا نرى أن الأمر يتعلق بها. ولماذا الدهشة طالما أن التكوين والزراعة ولدا في المنطقة نفسها من العالم؟

لم يُكتب سفر التكوين بالتأكيد في النيوليتي، لكنه يشبه كما نعرف نصوصاً أقدم انتُخبت نحو عام 900 قبل الميلاد، حيث كان يجب أن يمثل فيها أقدم الذكريات عن هذه الأزمنة السحيقة التي دونها إنسان الشرق الأدنى كتابة. ويمكننا أيضاً مقابلة قصة السقوط بأسطورة بروميثيوس، وهو البطل الذي جلب في الذاكرة الهلينية النار للبشر، كما والزراعة والتقنيات، وهو جرم تلاه هنا أيضاً عقاب، مما يثبت الذكرى الآثمة نفسها التي حفظها إنسان الشرق لسيطرته التدريجية على الطبيعة. إن المادية الشديدة لوثائقنا العلمية لا تلزمنا عدم الإهتمام تجاه الطريقة التي كانت تنظر بها العصور القديمة وتروي من جهتها الأحداث نفسها التي نصفها...

فهل يمكننا الآن استخلاص شيء ما من القصص القديمة بالنسبة لظاهرة الإنتشار النيوليتي؟ إن السرد التوراتي للطوفان كان قد سبق وتمت مقابلته، في الوقت نفسه مع

نموذجه الأصلي البابلي في ملحمة جلجامش. مع الطبقات الثخينة من الطمي الطبيعي الذي يفصل في مواقع كثيرة من بلاد الرافدين سويات ثقافة عبيد عن مواقع ثقافة أوروك[17]: وبالتالي فإن فيضانات هائلة، أرخها علم الآثار في منتصف الألف الخامس قبل الميلاد، قد قطعت محلياً الحياة البشرية تماماً على ضفاف الفرات وأمكن لها أن تلهم بعد ذلك الأدب الطوفاني. وكما نرى فإن هذا الطوفان ليس نيوليتياً بل يرجع بالأحرى إلى الفترة المسماة «الكالكوليتية» أو ما قبل المدينية وهو إضافة إلى ذلك محدود ببلاد الرافدين المنخفضة.

أما تفسير كابار فمختلف. فمشهد نوح يقارَب فيه، جزئياً بسبب إشاراته إلى الأناضول (جبل آرارات) التي لا تجعل منه موضوعاً رافدياً حصراً، من قصص ديودورس الصقلي حول مختلف الطوفانات التي شهدها المتوسط الشرقي وبشكل أخص «طوفان دوكاليون»، وهو أعظمها، الذي تحكي عنه العقائد القديمة لسكان جزيرة ساموثراقيا Samothrace. ويروي ديودورس أنه حصل لديهم طوفان كبير من خلال «افلاق الأرض [...] الذي يشكل الهلسبونت Hellespont. ولم يكن جسر أوكسان Pont Euxin، أي البحر الأسود، سوى بحيرة عندها وقد تضخمت كثيراً بمياه الأنهار التي كانت تصب فيها حتى أنها فاضت وأفرغت ماءها في الهلسبونت وغمرت جزءاً كبيراً من آسيا.[18]» وهكذا كان يمكن لبعض الزلازل في رأي ديودورس أن تيسر الحدث.

وليس ثمة في ذلك كله ما يدهش بذاته لا بالنسبة لعالم المحيطات الذي يدرك جيداً كما رأينا «فيضان» البحر الأسود، ولا بالنسبة لعالم الجليديات الذي يرى أن ذوبان الجليد القاري هو المسؤول عن الصعود التدريجي للبحار وعن انتفاخ الأنهار (نهرا الدون Don والدنيبر Dniepr) الآتي من الشمال، ولا أخيراً بالنسبة للجيولوجي المعتاد على رؤية الأرض تهتز بشكل دوري في المتوسط الشرقي كما في الشرق الأدنى. وما ينقص بالمقابل هي المعلومات ذات المصدر الآثاري التي ستسمح بتحرير السعة الحقيقية للظاهرات الطبيعية ونتائجها التاريخية والثقافية من تضخيمها ومسرحتها الخرافيتين. وما ينقص أيضاً يقينيات تأريخية زمنية تتعلق بهذه الظاهرات نفسها[19]. إن المقابلة بين الأساطير والتاريخ تقارن بين حكايات جامدة ذات شكل نهائي في فكر مختلف تماماً عن فكرنا مع النتائج الموضوعية للمناهج العلمية في أوج تطورها، حيث لا تنفك الوقائع تغتني، وتتعدل أحياناً، بحسب الإكتشافات الجديدة. ويمكن لهذا الإستنتاج إذا تم بعد فوات الأوان أن يكون مشوّشاً. والعودة إلى الأسطورة ليس لها من وجهة نظرنا الحديثة قيمة كشفية أقل ضعفاً، طالما أننا

عندما نعرف التاريخ مسبقاً إنما يمكننا أن نستطيع إيجاده فيها أحياناً. وهذا يجعل الفرضيات المبكرة المؤسسة على تفسير الأساطير خطرة بالنسبة لعلم الآثار[20]، في حين أن تاريخ الديانات يستطيع بالمقابل أن يستقي من هذه المقابلة بين المعطيات الهامة حول المقومات الموضوعية المتضمنة في بعض السرود الأسطورية وصيرورة تشكلها.

يبدو إذن أنه لا يجب أن نرفض بشكل مسبق فكرة دور محتمل للكوارث الطبيعية على أنها فكرة رومانطيقية جدا في بعض الإنقطاعات للحياة الحضرية في المشرق ولا قبولها حاليا بسبب عدم وجود أساسات يقينة. وهي ما كانت لتستطيع في كل حال التدخل كـ «سبب» كاف وحاسم، وذلك إذا أخذنا بعين الإعتبار في آن واحد التوضع الجغرافي لمنطقة البدايات، وامتداد حركات الهجرات على فترة ألف سنة، أي على عدة أجيال، وأخيرا للأصقاع البعيدة جدا التي وصلت إليها في النهاية.

الفرضية النفسانية ـ الثقافية

لم يكن ثمة إذن في الشرق الأدنى امتلاء كبير بالسكان الضاغطين على بعض منهم في البداية، ولا هرب عام أمام كوارث كبرى. ومن الملائم من جهة أخرى أن نفسر اجتياح المناطق التي لا تزال غير مسكونة، من جزر أو صحارى، كما وبالقدر نفسه التحول الجذري للشعوب النيوليتية التي كانت موجودة في مواقعها والمتأصلة جيدا على طريقتها في وسطها الطبيعي. ولا يمكننا أخيرا تقديم تفسيرات «متعددة الأسباب» حيث يقدم علماء آثار من ذوي الفكر القياسي قائمة مختلف المعاملات التي أمكن لها أن تدخل في اللعبة، دون استبعاد ولا تفضيل أي منها. إن هذه التعددية للمعاملات الخاصة بكل وضع موجودة فعلا لكنها لا تأخذ بعين الإعتبار وحدها التجانس الأكيد لمجموعها ولتوضعها في الزمن.

فعندما يتعلق الأمر بانتشار باتجاه الشرق بدت لنا حالة بلاد الرافدين الشمالية (سنجار) واضحة بدرجة كافية: وكان الدور الأعظمي لـ PPNB في المشرق يتكشف فيها على أنه لا يقبل الجدل. وإلى الشرق أكثر، جعلتنا المعطيات الإيرانية الأقل تفصيلا نعتقد لفترة طويلة بوجود نولتة محلية، وذلك قبل أن يتم الشك بأول تسلسل زمني معتمد. وكانت هذه الفرضية تبدو أيضا مشجعة بالوجود الحالي في الموضع لأنواع نباتية (زروع) وحيوانية

قابلة للتدجين. ولكن بالنسبة للأسباب المناخية التي سبق أن ذكرناها[21] فإن شكاً يسود حالياً حول التاريخ الصحيح لإيجاد هذا التجمع البيولوجي في الشرق الأوسط. ونحن نعرف أيضاً أن مجرد وجود نوع قابل للتدجين لم يشكل أبداً إشارة كافية لضبطه.

وبالمقابل، فإن هذا الشك لم يوجد أبداً باتجاه الغرب. من الأناضول الغربية إلى أوروبا الأطلسية: فالزروع والأنواع من الماعز البري لم توجد مطلقاً فيها. وقد وصلت الأنواع مدجَّنة. وقد جلبها الإنسان بالضرورة. على الرغم من التنوع الثقافي للأطر التي نجدها فيها. فقد وصلت في الوقت نفسه مع انقلاب في التقنيات الأساسية يشتمل على إنتاج المعيشة وبدايات العمارة والخزف والحجر المصقول. وغالباً على طرق جديدة من أجل تشكيل الصوان والعظم وفي الوقت نفسه أيضاً مع رمزية جديدة معرفة على أنها الديانة النيوليتية. ويشكل هذا كله كلاً، عقائدياً وتطبيقياً في الوقت نفسه، ربما مثل تطبيق العقيدة التي رأيناها تبزغ في النصف الأول من الألف العاشر المشرقي. فلنكرر القول، إذا ما فضلنا المعطيات الإقتصادية وحدها، إن «أسطورتنا» نحن هي التي نجعلها تظهر، فليست ثمرة مسيرة علمية هي التي تبقينا في أحسن الأحوال في حالة شك حول هذه النقطة.

والحال أن هذه العقيدة النيوليتية توجد بعيداً جداً إلى شرق بلاد المشرق تماماً كما وإلى الغرب وأيضاً إلى الشمال أكثر. فالتماثيل الأنثوية الصغيرة وتماثيل الثور تمثل في الواقع السيطرة نفسها في النيوليتي، في إيران[22] كما وبالقدر نفسه على طرفي بحر البلطيق، وفي ما وراء القوقاز[23] أو في تركمنستان[24]. ويتزامن ظهورها في كل مكان مع ظهور الزراعة والتربية الحيوانية، على غرار ما كنا قد استنتجناه في سنجار. وقد رأينا أيضاً أن هذه الرمزية، الإنبثاق الأول في المشرق كمقدمة للإقتصاد الجديد، كانت قد خلقت فيه الأطر العقلية الضرورية لتغيير الإنسان للعالم وأنها كانت تحمل، في بنيتها الممتدة مذاك بين المستويين الإلهي والإنساني، كافة المشاق الوجودية ونفاذ الصبر والتقدمات المادية والتسارعات المستقبلية للأزمنة التاريخية.

إن هذا الجانب العقلي الراسخ منذ بدايته للنولتة، الإدراكي والفعال في آن واحد، لا يمكن إلا أن يكون قد لعب أيضاً دوراً هاماً في انتشارها. وقد أثبت لنا مثال الأناضول الجنوبية الشرقية أن النيوليتي الزراعي الجديد كان قد ظهر توسعياً بشكل سريع جداً منذ النصف الثاني من الألف العاشر، عندما كانت تصعد في هذا النيوليتي بقوة صورة الثور

المغايرة للإستقرار. ومن باب أولى، فإن مواجهة الصحراء بعد فترة قليلة والإنطلاق في البحر عندما لا شيء يجبر على ذلك يفترض شجاعة وروح المغامرة لأن الخطر في الأمام وليس في الخلف. وليس ثمة أبداً مثال تاريخي لم تستمد فيه هذه الحركات الجماعية التوسعية الكبرى مبررها وبخاصة طاقتها من غليان ملازم للدائرة الثقافية، وحتى في غالب الأحيان، في الأزمنة الأولى على الأقل. في نوع من الإنتظار الإلهي الحقيقي. لقد كان ثمة إرادة تغيير في أصل الشرط الأول لأنماط الحياة الجديدة، وكان يجب أن يكون ثمة أيضاً إرادة بالذهاب بعيداً وتمثل العالم تعتبر كمحرض إيجابي للإنتشار النيوليتي، بعد أن تكون قد نضجت في المخبر الداخلي للثقافة كما سبق أن رأينا ذلك يرتسم في عقدية الـ PPNB.

إن هذا التفسير، الذي نعترف أنه ينتج منطقياً عن عدم كفاية التفاسير الأخرى والقائم على تشابهات مع وضعيات أحدث منه بدلاً من أن نثبته بالأحرى فعلاً على وثائق من عصره (إن نقص النصوص أمر مردود هنا)، يبدو لنا أيضاً التفسير الوحيد الذي يستطيع أن يبرر الإستقبال الإيجابي بشكل مدهش الذي خصت به الشعوب الميزوليتية القادمين الجدد. ولا شك أن المستعمرين الشرقيين الأوائل كانوا قد تناوبوا جزئياً في هذه المسيرة في المقدمة مع الأعراق المنولَتَة الجديدة، بل واختلطوا في الطريق، كما أعان بربر أفريقيا الشمالية في القرن التاسع الميلادي العرب من أجل أسلَمَة إسبانيا. والحال أنه ليس ثمة أي سبب للتفكير بأن الصيادين القاطفين في أوروبا أو آسيا كانوا قد وجدوا أنفسهم في مثل هذه الحالة من الأزمة الإقتصادية بحيث أن النموذج الزراعي ـ الرعوي قد فُرض دفعة واحدة، كما قيل، لأنه أكثر مردودية من نموذجهم. وهذا التأكيد الأخير هو أصل الإرتياب المفهوم لمؤلفين مثل روبن دنيل[25] Robin Dennnell تجاه الإنتشار نفسه، وذلك من حيث أنه لم يكن للتفوق النيوليتي في مجال التموين أي شيء مؤكد على هذا المستوى.

ولنتخيل بالمقابل الأثر الذي كان يمكن أن يتركه وصول مجموعات بشرية على الصيادين العريقين، حتى وإن كانت متناثرة، وهي تدفع أمامها الماعز والخراف الأليفة، وحيث كانت تضاف غرابة الأنواع لتفاجئ بالإضافة إلى مقدرة الرعاة على السيطرة. فلنتساءل إذا كانت هذه المقدرة الغريبة لا يجب أن تمارس على الأذهان صدمة أكبر بكثير من مجرد التجديد البسيط لمصادرهم. إن اللجوء إلى التفاسير اللاعقلية ليس فيه هنا ما هو غير لائق: فثمة طرق أخرى في قمع البشر غير قوة الأسلحة أو الغنى الإقتصادي. فهنود

أمريكا ما كانوا ليسلموا في شيء في هذين المجالين إلى الغزاة الإسبان في القرن الخامس عشر الميلادي والذين مع ذلك انحنوا أمامهم في البداية دون قتال. وذلك لأن هذا الغزو كان يبدو أنه يقطع أساطيرهم وانتظارهم لما هو فوق طبيعي. فليس ثمة ما يمنع أن نرى ظاهرات مماثلة في النيوليتي طالما أن تفاسير أخرى كثيرة لا تزال بلا نتيجة. ويفسر ذلك أن ديانة جديدة كانت ترافق في كل مكان الإقتصاد الجديد. بحيث يكون أحدهما سر الآخر. وربما أيضاً انتشرت حينها الهندو أوروبية. وهي عائلة اللغات التي لا يمكن لانتشارها أن يُدرك خارج إطار هيبة ثقافية قوية.

الهوامش

1. بالنسبة للنيوليتي في غـانج داره (Smith، 1975). وهـو الأقـدم في زاغـروس الشرقية. والذي يبدو أن بداياته (السوية E) مميزة بوصول بـدو يمارسـون الزراعـة ولا شـك تربية الحيوانات أيضاً (انظر Helmer، 1992). فقد أعيد النظر بتأريخات الكربون المشـع الخاصـة بـه (Hole، 1987؛ Stordeur، 1994). وبعـد أن تم حـذف بعـض التواريـخ الشاذة، فإن التواريخ الأخرى تفضل بالنسبة لمجمل الإسكان، بـأخذ كافـة السـويات معـاً، الفترة الممتدة بين 7800 و 7300 قبل الميلاد، مع تركـيز شـديد للتواريـخ حـول 7500. وفي كل حال ثمة سمات ترجع أصولها إلى الأناضول الجنوبية الشرقية بشكل مؤكد ملاحظة فيه في الصناعة العظمية (Stordeur، المرجـع السـابق). هـذا إذا لم يكـن في العمـارة والصناعـة الحجرية قليلتي التميز جداً بحيث لا يمكن مقارنتهما بشـيء آخر. ونشير أيضاً إلى التمـاثيل الصغـيرة البشـرية الشـكل والـتي علـى شـكل ثـيران والمستلهمة كثـيراً مـن الشـرق الأدنـى (Eygun، 1992، الشكل 2). وأخيراً، فإن وجود عظام كتف محززة (égrénoires)، أشار إليها حديثاً أوزدوغان A. Ozdogan (1995) وعرّفتها ستوردور في غـانج داره، يمكـن أن تعني أن الإعمار الأول لهذا الموقع الأخير لا يرجع إلى ما قبل المرحلة ذات *المخطط الخلـوي cell-plan* في شايونو حيث تظهر هذه الأدوات، أي ليس قبل عـام 8000 قبـل الميـلاد، في تيار الـ PPNB الأوسط في المشرق.

2. بحسب قرية مـهرغار Mehrgahr، الـتي يفـترض كـل مـن جـاريج Jarrige ولوشوفالييه Lechevallier (1980) تأريخها في الألف السابع قبـل المسـيح، أي في الألـف الثامن قبل الميلاد وهو تأريخ غير معاير، على الرغم من متوالية الكربون 14 التي تبدو قليلـة التجانس. وثمة مشكلة على مستوى العينات الفحميـة الخاضعـة للتحليـل. وفي كـل حـال، فليس ثمة ما يوحي تحديداً في مهرغار ولكن لا شيء يستبعد ذلك أيضـاً، أصـلاً مـن الشـرق الأدنى لهذه النولتة عبر زاغروس، وذلك بالنسبة للأسباب النظرية التي سبق أن رأيناها.

3. أي عندما كان الفخار معروفا قبلا في الشرق الأدنى، حتـى وإن كـانت بعـض المجموعات المهاجرة، على صورة بدو من الـ PPNB الأخير المشرقي، تبدو محرومة منه من جهتها.

4. الأولى بالتاريخ هي بالتأكيد انتشار *الهومو إركتوس* *Homo erectus* ثم *الهومو سابيان* *Homo Sapiens* ابتداء من أفريقيا على كامل العالم القديم.

5. تبين مخططات تحليل غبار الطلع القديم palynologiques المقامة بحسب عينات مأخوذة من بحيرة الحولة تناقصا مستمرا للأشجار في المشرق الجنوبي بين 9500 و 6200 قبل الميلاد. لكن ذلك يعبر بالأحرى عن ازدياد كبير في درجات الحرارة منه عن انخفاض في الهطولات (Van Zeist et Bottema، 1982). وليس هناك ما هو مميز في كل حال بالنسبة للفترة المحدودة أكثر التي تهمنا هنا.

6. Cauvin J.، 1992 b.

7. Schaeffer، 1948.

8. Allegre، 1987؛ Helly et Pollino (éd.)، 1984.

9. Sanlaville، 1989.

10. انظر أعلاه 1 و Rognon، 1982.

11. Capart et Capart، 1986.

12. تثبت عينات مأخوذة من الأعماق البحرية، في المتوسط الشرقي، وصول مياه عذبة تنسب إلى طوفانات للبحر الأسود (Capart et Capart، المرجع السابق).

13. Helly، 1991.

14. Capart et Capart، المرجع السابق.

15. Cauvin J.، 1986.

16. Sahlin، 1972.

17. Parrot، 1952.

18. Diodore V 47، ذكره Capart et Capart، المرجع السابق، ص. 61.

19. إن ارتفاع مستوى البحر لا يبدأ في النيوليتي بل على العكس ينتهي فيه. ويعتبر روسينيول ستيك M. Rossignol-Stick وآخرون (Nature، 1982، العدد 295، ص: 105 – 109) أن هذا الفيض لمياه الذوبان ابتداء من البحر الأسود، الذي امتلأ بسرعة أكبر، عبر البوسفور باتجاه المتوسط كان قد انتهى بشكل أساسي نحو 16500 قبل الميلاد. ويبقى أن مستوى المتوسط لم يبلغ مستوى عمق البوسفور (إلى 30 – مترا) إلا حوالي عام 8000 وأن قناة جريان قد ربطت لفترة طويلة بالتالي الإمتدادين المائيين، وكانت هي نفسها

تقع على سويات مختلفة. فكل زلزال أمكن أن يؤثر مثلا على عتبة اسطنبول كـان يضـاعف هذه الفيضانات المائية بشكل عنيف. لكـن هـذا يبقـى في مجـال الفرضيـة وليس لـدى علـم التشكل الأرضي بعد إجابة واضحـة على هـذه المسألة (معلومـات قدمـها لي سـانلافيل P. Sanlaville).

20. لا تفلت تتمة التفسير الذي يقدمه كل من أ. ود. كابار للسـرد التوراتـي مـن هذا الخطر.

21. انظر أعلاه الفصل الأول.

22. بخاصة في غانج داره: انظر Eygun، المصدر المذكور.

23. في المواقع النيوليتية في الألف الثامن في أرمينيـا وجيورجيـا (Chataignier، 1995، ص: 185 – 189).

24. Masson et Sarianidi، 1972 (انظر الشـكل 7 ومواضـع مختلفـة): إنـها الثقافة النيوليتية الأولى المسماة «جيتون Jeitun».

25. Dennell، 1985.

خاتمة

لقد حفظنا على امتداد هذا الكتاب للفظة «نيوليتي» معناها التقليدي منذ غوردون شايلد: وهو المعنى الذي يرتكز معياره الحاسم على إنتاج المعيشة. فبهذا الإنتاج إنما بدأ في الواقع صعود المقدرة البشرية التي ليست حداثتنا سوى ثمرة لها. لقد رفضنا السببية الإقتصادية التي كان يُفسّر انبثاق هذا الإنتاج بها طالما أن التحول كان في البداية ثقافياً، لكننا لم نرفض واقع أن تجلي هذا التحول الثقافي الأهم كان ضبط وتحويل الطبيعة. فـ«النيوليتي» بالتالي بهذا المعنى هو الإنسان المنتج الأول وليس أي إنسان آخر قبله.

«البري» و«المدجّن»

ومع ذلك، فقد بحث حديثاً بعض المؤلفين[1]، قابلين من حيث المبدأ أسبقية الرمزية على الإقتصاد التي اقترحناها في عام 1978 ومستبعدين مثلنا أولوية الأسباب الخارجية (المناخ، الإزدياد السكاني) في ظهور المجتمعات المنتجة، في اتجاه آخر غير اتجاهنا عن الأساس النفسي للنولتة. فبالتلاعب قليلاً على لفظة «تدجين domestication» التي تشتمل في اشتقاقها الأصلي (في اللاتينية) على *domus* أي البيت، قدموا فكرة أن السيطرة على الأنواع لم تكن تعبر في جوهرها عن شيء سوى عن ميل مستمر، ملازم للإنسان، لإنقاص مجال «البري» باستمرار أمام مجال «البيتي»، بحيث أن نموذج ونقطة الإنطلاق هنا هي *home*، الملجأ الذاتي coin-a-soi للمسكن الحضري بما هو أول جزء من المساحة التي مد عليها امبراطوريته. ولهذا بالضبط فإن مواقع في شمال العراق أمكن اعتبارها نيوليتية على الرغم من عدم وجود الزراعة فيها بعد وذلك بسبب تقدمها المعماري فقط.

إن هذه القراءة للتاريخ هامة لكنها لا تكفي هنا. فليس ثمة في الواقع أية حاجة في هذه الحالة لثورة الرموز: فالقرى الأولى يمكن أن ترجع إلى باليوليتي أوروبا الوسطى، ويمكن أن تكون نطوفية في المشرق، بحيث يمكن أن يتبع الباقي دون انقطاع عقائدي: فضبط النبات والحيوان لا يكون عندها سوى طريقة مجازية لتوسيع البيت...

ومع ذلك فقد وجد هذا الإنقطاع. فعقيدة *البيت home*، مأخوذة بمضمونها النفسي الدافع، ليس فيها بذاتها شيء ديناميكي: فهي تشكل مفهوم بعدٍ من الحميمية والإنطواء بالأحرى منه مفهوم توسع وضم للعالم. والحال أننا عندما بحثنا عن معرفة لماذا لم ينشئ قرويون مبكرون جداً أحياناً إنما خارج مناطقنا (المشرقية) إنتاجاً بأنفسهم فقد توصلنا إلى التعرف على عقيدة أخرى جديدة تماماً: وهي ظهور الألوهات التي بتوسيعها للدائرة الحميمية أيقظت في الشرق الأدنى الطاقة الضرورية لنمط جديد من الإنبساط والتوسع. ولهذا السبب بالضبط لم تكن المناطق المحيطية في المشرق، كما لم تكن أوروبا، «نيوليتية» قبل أن تصل إليها هذه العقيدة من الخارج في الوقت نفسه مع التقنيات الجديدة المكتسبة.

تفوق الرمزي

لقد كان هذا الحدث العقلي حاسماً إذن. فقد نتج في قلب المجتمعات الخيامية، التي لم تكن أكثر امتداداً ولا أكثر تعقيداً من مجتمعات القرى النطوفية التي كانت تسبقها. وليس ثمة ما يشير في أصوله إلى وجود ضغط اجتماعي أمكن أن يولده، بحسب المنظور الماركسي، تنافسٌ ما أمام المصادر المتوفرة. وليس ثمة أي نقص أو حاجة من الجانب الطبيعي، وليس ثمة على هذا المستوى أية إشارة إلى أن أفراداً أو مجموعات من الأقليات أمكن لها أن تستحوذ داخل المجتمعات على إنتاج القطاف والصيد إلى حد إفقار الآخرين[2]. ولا تصبح بعض النتائج الإجتماعية والإقتصادية مرئية لدينا في قلب القرى الكبيرة من الأفق PPNA إلا بعد عدة قرون. وهناك، فقد استنتجنا فعلياً اقتصاداً زراعياً، في حين أن «اختراع» الزراعة، بما هي سلوك جديد محمل بقوة بالمعنى إنما دون انعكاس مباشر على الناحية الغذائية، يمكن أن يكون حقاً أقدم من ذلك، أي معاصراً بشكل ما للتحول الديني نفسه، مجلياً عندها في الممارسة ما كنا قد لاحظناه إجمالاً في الفن. فلا يجب إذن البحث

عن علاقة سببية بحصر الكلمة بين الظاهرتين، بل بالأحرى عن «تواصل» بين منحدرين، داخلي وخارجي، للتحول الوحيد نفسه: فالإنقلاب الكمي وحده لاقتصاد الإنتاج وآثاره على بنى المجتمعات كان يتصف بتسلسل زمني من «النتائج» المشتقة من هذا التغير البدئي، العقائدي والتطبيقي في آن واحد[3]. وقد أمكن لصلة مماثلة أن توجد بين التدجين الأول، المنفصل بشكل مدهش، والتطور في عقليات الـ PPNB.

وأخيراً، فإن الإنتشار نفسه للنيوليتي خارج الشرق الأدنى كان يفترض في أصله تزعزعاً نفسانياً ثقافياً غير قابل للإختزال إلى صدمات نفسية طبيعية أو اقتصادية أصابت منطقة بدايته، حتى وإن كانت كوارث محتملة لا نستطيع استبعاد إمكانية وقوعها قد أمكن لها أن تسهم في أوقات معينة في إعادة لمّ المجتمعات حول قيمها الثقافية وبذلك تشجيع نوع من الهجرة لا تنفصل عن روح الجهاد الديني. لكن الإنتشار النيوليتي ليس في جوهره استجابة ظرفية لحالة أزمة ما. بل هو ظاهرة طويلة الأمد امتدت على عدة آلاف من السنين، بحيث أن تنوعها المدهش لا يبدو متجانساً إلا بالإستناد إلى «منظومة رمزية» تسودها.

التغيرات الإدراكية والديناميكية الإجتماعية

في كافة هذه الحالات فإن كل شيء يتم إذن كما لو كانت «الديانة»، بعيداً عن كونها لاعقلانية صرفة، قد طوّرت في البداية على مستوى غير نفعي بشكل مباشر نوعاً من «المنطق التجاوزي» يُطبّق فيما بعد على الواقع، بطبعه بمعاني جديدة في منظومة صلات مجدّدة. إن هذا الجانب الإدراكي لثورة الرموز هو جانب جوهري. فبه إنما تنتظم النظرية العامة التي يصوغها الإنسان لنفسه عن العالم وبالنتيجة للدور الذي مُنح له هو نفسه. فهذه السلوكات الجديدة تعكس عندها قبل كل شيء انقلابات محددة في منظومة تمثيلاته، والتي يسهل ملاحظتها في الفن والشعائر.

وعند هذا المرحلة التاريخية، لم يكن لمنظومة التمثيلات هذه أية صلة مع فكر تصوري واستدلالي. فكما نعلم تستند «الأشكال الرمزية» (إرنست كاسيرر Ernest Cassirer)، كما حُوّلت إلى قوانين وإلى أشكال اجتماعية من خلال الأسطورة والدين، على

وضوح مباشر وحدسي، إنما الذي لا يقل امتلاكاً لمنطقه الداخلي وبخاصة لمقدرته على تنظيم بعض السلوكات البشرية الجوهرية. وهكذا فقد شعرنا فعلاً فيما يخص PPNB المشرق أن الإنبثاق المتزامن للعمارة المستطيلة والتدجين والتسليح الخاص بالإستعراض، مع التوسعية المؤكدة للثقافة في الوقت نفسه. كانا يعبران حقاً عن البنية المتجانسة نفسها للفكر التي في «ذكورية» رموزهما الأكثر وضوحاً المعبر عنها من خلال التصويرات والتماثيل.

لم يكن للنيوليتيين أن يشرحوا ولا أن يعقلنوا مثلنا هذه الوحدة العميقة، وذلك تحديداً لأن الرمز يكون مشبعاً جداً بالمعنى وساحقاً جداً بالنسبة للذكاء لكي يكون من السهل التفكير به بشكل صريح[4]. فنحن وحدنا، مع وجود المسافة الضرورية، نجد أهمية لتفسير هذه الصرامة البنيوية، التي كانت حينها مدركة قبل كل شيء ومعاشة واقعياً على كافة المستويات. ولكن إذا كان «تحليل الرمز logo-analyse»، إذا ما تكلمنا مثل ميشيل سيرّ Michel Serres، يسمح للمثقف الحالي أن يثبت، تحت الرمزية الفظة، صلات صريحة سهلة البلوغ للعقل الصرف[5]، فإنما بـ «الدين» كان يتعلق الأمر حينها: فالجانب التفسيري مهم فيه لكنه ليس الجانب الوحيد، طالما أنه يشتمل في وقت واحد على ما تعلمنا على تمييزه على أنه ناتج عن الدائرة الشعورية والأخلاقية. والحال أننا لم ننفك نؤكد على القيمة «الفعالة» للصور الجديدة وتأثيرها الحاسم على التغيرات الأخرى.

وفي الواقع، إذا كانت الديانة تمثل حقاً، بحسب فكرة موروثة من روسو Rousseau ومن هيغل Hegel، «استلاباً» للموضوع البشري باسم الطبيعة الإسقاطية للشخصيات الإلهية التي تظهر لوعيه، فإن هذا الإستلاب لن يكون أبداً الإنتزاع المؤسف لملكية الذات، الوجه المقابل لبؤس ما والملجأ الإستيهامي في الوهم، «أفيون الشعب» و«الرجاء الأخير للمخلوق المكبل بالشقاء»، بحسب الصور القوية التي اقترحها ماركس في نص مشهور[6]. ويمكن أن يكون تطبيق هذا النموذج على ما قبل التاريخ يعود إلى أخذ النتيجة على أنها السبب: فشعور «البؤس»، أو بدقة أكبر المحدودية، الذي يرافق الفكر الديني الذي ظهر في النيوليتي يبدو أنه أظهر بالأحرى البنى العقلية الجديدة بدلاً من أن يولدها. فالإستلاب، بما هو توسع داخلي وصفناه، لم يُعِد فقط تنظيم الحقل الإدراكي، بل إنه على غرار المسريين اللذين نباعد بينهما محرضين في وقت واحد النور والحرارة من خلال التيار الذي يستمر في وصلهما عن بعد، أثاره وجعله فعالاً في آن واحد، بتحريضه مزيداً من التأثير على الواقع الخارجي وبتطويره للقدرات البشرية على تنظيم البيئة والمجتمع. وفي

الوقت نفسه كانت تولد الرغبة الإنفعالية بكسر التوازنات القديمة. ونتعرف هنا فعلاً، على مستوى أكبر، على هذه «الحرارة الثقافية» التي تميز، بحسب إدغار موران Edgar Morin، «فقاعات الثقافة» حيث تولد وتتعثر الإختراعات، بل وحتى «الحالة السرانية» التي يُشبَّه بها الإختراع نفسه بحسب ألبرت إينشتاين Albert Einstein.

إن ثورة الرموز، التي ظهرت في مناطق النفسانية الجماعية حيث الإنسان واحد، وحيث الفكرة والإستعداد والفعل لم ينفصلوا بعد بشكل مجرد، تصبح بالتالي هي أيضاً ثورة في الإفعال. وحدها ربما نتائج التحليل النفسي يمكنها اليوم أن تساعدنا على فهم، بشكل سيء جداً ووفق نمط فرداني، الروابط التي يمكن أن توجد بين الفكر الرمزي من جهة، وأعالي ومنخفضات الطاقة النفسية من الجهة الأخرى، وأخيراً السلوك الفعلي الذي يتبع: ويبدو هذا السلوك «لاعقلياً» عندما لا يكون مصدره واعياً تماماً ولا يستطيع أن يفسر نفسه إلا بجهد التحليل. وعلى المستوى الجماعي تبدو الديانات، على الأقل في مرحلة إعدادها، تتحرك ضمن منطقة الغريزة نفسها للكائن، ذات الوحدة الديناميكية جداً إنما عند هذه المرحلة العصية تقريباً على المنطق. ومع ذلك فلن يمكننا أن ننفي دورها التاريخي المؤثر في أصل التحولات الحضارية الكبرى.

ما قبل التاريخ ونهاية المادية

هذه الطريقة في الرؤية ليست جديدة: فهي تشق طريقها تدرجياً في الغرب منذ أكثر من قرن، منذ أن أعادت عودة «الرمزية» عبر الشعر والفن وعلم النفس شيئاً فشيئاً التساؤل حول المادية الساذجة للعلم وإيجابيتها التقليصية وفتحت الطريق لتصورات أقل ضيقاً. وقد حذر إبستمولوجيون مثل كارل بوبر Karl Popper أو لودفيغ ويتغنشتاين Ludwig Wittgenstein هذه «الإيديولوجية» للحقيقة العلمية التي كان نيتشه Nietzsche قد سماها «أسطورة الغرب العقلية»، حيث لا تؤخذ بعين الإعتبار العقائد التحتية التي هي أساسها والتي هي أقل عقلانية مما يقال[7]. لم يكن على المؤرخين أن يهملوا هذه التحذيرات: فقد أصبحت مندمجة في مسيرة العلوم الشهيرة بأنها «صلبة» (الفيزيائية - الكيميائية، البيولوجية) التي تعلمت أن تجعل أهدافها ونتائجها نسبية. ويمكننا أن نقبل

مثل هنري أتلان[8] Henri Atlan أنه توجد عدة مسيرات ممكنة في المعرفة: ويمكن ويجب على إحداها، بهدف الوضوح والفعالية، أن تعتمد تقليصية منهجية لا مناص منها إنما عليها ألا تشيد من بعد أوهاماً حول حظوظها ببلوغ حقيقة شاملة ونهائية، أما الأخرى الأكثر مباشرة وشمولاً فتُحفظ للبعض من خلال تأمل الفن أو السرانية Mystique. ولكن يمكننا أيضاً أن نتساءل إذا لم يكن من الممكن، عبر «علم إنساني» مثل علم الآثار، اعتماداً على وقائع موصوفة وفق المنهج الإيجابي والنقدي المشترك بين المناهج العلمية، إنما المأخوذ بعد ذلك في منظور متحرر من كل تقليصية، تأسيس نظرية غير مادية للتطور البشري.

في *الإيديولوجية الألمانية*، حيث كان ماركس وإنجلز يؤسسان المادية التاريخية، كان بإمكانهما أن يبلغا عن ما قبل التاريخ بشكل دقيق جداً على أنه المجال بامتياز حيث «تتأسس الجدلية التاريخية بشكل طبيعي جداً [...] لأنها تظن نفسها بمنأى من "الفعل المفاجئ" ولأنها أيضاً تطلق العنان لفطرتها الجدلية»[9]، في حين أن المادية التاريخية كما نعرف «لا تفسر الممارسة تبعاً للفكرة. فهي تفسر تشكل الأفكار تبعاً للممارسة المادية[10]». ودون أن نبخس التعقيد الدياليكتيكي لماركس، حيث غالباً ما يشار إلى المفعول الرجعي للأفكار على البنى التحتية المادية، يبقى أنه لم يستطع الإبلاغ (وكم كانوا كثر من بعده...) باسم «مثالي» عن كل من كان يبدو أنه يشك بالدور الحاسم للتغيرات المادية، إلا لأن الأمر كان يتعلق هنا بنموذج خاص بعلم عصره.

ويمكننا في الواقع أن نستخلص من ذلك أننا لن يمكننا أن نترك لفلسفة «بحتة»، غير مؤيدة بشكل كاف بالملاحظات الموضوعية، أن تحل مشاكل تطورنا؛ بل مع تطور الإبستمولوجيا العلمية ومنهج ما قبل التاريخ الذي حذى حذوها، فإنه ليصدمنا أن نستنتج أن «الوقائع المفاجئة» للطبقاتية هي التي تسهم في جعل الوضع المادي في هذا المجال مزعزعاً، وذلك بقلب الترتيب الزمني للأحداث على مقطع من التاريخ البشري أصبح معروفاً بشكل أفضل.

الهوامش

1. Hodder، 1990؛ Watkins، 1992.

2. كان يمكن أن تطرح المسألة بالنسبة للصوامع النطوفية الأولى في عين ملاحة، وذلك بقدر ما أمكن أن نبين أنه تحديداً في سوية ظهور بعض المخزونات الغذائية إنما يظهر، في المجتمعات الأحدث، اللاتساوي الإجتماعي (Testart، 1982). لكن وجود بنى تخزين لا يقتضي بذاته أبداً استخدامها بشكل غير متعادل، وهو ما لا يمكن بالمقابل استنتاجه في عين ملاحة.

3. يجب أن نقارب ذلك من المظهر الذي يعطي شكل الشعائر بقوة للتقنيات الجديدة بشكل عام، وذلك على مستوى اختراعها. انظر Cauvin J.، 1978، ص: 136 – 138.

4. Serres، 1969، ص: 26.

5. المرجع السابق نفسه، ص: 34.

6. ماركس، 1843، «مساهمة في نقد فلسفة القانون لهيغل» في Œuvres philosophiques, Editions Champ Libre, 1981, p. 59.

7. انظر Morin، 1986. إن الإعتقاد بـ«المادة» هو أحدها، في حين أن الفيزيائيين يجدون صعوبة حالياً في تعريفها...

8. Atlan، 1986.

9. Marx et Engels, 1982, *L'Idéologie allmande*, Paris, Editions sociales, p. 87. إن هذه الفطرة الجدلية غير المعدلة بمعطيات واقعية كافية يبدو أنها ظهرت في كل حال بشكل واسع في «*أصول العائلة*»، وهو كتاب لإنجلز نفسه، وذلك ببساطة لأن الماضي ما قبل التاريخي كان في ذلك الحين غير معروف بشكل جيد.

10. المصدر السابق، ص: 103.

ملحق 1999

ملحق خاص من المؤلف بالطبعة العربية

منذ طباعة هذا المؤلف بالفرنسية للمرة الأولى في عام 1992 والإضافات التي أدرجت في الطبعة الفرنسية التي ظهرت في عام 1997، تتابعت الأبحاث في الشرق الأدنى كما ودراسات المختبر والنقاشات النظرية[1]. وقد ظهرت بعض المؤلفات الجديدة الهامة التي أدرجت في المراجع العامة لهذه الطبعة العربية.

ولا يبدو لنا ثمة ما يتطلب تعديل التوجهات الأساسية في المؤلف، لكن تدقيقات مفيدة أصبحت متوفرة الآن، مثبتة بعض الفرضيات، بل وتقود أحياناً إلى تعديلها بعض الشيء.

الوسط الطبيعي

خُصِّص عدد خاص من مجلة *الشرق القديم* *Paléorient*[2] لـ «*البيئات القديمة وعلاقاتها مع المجتمعات البشرية في الشرق الأدنى والأوسط بين عامي 20000 قبل الآن و 6000 قبل الآن*». وهو يشتمل جغرافياً وزمنياً على حدود هذا الكتاب. ونجد فيه بالنسبة للمشرق الجنوبي وسورية والأناضول تأليفات مفيدة ونقاشات تتعلق بالتطور المناخي المتأثر بالإعمار البشري لهذه الأراضي. وسنعتمد بشكل خاص على التأليفات العامة لسانلافيل[3] Sanlaville وواتكينز[4] Watkins.

لقد أصبح من الممكن أن نحدد بشكل أفضل في فجر النيوليتي في المشرق الشمالي فترة الجفاف المناخي التي رافقت النطوفي الحديث ـ النهائي والخيمي، وذلك اعتماداً على معطيات الـ C14 في أبو هريرة ودراسة رواتل V. Roitel لفحم الخشب في هذا الموقع. فمن جهة لا يزداد هذا الجفاف المسمى «الدرياس Dryas الحديث»، مع اختفاء الزروع البرية على هذا الإرتفاع، إلا نحو 10600 قبل المسيح المعاير (وهو أكثر تحديداً من التاريخ 11000 قبل المسيح المعتمد بشكل عام أكثر)، ومن جهة أخرى فقد ظل خفيفاً نسبياً، طالما أن

الأشجار التي اختفت اليوم مثل اللوز والفستق البري كانت لا تزال موجودة على الرغم من أنها أقل عدداً من السابق في السهوب حول أبو هريرة. ولا يمكن اعتبار هذا المناخ المعروف كمناخ معادي. إنما في الواقع المشابه جداً لمناخنا. على أنه لعب دوراً مسبباً هاماً في إطلاق الثورة النيوليتية. ويبدو على أبعد تقدير أنه طرد السكان من الأراضي التي أصبحت في ذلك الوقت صحراوية. كما ظلت حتى اليوم خارج الواحات: ومثال ذلك واحة الكوم في سورية[5] أو سيناء في المشرق الجنوبي[6].

الإقتصاد الزراعي الأول في الـ PPNA

تبقى المواقع الـ PPNA (السلطانية) نادرة في المشرق الجنوبي. وكان تنقيب نتيف هغدود قد نُشر كاملاً[7].

وفي المشرق الشمالي يستمر تنقيب موقع جرف الأحمر المريبطي. وقد نُشرت نتائجه في تقارير عديدة[8]. وهذه الفترة الإنتقالية بين العمارات الدائرية والمستطيلة واضحة فيه بشكل أفضل بكثير من المواقع الأخرى (الشكل 69): إذ تتجاور على السويات نفسها خلايا دائرية بسيطة. تكون أحياناً متلاصقة مثنى أو ثلاثاً لتشكل مسكناً واحداً. وبيوت دائرية كبيرة ذات تقسيمات داخلية مماثلة للبيت XLVII في المريبط (راجع الشكل 15). وبيوت مستطيلة ذات زوايا مستديرة. وأخيراً بيوت مستطيلة فعلاً مقسمة أو غير مقسمة. تكون أحياناً ذات دعائم بارزة وباحة أمامية. إن إنشاء الأبنية على مصاطب متدرجة بالإرتفاع يعطي المجال من جهة أخرى لتدعيمات كاشفة بين الجدران الساندة للمصاطب نفسها من جهة، وبيوت كثيرة من جهة أخرى: ويثبت ذلك وجود تنظيم مبكر وبناء جماعي للقرية يتعلق في آن واحد بمساكن كثيرة، ويثبت ذلك السمة التعاونية الرفيعة للإنجازات المعمارية والتي سبق أن قابلناها في أريحا.

ويبدو أن الدراسة التي لا تزال جارية لنباتات جرف الأحمر[9] تثبت أيضاً وجود زراعة ما قبل تدجينية في المريبطي، إنما مركزة هنا على الشعير وليس على برّ القفقاس. فالشعير أفضل تأقلماً في الواقع مع البيئة الخاصة لهذه القرية، وهي عبارة عن أرض جبلية وفقيرة. وبالمثل، بالنسبة للصيد، فإن الإزدياد الكبير للأرخص الملاحظ في المريبط خلال الفترة نفسها ليس مثبتاً في جرف الأحمر، حيث نجد الأرخص إنما حيث الأنواع الأكثر

صيداً هي الخيليات والغزلان. إن ذلك كله يجعل استنتاجاتنا السابقة حول النظام الغذائي للمريبطيين نسبية قليلاً. ويبدو أن اختيار الأنواع المستثمَرة في الزراعة الأولى كما في الصيد ظل في الـ PPNA متنوعاً جداً أيضاً بحسب المواقع وتابعاً للبيئات الخاصة. ولم تصبح الزراعة وتربية الماشية أكثر تجانساً إلا في الـ PPNB الأوسط. أما بالنسبة لهذه المرحلة فلا يزال الأمر يتعلق بمرحلة إبداع كثيف، كانت تتعايش فيها الحلول المعمارية والستراتيجيات الغذائية في تنوع مدهش.

مسألة توسع المريبطي إلى الأناضول الشرقية: معطيات جديدة

كنا قد واجهنا إمكانية أن يكون المريبطي قد بلغ مرتفعات طوروس في الأناضول الجنوبية الشرقية منذ نهاية الـ PPNA، أي حوالي 8500 قبل الآن. وتبدو هذه الفرضية مثبتة الآن إثر عملية سبر قام بها شميدت K. Shmidt في قاعدة تل الـPPNB في غوبكلي Gobekli، حيث تم جمع صناعة من الواضح أنها مريبطية[10]. وفي تشايونو نفسها تبين دراسة لكانفا[11] I. Caneva حول الصناعة الحجرية للمرحلة الإبتدائية ذات البيوت الدائرية، وذلك في مجموعة والحق يقال قليلة الدلالة، وجود بعض القرابة مع المريبطي. وفي كل حال، يبدو وبشكل أكثر منه بالنسبة لـ «PPNB طوروس» الذي سيأتي لاحقاً، أن ثمة فيه تجميعاً للعناصر الآتية من الفرات الأوسط مع أساس من أصل محلي. ولكن لا زلنا لا نملك بعد الإثبات على أن هذا «المريبطي» الأناضولي كان نيوليتياً منذ ذلك الوقت بالمعنى الذي نفهم به هذا المصطلح، أي أنه كان يحمل مذاك نشاطاً زراعياً.

ويشير تريفور واتكينز محقاً[12] أنه وُجدت في الشرق الأدنى والأوسط قرى حضرية في مواضع أخرى غير «الممر المشرقي» منذ الألف العاشر قبل الآن وحتى قبل ذلك: وهو يذكر قرميز داره وملفعات في شمال العراق، وحالان شامي في جنوب شرق تركيا. ولا شك أن بعض «الفجوات» في الخارطة يمكن أن ترجع فعلاً إلى عدم كفاية الأبحاث: ففي المشرق نفسه لم تُعرف أهمية النطوفي الفراتي إلا منذ فترة قصيرة. يبقى أن النعت الإتفاقي لقرى بداية الألف التاسع كقرى «نيوليتية» يتطلب بالنسبة لنا وجوداً فعلياً لإنتاج المعيشة. وكنا قد وضحنا اختلاف رأينا مع واتكينز حول هذه النقطة، وهو اختلاف يعود ببساطة إلى تعريف مختلف للمصطلحات المستخدمة[13]. ولكنْ فكرة أنه يمكن أن توجد قرى «نيوليتية»

هامة كانت لا تزال تحيا فقط على الصيد والقطاف استعيدت حديثاً بالنسبة لعصور أحدث أيضاً فيما يخص الأناضول[14]. ويعتبر محمد أوزدوغان Mehemt Ozdogan أنه لا توجد في تشايونو نفسها زراعة حقيقية قبل المرحلة ذات *المخطط الخلوي*. حوالي 8000 قبل الآن، أي ليس قبل الـ PPNB الأوسط. عندما تضاعفت الزروع المدجّنة. تبقى بالتالي قرية تشايونو الرائعة خلال المرحلة ذات *المخطط الشبكي*. في نهاية الألف التاسع، لا تزال مؤسسة وفقه على اقتصاد من الصيد والقطاف. وذلك نظراً للكمية الكبيرة من «الحبوب البرية wild pulses» التي زودتنا بها هذه المرحلة. إن أهمية هذه البقول في كفر هويوك نفسها. حيث توجد مع ذلك الزروع المدجنة شكلياً منذ القاعدة. تبدو أنها تثبت هذا التشخيص العام لدور ثانوي تماماً للزراعة. وذلك في الوقت نفسه الذي توجد فيه. ولم يمنع ذلك كله أوزدوغان من اعتبار مخطط تشايونو *الشبكي* كمخطط «نيوليتي» تماماً، بشرط ضرورة «مراجعة للمفهوم» تتفق تماماً مع تعريف واتكينز.

وبالنسبة لمواقع طوروس. يكمن اختلافنا بشكل خاص حول منهجية تتعلق بعلم النبات القديم. فقد اعتبر فان زيست W. Van Zeist بالنسبة للمخطط الشبكي لتشايونو[15] تماماً كما مولان D. de Moulin بالنسبة لقاعدة كفر[16]، وذلك حتى بلا برهان شكلاني، أن هذه البقول كانت على الأرجح قد زُرعت. ولكن مفهوم الزراعة ما قبل التدجينية لم يؤخذ بعد بعين الإعتبار من قبل علماء ما قبل التاريخ العاملين في الأناضول. ولا يمكن الوصول إلى تأكيدات أكثر مباشرة في هذا المجال إلا من خلال مناهج تحليل أخرى في مجال النبات القديم. مثل تلك التي قام بها هيلمان وويلكوكس، والتي ترتكز على دراسة النباتات الطفيلية المرافقة للأنواع المغذية السائدة. إنها هي التي سمحت بتأكيد أن المريبطي والـ PPNB القديم في الفرات الأوسط كانا زراعيين (راجع الفصل الخامس) فيما يتعلق بالزروع حتى من غير «تدجين». إن الممارسات الزراعية في الأناضول الشرقية تبدو لنا أنها انطلقت فقط بالجلبان والعدس والبيقة بالأحرى منها عبر الزروع. وكان يمكن أن تكون هذه الزراعة قد بدأت منذ المرحلة ذات البيت الدائري في تشايونو وقاعدة غوبليك، أي منذ الـ PPNA، لكن الأمر يتعلق بالنسبة للوقت الحاضر بإمكانية أكثر منه ببراهين نباتية حصراً، وذلك بسبب نقص المناهج الملائمة[17]

وقد بيّنا أن انبثاق إنتـاج المعيشة في بـلاد المشـرق كـان يتجـذر في تحـول *عقلـي* ظهرت أولى آثاره منذ الخيامي. ومن جهة أخرى فنحن لم نسـتبعد وجـود خـبرات زراعيـة أولى منذ الخيامي كانت لا تزال إلى حد كبير معزولة ومحدودة بحيث أنها تفلت منا حتـى اللحظة الحاضرة: ومن هنا خيارنا في هذا الكتاب أن نعتبر الخيامي على أنه المرحلـة الأولى من النولتة. ومع ذلك، وبما أن هذه الأخيرة هي عبارة عن صـيرورة، فـإن كـل مرحلـة مـن صيرورة حتى الأولى منها لا تنبثق من العدم وتجد هيّ نفسـها أصولهـا في ظـاهرات سبقتها. ولهذا فقد اعتبرنا نحن أنفسنا في عمل سابق[18] أن بإمكاننا التعرف علـى هـذه المرحلة الأولى من النولتة في القرى الحضرية ما قبل الزراعية النطوفية نفسها، على الرغم مـن أنـها كـانت قد شكلت، من خلال تجذيرهـا في موقـع محـدد لمجموعـات بشـرية أكـبر مـن التجمعـات السابقة، الوسط النفسي الإجتماعي الملائم لانبثاق إيديولوجية جديدة. ولم تكن وجهة النظر هذه بالتالي بعيدة جداً عن وجهة نظر واتكينز الحاليـة، لكننـا نسـتمر علـى مسـتوى لفظـي ببساطة في الإحتفاظ بكلمة «نيوليـتي» الـتي تشـير إلى حالـة وليـس إلى صـيروة للمجتمعـات المنتجة، بما فيها المجتمعات التي ستصبح في الألف الثـامن قبـل الآن متحركـة مـن جديـد وستسمح عندها بالحديث عن «بداوة نيوليتية»...

فلا يمكن اعتبار الأناضول الشرقية كجزء من المنطقة البدئية لانطلاق الزراعة على حد سواء مع الممر المشرقي كما كـان يعتقـد بريـدوود إلا إذا تم إثبـات هـذه الزراعـة المبكـرة فيها. وتتوافق عندها هذه الإنطلاقة في الأناضول الشرقية مـع هجمـة المريبطـي والـ PPNB القديم في طوروس: فسيكون من الصعب ألا نرى في ذلك أثراً لنولتـة ثانويـة موازيـة لانتشـار هذا المُركّب الثقافي الجنوبي الذي، لا ننسين ذلك، تشكّل تدريجياً في المشرق الشـمالي[19]، في حين أنه دخيل على جنوب شرق الأناضول.

الـ PPNB القديم والأوسط

منذ عام 1966 استمر اكتشاف مواقع من عصـر الـ PPNB في كـامل المشـرق وفي الأناضول الشرقية. ويتم التأكد من أن تطور الأناضول كـان في نهايـة الألـف التاسـع وبدايـة الألف الثـامن قبـل الآن متميزاً بشـكل خـاص. وتتمّـم بشـكل رائـع التنقيبـات الجاريـة في غوبليك[20] معطيات تشايونو وكفر هويوك ونفالي تشوري.

كان ثمة في الأناضول الوسطى شك حول الدور الزراعي في أسيكلي (راجع الفصل التاسع). وقد حسمت هذا الشك تحليلات للنباتات القديمة أكثر منهجية[21]. فالزروع المزروعة غزيرة ومتنوعة: فنجد برّ القفقاس والقمح النشوي المدجنين وقمحاً عارياً وشعيراً بصفين، كما وبقوليات (كرسنّة وعدس وبعض الجلبان) مزروعة. وتشكل ثمار الميس المقطوفة مستودعات غزيرة إنما محصورة. وتبدو تربية الماشية غائبة الأمر الذي يثبت تأخرها النسبي في الأناضول بالنسبة للمشرق. وبفضل الزراعة تظهر أسيكلي نيوليتية تماماً، الأمر الذي يتوافق مع الأبعاد والإعداد المعماري الرفيع للقرية. ومع ذلك تستمر الشكوك فيما يتعلق بالأصل الدقيق لصناعتها الحجرية الأصيلة التي يبدو أن لا شيء حتى الآن كان قد سبقها في الموقع: وهي تظل متميزة تماماً عن الصناعة الحجرية للـ PPNB المشرقي على الرغم من بعض التقاربات التقنية (النوى سفينية الشكل).

ومع ذلك، إن لم يجدد أي اكتشاف هام مؤخراً معارفنا حول الـ PPNB في المشرق الجنوبي، فإن متابعة أعمال الإنقاذ على الفرات تعطي الأثر نفسه في سوريا الشمالية كما وفي الأناضول: الكشف باستمرار عن معطيات رائعة وغير متوقعة.

يمكن لقرية جعدة[22] من الـ PPNB القديم، على مستوى العمارة، أن تكون متراجعة بالنسبة للمريبطي: إنها عبارة عن بيوت صغيرة مستطيلة متباعدة عن بعضها مع وجود آثار بينها لمساكن خفيفة متوضعة مباشرة على الأرض أو معزولة عن الأرض بواسطة بنية مشيدة وفق المخطط الشبكي. وتثبت فعلاً الصناعة، الوسيطة بين المريبطي والـ PPNB الأوسط، الإعداد التدريجي لأدوات الـ PPNB في سوريا الشمالية. كذلك ثمة زراعة ما قبل تدجينية مثبتة فيها أيضاً: ويسيطر فيها الشعير[23]. لكن التنقيب يتتابع: وربما يتم العثور على تشكيلات معمارية أخرى.

لكن الوثائق الأكثر دلالة وتعبيراً[24] على إعمار مستمر منذ الـ PPNB الأوسط، نحو 8000 قبل الآن وحتى الألف السادس جاءت من تل حالولا حيث بلغ الإعمار 7 هكتارات. إن بيوت الـ PPNB الأوسط مستطيلة كلها ومتعددة الخلايا وفق مخطط أصبح منذ ذلك الحين فصاعداً موحداً جداً. والجدران والأرضيات مليسة بالكلس. وإلى جانبها ثمة بعض البنى ذات مخطط شبكي تذكّر في السويات الأقدم ببنى جعدة: وكانت تشتمل بلا شك على سطيحات للتجفيف. وأخيراً توجد أهراءات ذات محيط دائري من التراب المدكوك داخل وخارج البيوت على حد سواء.

وثمة بشكل خاص تحديدات هامة فيها تتعلق بالزراعة[25]: إذ توجد زروع مدجنة منذ ذلك الحين (شعير وقمح نشوي وقمح عاري) منذ قاعدة حالولا كما وكتان. والحال أننا نعرف أن القمح البري المحلي. المقطوف أو المزروع. في وادي الفرات الأوسط كان برّ القفقاس. فلم يمكن إذن للقمح النشوي إلا أن يأتي من الخارج مدجناً. ومثلما الماعز المدجن كان موجوداً في حالولا منذ 8000 قبل الآن. كذلك يظهر الخروف المدجَّن بعده مباشرة والثور المدجن في نهاية الـ PPNB الأوسط نحو 7700 قبل الآن. والحال أنه لم يكن قد وُجد ماعز بري قبلاً في شمال سورية. فقد أتى إلى هنا أيضاً من الخارج مدجناً، في حالولا كما في أبو هريرة. ويفترض علماء الطبيعة أصلاً إلى الشمال أكثر بالنسبة لهذه التدجينات: إنها على الأرجح تلال الجزيرة الشمالية أو بدايات سفوح جبال طوروس الشرقية[26]. فمن الممكن بالتالي أن المنطقة الأصلية لتدجين أنواع كثيرة تقع في أراضي جنوب تركيا لم يتم تحريها حتى الآن إلا قليلاً جداً.

يزيد ذلك من انطباعنا أنه نحو 8000 قبل الآن انتهى الإكتفاء الذاتي النسبي للمجتمعات القروية التي كانت تستطيع في الألف التاسع القيام باختبارات متنوعة، في المنطقة نفسها وعلى مواقع متقاربة من بعضها بعضاً. ومن باب أولى كان يمكننا أن نشهد، من منطقة إلى أخرى، الإنبثاق المميز بشكل واضح للثقافات الثلاث التي كانت السلطاني والأسودي والمريبطي: ولهذا السبب اكتسب التعبير العام «PPNA» شيئاً فشيئاً معنى أكثر علاقة بالتسلسل الزمني منه بالمعنى الثقافي. وعلى العكس يظهر ميل إلى التبسيط وإلى نوع من التوحيد الثقافي في الـ PPNB الأوسط، بالنسبة للأنواع المدجَّنة المستثمرة بالزراعة وتربية الماشية كما وبالقدر نفسه في مجال العمارة والتقنية: وعلى الرغم من تفردات محلية صريحة يمكن فعلاً للـ PPNB حالياً أن يُعتبر مثل ثقافة وحيدة للشرق الأدنى، بحيث تُترك الأناضول الشرقية جانباً.

معطيات رمزية جديدة حول الـ PPNB القديم والأوسط في الأناضول

إن غوبليك تبه هي الأكثر تميزاً في هذا المجال. ونرى فيها ليس فقط تَثَبُّت السمة الكبيرة للفن المقدس الأناضولي، بل وقد تم العثور مع استمرار التنقيب[27] على أعمدة كبيرة من الحجر على شكل حرف T بارتفاع ثلاثة أمتار (الشكل 70): فهي تحمل تمثيلات حيوانية منحوتة بشكل بارز تغني مجموعة نقوشية موروثة بشكل رئيسي من مريبطي جرف

الأحمر: ونتعرف فيها على ثيران وعلى أسد وعلى أحد أنواع الكلبيات، بل وأيضاً على طير من طويلات الساق لم نكن قد صادفناه قبلاً في الشرق الأدنى خلال هذه الفترة. فالمفردات الرمزية تكتمل إذن شيئاً فشيئاً. وذلك إلى ما وراء التمثيلات المسيطرة بشكل عام للأشكال البشرية أو الثورية. إن عملاً جارياً سيحاول استخلاص معناه في إطار الممكن.

نولتة قبرص

كان الإكتشاف الحديث لشيلوروكامبوس قد سمح لنا عام 1997 بإرجاع نولتة جزيرة قبرص بضعة قرون ابتداء من الشرق الأدنى. ونحن نجعلها خلال فترة «الهجرة الكبيرة» حوالي 7500 قبل الآن. وذلك برفض جزء من التأريخات بالكربون 14 التي زودنا بها الموقع على أنها متأخرة جداً وسابقة لهذا الحد: وكان سبب ذلك أن الثور المدجّن، الموجود في هذه المستعمرة، لم يكن أبداً أقدم من 7500 قبل الآن على القارة نفسها. والحال أن الإكتشافات الحديثة في حالولا، المذكورة أعلاه، تغير قليلاً معطيات المسألة: فالثور المدجّن يظهر فيها أبكر من أي مكان آخر منذ الـ PPNB الأوسط، نحو 7700 قبل الآن. إن المؤشرات التقنية التي كنا قد كشفناها بالمقابل لهجرة منطلقة من سوريا الشمالية تجعل من المرجح جداً من الآن فصاعداً حصول إعمار لقبرص معاصر تقريباً للسويات الدنيا من حالولا، أي معاصر أيضاً لتوسع PPNB سوريا الشمالية باتجاه المشرق الجنوبي.

نضيف أنه خلال جلسة العمل الثالثة حول الصناعات الحجرية السفينية الشكل النيوليتية، التي عقدت في تشرين الثاني من عام 1998 في فينيسيا، بيّنت مساهمة من مكارتني C. Mc Cartney أن الموقع القبرصي تنتا Tenta كان يعطي مثل شيلوروكامبوس عناصر ملمّعة ذات قفا محدب ورؤوس سهام ذات قرابة مع الـ PPNB، وكلاهما موجود في حالولا: ويرفع ذلك عدد المواقع النيوليتية «البدئية» في قبرص إلى اثنين في بداية الألف الثامن قبل الآن.

وصول الـ PPNB الحديث إلى الأناضول المركزية

لقد رأينا أن قرية أسيكلي في كبادوقيا خلال العصر الموافق للـ PPNB الأوسط لا تبدو أبداً مرتبطة بهذه الثقافة. بل على العكس، كان الساكنون الأوائل في نهاية الألف الثامن لشاتال حويوك يبدون متأثرين بشدة بموروث الـ PPNB. وقد كشفت حالياً تحريات

حديثة في كبادوقيا عن مناجم أثرية متوسطة زمنياً. وهي تؤرخ وصول الـ PPNB إلى الأناضول الوسطى في مرحلته الحديثة، أي مباشرة بعد أسيكلي. والأمر يتعلق بشكل خاص بقرية موسولار مفكي Musular Mevkii التي يدرسها حالياً أوزباساران M.Osbasaran. وعلى عكس الأناضول الشرقية ليس ثمة فيها أي تقصيب بالضغط، لكن الأدوات ونمطية السهام تقلد تماماً، بمادة الأوبسيديان، صناعة الصوان في الـ PPNB الحديث في المشرق. ويبدو أن ذلك يثبت تأثيراً مباشراً للمشرق الغربي نحو 7500 قبل الآن، وذلك دون المرور عبر الأناضول الشرقية.

الجديد حول تجارة الأوبسيديان

لقد تم تحقيق تقدم هام في معرفة الطرق ما قبل التاريخية التي سلكها الأوبسيديان. ويسمح لنا ذلك بأن نربط بدقة أكبر المواقع الأثرية في الشرق الأدنى حيث وُجد الأوبسيديان مع المناجم الأناضولية التي زودتها بها[29]. وقد رافقت تحليلات فيزيائية كيميائية منهجية بشكل خاص التحريات التي تمت على براكين كبادوقيا، الأمر الذي كشف عن مناجم جديدة يمثل فيها الأوبسيديان تركيبات كيميائية أصيلة، توافق مصادر لم تكن محددة حتى الآن. إضافة إلى ذلك، تم العثور على العديد من مشاغل النحت ما قبل التاريخية موجودة مباشرة على تماس مع الأوبسيديان المصهور. وقد زوّد أحدها بوضوح بالأدوات الصنعية للقرية المجاورة لأسيكلي، لكن موقعاً آخر يظهر (كالتبه Kaletepe) تقنيات تقصيب، مع نوى سفينية الشكل، مشابهة تماماً لنوى مواقع نهاية الألف التاسع على الفرات الأوسط السوري. وقد أُثبتت هذه المقاربة تماماً من خلال التحليلات نفسها. ونأمل بالتوصل إلى تدقيقات أخرى حول الشبكات التي كانت تموِّن الشرق الأدنى بهذه المادة «الثمينة»، والذي يمكننا أن نفسر عندها انتشارها الواسع فقط من خلال مكانة رمزية خاصة.

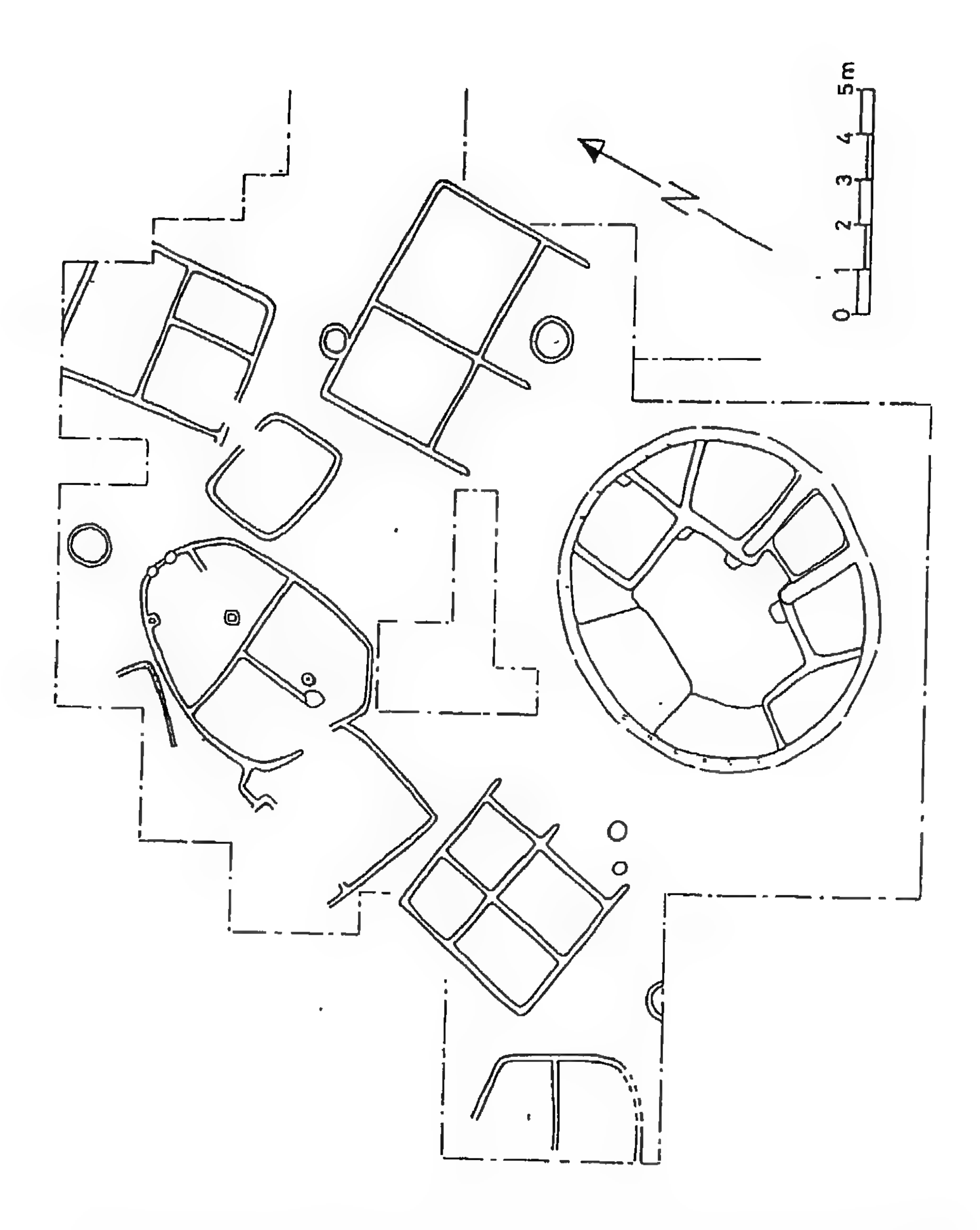
خلاصة

تلكم هي إذن المكمّلات الرئيسية التي حملتها الأبحاث منذ عام 1996 حول هذا العصر الحاسم ألا وهو النيوليتي ما قبل الفخاري في الشرق الأدنى. وقد رأينا أن الأمر يتعلق بخاصة بإغناء مرحلي لم يغير برأينا المضمون النظري للكتاب؛ لكنه يصحح بعض النتائج

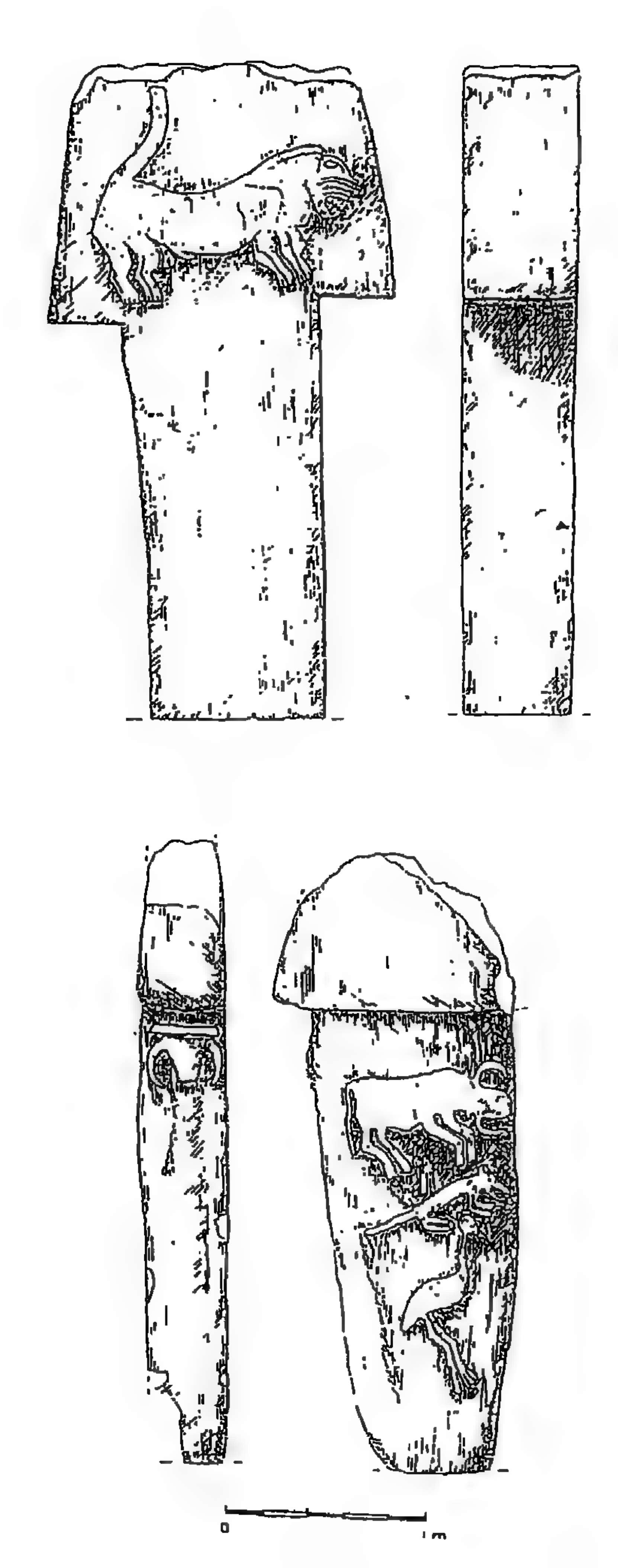
الزمنية. كما هو الحال بالنسبة للنولتة في قبرص، ويعدل أو على العكس يوسع بعض نتائجنا الأخرى. إن دور المرحلة PPNA في الألف التاسع في المشرق الشمالي، في «فجر الحضارة dawn of the civilisation»، يبدو في كل حال أكثر فأكثر جوهرية. إن الكثير من المعايير التي كان غوردون شايلد يصفُ بها الثورة النيوليتية المدينية في الألف الرابع، على سبيل المثال الأعمال الجماعية الكبرى وبلا شك أيضاً وجود «سلطة» اجتماعية، يجب تحديد طبيعتها الدقيقة من جهة أخرى، يمكن أن تمد جذورها إلى عصر الزراعة الأولى، هذا إذا أخذنا بوثائق جرف الأحمر. وتظهر من جهة أخرى «الكتابات التصويرية الأولى» على الصفائح الحجرية أنها تمثل مقدماً فيها منذ ذلك الحين هذا الإختراع «المديني» الآخر الذي يفترض أن يظهر خلال فترة لاحقة أكثر تأخراً في عصر أوروك.

يثبت PPNB المشرق والأناضول الشرقية بعد ذلك هذا الإزدهار الأول الخلاق بتوسيعه جغرافياً، إنما بـ«بجعله صلباً» بعض الشيء في شكل موحَّد كبير اجتماعي اقتصادي وعقائدي، على الرغم من استمرار بعض الإختلافات المحلية. إن معيارية بيوت حالولا تتعارض مع كثرة أنماط العمارة في جرف الأحمر. وقد ترسخت السلطة الإجتماعية الدينية بمزيد من القوة في الأبنية الكبيرة التي لا ينفك جنوب شرق الأناضول يكشف عنها. ولا شك أن تحديد الطبيعة الدقيقة لهذه السلطة وللمحتوى العقائدي الذي يضمها، المختلفة جداً بشكل واضح عن التطبيقات الإدارية والإقتصادية حصراً التي تعنيها اليوم لفظة «سلطة»، سيكون أحد أكثر الأعمل إثارة للمستقبل.

وليكن من الواضح في النهاية أننا لا نبحث منهجياً عن «أسباب دينية» لكافة الظاهرات البشرية. فكلمة «دين» تشير هنا ببساطة إلى فكر وإلى معرفة للعالم من طبيعة أسطورية ومصورة بشكل أساسي: فلم يسبق أن وجد غير هذا المعنى قبل ظهور «المنطق اليوناني»!... والحال أن الثورة النيوليتية تحمل لنا حقاً البرهان على أن الإنسان لم يستطع قلب نمط استثماره للوسط الطبيعي، من مساكنه وحتى تغذيته، دون أن يبدي من خلال ذلك بالذات تصوراً مختلفاً للعالم ولنوعه. وحتى وإن كانت التغييرات العقلية يمكن أن تبدو لعالم الآثار ملحوظة بشكل مبكر أكثر في مجال العقائد منه في مجال التقنيات المادية، لكن ذلك لا يفرض بالضرورة أسبقية زمنية لظاهرة بالنسبة للأخرى. ويبدو ذلك ببساطة الوجه المزدوج، الداخلي والخارجي، لثورة عامة. وقد بدا لنا من الهام فقط أن نؤكد هنا على جانبه الداخلي المهمل غالباً، وذلك برد فعل على اقتصاد مجتاح تصبح تأثيراته اليوم أكثر فأكثر مأساوية في كافة المجالات.



الشكل 69. عمارة مريبطية من السوية (غـرب 2) من جـرف الأحمـر. كـان البيت الكبـير الدائـري ذو التقسيمات الداخلية مدفوناً كلياً. ويبدو أنه كان يشكل في آن واحد مكان تخزين جماعي وقطباً مركزياً للتنظيم الإجتماعي، وربما الديني، بالنسبة للبيوت الأخرى المبنية كلها على السطح من حولها. عن ستوردور، قيد الطباعة.



الشكل **70**. *أعمدة حجرية مزينة من غوبليك تبه. عن شميدت.*

الهوامش

1. نرتكز بشكل خاص على أعمال المؤتمر الهام الذي عقد في لافال Laval في الكيبيك Québec (Fotrin et Aurenche 1998)، وعلى *Proceedings of the Second Workshop on the PPN chipped lithic industries,* at Warsaw (Kozlowski and Gebel 1996) وأخيراً بالنسبة للأناضول على المرجع المرجع الجماعي المقدم لهالت شامبل Halet Cambel (Aksebuk et al. 1998).

2. 1997، 23/ 2.

3. Sanlaville 1997.

4. Watkins 1997.

5. راجع الفصل 17.

6. انظر Gorring Morris et Belfer-Cohen 1998؛ ص. 80.

7. Bar Yosef et Gopher 1997.

8. بشكل خاص: ستوردور 1998 وتحت الطباعة ـ 2.

9. Willcox et Roitel 1998.

10. Schmidt قيد الطباعة.

11. Caneva وآخرون. 1996.

12. Watkins 1997. ص. 267.

13. المرجع السابق وكوفان. 1998. ص. 208.

14. Ozdogan 1997. ص. 34.

15. Van Zeist et Roller 1994.

16. de Moulins 1993.

17. انظر كوفان 1998، ص. 221.

18. Cauvin 1978.

19. نتفق تماماً مع أوزدوغان (1997) عندما يشير إلى عناصر من أصل شمالي (بشكل خاص التقصيب بالضغط والقطع التي على شكل *طلقات البندقية*) الموجودة في نيوليتي تشايونو. وهي تشكل بالنسبة لنا جزءاً من «الأساس الأهلي» الذي تزاوجت معه في النيوليتي التأثيرات القادمة من الفرات الأوسط.

20. Scmidt، المرجع السابق ذكره.

21. Van Zeist et Roller 1995.

22. Coqueugniot 1998.

23. Helmer et al. 1998, p. 29.

24. Molist 1998.

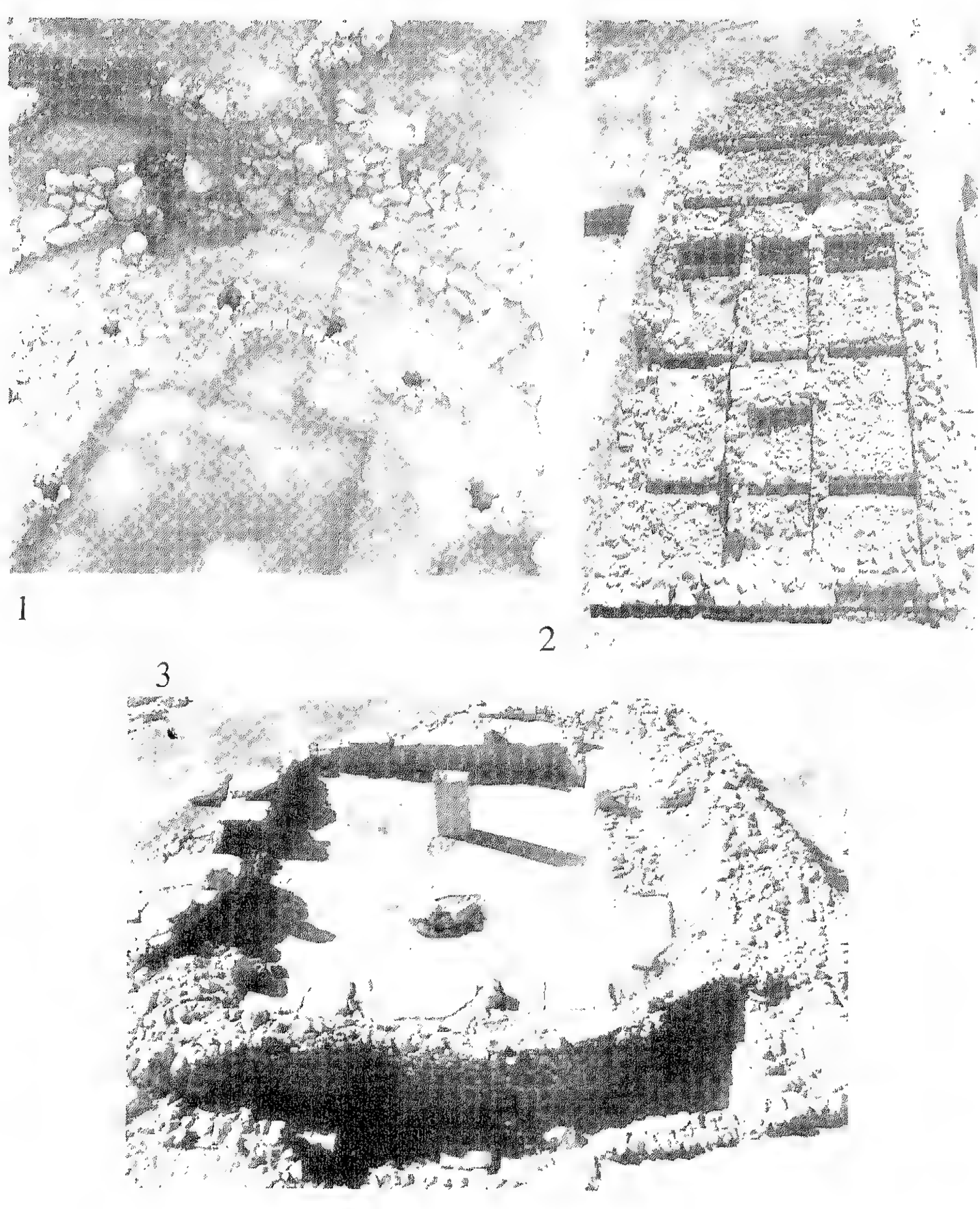
25. Helmer et al، المرجع السابق ص. 28–29.

26. إن غياب التدجين في كفر هويوك، أعلى الفرات في قلب طوروس، يمنعنا من البحث على هذا الإرتفاع الكبير عن منطقة التربية الأولى للماعز هذه.

27. Schmidt، قيد الطباعة.

28. انظر Ozbasaran M. 1997, Asikli'dan sonra Musular, *Prehystoria* (Istanbul), p. 2.

29. Cauvin M.–C. et al. 1998.



اللوحة I

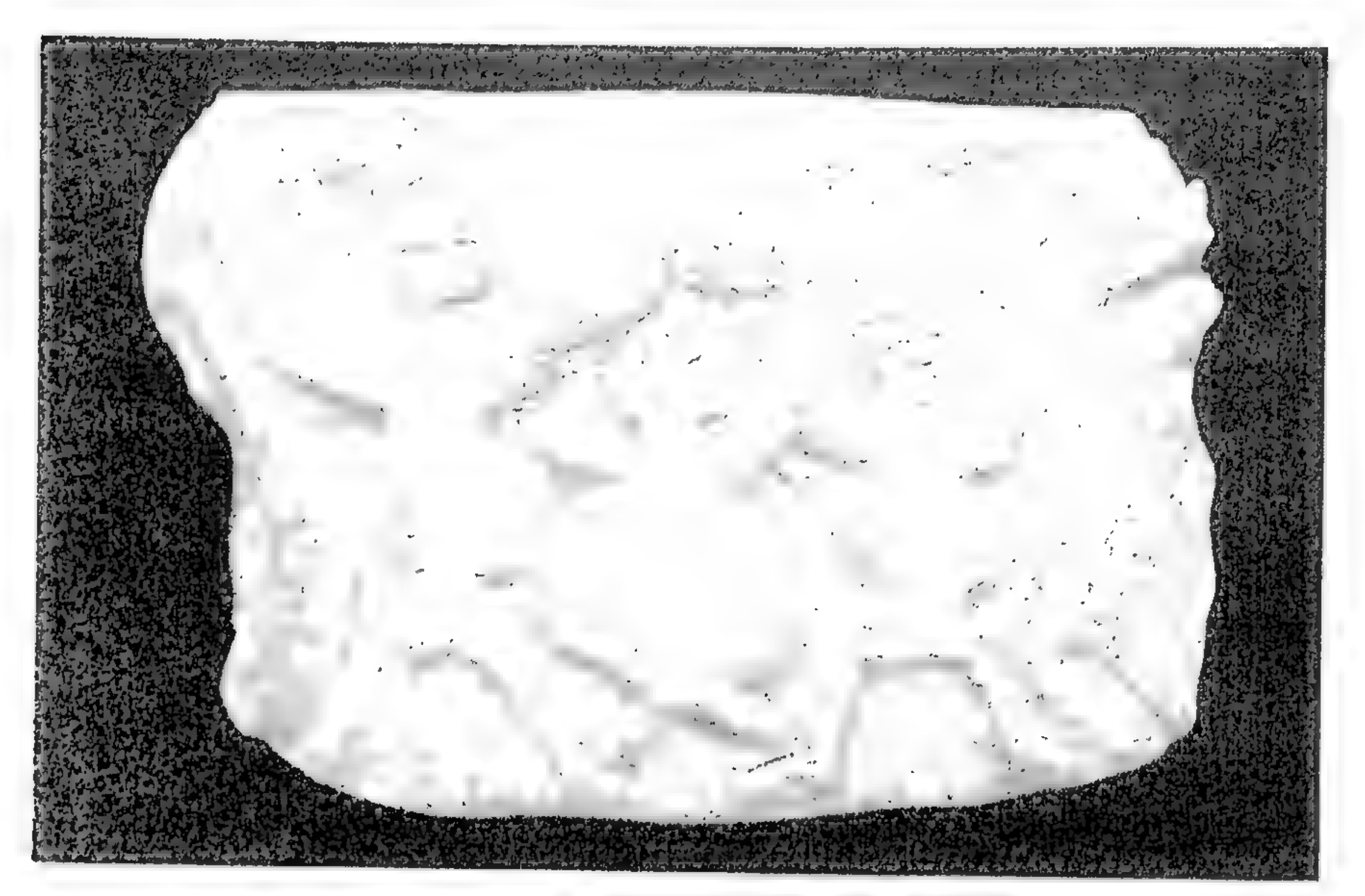
I. بيت دائري نطوفي في ملاحة، فلسطين. عن مركز البحث الفرنسي في القدس.

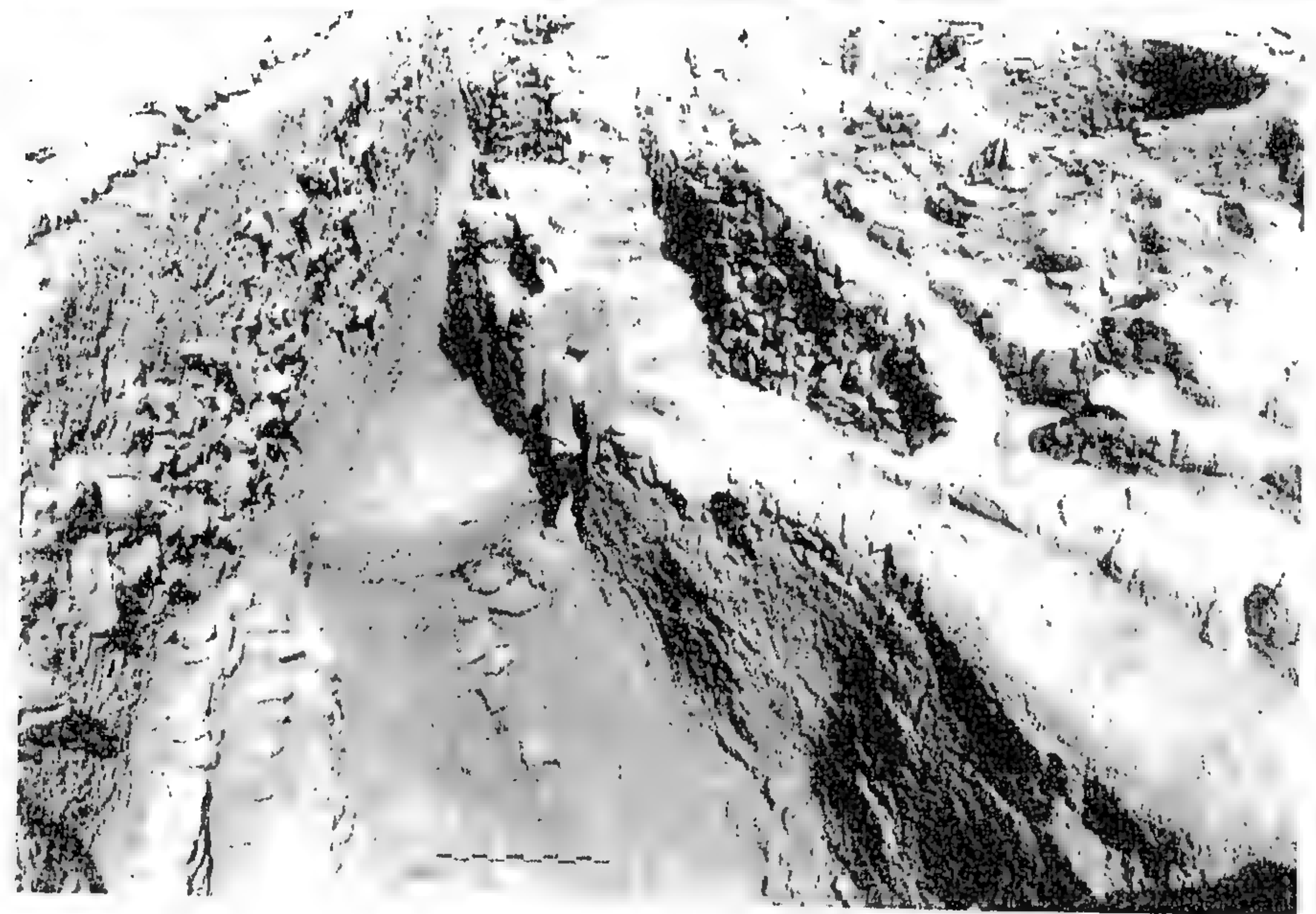
2 و 3. بيت ومعبد من PPNB نفالي تشوري في تركيا. الصورة السلبية لشيفر M. Schaeffer مع السماح المشكور من H. Hauptmann.



اللوحة II

4 و 5. آنيتان من الحجر المصقول من PPNB كفر هويوك. تركيـا. متحـف ملاطيـة. الصـورة لبـيرو .B Bireaud، البعثة الآثارية الفرنسية في كفر هويوك.





اللوحة III

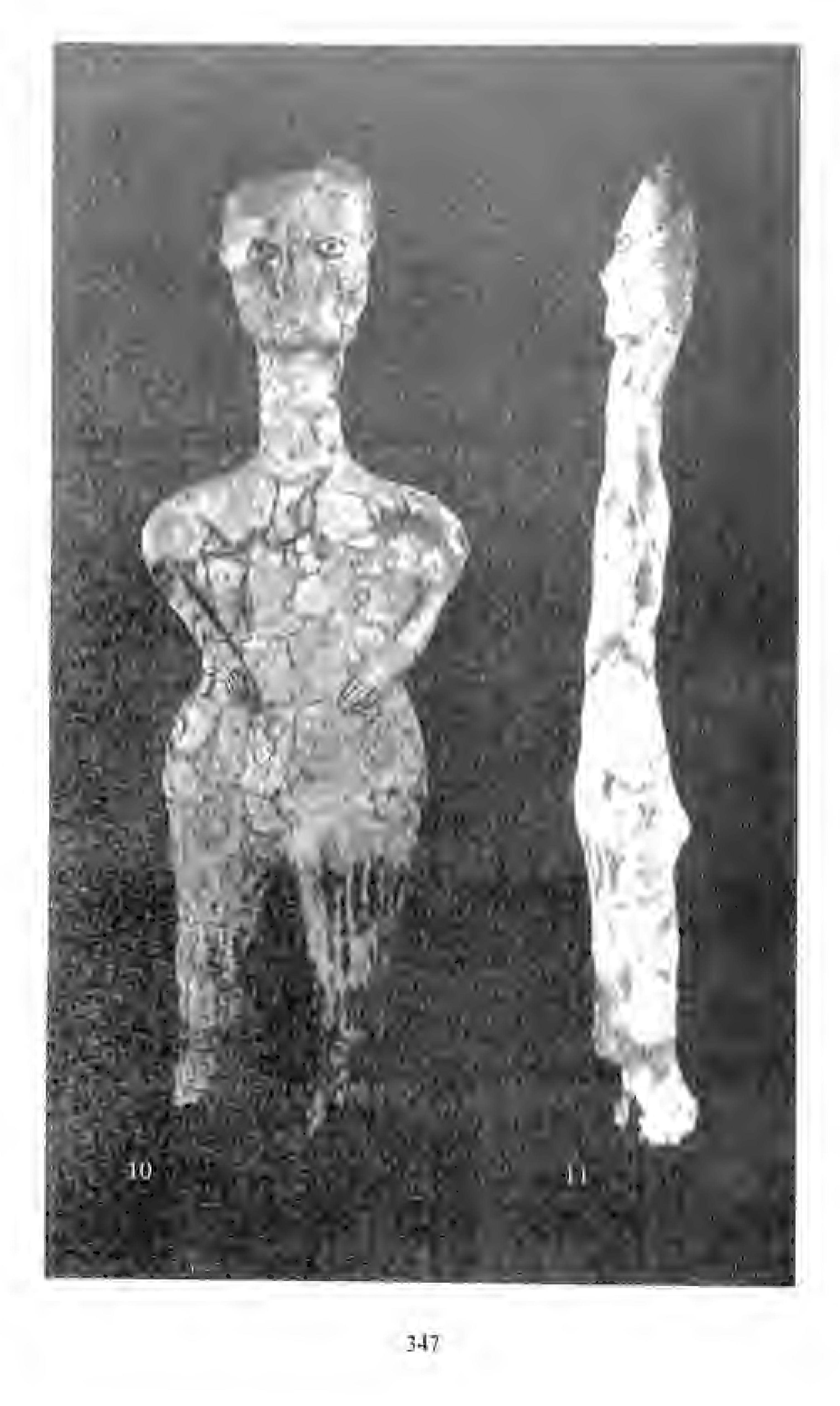
6. نقش بارز من الجص لثلاث شخصيات، PPNB نفالي تشوري، تركيا. متحف سانلي أورفة. صورة شيفر مع السماح المشكور لهوتمان.

7. حي في خيروكيتيا، في قبرص: في المركز درج الدخول بشكل متعرج يجتاز السور. صورة البعثة الآثارية في خيروكيتيا.



اللوحتان IV و V

8 إلى 11. تماثيل من الجص من PPNB عين غزال في الأدرن. متحف عمـان. صـور دوريـل P. Dorrell وليدلاو S. Laidlaw، مع السماح المشكور لرولفسون.

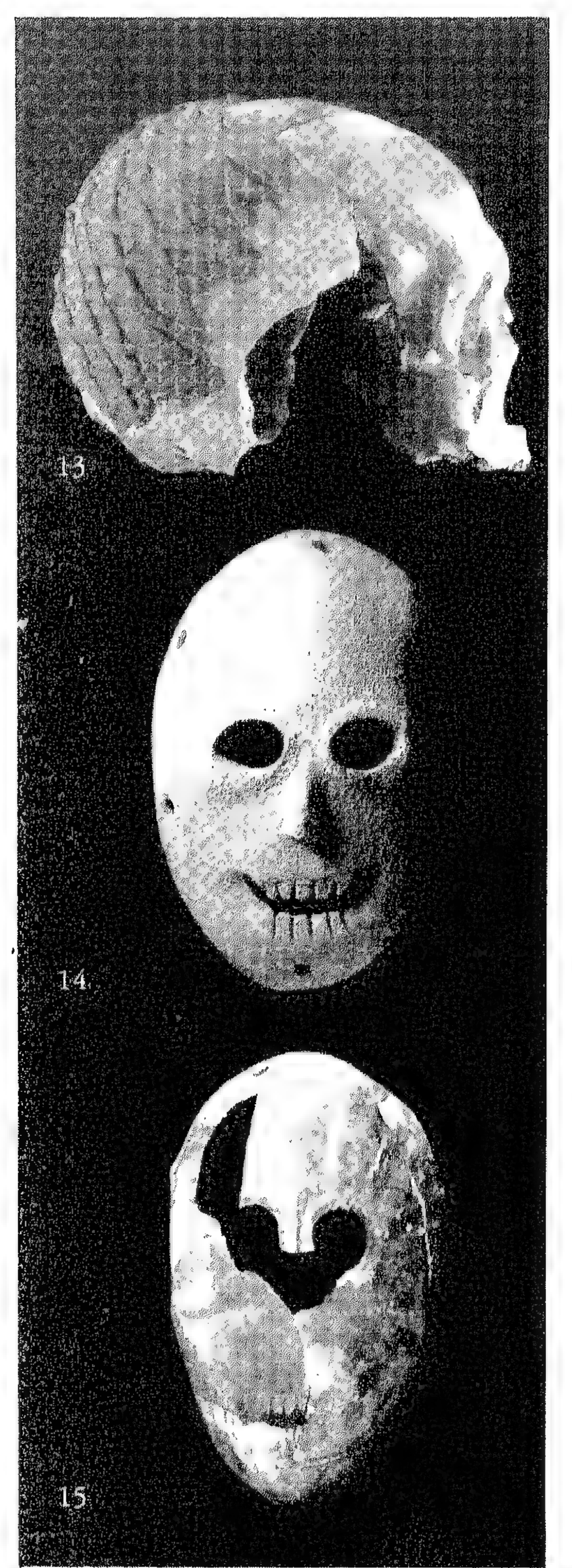


10
11



اللوحة VI

12. جمجمة ذات وجه مقولب من الجص من PPNB أريحا. متحف القلعة. عمان. المدرسة البريطانية للآثار في القدس. صورة دوريل.



اللوحة VII

13. جمجمة مطلية بالقار من PPNB وادي حمار. فلسطين. متحف القدس. صورة سلاباك N. Slapak. مع السماح المشكور لبار يوسف. الحقوق محفوظة.

14. قناع من الحجر من حبرون. متحف القدس. الصورة والسماح من بيرو.

15. قناع ملون من الحجر من PPNB وادي حمار. فلسطين. متحف القدس. صورة سلاباك. مع السماح المشكور لبار يوسف. الحقوق محفوظة.





اللوحة VIII

16. قنفذ وأرنب بري من الحجر المصقول من PPNB الأخـير في بقـرص في سـوريا. متحـف ديـر الـزور. صورتا واتربولك T. Waterbolk وفان لون M. Van Loon مع السماح المشكور لفان لون.

المراجع

AKKERMANS J. A. K. *et al.*, 1983. « Bouqras revisited : Preliminary Report on a Project in Eastern Syria », *Proceedings of the Prehistoric Society*, n° 49, pp. 335-372.

AKKERMANS P. M. M. G. (éd.), 1979. *Excavations at Tell Sabi Abyad*, Oxford, BAR International Series 468.

AKKERMANS P. M. M. G., 1990. *Villages in the Steppe. Later Neolithic Settlement and Subsistence in the Balikh Valley, Northern Syria*, University van Amsterdam.

ALLEGRE C., 1987. *Les Fureurs de la Terre*, Paris, Odile Jacob, coll. « Points ».

AMMERMANN A. J., CAVALLI-SFORZA L. L., 1984. *The neolithic transition and the genetics of populations in Europe*, New Jersey, Princeton University Press.

ANDERSON-GERFAUD P., 1983. « A consideration of the uses of certain backed and lustred stone tools from late Mesolithic and Natufian levels of Abu Hureyra and Mureybet (Syria) », *in* CAUVIN M.-C. (éd.), *Traces d'utilisation sur les outils néolithiques du Proche-Orient*, Lyon, Maison de l'Orient, coll. « Travaux de la Maison de l'Orient », n° 5, pp. 77-106.

ANDERSON P., 1991. « Harvesting of Wild Cereals during the Natufian as seen from Experimental Cultivation and Harvest of Wild Einkorn Wheat and Microwear Analysis of Stone Tools » *in* BAR YOSEF O., VALLA F. R. (éd.), *The Natufian Culture in the Levant*, Ann Arbor, International Monographs in Prehistory, Archeological Series 1, pp. 521-556.

ANDERSON P. (éd.), 1992. *Préhistoire de l'agriculture : nouvelles approches expérimentales et ethnographiques*, Paris, Éditions du CNRS, Monographies du CRA, n° 6.

ANDERSON P., DERAPRAHAMIAN G., WILLCOX G., 1991. « Les premières cultures de céréales sauvages et domestiques au Proche-Orient néolithique : résultats préliminaires d'expériences à Jalès (Ardèche) », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 5-6, pp. 191-232.

ANDERSON P. C. et VALLA F., à paraître. « Use and hafting patterns of glossed tools at Hayonim Terrace. Are they sickles ? », *in* KOZLOWSKI S. et GEBEL H. G. (éd.), *Neolithic chipped stone Industries of the Fertile Crescent and their Contemporaries in Adjacent Regions*, Studies in Near

Eastern Production, Subsistence and Environnement (1996), Berlin, Ex Oriente.

Antoniewicz W., 1968. « Le motif de l'orant dans l'art rupestre de l'Afrique du Nord et du Sahara central », *in* Sonneville-Bordes D. de (éd.), *La Préhistoire : problèmes et tendances*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 1-10.

Atlan H., 1986. *À tort et à raison. Intercritique de la science et du mythe*, Paris, Éditions du Seuil.

Aurenche O., 1977. *Dictionnaire illustré multilingue de l'architecture du Proche-Orient ancien*, Lyon, Maison de l'Orient, coll. « Travaux de la Maison de l'Orient », n° 3, série archéologique n° 2.

Aurenche O., 1980. « Un exemple de l'architecture domestique au VIII^e^ millénaire : la maison XLVII de Mureybet », *in* Margueron J. (éd.), *Le Moyen Euphrate, zone de contacts et d'échanges*, Actes du colloque de Strasbourg, mars 1977, Leiden, E. J. Brill, pp. 35-54.

Aurenche O., 1981. *La Maison orientale*, 3 vol., Paris, Geuthner.

Aurenche O., 1982*a*. « La tradition architecturale dans les hautes vallées du Tigre et de l'Euphrate aux VIII^e^-VII^e^ millénaires », *in Archéologie du Levant* (recueil Roger Saidah), Lyon, Maison de l'Orient, coll. « Travaux de la Maison de l'Orient », n° 12, série archéologique n° 9, pp. 69-78.

Aurenche O., 1982*b*. « À l'origine du temple et du palais dans les civilisations de la Mésopotamie ancienne », *Ktema*, n° 7, Université des Sciences Humaines de Strasbourg, pp. 237-259.

Aurenche O. (éd.), 1984. *Nomades et sédentaires. Perspectives ethnoarchéologiques*, mémoires du centre Jean Palerne, n°40. Paris, Éditions recherche sur les civilisations.

Aurenche O., Calley S., 1988. « L'architecture de l'Anatolie du Sud-Est au Néolithique acéramique », *Anatolica*, n° 15, pp. 1-24.

Aurenche O., Cauvin J., Cauvin M.-C., Copeland L., Hours F., Sanlaville P., 1981. « Chronologie et organisation de l'espace dans le Proche-Orient de 12 000 à 5 600 avant J.-C., *in* Cauvin J., Sanlaville P. (éd.), *Préhistoire du Levant*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 571-601.

Aurenche O., Cauvin J. (éd.), 1989. *Néolithisations*, Oxford, BAR International Series, 516.

Aurenche O., Cauvin M.-C., 1982. « Qdeir 1, campagne 1980. Une installation néolithique du VI^e^ millénaire », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 3, pp 51-77.

Aurenche O., Cauvin M.-C., Sanlaville P. (éd.), 1990. *Préhistoire du Levant : processus des changements culturels*, colloque international, CNRS Lyon, juin 1988, Paris, Éditions du CNRS-Paléorient.

Aurenche O., Evin J., Hours F. (éd.), 1987. *Chronologies du Proche-Orient*, Oxford, BAR International Series 379 CNRS, Symposium International, Lyon, novembre 1986.

BADER N. O., 1989. *Earliest cultivators in Northern Mesopotamia*, Nauca, Moscou (en russe, résumé en anglais).

BALFET H., LAFUMA H., LONGUET P., TERRIER P., 1969. « Une invention néolithique sans lendemain. Vaisselles précéramiques et sols enduits de quelques sites du Proche-Orient », *Bulletin de la Société préhistorique française* (CRSM), n° 66/6, pp. 188-192.

BALKAN N., 1990. « L'industrie lithique de Boytepe (Turquie) », *in* AURENCHE O., CAUVIN M.-C., SANLAVILLE P. (éds), *Préhistoire du Levant : Processus des changements culturels*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 409-412.

BALKAN-ATLI N., 1991. « The chipped stone industry of Asikli Höyük : a general presentation », *Anatolica*, n° 17, pp. 145-174.

BALKAN-ATLI N., 1994. *La Néolithisation de l'Anatolie*, Istambul, Institut français d'études anatoliennes.

BARNETT R.D., 1986/1987. « Six Fingers in Art and Archaeology », *Bulletin of the Anglo-Israel Archaeological Society*, n° 6, pp. 5-12.

BARTHÉLÉMY DE SAIZIEU B., 1989. *Les Sépultures néolithiques de Mehrgahr. Réflexion sur les cultes funéraires anciens*, thèse, université de Paris X-Nanterre (multigr.).

BARTHÉLÉMY DE SAIZIEU B., 1991. « Stabilité et évolution des pratiques funéraires néolithiques à Mehrgahr (Période 1 : *ca* 7 000-5 800 B.C.) », *Paléorient*, n° 17/2, pp. 21-50.

BARTHÉLÉMY DE SAIZIEU B., sous presse. « Éléments de géométrie préhistorique à partir des parures funéraires du Néolithique ancien de Mehrgahr (Indus) », *L'Anthropologie*.

BAR YOSEF O., 1981. « Neolithic sites in Sinaï », *Beiträge zur Umweltgeschichte der Vorderen Orient*, Beihefte zum Tübinger. *Atlas des Vorderen Orients*, Reihe A n° 8, Wiesbaden, pp. 217-235.

BAR YOSEF O., 1985. *A cave in the Desert : Nahal Hemar*, Jérusalem, The Israel Museum.

BAR YOSEF O., 1986. « The walls of Jericho . an alternative interpretation », *Current Anthropology*, n° 27/2, pp. 157-162.

BAR YOSEF O., 1990. « The PPNA in the Levant », *in* AURENCHE O., CAUVIN M.-C., SANLAVILLE P. (éds), *Préhistoire du Levant : processus des changements culturels*, Paris, Éditions du CNRS-Paléorient, pp. 297-308.

BAR YOSEF O. et KRA R. S. (éd.), 1994. *Late Quaternary Chronology and Paleoclimates of the Eastern Mediterranean*, The University of Arizona, Tucson, Radiocarbon.

BAR YOSEF O., VALLA F.R. (éd.), 1991. *The Natufian Culture in the Levant*, Ann Arbor, International Monographs in Prehistory, Archaeological Series 1.

BELFER-COHEN A., 1990. « The Natufian graveyard in Hayonim Cave », *in*

AURENCHE O., CAUVIN M.-C., SANLAVILLE P. (éd.). *Préhistoire du Levant : processus des changements culturels*. Éditions du CNRS-Paléorient, pp. 297-308.

BESANÇON J., SANLAVILLE P., 1991. « Une oasis dans la steppe syrienne : la cuvette d'El Kowm au Quaternaire », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 5-6, pp. 11-32.

BETTS A., 1984. « Black Desert Survey, Jordan : second preliminary report », *Levant*, n° XVI, pp. 25-36.

BIENERT H.-D., 1990. « The Er-Ram Stone Mask at the Palestine Exploration Fund, London », *Oxford Journal of Archaeology*, n° 9/3, pp. 257-261.

BINFORD L.R., 1972. *An Archaeological perspective*. New York-Londres, Seminar Press.

BINFORD S., BINFORD L.R., 1968. *New perspectives in Archaeology*, Chicago, Aldine Publishing Company.

BORDAZ J., 1970. « The Suberde excavations, Southwestern Turkey. An interim report », *Türk Arkeoloji Dergisi*, n° 17, pp. 43-70.

BOUCHUD J. (éd.), 1987. *La Faune du gisement natoufien de Mallaha (Eynan) Israël*, Paris, Association Paléorient, Mémoires et Travaux du CRFJ, n° 4.

BOUNNI A., AL-AS'AD Kh., 1987. *Palmyre. Histoire, monuments et musée*, (2e éd.), Damas.

BRAIDWOOD R. J., BRAIDWOOD L. S., 1960. *Excavations in the plain of Antioch. I, The earlier assemblages phases A-J*, Chicago, The University of Chicago Press, coll. « Oriental Institute Publications, vol. 56.

BRAIDWOOD L. S., BRAIDWOOD R. J. (éd.), 1982. *Prehistoric village archaeology in South Eastern Turkey*, Oxford, BAR International Series 138.

BROMAN MORALES V., 1990. *Figurines and other clay objects from Sarab and Cayönü*, Chicago, The University of Chicago Press, coll. « Oriental Institute Communication », n° 25.

BUITENHUIS H., 1985. « Preliminary report on the faunal remains of Hayaz Hüyük from the 1979-1983 seasons », *Anatolica*, n° 12, pp. 61-74.

BYRD B. F., 1989. « The Natufian : settlement variability and economic adaptations in the Levant at the end of the Pleistocene », *Journal of World Prehistory*, n° 3/2, pp. 159-197.

BYRD B. F., BANNING E. B., 1988. « Southern Levant Pier-Houses : Intersite Architectural Patterning during the Pre-Pottery Neolithic B », *Paléorient*, n° 14/1, pp. 65-72.

CALLEY S., 1985. « Les nucléus en obsidienne du Néolithique de Cafer Höyük (Turquie). Etude préliminaire sur les techniques de taille », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 4, pp. 87-108.

CALLEY S., 1986*a*. *Technologie du débitage à Mureybet, Syrie IXe-VIIIe millénaires*, Oxford, BAR International Series 312 *(i)*.

CAILEY S., 1986*b*. « L'atelier de Qdeir I en Syrie : exploitation des nucléus naviformes à la fin du PPNB, VIe millénaire », *Paléorient*, n° 12/2, pp. 49-67.

ÇAMBEL H., BRAIDWOOD R. J., 1980. *Prehistoric Research in Southeastern Anatolia*, Istanbul, University of Istanbul, Faculty of Letters Press.

CAMPBELL S., BAIRD D., 1991. « Excavations at Ginnig. The aceramic to Early ceramic Neolithic Sequence in North Iraq », *Paléorient* n° 16/2, pp. 66-78.

CAPART A., CAPART D., 1986. *L'Homme et les Déluges*, Bruxelles, Hayez.

CAQUOT A., SZYCER M., HERDNER A., 1974. *Textes ougaritiques. I - Mythes et légendes*, Paris, Éditions du Cerf.

CASSIRER E., 1972. *La Philosophie des formes symboliques. 2 - La pensée mythique*, Paris, Les Éditions de Minuit.

CAUVIN J., 1968. *Les Outillages néolithiques de Byblos et du littoral libanais*, *in* « Fouilles de Byblos », t. IV, Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, Jean Maisonneuve.

CAUVIN J., 1972*a*. *Religions néolithiques de Syro-Palestine*, Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, Jean Maisonneuve.

CAUVIN J., 1972*b*. « Sondage à Tell Assouad (Djezireh, Syrie) », *Annales archéologiques arabes syriennes*, n° 22, pp. 85-89.

CAUVIN J., 1974. « Les débuts de la céramique sur le Moyen Euphrate », *Paléorient*, n° 2/1, pp. 199-205.

CAUVIN J., 1977. « Les fouilles de Mureybet (1971-1974) et leur signification pour les origines de la sédentarisation au Proche-Orient », *Annuals of the American School of Oriental Research*, n° 44, pp. 19-48.

CAUVIN J., 1978. *Les Premiers Villages de Syrie-Palestine du IXe au VIIe millénaire avant Jésus-Christ*, Lyon, Maison de l'Orient, coll. « Travaux de La Maison de l'Orient », n° 4, série archéologique, 3.

CAUVIN J., 1980. « Mureybet et Cheikh Hassan » *in* MARGUERON J. (éd.), *Le Moyen Euphrate, zone de contacts et d'échanges*, Strasbourg, Université des Sciences Humaines, pp. 21-34.

CAUVIN J., 1981. « Le problème de l'eau au Proche-Orient. De l'homme prédateur aux premières sociétés hydrauliques », *in* MÉTRAL J., SANLAVILLE P. (éd.), *L'Homme et l'Eau en Méditerranée et au Proche-Orient*, Lyon, Maison de l'Orient, coll. « Travaux de la Maison de l'Orient », n° 2, t. I, pp. 20-30.

CAUVIN J., 1983. « Typologie et fonctions des outils préhistoriques : apports de la tracéologie à un vieux débat », *in* CAUVIN M.-C. (éd.), *Traces d'utilisation sur les outils néolithiques du Proche-Orient*, Lyon, Maison de l'Orient, coll. « Travaux de la Maison de l'Orient », n° 5, pp. 259-274.

CAUVIN J., 1985. « La question du "matriarcat préhistorique" et le rôle de la femme dans la Préhistoire », *in* VÉRILHAC A.-M. (éd.), *La Femme dans le Monde méditerranéen. I - Antiquité*, Lyon, Maison de l'Orient, coll. « Travaux de la Maison de l'Orient », n° 10, pp. 7-18.

CAUVIN J., 1986. « Mémoire d'Orient : la sortie du Jardin d'Eden et la néolithisation du Levant », *Cahiers de l'Institut catholique de Lyon*, n° 17, pp. 25-40.

CAUVIN J., 1987. « L'apparition des premières divinités », *La Recherche*, n° 194, pp. 1472-1480.

CAUVIN J., 1988. « La Néolithisation de la Turquie du Sud-Est dans son contexte proche-oriental », *Anatolica*, n° XV, pp. 70-80.

CAUVIN J., 1989. « La Néolithisation du Levant et sa première diffusion », *in* AURENCHE O., CAUVIN J. (éd.), *Néolithisations*, Oxford, BAR International Series 516, pp. 3-36.

CAUVIN J. 1990. « Les origines préhistoriques du nomadisme pastoral dans les pays du Levant : le cas de l'oasis d'El Kowm (Syrie) », *in* FRANCFORT H.-P. (éd.), *Nomades et Sédentaires en Asie Centrale. Apports de l'archéologie et de l'ethnologie*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 69-80.

CAUVIN J., 1992*a*. « Problèmes et méthodes pour les débuts de l'agriculture : le point de vue de l'archéologue », *in* ANDERSON P. (éd.). *Préhistoire de l'agriculture. Nouvelles approches expérimentales et ethnographiques*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 265-268.

CAUVIN J., 1992*b*. « À propos de l'ouvrage de Renfrew *L'Énigme indo-européenne : le modèle oriental de la diffusion néolithique* ». *Topoï*, n° 2, pp. 91-106.

CAUVIN J., 1996. «Le Taureau, l'homme, la guerre», *Le Cheval de Troie*, Bordeaux, 14, pp.-15-24.

CAUVIN J., à paraître. « The symbolic foundations of the Neolithic Revolution in the Near East », *in* KUIJT I. (éd.), *Social Configuration in Near Eastern Neolithic*, Université de Berkeley.

CAUVIN J., AURENCHE O., 1982. « Le Néolithique de Cafer Höyük (Malatya, Turquie). Fouilles 1979-1980 », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 3, pp. 123-138.

CAUVIN J., CAUVIN M.-C., 1984. « Origines de l'agriculture au Levant : facteurs biologiques et socio-culturels », *in* YOUNG T. C. Jr., SMITH P. E. L., MORTENSEN P. (éd.), *The Hilly Flanks and beyond*, Chicago, The University of Chicago Press, pp. 43-55.

CAUVIN J., SANLAVILLE P. (éd.), 1981. *Préhistoire du Levant : chronologie et organisation de l'espace depuis les origines jusqu'au VIe millénaire*, Paris, Éditions du CNRS. Colloque international CNRS Lyon, juin 1980.

CAUVIN M.-C., 1972. «Note préliminaire sur l'outillage lithique de Tell Assouad (Djézireh)», *Annales archéologiques arabes syriennes*, pp. 90-103.

CAUVIN M.-C., 1979. « Tello et l'origine de la houe au Proche-Orient », *Paléorient*, n° 5, pp. 193-206.

CAUVIN M.-C. (éd.), 1983. *Traces d'utilisation sur les outils préhistoriques*

du Proche-Orient, Lyon, Maison de l'Orient, coll. « Travaux de la Maison de l'Orient », n° 5.

CAUVIN M.-C., 1988. « L'industrie lithique en Turquie orientale au VII^e millénaire », *Anatolica*, n° 15, pp. 25-36.

CAUVIN M.-C., 1991*a*. « Du Natoufien au Levant nord ? Jayroud et Mureybet (Syrie) », *in* BAR YOSEF O., VALLA F.R. (éd.), *The Natoufian Culture in the Levant*, Ann Arbor, International Monographs in Prehistory, Archaeological Series 1, pp. 295-314.

CAUVIN M.-C., 1991*b*. « L'obsidienne au Levant préhistorique : provenance et fonction », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 5-6, pp. 163-190.

CAUVIN M.-C., 1995. « L'industrie lithique de Tell Aswad en Damascène (Syrie) », *in* CONTENSON H. de (éd.), *Aswad et Ghoraïfé, sites néolithiques en Damascène (Syrie) aux VIII^e et VII^e millénaires avant notre ère.*

CAUVIN M.-C., 1996. « L'obsidienne dans le Proche-Orient préhistorique : état des recherches en 1996 », *Anatolica*, 22, pp. 3-31.

CAUVIN M.-C., COQUEUGNIOT É., 1989. *Techniques d'échantillonnage et analyse spatiale. Le campement épipaléolithique de Nadaouiyeh 2 (El Kowm, Syrie)*, Oxford, BAR International Series 522.

CAUVIN M.-C. et STORDEUR D., 1978. « L'outillage lithique et osseux de Mureybet, Syrie (fouilles Van Loon 1965) », *Cahiers de l'Euphrate*, 1.

CHATAIGNER C., 1995. « La Transcaucasie au Néolithique et au Chalcolithique », Oxford, *Tempus Reparatum*, BAR International Series, 624.

CHEVALLIER J. et GHEERBRANDT A., 1982. *Dictionnaire des symboles*, Paris, Laffont/Jupiter, coll. « Bouquins ».

CONTENSON H. DE, 1967. « Troisième campagne de fouilles à Tell Ramad, 1966. Rapport préliminaire », *Annales archéologiques arabes syriennes*, n° 117, pp. 17-24.

CONTENSON H. DE (éd.), 1992. *Préhistoire de Ras Shamra*, 2 vol., Paris, Éditions recherche sur les civilisations.

CONTENSON H. DE (éd.), 1995. *Aswad et Ghoraïfé, sites néolithiques en Damascène (Syrie) aux VIII^e et VII^e millénaires avant l'ère chrétienne*, Beyrouth, I.F.A.P.O.

CONTENSON H. DE, CAUVIN M.-C., VAN ZEIST W., BAKKER-HEERES J. A. H., LEROI-GOURHAN Ar., 1979. « Tell Aswad (Damascène) », *Paléorient*, n° 5, pp. 153-156.

CONTENSON H. DE, VAN LIERE W. J., 1966. « Premier sondage à Bouqras en 1965. Rapport préliminaire », *Annales archéologiques arabes syriennes*, n° 16/2, pp. 181-192.

COPELAND L., 1969. « Neolithic village sites in the south Beqaa, Lebanon », *Mélanges de l'université Saint-Joseph*, n° 45/5, pp. 83-114.

COPELAND L., 1979. « Observations on the Prehistory of the Balikh Valley, Syria, during the VIIth to IVth millenium B.C. », *Paléorient*, n° 5, pp. 251-275.

COPELAND L., 1991. « Natufian Sites in Lebanon », *in* BAR YOSEF O., VALLA F. R. (éd.), *The Natufian Culture in the Levant*, Ann Arbor, International Monographs in Prehistory, Archaeological Series 1, pp. 27-42.

COPELAND L., MOORE A., 1985. « Inventory and Description of sites », *in* SANLAVILLE P. (éd.), *Holocene Settlement in North Syria*, Oxford, BAR International Series 238, pp. 41-98.

COQUEUGNIOT É., 1983. « Analyse tracéologique d'une série de grattoirs et herminettes de Mureybet, Syrie (IXe-VIIe millénaires) », *in* CAUVIN M.-C. (éd.), *Traces d'utilisation sur les outils néolithiques du Proche-Orient*, Lyon, Maison de l'Orient, coll. « Travaux de la Maison de l'Orient », n° 3, pp. 139-172.

COQUEUGNIOT É., 1994. « L'industrie lithique de Dja'de el Mughara et le début du PPNB sur l'Euphrate syrien (sondages 1991 et 1972) », *in* GEBEL H. G. et KOZLOWSKI S. (éd.), *Neolithic chipped Stone Industries in the Fertile Crescent*, Berlin, Ex Oriente, pp. 313-330.

CRAWFORD O. G., 1957. *The Eye-Goddess, Londres*, Phenix House.

CROWFOOT-PAYNE J., 1984. « The Flint industries of Jericho », *in* KENYON K. M., HOLLAND T. A. (éd.), *The Pottery Phases of the Tell and other Finds*, vol. III, Londres, British School of Archaeology, appendix C, pp. 622-759.

DEMOULE J.-P., 1989. « La colonisation néolithique de la France tempérée », *in* AURENCHE O., CAUVIN J. (éd.), *Néolithisations*, Oxford, BAR International Series 516, pp. 255-296.

DENNELL R., 1983. *European economic Prehistory*, Londres, Academic Press.

DENNELL R., 1985. « The hunter/gatherer cultural frontier in prehistoric temperate Europe », *in* GREEN S., PELMAN S. (éd.), *The Archaeology of frontiers and boundaries*, New York, Academic, pp. 113-140.

DIKAIOS P., 1953. *Khirokitia*, Oxford, University Press.

DIGARD J.-P., 1981. *Techniques des nomades Baxtyâri d'Iran*, Paris, Éditions de la Maison des sciences de l'homme.

DIGARD J.-P., 1990. *L'homme et les animaux domestiques. Anthropologie d'une passion*, Paris, Fayard.

DORNEMANN R. H., 1986. *A Neolithic Village at Tell el Kowm in the Syrian Desert*, Chicago, The Oriental Institute of the University of Chicago, coll. « Studies in ancient oriental civilizations », n° 43.

DUCOS P., 1968. *L'Origine des animaux domestiques en Palestine*, Bordeaux, Delmas.

DUNAND M., 1973. *L'Architecture, les Tombes, le Matériel domestique des origines néolithiques à l'avènement urbain*, *in* : « Fouilles de Byblos », t. V, 2 vol., Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, Jean Maisonneuve.

DURAND G., 1984. *Les structures anthropologiques de l'imaginaire*, Paris, Bordas.

ECHEGARAY J. G., 1964. « Excavations in El Khiam », *Annual of the Department of Antiquities of Jordan*, vol. VIII/IX, pp. 93-94.

ELIADE M., 1984. *De l'âge de la Pierre aux mystères d'Eleusis, Histoire des croyances et des idées religieuses*, vol. I, Paris, Payot.

ESIN U., 1991. « Salvage excavations at the Pre-pottery site of Asikli Höyük in Central Anatolia », *Anatolica*, n° 17, pp. 124-174.

ESIN U., 1996. « Asikli, ten thousand years ago : a habitation model from central Anatolia », *in* : *Housing and Settlement in Anatolia, a historical perspective*, (en turc et en anglais), Istanbul, Tarih Vakfi, pp. 31-42.

EYGUN G., 1992. « Les figurines humaines et animales du site néolithique de Ganj Dareh (Iran) », *Paléorient*, n° 18/1, pp. 109-117.

FEREMBACH D., 1970. « Étude anthropologique des ossements humains néolithiques de Tell Ramad (Syrie) », *L'Anthropologie*, n° 74/3-4, pp. 247-254.

FEREMBACH D., LE CHEVALLIER M., 1973. « Découverte de crânes surmodelés dans une habitation du VII^e millénaire à Beisamoun, Israël », *Paléorient*, n° 1/2, pp. 223-230.

FIELD H., 1960. « North Arabian Desert archaeological survey », *Papers of the Peabody Museum*, n° 45/2, Harvard.

FLANNERY K.V., 1972. « The Origins of the village as a settlement type in Mesoamerica and the Near East : a comparative study », *in* UCKO P. J., TRINGHAM R., DIMBLEBY G. W. (éd.), *Man, Settlement and urbanism*, Londres, Duckworth, pp. 23-54.

FOREST J.-D., 1983. *Les Pratiques funéraires en Mésopotamie du V^e millénaire au début du III^e millénaire*, Paris, Éditions recherche sur les civilisations, mémoire n° 19.

FOREST J.-D., 1993. « Çatal Hüyük et son décor : pour le déchiffrement d'un code symbolique », *Anatolica Antiqua*, n° 2, pp. 1-42.

FRANCFORT H.-P. (éd.), 1990. *Nomades et sédentaires en Asie Centrale. Apports de l'archéologie et de l'ethnologie*, Paris, Éditions du CNRS.

FRENCH D. H., HILLMAN G. C., PAYNE S., PAYNE R. J., 1972. « Excavations at Can Hasan III, 1969-1970 », *in* HIGGS E. S. (éd.), *Papers in economic Prehistory*, Cambridge, The University Press, pp. 181-194.

GAMKRELIDZE T. V., IVANOV V. V., 1985. « The migrations of tribes speaking Indo-European dialects from their original homeland in the Near East to their historical habitations in Eurasia », *Journal of Indo-European Studies*, n° 13, pp. 49-91.

GARDIN J.-C., 1993. « Les embarras du naturel », *Archives européennes de sociologie*, n° 3/4, pp. 152-165.

GARFINKEL Y., 1987. « Yiftahel : A Neolithic Village from the VIIth millenium B.C. in Lower Galilee, Israel », *Journal of Field Archaeology* n° 14/2, pp. 199-212.

GARRARD A., BETTS A., BYRD B., HUNT C., 1987. « Prehistoric environment and settlement in Azraq Basin : an interim report on the 1985 excavation season », *Levant*, n° 17, n° 1-28.

GARROD D. A. E., BATE D. M. A., 1937. *The Stone Age of Mount Carmel*, vol. 1, Oxford, Clarendon Press.

GARSTANG J., 1953. *Prehistoric Mersin. Yümük tepe in Southern Turkey*, Oxford, Clarendon Press.

GARSTANG J., GARSTANG J. B. E., 1940. *The Story of Jericho*, Londres, Hodder & Stroughton.

GEBEL H. G., MUHESEN M. S., NISSEN H. J., QUADI N., STARCK J. M., 1988. « Preliminary report on the first season of excavations at the Late Aceramic Neolithic site of Basta », *in* GARRARD A. N., GEBEL H. G. (éd.), *The Prehistory of Jordan*, Oxford, BAR International Series 396 (i), pp. 101-134.

GORING-MORRIS N., 1991a. « A PPNB settlement at Kfar Hahoresh in Lower Galilee », *Journal of the Israël Prehistoric Society*, n° 24, pp. 77-101.

GORING-MORRIS A. N., 1991b. « The Harifian of the Southern Levant », *in* BAR YOSEF O. et VALLA F. (éd.), *The Natufian Culture in the Levant, Ann Arbor, International Monographs in Prehistory*, pp. 173-216.

GORING-MORRIS N., GOPHER A., 1983. « Nahal Issaron : A Neolithic Settlement in the Southern Neguev », *Israel Exploration Journal*, n° 33/3-4, pp. 149-162.

GORING-MORRIS A. N., GOREN Y., HOROWITZ L. K., HERSKOVITZ I., LIEBERMAN R., SAREL J., BAR YOSEF O., 1994. « The 1992 Season of Excavations at the Pre-Pottery Neolithic-B Settlement of Kfar Hahoresh », *Journal of the Israel Prehistoric Society*, 26, 74-121.

GRIAULE M., DIETERLEN G., 1991. *Le Renard pâle*, Paris, Institut d'ethnologie.

GUILAINE J., BRIOIS F., COULAROU J., CARRERE I., 1995. « L'établissement néolithique de Shillourokambos (Parekklisha, Chypre), premiers résultats », *R.D.A.C.* (Nicosie), pp. 11-31.

HANIHARA K., SAKAGUCHI Y. (éd.), 1978. *Paleolithic site of Douara Cave and Paleogeography of Palmyra Basin, Syria*, Tokyo, The University Museum.

HANSEN J., 1992. « Franchti Cave and the beginnings of agriculture *in* Greece and the Aegean » *in* ANDERSON P.C. (éd.), *Préhistoire de l'agriculture. Nouvelles approches expérimentales et ethnographiques*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 231-248.

HAUPTMANN H.,1988. « Nevali Çori : Architektur », *Anatolica*, n° 15, pp. 99-110.

HAUPTMANN H., 1993. « Ein Kult Gebaüde in Nevali Çori », *in* FRANGIPANE M., HAUPTMANN H., LIVERATTI M., MATTHIAE P., MELLINK P. (éd.), *Between the*

Rivers and over the Mountains, Rome, Universita di Roma « La Sapienza », pp. 37-69.

HELBAEK H., 1966. « Pre-Pottery Neolithic Farming at Beidha, a preliminary report », *Palestine Exploration Quaterly*, n° 98/1, pp. 61-66.

HELLY B., 1991. « Les premiers agriculteurs de Thessalie. Mythe des origines à la lumière de la philosophie », *in* CAUVIN M.-C. (éd.), *Rites et rythmes agraires*, Lyon, Maison de l'Orient, coll. « Travaux de la Maison de l'Orient », n° 20, pp. 135-147.

HELLY B., POLLINO A. (éd.), 1984. *Tremblements de terre, Histoire et Archéologie*, Valbonne, Éditions ADPCA. IV^e rencontres internationales d'archéologie et d'histoire d'Antibes.

HELMER D., 1989. « Le développement de la domestication au Proche-Orient de 9 500 à 7 500 B.P. : les nouvelles données d'El Kowm et de Ras Shamra », *Paléorient*, n° 15/1, pp. 111-121.

HELMER D., 1992. *La Domestication des animaux par les hommes préhistoriques*, Paris, Masson.

HENRY D. O. (éd.), 1995. *Prehistoric Cultural Ecology and Evolution. Insights from Southern Jordan*, New York et Londres, Plenum Press. HESSE B., 1984. « These are our goats : the origins of the herding in West Central Iran », *in* CLUTTON-BROCK J. et GRIGSON C. (éd.), *Animals and Archaeology 3 : early Herders and their Flocks*, Oxford, BAR International Series 202, pp. 243-264.

HIJARA I., 1978. « Three graves at Arpachiyah », *World Archaeology*, n° 10/1, pp. 125-128.

HILLMAN G. C., COLLEDGE S. M., HARRIS D. R., 1989. « Plant food economy during the Epipaleolithic period at Tell Abu Hureyra, Syria », *in* HARRIS D. R., HILLMAN G. C. (éd.), *Foraging and Farming : Evolution of Plant Exploitation I*, Londres, Unwin and Hyman, pp. 240-268.

HODDER I. (éd.), 1982. *Symbolic and structural archaeology*, Cambridge, University Press.

HODDER I. (éd.), 1989. *The Meanings of Things : material culture and symbolic expression*, Londres, Unwin and Hyman.

HODDER I., 1990. *The Domestication of Europe*, Londres, Basil Blackwell.

HOLE F., 1959. « A reanalysis of basal Tabbat al-Hammam, Syria », *Syria*, n° 336/3-4, pp. 149-183.

HOLE F., 1980. « The Prehistory of Herding : some suggestions from Ethnography », *in* : *L'Archéologie de l'Iraq au début de l'époque néolithique à 333 avant notre ère*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 119-130. Colloques internationaux du CNRS, n° 580.

HOLE F., 1987. « Chronologies in the Iranian Neolithic », *in* AURENCHE O., EVIN J., HOURS F. (éd.), *Chronologies du Proche-Orient*, Oxford, BAR International Series 379, pp. 353-379.

HOLLAND T. A., 1982. « Figures and miscellaneous objects », *in* KENYON K. M., HOLLAND D. T. A. (éd.), *Excavations at Jericho, vol. IV : The Pottery type and series and other finds*, Londres, British School of Archeology in Jerusalem, Appendix C, pp. 551-563.

HOPF M., 1983. « Jericho plants remains », *in* KENYON K. M., HOLLAND T. A. (éd.), *Excavations at Jericho*, vol. V, Londres, British School of Archaeology in Jerusalem, pp. 576-621.

HOURS F., 1969. « Saayideh et le Néolithique pré-poterie au Liban », *Mélanges de l'université Saint-Joseph (Beyrouth)*, n° 45, pp. 31-41.

HOURS F., AURENCHE O., CAUVIN J., CAUVIN M.-C., COPELAND L., SANTAVILLE P., 1996. *Atlas des sites du Proche-Orient (ASPRO)*, Lyon, Maison de l'Orient.

HOWE B., 1983. « Karim Shahir », *in* : BRAIDWOOD L. S., BRAIDWOOD R. J., HOWE B., REED Ch. A., WATSON P. J. (éd.), *Prehistoric Archaeology along the Zagros Flanks*, Chicago, The University of Chicago Press, coll. « Oriental Institute Publication », n° 105, pp. 23-154.

HUOT J.-L., 1990. « Des sanctuaires orientaux : à propos de quelques idées reçues », *in* : *Mélanges Pierre Levêque*, Annales littéraires de l'université de Besançon, n° 413, pp. 209-219.

INIZAN M.-L., 1990. « Le débitage par pression : des choix culturels », *in* : *Vingt-cinq ans de technologie*, colloque d'Antibes, Juan-les-Pins, A.P.D.C.A., pp. 367-378.

JARRIGE J.-F., LECHEVALLIER M., 1980. « Les fouilles de Mehrgahr, Pakistan : problèmes chronologiques », *Paléorient*, n° 6, pp. 253-258.

KENYON K. M., 1957. *Digging up Jericho*, Londres, Ernest Benn.

KENYON K. M., 1981. *Excavations at Jericho, The Architecture and Stratigraphy of the Tell*, vol. III, Londres, British School of Archaeology in Jerusalem.

KHAZANOV A. M., 1984. *Nomads and the outside world*, Cambridge, Cambridge University Press.

KIRKBRIDE D., 1966. « Five seasons at the Pre-Pottery Neolithic Village of Beidha in Jordan. A summary », *Palestine Exploration Quaterly*, n° 98/1, pp. 8-61.

KIRKBRIDE D., 1968. « Beidha 1967 : an interim report », *Palestine Exploration Quaterly*, n° 99, pp. 90-96.

KIRKBRIDE D., 1969. « Early Byblos and the Beqa'a », *Mélanges de l'université Saint-Joseph*, n° 45, pp. 45-60.

KIRKBRIDE D., 1973. « Umm Dabaghiyah 1972 : a second preliminary report », *Iraq*, n° 35, pp. 1-7.

KIRKBRIDE D., 1975. « Umm Dabaghiyah 1974 : a fourth preliminary report », *Iraq*, n° 37, pp. 3-10.

KISLEV M. E., 1992. « Agriculture in the Near East in the VIIth millenium b.c. », *in* ANDERSON P. (éd.), *Préhistoire de l'agriculture : nouvelles*

approches expérimentales et ethnographiques, Paris, Éditions du CNRS, pp. 87-93.

KOZLOWSKI S. K., 1990*a*. *Nemrik 9. Prepottery neolithic site in Iraq*, Varsovie, Wydawnictawa University Warsawskiego.

KOZLOWSKI S. K., 1990*b*. « Nemrik 9, a PPN site in Northern Iraq », *in* AURENCHE O., CAUVIN M.-C., SANLAVILLE P. (éd.), *Préhistoire du Levant : processus des changements culturels*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 347-353

KOZLOWSKI S. K., KEMPISTY A., 1990. « Architecture of the prepottery neolithic settlement in Nemrik, Iraq », *World Archaeology*, n° 21/3, pp. 348-362.

KÜHN T. S., 1990. *La tension existentielle. Tradition et changement dans les sciences*, Paris, Gallimard.

LAPLANTINE F., 1987. *Clefs pour l'anthropologie*, Paris, Seghers.

LATTIMORE O., 1967. *Inner Asian Frontiers of China*, Boston, Beacon Press.

LE BRUN A. (éd.), 1984. *Fouilles récentes à Khirokitia (Chypre) : 1977-1981*, 2 vol., Paris, Éditions recherche sur les civilisations.

LE BRUN A., 1985. « Lè niveau 12 de l'Acropole de Suse : mémoire d'argile, mémoire du temps », *Paléorient*, n° 11/2, pp. 31-38.

LE BRUN A., 1986. « Khirokitia : une civilisation originale ? », *Acts of the International Symposium Cyprus between the Orient and the Occident*, Nicosie, pp. 1-11.

LE BRUN A., 1987. « Le Néolithique précéramique de Chypre », *l'Anthropologie*, n° 91/1, pp. 283-316.

LE BRUN A. (éd.), 1989. *Fouilles récentes à Khirokitia (Chypre) : 1983-1986*, Paris, Éditions recherche sur les civilisations.

LE GOFF J., CAUVIN J., MARIN L., PETER J.-P., PERROT M., AUGUET R., DURAND G., CAZENAVE M., 1986. *Histoire et Imaginaire*, Paris, Poiesis, diffusion Payot.

LE MIERE M., 1979. « La céramique préhistorique de Tell Assouad, Djezireh, Syrie », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 2, pp. 4-76.

LE MIERE M., 1986. *Les Premières Céramiques du Moyen Euphrate*, thèse de troisième cycle, université Lumière-Lyon 2 (multigr.).

LE MIERE M., MARÉCHAL C., 1985. « L'expansion des arts du feu : chaux, plâtre et céramique », *Le Grand Atlas de l'Archéologie*, Paris, Encyclopœdia Universalis, pp. 170-171.

LECHEVALLIER M., 1978. *Abou Gosh et Beisamoun*, Paris, Association Paléorient, coll. « Mémoires et travaux du centre de recherche de Jérusalem », n° 2.

LECHEVALLIER M., RONEN A., 1994. *Le Gisement de Hatoula en Judée occidentale*, Israël, Paris, Association Paléorient.

LEES S. H., BATES D. G., 1974. « The origins of specialized nomadic pastoralism : a systemic model », *American Anthropology*, n° 39/2, pp. 187-193.

LEROI-GOURHAN A., 1965. *Préhistoire de l'Art occidental*, Paris, Mazenod.

LEROI-GOURHAN Arl., 1974. « Étude palynologique des derniers 11 000 ans en Syrie semi-désertique », *Paléorient*, n° 2/2, pp. 443-451.

LEVI-STRAUSS C., 1989. *Des symboles et leurs doubles*, Paris, Plon.

LICHARDUS J., LICHARDUS-ITTEN M., BAILLOUD G., CAUVIN J., 1985. *La Protohistoire de l'Europe. Le Néolithique et le Chalcolithique*, Paris, Presses universitaires de France, coll. « Nouvelle Clio ».

MC CLELLAN T. L., MOTTRAM M., PORTER A., à paraître. « The Tishreen Salvage excavations 1989 », *Annales archéologiques arabes syriennes.*

MC LAREN F. S., EVANS J., HILLMAN G. C., 1990. « Indentification of charred seeds from Epipaleolithic sites of South-West Asia », *in* PERNICKA E. H., WAGNER G. A. (éd.), *Archaeometry*, n° 90, pp. 797-806. Proceedings of the 26th International Symposium on Archaeometry, Heidelberg.

MALLOWAN M. E. L., 1946. « Excavations in the Balikh Valley, 1938 », *Iraq*, n° 8, pp. 111-159.

MARÉCHAL C., 1980. « Utilisation de la chaux et du plâtre au Proche-Orient du VIII^e^ au début du V^e^ millénaire avant J.-C. », université de Paris I, Panthéon-Sorbonne (multigr.).

MARÉCHAL C., 1982. « Vaisselles blanches du Proche-Orient : El Kowm (Syrie) et l'utilisation du plâtre au Néolithique », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 3, pp. 218-251.

MARÉCHAL C., 1985. « Les bracelets néolithiques en pierre de Cafer Höyük (Turquie) », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 4, pp. 109-115.

MARÉCHAL C., 1991. « Eléments de parure de la fin du Natoufien : Mallaha niveau I, Jayroud 1, Jayroud 3, Jayroud 9, Abu Hureyra et Mureybet I A », *in* BAR YOSEF O., VALLA F.R. (éd.), *The Natufian Culture in the Levant*, Ann Arbor, International Monographs in Prehistory, Archaeological Series 1, pp. 589-612.

MARÉCHAL C., 1995. « Les éléments de parure de Tell Aswad (Syrie) », *in* CONTENSON H. de (éd.), *Aswad et Ghoraïfé, sites néolithiques en Damascène (Syrie) aux VIII^e et VII^e millénaires avant notre ère*, Beyrouth, I.F.A.P.O.

MARGUERON J., 1991. *Les Mésopotamiens. Le temps et l'espace*, Paris, Armand Colin.

MASSON V. M., SARIANIDI V. J., 1972. *Central Asia. Turkmenia before the Achaemenids*, Londres, Thames and Hudson.

MELLAART J., 1967. *Çatal Hüyük. A neolithic town in Anatolia*, Londres, Mortimer Wheeler.

MELLAART J., 1970. *Excavations at Hacilar*, 2 vol., Edinbourg, University Press.

MERPERT N., MUNCHAEV R., BADER N., 1978. « Soviet investigations in the Sinjar Plain 1975 », *Sumer*, n° 34, pp. 27-51.

MOLIST M., 1989. « Problématique des structures de combustion fermées au Proche-Orient néolithique précéramique (10 000-6 000 b.c.) », *Mémoires du musée de préhistoire de l'Ile-de-France*, n° 2, Nemours, APRAIF, Actes du colloque de Nemours 1987, pp. 303-312.

MOLIST M. (éd.), 1996. Tell-Halula (Syria). *Un Yacimiento neolithico del Valle Medio del Euphrates. Campañas de 1991 y 1992*, Madrid, Instituto del Patrimonio Historico Espanol.

MOLIST M., CAUVIN J., 1991. « Les niveaux inférieurs de Cafer Höyük (Malatya, Turquie). Stratigraphie et architectures (fouilles 1984-86) », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 5-6, pp. 85-113.

MOLLESON T., COMERFORD G., MOORE A. M. T., 1992. « A Neolithic Painted Skull from Tell Abu Hureyra, Northern Syria », *Cambridge Archaeological Journal*, n° 2/2, pp. 231-236.

MOORE A. M. T., HILLMAN G. C., LEGGE A. J., 1975. « The excavations at Tell Abu Hureyra in Syria : a Preliminary Report », *Proceedings of Prehistoric Society*, n° 41, pp. 50-77.

MOORE A. M. T., HILLMAN G. C., 1992. « The Pleistocene to Holocene transition and human economy in Southwest Asia : the impact of the younger Dryas », *American Antiquity*, n° 57/3, pp. 482-494.

MORIN E., 1986. *La Méthode. 3 – La connaissance de la connaissance*, Paris, Éditions du Seuil.

MOULINS D. de, 1993. « Les restes de plantes carbonisées de Cafer Höyük », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 7, pp. 191-234.

MUZZOLINI A., 1991. « Masques et thériomorphes dans l'art rupestre du Sahara Central », *Archéo-Nil*, n° 1, pp. 17-42.

NEUVILLE R., 1951. *Le Paléolithique et le Mésolithique du désert de Judée*, Paris, Masson & Cie, Archives de l'Institut de paléontologie humaine, Mémoire n° 24.

NOY T., 1986. « Seated Clay Figurines from the Neolithic period, Israel », *in* BONANO A. (éd.), *Archaeology and Fertility Cult in the Ancient Mediterranean*, First Conference on Archeology of the Ancient Mediterranean, The University of Malta, septembre 1985, Amsterdam, B. R. Grüner, pp. 63-67.

NOY T., 1991. « Art and decoration of the Natufian of Nahal Oren », *in* BAR YOSEF O., VALLA F. (éd.), *The Natufian Culture in the Levant*, Ann Arbor, International Monographs in Prehistory, pp. 557-568

NOY T., LEGGE A. J., HIGGS E. S., 1973. « Recent Excavations at Nahal Oren, Israel », *Proceedings of Prehistoric Society*, n° 39, pp. 75-99.

NOY T., SCHULDEREIN J., TCHERNOV E., 1980. « Gilgal I, a Pre-Pottery Neolithic A site in the Lower Jordan Valley », *Israel Exploration Journal*, n° 30, pp. 63-82.

OATES D., OATES J., 1976. « Early irrigation in Mesopotamia », *in* SIEVEKING G., LONGWORTH I. H. et WILSON K. E. (éd.), *Problems in Economic and Social Archaeology*, Londres, Duckworth, pp. 109-135.

ÖZBECK M., 1976. « Etude anthropologique d'ossements humains néolithiques du VIIIe millénaire avant J.-C. provenant de Mureybet ». *Annales archéologiques arabes syriennes*, n° 26, pp. 161-180.

ÖZBECK M., 1988. « Culte des crânes humains à Çayönü », *Anatolica*, n° 15, pp. 127-138.

ÖZDÖGAN A., 1995. « Life at Çayönü during the Pre-Pottery Neolithic Period », *in : Readings in Prehistory, Mélanges à Halet Çambel*, Université d'Istanbul, pp. 75-86.

ÖZDOGAN M.. ÖZDÖGAN A., 1990. « Çayönü, a conspectus of recent works », *in* AURENCHE O., CAUVIN M.-C., SANLAVILLE P. (éd.), *Préhistoire du Levant : processus des changements culturels*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 68-77.

PARR P. J., 1983. « Nebi Mend 1982 », *Lettre d'information d'archéologie orientale* (Centre de recherches archéologiques, Valbonne), n° 6, p. 31.

PARROT A., 1952. *Bible et Archéologie*. Paris, Delachaux et Niestlé.

PERLÈS C., 1983. « Circulation de l'obsidienne en Méditerranée orientale. Peut-on appliquer les modèles ? », *in* LEROI-GOURHAN A. (éd.), *Circulations et Échanges*, séminaire sur les structures de l'habitat, Paris, Collège de France, pp. 128-139.

PERLÈS C., 1990. *Les Industries lithiques taillées de Franchti (Argolide, Grèce), t.II : les industries du Mésolithique et du Néolithique initial*, Bloomington, Indiana University Press.

PERROT J., 1966*a*. « Le gisement natoufien de Mallaha (Eynan), Israël », *L'Anthropologie*, n° 70/5-6, pp. 437-483.

PERROT J., 1966*b*. « La troisième campagne de fouilles à Munhata (1964) », *Syria*, n° 43/1-2, pp. 49-63.

PERROT J., 1968. « Préhistoire palestinienne », *Dictionnaire de la Bible*, supplément n° 43, pp. 286-446.

PERROT J., 1978. *Syrie-Palestine I*, Genève, Nagel (*Archaeologia mundi*).

PERROT J., LADIRAY D., SOLIVERES-MASSEI O., FEREMBACH D., 1988. *Les Hommes de Mallaha*, Paris, Association Paléorient, « Mémoires et travaux du CRFJ », n°7.

PICHON J., 1985a. « Les rapaces de Tell-Mureybet, Syrie. Fouilles J. Cauvin 1971-1976 », *Cahiers de l'Euphrate*, 4, pp. 229-259.

PICHON J., 1985b. « À propos d'une figuration aviaire à Mureybet (phase-IIIA), 8 000-7 700 avant J.-C. », *ibid.*, 4, pp. 261-264.

PICHON J., 1991. « Les oiseaux au Natoufien : avifaune et sédentarité », *in* BAR YOSEF O., VALLA F.R. (éd.), *The Natufian Culture in the Levant*, Ann Arbor, International Monographs in Prehistory, Archaeological Series 1, pp. 371-380.

RENFREW C., 1990. *L'Énigme européenne*, Paris, Flammarion (traduction française).

RENFREW C., 1991. « Before Babel : speculations on the origins of linguistic diversity », *Cambridge Archaeological Journal* n° 1/1, pp. 3-23.

ROGNON P., 1982. « Modifications des climats et des environnements en Afrique du Nord et au Moyen-Orient depuis 20 000 B.P. », *in* BINTLIFF J. L., VAN ZEIST W., *Paleoclimates, paleoenvironments and human communities in the Eastern mediterranean region in later Prehistory*, Oxford, BAR International Series 133 *(i)*, pp. 67-91.

ROLLEFSON G. O., 1983. « Ritual and Ceremony at Neolithic Ain Ghazal (Jordan) », *Paléorient*, n° 9/2, pp. 29-38.

ROLLEFSON G. O., 1989. « The aceramic neolithic of the Southern Levant : the view from Ain Ghazal », *Paléorient*, n° 15/1, pp. 135-140.

ROLLEFSON G. O., SIMMONS A. H., KAFAFI Z., 1992. « Neolithic Cultures at 'Ain Ghazal, Jordan », *Journal of Field Archaology*, n° 19, pp. 443-470.

RONEN A., 1995. « Core, Periphery and Ideology in Aceramic Cyprus », *Quartär*, 45/46, pp. 177-206.

ROODENBERG J.-J., 1979-1980. « Premiers résultats de recherches archéologiques à Hayaz Höyük », *Anatolica*, n° 7, pp. 3-19.

ROODENBERG J.-J., 1986. *Le Mobilier en pierre de Bouqras. Utilisation de la pierre dans le Néolithique du Moyen Euphrate*, Istanbul, Nederlands Historisch-Archaeologisch Instituut.

ROSENBERG M., DAVIS M. K., 1992. « Hallan Çemi Tepesi, an early aceramic neolithic site in Eastern Anatolia », *Anatolica*, n° 18, pp. 1-18.

ROSSIGNOL-STRICK M., 1995. « Sea-land correlations of pollen records in the Eastern Mediterranean for the glacial-interglacial transition : biostratigraphy versus radiometric time-scale », *Quaternary Science Reviews*, 14, pp. 893-915.

SAHLINS M., 1972. *Âge de pierre, âge d'abondance. L'économie des sociétés primitives*, Paris, Gallimard.

SANLAVILLE P., 1989. « Considérations sur l'évolution de la Basse Mésopotamie au cours des derniers millénaires », *Paléorient*, n° 15/2, pp. 5-27.

SANLAVILLE P., 1996. « Changements climatiques dans la région levantine à la fin du Pléistocène supérieur et au début de l'Holocène. Leurs relations avec l'évolution des sociétés humaines », *Paléorient*, n° 22/1.

SCHAEFFER C. F. A., 1948. *Stratigraphie comparée et chronologie de l'Asie occidentale (IIIe et IIe millénaires)*, Londres, Oxford University Press.

SCHIRMER W., 1990. « Some aspects of building at the "aceramic-neolithic" », *World Archaeology*, n° 21/3, pp. 363-387.

SCHMANDT-BESSERAT D., 1978. « Les plus anciens précurseurs de l'écriture », *Science*, n° 10, pp. 12-22.

SCHMIDT K., 1988. « Nevali çori : zum Typenspektrum der Silexindustrie und die übrigen Kleinfunde », pp. 161-201, *in* RODENBERG J. (éd.), *Aceramic Neolithic in South-East Turkey, Anatolica*, n° 15. Table ronde, Istanbul, juin 1986.

SCHMIDT K., 1995. « Investigations in the Upper Mesopotamian Early Neolithic : Göbekli Tepe and Gürcütepe », *Neolithics*, 2, pp. 9-10.

SCHROEDER B., 1991. « Natufian in the Central Beqaa Valley, Lebanon », *in* BAR YOSEF O., VALLA F. (éd.), *The Natufian Culture in the Levant*, Ann Arbor, International Monographs in Prehistory, pp. 43-80.

SERRES M., 1969. *Hermès I. La Communication*, Paris, Éditions de Minuit.

SERRES M., 1993. *Les Origines de la géométrie*, Paris, Flammarion.

SERVELLO F., 1976. « Nahal Divshon : a Pre-Pottery Neolithic Hunting Camp », *in* MARKS A. (éd.), *Prehistory and Paleoenvironment in the Central Neguev, Israel. I : The Advat Aquer Area*, Dallas, SMU Press, pp. 349-370.

SHERRATT A., SHERRATT S., 1988. « The archaeology of Indo-European : an alternative view », *Antiquity*, n° 62, pp. 584-595.

SILISTRELI U., 1989. « Kösh Höyük'te bulunan Kabartma insan ve hayvan figürleriyle bezeli vazolar », *Belleten*, n° C.53, pp. 361-374.

SIMMONS A., 1989. « Preliminary report on the 1988 test excavations at Akrotiri-Aetokremnos », *Report of the Department of Antiquities of Cyprus*, Nicosie.

SMITH Ph., 1975. « Ganj Dareh Tepe », *Iran*, n° 13, pp. 197-182.

SOLECKI R. S., 1977. « Predatory Bird Rituals at Zawi Chemi Shanidar », *Sumer*, n° 33, pp. 42-47.

SOLECKI R. S., 1981. *An early village site at Zawi Chemi Shanidar*, Malibu, Undena Publications.

SOLECKI R. L., SOLECKI R. S., 1970. « Grooved stones from Zawi Chemi Shanidar, a protoneolithic site in Northern Iraq », *American Anthropologist*, n° 72, pp. 831-841.

STANLEY-PRICE N. P., 1977. « Khirokitia and the initial settlement of Cyprus », *Levant*, n° 9, pp. 66-89.

STEKELIS M., YIZRAELY T., 1963. « Excavations at Nahal Oren. Preliminary Report », *Israel Exploration Journal*, n° 13/1, pp. 1-12.

STORDEUR D., 1983. « Quelques remarques pour attirer l'attention sur l'intérêt d'une recherche commune entre tracéologues du silex et technologues de l'os », *in* CAUVIN M.-C. (éd.), *Traces d'utilisation sur les outils de pierre néolithiques du Proche-Orient*, Lyon, Maison de l'Orient, pp. 231-239.

STORDEUR D., 1988. *Outils et armes en os du gisement natoufien de Mallaha (Eynan), Israël*, Paris, Association Paléorient, « Mémoires et travaux du centre de recherche français de Jérusalem », n° 6.

STORDEUR D., 1989*a*. « Vannerie et tissage au Proche-Orient néolithique : IXe-Ve millénaire », *in* FICHES J.-L., STORDEUR D. (éd.), *Tissage, corderie, vannerie. Approches archéologiques, ehtnologiques, technologiques*, Juan-les-Pins, APDCA, pp. 19-39, IXe rencontres internationales d'archéologie et d'histoire d'Antibes, octobre 1988.

STORDEUR D. 1989*b*. « EL Kowm 2-Caracol et le PPNB », *Paléorient*, n° 15/1, pp. 102-110.

STORDEUR D., 1994. « Outils et parures en os de Ganj Dareh (Iran, VIIe millénaire B.C.) », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 7, pp. 245-296.

STORDEUR D., à paraître. « Jerf el Ahmar et l'horizon PPNA en Haute Mésopotamie, Xe-IXe millénaire avant J.-C. », *in* : *Subartu IV*, Université de Louvain.

STORDEUR D., JAMMOUS B., 1995. « Pierre à rainure à décor animal trouvée dans l'horizon PPNA de Jerf el Ahmar, Syrie », *Paléorient*, 21-1, pp. 129-130.

STORDEUR D., MARÉCHAL C., MOLIST M., 1991. « Stratigraphie générale du tell néolithique d'El Kowm-Caracol (Syrie) », *Cahiers de l'Euphrate*, n° 5-6, pp. 33-45

STORDEUR D., HELMER D., JAMMOUS B., WILLCOX G., 1996. « Jerf-el Ahmar : a new Mureybetian site (PPNA period) on the Middle Euphrates », *Neo-lithics*, 2.

STORDEUR D., TAHA A., 1996. « Ressemblances et dissemblances entre les sites nomades et sédentaires de la steppe syrienne au VIe millénaire », *in : Annales archéologiques arabes syriennes*, The International Colloquium on Palmyra and the Silk Road, Palmyre, avril 1992, pp. 85-98.

STROUHAL E., 1973. « Five plastered skulls from Pre-Pottery Neolithic B, Jericho. Anthropological study », *Paléorient*, n° 1/2, pp. 231-247.

TAUTE W., 1981. « Masad Mazzal, ein Siedlungsplatz des präkeramischen Neolithikums südlich des Toten Meeres », *in* FREY W., SUERPMANN H. P. (éd.), *Beihefte zum Tübinger Atlas des Vorderen Orients*, Tübingen, Institut für Urgeschichte der Universität Tübingen, pp. 236-256.

TCHERNOV E., BAR YOSEF O., 1982. « Animal exploitation in the Pre-Pottery Neolithic B period at Wadi Tbeik, Southern Sinaï », *Paléorient*, n° 8/2, pp. 17-37.

TESTART A., 1982. *Les Chasseurs-Cueilleurs ou l'origine des inégalités*, Paris, Société d'ethnographie.

UCKO P. J., 1968. *Anthropomorphic figurines of predynastic Egypt and neolithic Crete with comparative material from the prehistoric Near East and mailand Greece*, Londres, Andrew Szmidla.

VALLA F. R., 1984. *Les Industries de silex de Mallaha (Eynan)*, Paris, Association Paléorient, « Mémoires et travaux du centre de recherche français de Jérusalem », n° 3.

VALLA F. R., 1987. « Les Natoufiens connaissaient-ils l'arc ? », *in* STORDEUR D. (éd.), *La Main et l'Outil : manches et emmanchements préhistoriques*, Lyon, Maison de l'Orient, « Travaux de la maison de l'Orient », n° 15, pp. 165-174.

VALLA F. R., 1988. « La fin de l'Épipaléolithique au Levant : les industries à microlithes géométriques », *L'Anthropologie* n° 92/3, pp. 901-925.

VALLA F. R., 1990. « Le Natoufien : une autre façon de comprendre le monde ? », *Mitekufat Haeven*, n° 23, pp. 171-175.

VAN LOON M., 1968. « The Oriental Institute Excavations at Mureybit, Syria : preliminary report on the 1965 campaign », *Journal of the Near Eastern Studies*, n° 27, pp. 265-290.

VAN ZEIST W., BAKKER-HEERES J. A. H., 1982 (1985). « Archaeobotanical studies in the Levant. 1, Neolithic sites in the Damascus Basin : Aswad, Ghoraïfé, Ramad », *Palaeohistoria*, n° 24, pp. 166-255.

VAN ZEIST W., BAKKER-HEERES J. A. H., 1984*a* (1986). « Archaeological studies in the Levant. 2, Neolithic and Halaf levels at Ras Shamra », *Palaeohistoria*, n° 26, pp. 151-170.

VAN ZEIST W., BAKKER-HEERES J. A. H., 1984*b* (1986). « Archaeobotanical studies in the Levant. 3. Late Paleolithic Mureybit », *Palaeohistoria*, n° 26, pp. 171-199.

VAN ZEIST W., BOTTEMA S., 1982. « Vegetational history of the Near Eastern Mediterranean and the Near East during the last 2 000 years », *in* BINCLIFF J. L., VAN ZEIST W. (éd.), *Palaeoclimates, Paleoenvironments and Mediterranean Region in Later Prehistory*, Oxford, BAR International Series 133, pp. 277-321.

VAN ZEIST W., DE ROLLER G., 1994. « The plant husbandry of aceramic Çayönü, SE Turkey », *Palaeohistoria*, 33/34, pp. 65-96.

VAN ZEIST W., WOLDRING H., 1980. « Holocene vegetation and climate of Northwestern Syria », *Palaeohistoria*, n° 22, pp. 112-125.

VERNANT J.-P., 1990. *Figures, Idoles et Masques*, Paris, Julliard.

VIALOU D., 1987. *L'Art des cavernes. Les Sanctuaires de la Préhistoire*, Paris, Éditions du Rocher.

VOIGT M., 1985. « Village on the Euphrates », *Expedition*, n° 27/1, pp. 10-24.

WAETCHER J. d'A., SETTON-WILLIAMS V. M., 1938. « The excavations at Wadi Dhobaï 1937-1938 and the Dhobaian industry », *Journal of the Palestine Oriental Society*, n° 18, pp. 172-186.

WALKER-TUBB K., 1985. « Preliminary report on the Aïn Ghazal statues », *Mitteilungen des deutschen Orient-Gesellschaft*, n° 117, pp. 117-134.

WATKINS T., 1990. « The origins of house and home », *World Archaeology*, n° 21/3, pp. 336-347.

WATKINS T., 1992. « The beginning of the Neolithic : searching for meaning in material culture change », *Paléorient*, n° 18/1, pp. 63-75.

WATKINS T., BAIRD D., BETTS A., 1990. « Qermez Dere and the early aceramic Neolithic of Northern Iraq », *in* AURENCHE O., CAUVIN M.-C., SANLAVILLE P. (éd.), *Préhistoire du Levant : processus des changements culturels*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 341-346.

WILLCOX G., 1991. « La culture inventée, la domestication inconsciente : le début de l'agriculture au Proche-Orient », *in* Cauvin M.-C. (éd.), *Rites et Rythmes agraires*, Lyon, Maison de l'Orient, coll. « Travaux de la Maison de l'Orient », n° 20, pp. 9-29.

WILLCOX G., 1992. « Archaeobotanical significance of growing Near Eastern progenitors of domestic plants at Jalès (France) », *in* ANDERSON P. (éd.), *Nouvelles approches expérimentales et ethnographiques*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 159-178.

WILLCOX G., 1996. « Evidence for plant exploitation and vegetation history from three Early Neolithic pre-pottery sites on the Euphrates (Syria) », *Vegetation History and Archaeobotany*, 5, pp. 143-152.

ZOHARY D., 1992. « Domestication of the Neolithic Near Eastern crop assemblage », *in* ANDERSON P. (éd.), *Préhistoire de l'agriculture. Nouvelles approches expérimentales et ethnographiques*, Paris, Éditions du CNRS, pp. 81-86.

ZOHARY D., HOPF M., 1988. *Domestication of plants in the Old World*, Oxford, Oxford University Press.

ZVELEBIL M., ZVELEBIL K. V., 1988. « Agricultural transition and Indo-European dispersals », *Antiquity*, n° 62, pp. 574-583.

ملحق المراجع

1999

ABBES F 1994 Techniques de débitage et gestion du silex sur le Moyen Euphrate (Syrie) au PPNA final et au PPNB ancien. *In* GEBEL P G. & KOZLOWSKI (ed.) *Neolithic shipped Stones Industries of the Fertile Crescent Subsistence and Environment 1*. Berlin. ex Oriente. 299-312.

AKSEBUK G., MELLINK M.J. SCHIRMER W (eds). 1998 *Light on Top on the Black Hill*. Studies presented to Halet Çambel. Istanbul, Ege Yayinlari

BAR YOSEF O. and GOPHER A. (eds). 1997 An Early Neolithic Village in the Jordan Valley I. The Archaeology of Netiv Hagdud. *American School of Prehistoric Research Bulletin 43*. Cambridge Peabody Museum of Archaeology and Ethnology.

CAUVIN J 1998 La neolithisation de l'Anatolie. *In* AKSEBUK G., MELLINK M.J., SCHIRMER W (eds). *Light on Top of the Black Hill*. Studies presented to Halet Çambel, Istanbul. Ege Yayinlari. 207-214

CAUVIN M-C. GOURGAUD A., GRATUZE B. ARNAUD N. POUPEAU G., POIDEVIN J.-L., CHATAIGNER C (eds). 1998 *L'Obsidienne au Proche-orient. du volcan a l'outil*. Lyon-Oxford. B.A.R. International Series 738

COQUEUGNIOT E. 1998 Dja de el Mughara (Moyen Euphrate), un village néolithique dans son environnement naturel a la veille de la domestication *In* FORTIN M., AURENCHE O. (eds). *Espace naturel, espace habité en Syrie du Nord (10e-2e millénaires avant JC)*, 109-114

FORTIN M & AURENCHE O (eds) 1998 *Espace naturel, espace habité en Syrie du Nord (10e-2e millénaires avant JC.)*. Actes du Colloque tenue à l'Université Laval. Quebec. mai 1997 The Canadian Society for Mesopotamian Studies (Bulletin 33) & Lyon., Maison de l'Orient Méditerraneen (Travaux de la Maison de l'Orient 28)

GOPHER A and GOPHNA R. 1995 Ein Qadès I a Pre-Pottery Neolithic B occupation in Eastern Sinai *Atiqot* XXVII. 23-32.

GORING-MORRIS N & BELFER-COHEN A., 1998 The articulation of cultural processes and late Quaternary environnemental changes in Cisjordan *Paléorient* (numero spécial). 23/2. 71-43.

HELMER D., ROITEL V., SAÑA M., WILLCOX G. 1998 Interprétations environnementales des donnees archeologiques et archeobotaniques en Syrie du Nord de 16000 BP à 7000 BP et les débuts de la domestication des plantes et des animaux *In* FORTIN M. AURENCHE O (eds). *Espace naturel, espace habité en Syrie du Nord (10e-2e millenaires avant JC.)*.

KOZLOWSKI S K. & GEBEL H. G. (eds) 1996 *Neolithic Chipped Stone Industriesof the Fertile Crescent, and their Contemporaries in Adjacent Regions*. Proceedings of the Second Workshop on PPN Chipped Lithic Industrie at Warsaw April 1995. Berlin. ex Oriente (Studies in Early Near Eastern Production. Subsistence and Environment. 3)

MOLIST M 1998 Espace collectif et espace domestique dans le Néolithique des IXe et VIIIe millénaires BP au nord de la Syrie. apports du site de Tell Halula (Vallée de l'Euphrate) *In* FORTIN M., AURENCHE O (eds). *Espace naturel, espace habite en Syrie du Nord (10e-2e millenaires avant JC.)*, 115-130

ÖZBASARAN M. 1997 Asikli dans sonra Musaler. *Prehistorya*. 2.

OZDOGAN M 1998 Anatolia from the Last Glacial Maximum to the Holocene Climatic optimum. cultural formations and the impact of the environmental setting. *Paléorient* (numéro special) 23/2. 25-49

SANLAVILLE P. 1997 Les changements climatiques au Moyen Orient de 20000 à 8000 BP. *Paléorient* (numéro spécial) 23/2. 249-262.

SCHMANDT-BESSERAT D. 1996 Neolithic Symbolism at Aïn Ghazal. *American Journal of Archaeology* 100/3, 516-517.

SCHMIDT K. sous presse Gürcü tepe and Göbekli tepe 1995-1997. Symposium at Tarsus 1998. *Kazi Sonuçlari Toplantisi*. Ankara.

STORDEUR D. 1998 Espace naturel. espace construit à Jerf el Ahmar sur l'Euphrate. *In* FORTIN M., AURENCHE O. (eds), *Espace naturel, espace habité en Syrie du Nord (10e-2e millénaires avant JC.)*, 13-108.

STORDEUR D. (ed.). sous presse 1 *Une Île dans le désert : El Kowm 2 (Néolithique précéramique 8000-7500 BP)*, Paris. CNRS-Editions.

STORDEUR D. sous presse 2 Organisation de l'espace construit et organisation sociale dans le Néolithqieu de Jerf el Ahmar (Syrie. Xe-IXe millénaires av. CJ) *In: Habitat, source d'interprétation de l'Organisation et de la complexité sociale en archéolgie*, XIXe Rencontres Internationales d'Archéologie et d'Histoire d'Antibes. 22-24 Octobre 1998.

WATKINS T. 1998 The human environment. *Paléorient* (numéro spécial) 23/2. 263-270.

WILLCOX G. 1996 Evidence for plant exploitation and vegetation history from three Early Neolithic Prepottery sites on the Euphrates (Syria). *Vegetation History and Archaeobotany*. 5. pp. 143-152.




الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة
دمشق - ١٩٩٩